OSTOUR

أسطور

للدراسات التاريخية

علمية محكمة يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

العدد 2 - تموز / يوليو 2015

ISSN 2410-0870

"أسطور" اسمًا

يستوحي اسم المجلة المشتقّ من لغة العرب ومصطلحاتهم إيحاءات العلاقة بين الدلالة اللغوية العربية والقرآنية للجذر "س ط ر" وكلمات Istoria و Istor و Istorein ذات أصول يونانية منها انبثق مصطلح علم التاريخ في الغرب بصيغة History و Histoire. ولئن أثارت هذه الاستيحاءات عديد الأسئلة، فإنّ دلالة هذا الاسم تبقى قائمةً على أساس لغوي ودلالي وتأصيلي، و على أساس التمييز المفهومي - المصطلحي بين "أسطور" و"الأسطورة" و"الأسطرة" في الحقل التداولي العربي، أو دراسات النقد الثقافي والعلوم الاجتماعية.

ومن المثير أنّ مفردة "أسطورة" عمّرت في لغتنا العربية العاقّة، وفي الحقل الدلالي السردي بالمعنى المناقض للكتابة التاريخية العلمية التي أصبح هدفها تفكيك الأساطير، في حين أنّها حافظت على معنى كتابة التاريخ في اللغات الأجنبية.

لا يحلّ الاسم - أو العنوان الرمزي - المختار للمجلة الإشكال المعرفيّ الذي ظل يعانيه علم التاريخ عند العرب؛ فمسيرة التصحيح بدأت في عصر النهضة بشقّ طريق جديدة في التأليف التاريخي. ومنذ ذلك الحين، يكبر الإنتاج التاريخي العربي الحديث والمعاصر وينهض وينمو، فيضاهي بعضه الإنتاج الغربي المتميز. والعودة إلى الأصل العربي القديم للكلمات "سطر" و"الأسطرة" و"الأسطور"، إنّما هي لتأصيل فكرة الكتابة في الزمن التاريخي، ومنه الكتابة في الزمن التاريخي لدى العرب والمسلمين، لذا نعتمد اسم "أسطور" للمجلة بالمعنى اللغوي الذي يطلقه القرآن الكريم "والقلم وما يسطُرون"، وبالمعنى الاصطلاحي الحديث لتأسيس "تاريخ جديد عربي" يتواصل مع الإنجازات العربية الأولى فلا يقطع معها، بل يجدّدها ويطوّرها ويؤسّس إبداعات جديدةً.ونستنتج من خلال معاجم اللغة العربية وكتب التراث العربي أنّ المفردة واشتقاقاتها المختلفة تدور جميعها حول الكتابة والتأليف، وأنّ الأسطور هو الكتاب. بل إنّ ابن منظور يربط ما بين سطّر وسيطر بسبب ما تفعله الكتابة من فعل السيطرة، "والمُسَيْطِرُ والمُصَيْطِرُ: المُسَلَّطُ على الشيء لِيُشْرِف عليه ويَتَعَهَّدَ أَحوالَه ويكتبَ عَمَلَهُ، وأَصله من السَّطْر لأَنّ الكتاب مُسَطَّرٌ، والذي يفعله مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ." (لسان العرب، مادة سطر).

ولكن، هل من علاقة بين الأسطورة والأسطور؟ وهل من علاقة بين أسطور، كما وردت في لغة العرب القديمة، ومفردات Istoria و Istor و Istorein ذات الأصول اليونانية التي منها انبثق مصطلح علم التاريخ في الغرب بصيغة History و Histoire؟

يُجمع المؤرّخون الغربيون على أنّ مفردة Istor هي الجذر الإغريقي لكلمة histoire و History، وتعني "الشاهد" أو البصير والمبصر. وهذا المفهوم للبصر مصدرًا أساسيًا للمشاهدة أي للمعرفة، يقود بدوره إلى التعبير عنها بتحقيقات ومباحث، أي بكتابات على طريقة ما فعله هيرودوت في تاريخه Istories، أي تحقيقاته. فهل اقتبس الإغريق المفردة من إحدى قنوات التفاعل الثقافي واللغوي في دائرة العلاقات الحضارية المتوسطية الجامعة بين اليونان والشعوب السامية المشرقية؟

مهما كان الجواب أو يكون، فإنّ العودة إلى الأصل العربي القديم لجذر السطر والأسطرة والأسطور، إنّما هي لتأصيل فكرة الكتابة في الزمن التاريخي بوجه عامّ، والزمن التاريخي لدى العرب والمسلمين، بعد أن التبس معنى علم التاريخ واستشكل عند العرب زمنًا طويلًا، فعدّ علمًا "للخبر" المقطوع عن مسار التحوّلات، أو علمًا "للتوقيت" فحسب، أو علمًا مساعدًا لعلوم الشريعة، أو ديوان عبرٍ وخطابة وسياسة. ولعلّ ذلك سببه اعتماد كلمة التاريخ "علمًا" لأخبار الماضي واستذكارها وتوقيتها في سنوات. وهي كلمة دخلت في عهد الخليفة عمر للإشارة إلى التوقيت (أرخ)، ولم تلبث أن استخدمت بدءًا من القرن الثاني للهجرة للإشارة إلى "كتب الأخبار" بوصفها "كتب تاريخ".

Contents المحتويات

Research Papers 5 دراسـات

Khaled Tahtah 7 خالد طحطح
History of the Present Moment: Background and Problematics
تاريخ الزمن الراهن: السياق والإشكاليات

Noureddine Teniou 23 نور الدين ثنيو
Memory and Testimony in Writing the History of the Algerian Revolution 1954 - 1962
The Liberation Struggle in History of the Present Moment
الذاكرة والشهادة في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية (1962 - 1954)
الثورة التحريرية في التاريخ الراهن

Azeddine Guessous 39 عز الدين جسّوس
The Almohads Military Strategy in the Western Mediterranean
إستراتيجية الموحّدين العسكرية في غرب البحر المتوسط

Muhammed Al-Arnaout 60 محمد الأرناؤوط
The Battle of Kosovo 1389: From Myth Making to Ideology
معركة كوسوفو 1389م: من الأسطرة إلى الأدلجة

Hussam Abdelmoti 88 حسام عبد المعطي
"*Karimi*", Egypt during the Ottoman Era (1517 - 1630/923 - 1040 H):
New Documents Shed Light on the Spice Trade
الكارمية في مصر خلال العصر العثماني 923 - 1040هـ/1517 - 1630م
أضواء وثائقية جديدة على تجارة التوابل

Ahmed Abu Shouk 120 أحمد أبو شوك
The Military Strategy of the Mahdi in Sudan (1881 - 1885)
الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السُّودان (1885 - 1881)

Yehya Boulehya 139 يحيى بولحية
Political Conflict in Morocco Prior to the French Protectorate
الصراع السياسي في المغرب قبيل الحماية الفرنسية

Kacem El hadeg 159 قاسم الحادك
Diplomacy Aspects of the Rif Liberation Movement Leader *Muḥammad ibn ʿAbd al-Karīm al-Khaṭṭābī*
جوانب من الفعل الدبلوماسي لزعيم ثورة الريف التحررية محمد بن عبد الكريم الخطابي

Book Reviews and Critiques 175 مراجعات كتب

Ammar al-Samar
Historical Topography of Ancient and Medieval Syria by René Dussaud 176
عمار السمر
مراجعة كتاب "المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى"

Nizam Al-Abbasi
Towards a Constitutional State: The Project of the Young Turks Intellectuals in Hurriyet Newspaper (1868 - 1870) 187
نظام العباسي
عرض كتاب "نحو دولة دستورية- مشروع المثقفين العثمانيين الشباب في صحيفة حرية (1868 – 1870)"

Aziz al-Arabawi
The Revival of Japan in the Meiji Period from an Arab-Islamic Perspective: A Reading 191
عزيز العرباوي
عرض كتاب "نهضة اليابان في عهد الميجي من منظور عربي - إسلامي"

Mahmoud Muhareb
Ex-Libris: Chronicles of Theft, Preservation, and Appropriating at the Jewish National Library 197
محمود محارب
مراجعة كتاب تاريخ النهب والحفظ والتملك في المكتبة الوطنية الإسرائيلية في القدس

Primary Source 203 وثـائـق ونصـوص

Mustafa Alghadiri
Moroccan Northern Tribes' Awareness of Palestine's Tragedy 205
مصطفى الغديري
وعي قبائل المنطقة الخليفية في المغرب بمأساة فلسطين

Ostour Seminar 225 ندوة أسطور

The Arabs and World War I 227
العرب والحرب العالمية الأولى

Trajectories 255 مسارات

Arab Scholars and their Contributions to the Writing of History
A Conversation with Algerian Historian Nassereddine Saidouni 257
سير الباحثين العرب في مجال الكتابة التاريخية
حوار مع المؤرخ الجزائري ناصر الدين سعيدوني

دراســات

خالد طحطح | Khaled Tahtah*

تاريخ الزمن الراهن: السياق والإشكاليات

History of the Present Moment: Background and Problematics

نعيش اليوم زمن العودة إلى الحدث، والعودة إلى البيوغرافيا، والعودة إلى السرد؛ فهذه الأنماط الثلاثة أثبتت شرعيتها من جديد، ووجدت مكانتها في الكتابات التاريخية حاليًا، إذ في ظلّ التحوّلات الجديدة يجري التركيز على مواضيع اليومي المعيش، وعلى التجارب كما واجهها معايشو الحدث، وذلك من خلال توضيح دور الأفراد مع الأخذ في الحسبان السياقات والسلاسل ذات الصلة.

إنّ الرغبة في الفهم والمعرفة هي التي دفعت المؤرخين إلى اقتحام التاريخ القريب، على الرغم ممّا يطرحه من إشكالات وحساسيات مفرطة للدولة والجماعات والأفراد. ويأتي هذا الاهتمام أيضًا في سياق ردات الأفعال التي استجابت للنقاشات تجاه أزمة الشك والريبة التي عرفها معنى التاريخ في مرحلة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، فحاولت إعادة الحيوية والنشاط إلى حقل البحث التاريخي.

في هذا الإطار تأتي هذه الدراسة لتجيب عن عددٍ من الأسئلة: ما هي سياقات بروز تاريخ الزمن الراهن؟ وما هي مظاهر الانتعاشة الكبرى لهذا النوع من التاريخ؟ وما هي الرهانات التي يطرحها على المؤرخين؟

Institutes with an interest in contemporary history have mushroomed across the world, and particularly in Europe. The powerful rise of the media has contributed to giving a new gloss to the present, the witness, the historical actor, and to daily life. The writing of present history, however, raises difficulties for historians, difficulties that arise with the obtaining of documentation in circumstances where the time between an event and its documentation is short, the sensitivity of the issues that may be under judicial examination, and of course the issue of objectivity when interpreting events. This focus on contemporary events has risen among historians since the 1980s. The global political upheavals following the breakup of the Soviet Union, and the rise of international terrorism, have triggered a strong demand for studies analysing these trends. We are living today in a period of return to the event, biography, and narrative. These three forms have proved their legitimacy once again and found their place in the writing of contemporary history, and with it a focus on subjects of daily life, and on experiences as lived by those who have personally witnessed them. This study is an attempt to provide insight to the following questions: What are the contexts that highlight contemporary history? What are the phenomena of the major revival of this form of history? And what are the conditions they impose on historians?

* باحث في التاريخ والأنتروبولوجيا التاريخية، المغرب.

مقدمة

منذ ثمانينيات القرن العشرين، أصبح الاهتمام بالراهن بالنسبة إلى كثير من المؤرخين بمنزلة الضرورة؛ فالهزّة السياسية الكبرى التي عصفت بالعالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتفاقمُ الإرهاب الدولي تلاهما طلبٌ شديد على الدراسات التي تتناول هذه الموضوعات بالتحليل[1]، ولم يبق مجال التاريخ يقتصر على الماضي، كما في السابق، وإنّما توسّع ليشمل الحاضر أيضًا.

استقطب تاريخ الزمن الراهن[2] في مساره، عددًا كبيرًا من المؤرخين والمختصين بالعلوم السياسية، إضافةً إلى علماء اجتماع وأنثربولوجيين. وقد غدَا تيارًا استمرّ في التطوّر، وطالب روّاده بضرورة إنشاء جامعات ومراكز أبحاث خاصة؛ فنجحت المساعي تلك في الولايات المتحدة وعدد من البلدان الأوروبية. وامتد تأثير ذلك إلى عددٍ من البلدان العربية، ومنها المغرب وتونس، حيث بدأت الأبحاث تتناول بالدراسة حوادث الماضي القريب، رغبةً في الفهم ومواجهة المستقبل بطريقة أفضل.

إنّ الاهتمام بالفهم والمعرفة هو الذي دفع المؤرخين إلى اقتحام التاريخ القريب، زمنيًا، على الرغم ممّا يطرحه على الدولة والجماعات والأفراد من إشكالات وحساسيات مفرطة. ويأتي هذا الاهتمام أيضًا في سياق ردّات الأفعال التي استجابت للنقاشات تجاه أزمة الشكّ والريبة التي عرفها معنى التاريخ في مرحلة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، فحاولت إعادة الحيوية والنشاط إلى حقل البحث التاريخي.

نعيش اليوم زمن العودة إلى الحدث والبيوغرافيا والسرد، الأنماط الثلاثة التي أثبتت شرعيتها من جديد، ووجدت مكانتها في الكتابات التاريخية حاليًا، حيث التركيز - في ظلّ التحولات الجديدة - على موضوعات اليومي المعيش، وعلى التجارب كما واجهها معايشو الحدث؛ وذلك من خلال إعادة تركيب تجربة الفاعلين الاجتماعيين وتوضيح دور الأفراد وحقيقة الفعل، مع أخذ السياقات والسلاسل ذات الصلة في الحسبان. فما هي سياقات بروز تاريخ الزمن الراهن؟ وما هي مظاهر الانتعاشة الكبرى لهذا النوع من التاريخ؟ وما هي الرهانات التي يطرحها على المؤرخين؟

دور وسائل الإعلام في انبعاث الحدث الراهن

برزت وسائل الاتصال إلى الوجود مؤخرًا، لتدلّ على ظاهرة قديمة عرفتها المجتمعات منذ بداية التجمّع البشري؛ فالاتصال ليس حديث العهد، ولكن أدواته تطورت بصورة لم يسبق لها مثيل، منذ اختراع المطبعة التي كانت أداةً لتطوّر أهمّ وسيلة اتصال حديثة، وهي الصحافة. ومن ثَمَّ تبعتها الوسائل الأخرى، فجاءت السينما لتؤمّن الاتصال عبر الصورة، ثم بالصورة والصوت معًا، وتبعتها وسيلة الراديو التي تنقل الأخبار إلى كلّ بيت. أمّا التلفزيون الذي أخذ يعمّ منذ أواسط القرن العشرين، فقد أحدث ما يشبه

---

1 الهادي التيمومي، **المدارس التاريخية الحديثة** (صفاقس: دار محمد علي، 2013)، ص 231.

2 تعددت التسميات وتنوعت للإشارة إلى الجزء الأخير من التاريخ المعاصر؛ فقد شاع في البداية استخدام التاريخ الفوري والتاريخ الآني والتاريخ القريب العهد، والتاريخ القريب، غير أنّ تسميتين استأثرتا بالحظوة في الاستعمال وكانتا أكثر استعمالًا في الدراسات والأبحاث، وهما التاريخ الفوري وتاريخ الزمن الراهن الذي أصبح أكثر تداولًا. وللتمييز بين المصطلحين، يستعرض فتحي ليسير مكامن الاختلاف والتشابه بينهما، ويورد أهمّها: فهما يحيلان على كرونولوجيتين مختلفتين؛ فتاريخ الزمن الراهن يهتم بالأعوام الخمسين أو الستين الأخيرة، أمّا التاريخ الفوري فيشمل مدة زمنية تقلّ عن جيل واحد، إضافةً إلى فروق أخرى تتعلق بنظرتهما إلى مسألة فتح الأرشيفات ودور المحفوظات. غير أنّ هذه الفروق الدقيقة بينهما بدأت في الامّحاء مع التبدلات الجارفة التي تعصف بالعالم اليوم. انظر: فتحي ليسير، "مماحكات حول التسمية والتعريف"، في: **تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر** (صفاقس: دار محمد علي للنشر، 2012)، ص 36 - 46.

الثورة؛ إذ ينقل إلى المنازل الأخبار والمشاهد والاحتفالات، بالصوت والصورة. ثم تربّعت أخيرًا وسيلة الإنترنت على عرش وسائل الاتصالات، وأمّنت للإنسان كلّ ما يحتاج إليه من معلومات ووثائق وتسلية. وقد ساعدت التقنيات الحديثة، من الهاتف النقال إلى الأقراص المضغوطة بمختلف أنواعها والمواقع الإلكترونية وصفحات الويب ومحركات البحث، على تطوّر الاتصالات بسرعة فائقة. وتدخّلت وسائل الاتصال هذه في حقولٍ متعددة، مثل الإعلام والإعلان والتربية والتسلية. ولا تزال تتمدّد في اتجاه حقول إنسانية أخرى[3].

وسائل الاتصال هي، أولًا وقبل كلّ شيء وسيلة وأداة تقنية ووسيط. ولكنّها في الوقت نفسه مشروعات وأشكال تعبير. وهي تتقاسم، بنسبٍ متفاوتة، مهمات أو أنشطة مختلفة، وهي: الإعلام والدعاية والترفيه والتربية والإبداع. وغالبًا ما تتماهى مع واحد من هذه الأنشطة، وتتّخذ قيمتها في حقل استخدامها. وهكذا، فإنّ وسائل الاتصال تفاجئنا على الدوام بتأثيرها في الحياة العالمية، في السياسة وفي الثقافة أيضًا. ونخصّ منها بالذكر وسائل الإعلام المرئية ذات الدور المحوري في تشكيل الرأي العام. ويتضاعف هذا التأثير لدى الفئات غير المتعلمة، والتي تصبح خاضعة مطلقًا لسطوتها، خصوصًا إذا ما أخذنا في الحسبان طول المدة الزمنية التي يمضيها كلٌّ من أفراد هذه الفئات مع وسائل الإعلام (ما بين ستّ ساعات وتسع ساعات يوميًا)؛ فهذه المتابعة اليومية من جانب المجتمعات المعاصرة للحصول على أكبر قدرٍ من المعلومات، تحوّلت إلى نوعٍ من الإدمان؛ إذ أصبح الناس اليوم غير قادرين على الاستغناء عنها، وبالأخص عن جهاز التلفزيون الذي يُعدّ أكثر وسائل الاتصال الأخرى قدرةً على الفعل والتأثير؛ فليست هناك وسيلة طبعت القرن العشرين مثل التلفزيون الذي أصبح في عصره الثاني، بفضل تطوّر الأقمار الاصطناعية، نافذة الجميع للإطلال على حوادث العالم.

ساهمت التغيرات التي عرفها الإعلام المعاصر في التجسيد الجديد للحدث؛ فمن خلال إلقاء الضوء على العلاقات بين وسائل الإعلام والحوادث، نجد أنّها قوية إلى درجة غير قابلة للانفصال؛ ذلك أنّ التاريخ أصبح آنيًا بفضل دور وسائل الإعلام المتعددة التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من الواقع، فحوادث كثيرة ارتبطت في أذهان الناس بالصورة، مثل صورة نزول الإنسان على القمر. وهناك حوادث ارتبطت في السابق بجهاز الراديو الذي استطاع خلال أعوامٍ قليلة من ظهوره تغيير قواعد اللعبة في مجال الدعاية، فأحلّ المباشر محلّ المؤجّل، وعلى هذا الأساس فرض نفسه بقوة خلال الحرب العالمية الأولى، بوصفه أوّل وسيلة اتصال صوتية في متناول الجميع؛ ففي عام 1920، كان في إمكان 50.000 أميركي أن يتابعوا الحملة الرئاسية من خلال الراديو لأوّل مرة[4]. وبالنسبة إلى بلد كالكونغو، وإلى حدود الخمسينيات، كان كافيًا لرجل دولة فيها على مستوى القول عبر الأثير إنّه استولى على الحكم، لكي يصبح النظام في قبضته فعلًا[5].

دخل الراديو خلال الحرب العالمية الأولى التاريخ بوصفه وسيلة اتصال فعّالة. وتجلّت أهميته في كونه يرسل الرسائل في لحظة بثّها، من دون فارقٍ زمني. وتصل هذه الرسائل - عبر الموجات - في اللحظة نفسها إلى الجميع أينما كانوا. وظلّ الراديو فعّالًا خلال الحرب العالمية الثانية؛ فعبره بثّ الجنرال ديغول رسالته إلى الشعب الفرنسي سنة 1940 بخصوص خياره الاستمرار في المقاومة. ولم يتراجع دور الراديو إلّا مع ظهور التلفزيون في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين. وتُعدّ حرب فيتنام أوّل حرب تدور أمام آلات

3 فرنسيس بال، **الميديا**، فؤاد شاهين (مترجم)، سلسلة نصوص (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008)، ص 5.

4 المرجع نفسه، ص 32.

5 Pierre Nora, **"**Le retour de l'événement," dans: *Faire de l'histoire*, sous la direction de Jacques le Goff et Pierre Nora, Bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1974), T 1: *Nouveaux problèmes*, p. 214.

التصوير التلفزيونية في التاريخ. وكان تأثيرها في الرأي الأميركي والعالمي عميقًا؛ إذ أظهرت الصور التلفزيونية المرعبة مدى فظاعة الأعمال الوحشية الأميركية المرتكبة، من حرق رهبان، وقتل أطفال ونساء بقنابل النابالم الحارقة الممزوجة بمادة الفوسفور الأبيض، وإعدام مقاتلين من فيتنام الشمالية في ساحات عامة، وهدم البيوت والقرى وتخريبها بصورة كاملة. وظهرت صورٌ أكثر وحشية عن مذبحة ماي لاي[6]، وتسرّبت أيضًا صور جثث القتلى من الجنود الأميركيين في ميدان المعارك. ولذلك، ليس من المبالغة القول إنّ التلفزيون أدّى دورًا أساسيًا في التسبّب في أوّل هزيمة عسكرية بالغة الأثر في التاريخ الأميركي؛ فقد قُدِّر للهجوم الذي شنّه الثوار الفيتناميون، المعروف باسم هجوم تيت، بين 29 كانون الثاني / يناير و25 شباط / فبراير 1968، أن يكون نقطة تحوّل حاسمة في الحرب الفيتنامية؛ إذ اكتسح المهاجمون أكثر من تسعين موقعًا للقوات الأميركية وقوات فيتنام الجنوبية، وأوقعوا بها خسائر كبيرة في الأرواح. وأظهرت التغطية الإعلامية مقدار التضليل الإعلامي الذي مارسته الحكومة الأميركية في فيتنام؛ إذ إنّ الصور التلفزيونية للهجوم أبرزت شيئًا مختلفًا عن الرواية الرسمية التي كانت تروّج لفكرة الانتصار والنجاح في الحرب. إنّ صور الثوار الفيتناميين وهم يقتحمون السفارة الأميركية في سايغون، وتزايد القتلى في صفوف الجيش الأميركي، أفقدا الرئيس جونسون Lyndon B. Johnson تأييد الشارع، وانتهى الأمر إلى انسحاب القوات الأميركية من المستنقع الفيتنامي سنة 1975، بسبب احتجاجات الشارع، ومعارضة الرأي العام[7].

يتعقّب الإعلام الحوادث ويسلّط الأضواء عليها. وفي رأي المؤرخ بيير نورا Pierre Nora أنّ وسائل الإعلام اغتصبت التاريخ وجعلت الحادث وحشًا، لأنّها تفرض علينا يوميًا، عناوين تصنع منها حوادث. وقبل أن تنقلها إلى الجمهور، يُخضعها رجال الإعلام للتنسيق وإعادة التأهيل والتوضيب والتصميم. وهو ما يفرض علينا مزيدًا من الشك والريبة؛ لأنّ الجمهور المتلقّي لا يميز هنا بين الحدث الكبير الذي يفرض نفسه والحدث الميّت الذي يأتي عنصرًا مشوّشًا.

لوسائل الإعلام قدرةٌ رهيبة على قلب الحقائق. وهي متّهمة في بعض القضايا بالمغالطة وتشويه الحقيقة التي هي مفقودة أو مخفيّة، بصورة مقصودة. نحن نشاهد الحدث يمرّ بطرقٍ مختلفة، بحسب خلفية وسائل الإعلام، وبحسب ما يريده المجتمع[8]؛ فالأمر في جوهره أشبه ما يكون بالطريقة التي تناول بها ميشال دو سيرتو Michel de Certeau مصطلح "صناعة التاريخ"؛ إذ رأى أنّ الحدث ينبع من فعل، من صناعة، فهل نحن أمام عملية فبركة للحدث في وسائل الإعلام الحديثة؟

إنّ من الركائز الأساسية في صناعة الحدث المحطاتِ الإخبارية المختصة بصناعة الخبر، ولا سيّما المرئية منها، على امتداد العالم، إضافةً إلى وسائط التكنولوجيا الجديدة الأخرى التي انطلقت بعنفوان عبر الإنترنت، من مواقع التواصل الاجتماعي، وخصوصًا الفيس بوك، وتويتر، واليوتيوب؛ فقدرة وسائل الإعلام على التأثير في توجيه الحوادث خلال المرحلة الراهنة أمرٌ واقع.

ولا يقتصر الإعلام اليوم على إخبارنا عن الواقع، بل أصبح يصهرنا فيه، ويحشرنا في الراهن ويغرقنا فيه، ويخبرنا إلى حدّ التخمة؛ فعوض جعلنا ندرك الحوادث في بُعدها التاريخي ودلالتها العميقة، صرنا نضيع في جزئياتها، بل أضحت الحوادث ضائعة

---

6 **مجزرة ماي لاي**: مجزرة ارتكبها الجنود الأميركيون في فيتنام؛ فقد قام الملازم الأميركي وليم كايلي، صحبة كتيبته، بتطويق قرية ماي لاي صبيحة يوم 16 آذار/ مارس 1968، وأمر بإحراق المنازل وقتل السكان العزّل. وقد أثارت صور ضحايا المجزرة التي انكشفت بعد سنة واحدة من حدوثها، موجة استنكار دولية، وعاقبت محكمة عسكرية وليم كايلي بالسجن المؤبّد سنة 1969، غير أنّه خرج من المعتقل بعد خمس سنوات بعفوٍ من الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون Richard Nixon.

7 خسر الأميركيون الحرب الدعائية في فيتنام، ولم يستطيعوا استيعاب الهزيمة، وهو ما يبرزه طوفان الأفلام التي أنتجتها هوليود بشأن هذا الموضوع، ونخصّ بالذكر أفلام رامبو. انظر: فيليب تايلور، **قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي**، سامي خشبة (مترجم)، سلسلة عالم المعرفة 256 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نيسان/أبريل 2000)، ص 366 - 371.

8 يتلاشى الحدث فورًا بعد وقوعه الفعلي ويتشتت، وما يُصنع عنه من أخبار في وسائل الإعلام بمختلف أنواعها يتّسم بالتناقض، لأنّ الحدث الذي وقع فعلًا لا أحد يعرف عن كنهه شيئًا، لأنّه ليس موجودًا، وكلّ المحاولات التي تتناوله بالدراسة إنّما هي عمليات استرجاع وبناء جديدة.

ومفتَّتة في سلسلة من العجالات (الأحداث العاجلة)[9]؛ فالحدث المعاصر يمرّ أمامنا مرورًا فوريًا ومباشرًا، حتى قبل اكتمال تَشكُّل صورته. وهو يفرض علينا بسطوته مزيدًا من المعيش، إلى درجة يأخذ فيها الحاضر مكان الماضي؛ فالحوادث تواجهنا بقوة أينما اتجهنا. وعبر وسائل الإعلام المختلفة وعن طريقها، يواجهنا الحدث. نتابع ونشاهد يوميًا نماذجَ من الأخبار والوقائع، وهي تُنْقَل على الهواء مباشرة. إنّه زمن متابعة الحدث في فترة هيمنة عصر الصورة إلى أبعد الحدود. وبفضل آلات التصوير المتطورة، وفي ظلّ التنافس الرهيب بين القنوات التلفزيونية، وعبر فضاءات الإنترنت المتنوّعة والمواقع الاجتماعية والحوارية، شاهدنا حوادث مفاجِئة ومباغتة.

عرضت علينا الفضائيات صورًا متعددة ستظلّ محفورة في الذاكرة، ولن تُنسى أبدًا؛ منها صور احتراق أحد أكبر الأبراج الشاهقة في العالم في مدينة نيويورك بعد أن اصطدمت به طائرة ركّاب مدنية، ومشهد مباشر لطائرة ثانية وهي تصطدم بالبرج الثاني لمبنى مركز التجارة العالمي، أمام ذهول الجميع، هذا الذهول الذي ظهر أيضًا بفضل دور عدسات الكاميرا في حوادث الثورات العربية.

لقد شهد العالم مع الطفرة الإعلامية والتقدّم الهائل في وسائل الاتصال تحوّلات مهمة تمخّض عنها تحوّل في مفهوم الحدث، ونتج منها تطوّر في طبيعة عمل المؤرخ نفسه، وأدّت إلى تحوّل في المفهوم التقليدي لمهنة المؤرخ لمصلحة المفهوم المعاصر للتاريخ. فالمؤرخ مُطالب اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بكتابة تاريخ الزمن الحاضر، بحكم تسارع وتيرة الحوادث وتنوّع مصادر الخبر، وبسبب اهتمام المجتمعات المعاصرة بالراهن؛ فمؤرخ اليوم هو من يستثمر تجربته ومشاركته في الحوادث والوقائع التي يؤرخ لها وهي تقع. وهو بهذه السمة، يشترك مع بعض كبار المؤرخين السابقين. ألم يكن هيرودوت Herodotus وثيوسيديس Thucydides وابن خلدون في زمنهم مؤرخين لزمنهم الحاضر، من خلال اهتمامهم بحوادث عصرهم ووقائعه؟ ألم يحصل تاريخ الزمن الراهن على أوراق اعتماده منذ أن مارسه بعض كبار المؤرخين، كما هي حال المحارب الفرنسي والمتخصص بالعلاقات الدولية بيار رونوفان Pierre Renouvin الذي كتب عن الحرب العالمية الأولى وهي لا تزال مستمرة؟ ألم يكتب مارك بلوك Marc Bloch الهزيمة الغريبة غداة انهيار الجيش الفرنسي أمام النازية في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية؟[10] إنّ صعود نجم تاريخ الزمن الحاضر في زمن الثورة الرقمية والمعلوماتية، وفي مجتمعٍ يُكَرِّسُ أغلب وقته للإعلام، هو أحد التغيرات المهمة التي تُلقي بظلالها اليوم، على مشهد الكتابة التاريخية في العالم ككلّ؛ فحين يتحوّل الحاضر إلى شغل الأفراد الشاغل، على العلوم الإنسانية، ومن بينها التاريخ، أن تُدرجه ضمن أولوياتها.

تناول جديد للتاريخ السياسي

أُعيد الاعتبار إلى التاريخ السياسي الذي أُبعد إلى الهامش مع مدرسة الحوليات؛ فقد عُدّ آنذاك أفقًا ميتًا في البحث التاريخي. وقد انتقلنا اليوم إلى النقيض مع عودة الحدث وانبعاثه من جديد، فجرى ردّ الاعتبار إلى الفعل المعلَن أو المُعبَّر عنه صراحةً، وإعلاء

9 عبد السلام بنعبد العالي: "تكريسًا للانفصال"، في: **ضد الراهن**، سلسلة ملتقى (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2005)، ص 7.

10 التيمومي، **المدارس التاريخية الحديثة**، ص 232.

التساؤلات المتصلة بالمشاغل التاريخية والمرتكزة على الاهتمام بالتاريخ السياسي عبر تجديد تناوله[11]، على صعيد المنهج، وعلى صعيد المصطلح والرمز.

عاد المؤرخون إلى دراسة التاريخ السياسي، لكن من موقع جديد مخالف للموقف الذي تعامل به المؤرخون الوضعيون مع هذا الصنف من التاريخ. والموضوعات التي انكبّ عليها المؤرخون السياسيون الجدد كثيرة، نذكر منها النازية والمذابح التي خلّفتها إبّان الحرب العالمية الثانية، والموضوعات المرتبطة بانهيار المعسكر الاشتراكي وتفتّت الفدرالية اليوغسلافية، والحروب الأهلية الأفريقية[12]. ومن علامات عودة التاريخ السياسي إلى الواجهة مجدَّدًا، الاهتمام الكبير الذي يبديه حاليًا عدد كبير من المؤرخين الأكاديميين تجاه الحوادث السياسية؛ إذ نلاحظ اليوم تطوّر الأبحاث في التاريخ المعاصر في مختلف الجامعات؛ من ذلك مثلًا، أنّه جرى في فرنسا توجيه عدد كبير من المرشَّحين لإنجاز أطروحاتهم في موسم 1982 / 1983 نحو موضوعات تطوّر الاقتصاد في كلٍّ من ألمانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة في الفترة 1914 - 1950. وفي موسم 1984 / 1985، طُلب من الباحثين التركيز على موضوعات الحياة السياسية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، في الفترة الواقعة بين 1945 و1969[13].

خرج البحث التاريخي إذًا في العقود الأخيرة عن القواعد التي وضعها المؤرخون الألمان والفرنسيون من أصحاب المدرسة الوضعية؛ فشروط الموضوعية والأرشيف المكتوب والمسافة النقدية، عُدّت معايير أساسية في البحث التاريخي. ولهذه المآخذ، لم يَجْرِ الاهتمام بتاريخ الحاضر وبالماضي القريب، خلال القرن التاسع عشر، لانتفاء معايير التأريخ "العلمي"، من قصر الزمن المنقضي، والافتقار إلى المحفوظات المدوّنة، والافتقار إلى النظر المتّزن والرزين. ونجمت عن ذلك إدانة هذا الضرب من التأريخ، وعزوف كبار المؤرخين عنه، وما خَلَّفه النهج التاريخي الموروث هو حمل التأريخ على النظر البعيد زمنًا. والظاهر الذي لا شكّ فيه هو افتقار الأمس القريب إلى مثل هذا البعد. لكن هذه الفكرة المتعلقة بانقضاء الوقت وتقادمه على الوقائع، فكرة لا تتماسك. ويكفي ذكر المناقشات التي صاحبت ذكرى مرور قرنين على ثورة 1789، وهي الذكرى التي تزامنت مع سنة انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا (1989)؛ فقد احتدمت يومها المناقشات بين المشاركين بخصوص علاقة الثورة الفرنسية بالإرهاب وبالأنظمة الشمولية. وأَقحمت تلك المناقشات الثورة الفرنسية التي بلغت قرنين من "العُمر"، في قلب الحاضر المباشر. وعاصرت الواقعةُ الحاضر النابض معاصرةً قلّما حظيت بها واقعة راهنة[14].

بدأ التاريخ السياسي الحدثي يشهد انتعاشًا منذ نهاية السبعينيات؛ وذلك بتجدّده من الداخل. ومن مظاهر هذا الانتعاش اكتساح التاريخ السياسي مجالات جديدة؛ فهو لم يبق مقتصرًا على الظواهر الدبلوماسية والعسكرية، وإنّما امتدّ ليشمل حوادث الساعة، في إطار ما يُعرف بتاريخ الزمن الحاضر؛ إذ لم يبْقَ الحاضر مجالًا من مجالات وسائل الإعلام فقط، بل احتواه التاريخ الآني أيضًا، وأصبح فرعًا من فروع التاريخ، واعْتُرِفَ به مجالًا من مجالات اهتمام المؤرخ اليوم، على الرغم من حداثة ظهوره.

تعددت مؤسسات تاريخ الزمن الحاضر؛ إذ أُنشئت معاهد كثيرة في عدد كبير من الدول التي اهتمت بالأبحاث والدراسات المتعلقة بالفترة الراهنة. وقد ساهم هذا الازدهار في إقحام الحاضر في مجال التاريخ، من خلال دراسة آخر الحوادث الكبرى.

---

11 Guy Bourdé et Martin Hervé, *Les écoles historiques* (Paris: Editions du Seuil, 1983), p. 370.

12 التيمومي، ص 231.

13 لطفي عيسى، "ما حاجتنا اليوم إلى الأنتروبولوجية التاريخية؟"، موقع **الأوان** الإلكتروني، 2008/10/18، شوهد في: 2014/2/2، على الرابط: http://www.alawan.org/article2944.html

14 هنري روسو، "التاريخ المعاصر يقترب من الماضي القريب وأصدائه في الحاضر الحار"، منال نحاس (مترجم)، **الحياة** (لندن)، 2013/2/12.

ونذكر على سبيل المثال، معهد التاريخ المعاصر Institut für Zeitgeschichte الألماني الذي أُسس في مدينة ميونيخ سنة 1952، واختص في البداية بدراسة تاريخ الثورات قبل أن ينتقل إلى الاهتمام بكتابة تاريخ النازية وتاريخ الحرب العالمية الثانية. ونذكر أيضًا المعهد الوطني لتاريخ حركة التحرير Istituto Nazionale per la Storia del Movimento di Libérazione الذي ظهر في مدينة ميلانو الإيطالية سنة 1949، لكن لم يُعترف به بصورة قانونية إلا في سنة 1967. وفي بعض الدول الأخرى، مثل إسبانيا والأرجنتين، أُنشئت مؤسسات بهدف دراسة تاريخ الزمن القريب وذاكرته. وجرى التركيز في الغالب على "آخر كارثة في الزمن". وبغضّ النظر عن الاختلافات المفاهيمية بين هذه المؤسسات والمعاهد، فإنّ الشيء المثير للانتباه هو بلا شكّ، عودة الاهتمام بهذا النوع من التاريخ الذي عادت إليه المشروعية، وأصبح معترَفًا به في الجامعات[15].

في أواخر السبعينيات، تكرّس استخدام مصطلح "الزمن الحاضر"، وخصوصًا في فرنسا[16] التي قرّرت الجهات الرسمية فيها أن تمنح – أخيرًا - مكانًا مؤسساتيًا للبحث في التاريخ الآني؛ وذلك بتأسيسها في سنة 1978 معهد تاريخ الزمن الحاضر HTP الذي نشأ في أحضان المركز الوطني للبحث العلمي CNRS[17] بمساهمة من المؤرخ بيار نورا، ودشّنه في سنة 1980 فرانسوا بيداريدا Francois Bedarida الذي ترأّس مجلس إدارته إلى غاية سنة 1990، وتلاه روبرت فرانك Robert Frank ثم هنري روسو Henri Rousseau ثم فابريس دالمييدا Fabrice d'Almeida، وصولًا إلى كريستيان إنغارو Christian Ingrao الذي يقوم بإدارة المعهد منذ سنة 2004. وقد تناول موضوع الحرب العالمية الثانية. وتابع الدراسات حول مرحلة الحرب. وتوجّه أيضًا إلى تحليل الحوادث الأكثر معاصرة، مثل مرحلة تصفية الاستعمار، ومرحلة المقاومة[18]. وانصبّ اهتمام أشهر دور النشر على إصدار الأبحاث التي ينجزها المعهد، وذلك بسبب إقبال القرّاء الشديد على هذه الفترة من التاريخ. وقد أُوكِلَ إلى هذا المعهد تأريخ حوادث الأمس القريب المتصل بالحاضر. وهنا يجب التمييز بين التاريخ الحاضر والتاريخ المعاصر؛ فإذا كان ابتداء التاريخ الحديث والمعاصر، في برامج التدريس الفرنسية، يتحدد من تاريخ الثورة الفرنسية سنة 1789، فإنّ برنامج دراسة الزمن الحاضر يتناول وقائع الأمس القريب وحوادثه التي ما زالت آثارها تخيّم على حاضرنا.[19]

إنّ معهد تاريخ الزمن الحاضر هو وارث لجنة تاريخ الحرب العالمية الثانية التي أنشئت في سنة 1951. وانبثقت بدورها عن لجنة البحث في تاريخ الاحتلال النازي وتحرير فرنسا. وكانت الحكومة المؤقتة برئاسة الجنرال ديغول Charles de Gaulle قد عهدت إليها في سنة 1944 بالقيام بالتأريخ لفترة حكومة فيشي والمقاومة في فرنسا المحتلة[20].

15 Patrick Garcia, "Histoire du temps présent", dans: *Historiographies I: Concepts et débats*, sous la direction de C. Delacroix [et al.], Folio histoire 179 (Paris: Gallimard, 2010), T 1, pp. 292 - 293.

16 فريد بن سليمان، **مدخل إلى دراسة التاريخ**، سلسلة علوم إنسانية (منوبة - تونس: المركز الجامعي، 2000)، ص 150 - 151.

17 تأسس المركز الوطني للبحث العلمي سنة 1939. وهو تابع لوزارة البحث الفرنسية. ويضمّ حاليًا عشرة معاهد وأكثر من عشرين مختبرًا. يُعَدّ أكبر مركز أبحاث في أوروبا.

18 Jean-François Soulet, *L'histoire immédiate: Historiographie, sources et méthodes*, Collection U. Histoire (Paris: Armand Colin, 2009), pp. 33 - 34.

19 روسو.

20 يُعدّ هذا المعهد جزءًا من هيئات أوروبية أخرى ظهرت إلى الوجود في أعقاب الحرب العالمية الثانية. والشيء الذي يجمع بين جميع هذه المؤسسات والمعاهد هو المكانة الرئيسة التي يحتلّها مفهوم الذاكرة، سواء تعلّق الأمر بمخلّفات عنف الحروب، مثل الحربين العالميتين أو حرب الجزائر، أو باستعمالات سياسية واجتماعية للماضي؛ فممارسته مرتبطة بالحاضر المعيش، وباجتياح الذاكرة، لوجود الشهود من الأحياء، الشيء الذي يحدّد حجم المسؤولية التي يتحمّلها المؤرخ، ونوع التحديات التي يمكن أن يطرحها عليه تاريخ الزمن الحاضر.

وفي سنة 1978، دُمجت لجنة تاريخ الحرب العالمية الثانية في معهد تاريخ الزمن الحاضر الذي أضحى تابعًا للمركز الوطني للبحث العلمي الذي ورث مكتبته ومحفوظاته. وعلى الرغم من سنّ قانون سنة 1979 يحدّ من الوصول إلى السجلات المتعلقة بحوادث الزمن الراهن، فإنّ جهود المعهد، بما توافر في مكتبته من مستندات ووثائقَ ومحفوظات عن حقبة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ساهمت في إغناء تاريخ الزمن الراهن.

يشتغل المعهد بفِرق بحثية متعددة تضمّ باحثين في المركز الوطني وباحثين متعاونين ينتمون إلى عدد من الجامعات الفرنسية. ويستقبل طلبة دكتوراه وباحثين من دول أجنبية. وينصبّ اهتمامه على موضوعات مختلفة؛ أهمّها: تاريخ الحرب في القرن العشرين، والأنظمة الاستبدادية، والشمولية، والكولونيالية، إضافةً إلى الاهتمام بالتاريخ الثقافي للمجتمعات الحديثة. ويهدف المعهد إلى إحياء التاريخ الجماعي من خلال الاهتمام بذاكرة الشعوب بعد سنة 1945؛ وذلك بتناول الحوادث الكبرى المختلفة التي ميّزت القرن الماضي، سواء داخل أوروبا أو خارجها. وكانت لهذا المعهد الذي أصبح ذا شرعية كاملة في مجال البحث الأكاديمي، مساهمة فعالة في التأريخ للفترة المعاصرة؛ فبإشرافه، وُضِع عددٌ كبير من الأبحاث عن تاريخ الحربين العالميتين، وحقبة الاستعمار وما بعدها، وتاريخ النظم السياسية الاستبدادية (الفاشية، والنازية، والشيوعية).

إضافةً إلى معهد تاريخ الزمن الراهن، تهتمّ مؤسسات فرنسية أكاديمية أخرى بالحقبة المعاصرة؛ فالمؤرخ الجامعي جان فرانسوا سرينيلي J. F. Sirinelli المتخصص بتاريخ فرنسا السياسي والثقافي في القرن العشرين، قام في سنة 1989 بتأسيس "مجموعة تاريخ الزمن الحاضر" GHTP في تولوز[21]، ويرأس حاليًا مركز تاريخ العلوم السياسية. وهو عضو بارز في معهد باريس للدراسات السياسية، ورئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية. ويشتغل بمعيته أساتذة متخصصون بالتاريخ المعاصر. وهو يُمَثِّل، بكتاباته، تَوجُّهًا جَديدًا في الإسطوغرافيا الجديدة؛ فقد ساهم بصورة أو بأخرى في إحياء أبحاث التاريخ السياسي؛ إذ ساعدت أعماله في الفترة الحالية على تطوير مجالات البحث التاريخي وتوسيعها.

نضيف أيضًا الدور الذي قام به مركز تاريخ الحركة النقابية الذي أسّسه جان ميتران Jean-Mitterrand في فرنسا سنة 1966، بتشجيع من أرنست لابروس Ernest Labrousse. وقد أضحى هذا المركز ميدانًا للبحث في تاريخ الحركات الاجتماعية والنقابية. ثم تحوّل إلى مركز التاريخ الاجتماعي للقرن العشرين Centre d'histoire sociale du XXe siècle. ودخل تجربة الشراكة مع المركز الوطني للبحث العلمي السابق الذكر. وهو يشتغل على عدد من الموضوعات المرتبطة بالتحولات الاجتماعية للفترة المعاصرة والراهنة.

المغرب في خضم التاريخ الراهن

عرف المغرب بدوره، وإن بصورة متأخرة، اهتمامًا بالتاريخ الراهن[22]؛ فقد وَقَّعَ المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، مع جامعة محمد الخامس في الرباط يوم 25 كانون الثاني / يناير 2010، اتفاقية تعاون بشأن إحداث مسلك ماستر "التاريخ الراهن".

---

21 Pierre Vermeren, *Histoire récente, histoire immédiate: L'historiographie française et le cas du Maghreb*, Série colloques et séminaires 158 (Rabat: Université Mohammed V-Agdal, Faculté des lettres et des sciences humaines, 2008); Mohammed Kenbib (ed.), *Temps présent et fonctions de l'historien*, Série colloques et séminaires 158 (Rabat: Université Mohammed V-Agdal, Faculté des lettres et des sciences humaines, 2009), p. 120.

22 إن المتغيرات ذات الإيقاع السريع، ساهمت بصورة أو بأخرى في التأثير في وضعية البحث التاريخي في العالم العربي، وخصوصًا في فترة ما بعد الاستقلال؛ فقد برز في كثير من الدول العربية جيل جديد من المؤرخين الذين تفاعلوا إيجابيًا مع تغيرات الكتابة التاريخية في أوروبا، وإن طغت على أغلبهم - بحكم وضعية العالم العربي - قضايا ترتبط

وقد التزم المجلس توفير الدعم اللازم لهذا التكوين الذي يندرج في سياق تفعيل توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة المتعلقة بحفظ الذاكرة والتاريخ والأرشيف[23]. وبالفعل، فُتح في وجه الطلبة، لأول مرة، ماستر تاريخ الزمن الراهن في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، بدايةً من الموسم الجامعي 2010 - 2011. وفي هذا المسلك تناول الباحثون القضايا الراهنة دوليًا ووطنيًا، مع التركيز على خصوصيات المرحلة الاستعمارية في المغرب، وذاكرة مغرب ما بعد الاستقلال، وقضايا بناء الدولة الوطنية[24]. وجرى الاهتمام بذاكرة الأماكن، وخصوصًا البنايات ومراكز الاعتقال والاحتجاز والتعذيب السابقة التي أصبحت أماكن لحفظ الذاكرة، وبإعادة الاعتبار إلى الشاهد والفاعل التاريخي والحياة اليومية والتاريخ الشفوي، من خلال جلسات الاستماع إلى الروايات التي قدّمها الضحايا على وجه الخصوص.

طرحت هيئة الإنصاف والمصالحة التي أُسست في 6 تشرين الثاني / نوفمبر 2003 موضوع المصالحة مع التاريخ. ودعت إلى إزالة العراقيل التي تحول دون البحث في هذا التاريخ. وأكّدت أهمية ترسيخ التواصل بين الأجيال بما يحفظ الذاكرة. وفي هذا الصدد، دعت الهيئة إلى مراجعة شاملة لحالة الأرشيف العمومي، ونصّت على ضرورة تنظيمه في إطار قانوني واضح، وتهيئة الشروط الضرورية لإصلاح وضعيته[25].

ومن خلال اشتغالها على الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1956 إلى نهاية سنة 1999، ساهمت هيئة الإنصاف بدورها في إنتاج الأرشيف بوصفه مادة مهمة بالنسبة إلى كتابة تاريخ المغرب في ما يتعلق بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان؛ وذلك بعد عقود من سيادة الذاكرة الرسمية التي أقصت أيّ ذاكرة أخرى؛ فقد شاركت الهيئة في إعادة صوغ ذاكرة وطنية تعددية غير انتقائية أو غير مبنيّة على الإقصاء، وذلك من خلال جلسات الاستماع التي نظّمتها؛ إذ اعتُمدت الشهادات الشفوية أهمّ مصدر من المصادر المعتمدة إلى جانب الوثائق والسجلات الرسمية[26]، وخصوصًا في ظلّ غياب الكثير من السجلات والوثائق التي من شأنها استجلاء حقيقة الانتهاكات وتوضيح كثير من نقاط الظل في التاريخ الوطني لما بعد الاستقلال[27].

بمراجعة ما خلّفه الإرث الاستعماري في مجال البحث التاريخي؛ فقد أُعطيت الأولوية لمونوغرافيات التاريخ المحلي، ولإعادة كتابة التاريخ الوطني انطلاقًا من رؤية جديدة تختلف عن نظرة المؤرخين الكولونياليين. واليوم يتّجه الاهتمام إلى تاريخ الزمن الحاضر، على الرغم من العوائق التي تواجهه.

23 هَمَّتْ توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة، إضافةً إلى تأسيس مسلك تاريخ الزمن الراهن، بحفْظ أرشيفات الهيئة نفسها، وتيسير ولوج الباحثين إليها. وتعهدت أيضًا بالمساعدة على تنظيم الأرشيف الوطني وتحديثه.

24 يطرح الاهتمام بهذه المرحلة مشكلات متعددة بالنسبة إلى الطلبة؛ فمن أهم العوائق، هناك أولًا غياب مؤسسة الأرشيف الوطني؛ وثانيًا وجود أغلب الوثائق المغربية لهذه الحقبة في الدول الأوروبية، وبالخصوص في فرنسا وإسبانيا؛ وثالثًا مشكل رفع السرّية عن بعض الوثائق المتعلقة بقضايا إشكالية تؤثّر في الراهن؛ فموضوع الغازات السامة المستعملة في حرب الريف مثلًا يدخل ضمن هذا الإطار، والأمر نفسه بالنسبة إلى الوثائق المتعلقة بالحوادث التي وقعت في الفترة الواقعة بين 1936 و1968 في منطقة سيدي إيفني؛ فقد ذكرت جريدة **الباييس** الإسبانية ليوم 12 أيار/مايو 2014، أنّ وزارة الدفاع الإسبانية رفضت مبادرة رفع السرية عن 10.000 وثيقة تتضمن معلومات عن الحركة التحررية في منطقة سيدي إيفني جنوب المغرب في خمسينيات القرن الماضي، بحجة أنّ رفع السرّية عنها سيُحدث توترًا في الساحة الدولية. ومن بين ما تتضمّنه تلك الوثائق معلومات عن معسكرات الاعتقال والخلايا العسكرية التي أنشأها نظام الجنرال فرانكو Franco Francisco.

25 انظر: موجز مضامين **التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة** (المملكة المغربية: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2006)، ص 35.

26 تُعدّ الشهادات الشفوية التي سُجلت مقدمة للعناية بالتاريخ الشفاهي في المغرب. وقد قام المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، بدعم من صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، بجمع بعض الشهادات النسائية وإصدارها في كتاب عنوانه: **نساء كسرن جدار الصمت، عن معاناة كاد يطويها النسيان**، وجرى إصدار كتاب **ذاكرة الاعتقال السياسي**، وهو حوارات مع معتقلين سياسيين سابقين، يتحدثون عن ظروف اعتقالهم وما قاسوه في أثناء فترات الاعتقال والمحاكمة التي امتدت خلال حقبتَي الستينيات والسبعينيات. وهذه الحوارات تلقي الأضواء على جوانب كثيرة من تجارب الاعتقال السياسي في المغرب. وهو ما يُضفي على الكتاب صبغة التوثيق لجزء من التاريخ السياسي الراهن للمغرب.

27 راجع بخصوص الانتقال الديمقراطي وكتابة التاريخ: هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي: الكتاب الرابع، مقومات توطيد الإصلاح والمصالحة**، إنجاز اللجنة الوطنية للحقيقة والإنصاف والمصالحة (المملكة المغربية: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2006)، ص 59 - 60.

تندرج تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة المغربية في إطار ما هو متعارف عليه اليوم بلجان الحقيقة والمصالحة عبر العالم. وهي لجان جرى تشكيلها في عدد من البلدان، بغرض تحقيق العدالة الانتقالية، وتسوية الآثار المترتبة عن الانتهاكات المرتكبة خلال الفترة المسمّاة "سنوات الجمر والرصاص". وقد مارست الهيئة المغربية مهمات ترتبط بالتقييم والبحث والتحرّي والاقتراح في ما يتعلق بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان في الفترة المذكورة أعلاه، والمتمثّلة في الاختفاء القسري، والاعتقال التعسفي، والتعذيب والاعتداء الجنسي، والاغتراب الاضطراري، والحرمان من الحق في الحياة نتيجة الاستعمال المفرط للقوة العمومية.

إلى جانب معالجة الهيئة الملفات الفردية، وإصدارها أحكامًا محددة تتعلق بالتعويض المادي للضحايا والإدماج الاجتماعي والتغطية الصحية، اقتُرحت مجموعة من التوصيات المتعلقة ببرامج جبر الضرر الجماعي[28]، والتي تولّى المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان مهمة تتبّعها. وقد أعادت هذه التوصيات الأسئلة بخصوص التاريخ الراهن إلى الواجهة؛ إذ اقترحت الهيئة مجموعة من التدابير، أهمها:

الدعوة إلى حفظ الأرشيفات الوطنية وتنسيق تنظيمها، في إطار معهد الأرشيف الموصى بتأسيسه ليكون مؤسسة وطنية تشرف على الأرشيف في إطار قانوني، والاهتمام بالتوثيق والبحث والنشر بشأن الحوادث التاريخية المتصلة بماضي الانتهاكات الجسيمة، وبتطورات قضايا حقوق الإنسان والإصلاح الديمقراطي، وبلورة مقاربة جديدة لحفظ الذاكرة، تستهدف تحويل بنايات الاعتقال والاحتجاز والتعذيب السابقة، كالمعتقل السرّي تازمامارت ومعتقل كرامة، إلى أماكن لحفظ الذاكرة، بوصفها شواهد، وذلك في إطار مشاريع جبر الضرر الجماعي[29].

القيام بمراجعة برامج محتوى التاريخ، وتشجيع البحث العلمي المتعلق بالتاريخ الراهن، وخصوصًا التركيز على فترة ما بعد الاستقلال.

إشكاليات يطرحها تاريخ الزمن الراهن

إنّ الاهتمام بتاريخ الزمن الحاضر تحدٍّ كبير تفرضه المهمة الجديدة الملقاة على عاتق المؤرخ، لتجاوز أزمة الشكّ التي تمسّ اليوم مهنة التاريخ. ينضاف إلى ذلك المكانة الكبيرة التي يحظى بها الماضي القريب والذاكرة والشهادة، لدى العموم. وقد ساهم الصعود القويّ لوسائل الإعلام في إعادة البريق إلى الراهن والشاهد والفاعل التاريخي والحياة اليومية. لكن كتابة هذا التاريخ تطرح معضلة في وجه المؤرخين، وبخاصة في الجانب المتعلق منها بصعوبة الحصول على الوثائق بسبب قصر المسافة الزمنية التي تفصلنا عن الحوادث من جهة، وعدم اكتمال سلسلة حلقات الحدث من جهة ثانية، ولحساسية بعض القضايا التي قد تكون محلّ نظر قضائي من جهة ثالثة، وأخيرًا تُطرح قضية الموضوعية بحكم علاقة الحوادث بالواقع المعيش.

من المؤكد أنّ الحدث لا يختفي نهائيًا من مسرح الوقائع؛ فالتاريخ يعمّمه، وفي الإمكان أن يصبح أيّ شيء حادثًا، بل حتى اللاحوادث وإن لم يجر تسميتها بعد، فهي متوقَّعة. ومن هنا، لا شيء هو حدث حقيقة؛ فالحدث المستجدّ ليس دائمًا جديدًا كما

28 تعرّضت تجربة المصالحة لانتقادات العديد من الهيئات والشخصيات؛ فالإهمال والإقصاء لحقا العديد من الملفات والقضايا، والعديد من التوصيات لم تُطبّق على أرض الواقع، إضافةً إلى أنّ تراجع رصيد المغرب في مجال حقوق الإنسان بعد حدث 16 أيار/ مايو 2002 مخيّب للآمال؛ فالعودة مجددًا إلى ممارسة أساليب الاختطاف والتعذيب تطرح أكثر من سؤال بخصوص فكرة التعهد بعدم تكرار ما جرى، والقطع مع أساليب الماضي.

29 من الناحية الرمزية - على سبيل المثال - جرَت عملية إعادة دفن الهالكين في مقبرتي أكدز وتزمامارت، وأُعِدَّتْ دراسات عن أماكن تعرّضت للضرر والتهميش، بهدف النهوض بها، ونخصّ بالذكر كتاب: باسو أوجبور ولحسن أيت الفقيه، **إملشيل الذاكرة الجماعية** (طنجة: مطبعة ألطوبريس، [د. ت.])، منشورات جمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي الذي يشرف على تنفيذه المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، في الشق المرتبط تمويله بالاتحاد الأوروبي، والكتاب في 178 صفحة.

نظنّ، وإنّما بُروزه يدخل ضمن صيرورة تاريخية ومنطق اجتماعي. ويجري أحيانًا تقديم الحدث "المفاجأة"، بينما كلّ شيء مختلَق في زمن عصرنة وسائل الإعلام.

تظلّ إعادة الاعتبار إلى الحدث، حتى وإن بدت مقنعة، غامضة من بعض وجهات النظر؛ فإذا أُخذت بصورة سطحية ضمن قراءة موجزة، يمكن أن نرى فيها موقفًا من المواقف المختلفة حول الموضوع القديم بتسارع التاريخ[30]؛ فالزمن التاريخي يمضي أمامنا اليوم في زمن عصرنة الإعلام بوتيرة سريعة، إلى درجة أصبحت معها كتابة التاريخ تواجه صعوبة في متابعة زخم الحوادث، وذلك بصورة تضاهي إلى حدٍ بعيد الصعوبة التي عبّر عنها منظِّر التاريخ لورنز فون شتاين Lorenz von Stein في سنة 1843. ويبدو الأمر أشبه ما يكون بممارسة التاريخ من فوق عربة متنقلة؛ فالمؤرخ لا يستطيع تسجيل كلّ ما يمر به من حوادث، وذلك بسبب التطور الهائل في سرعة انتقال المعلومات وتبادلها[31]. وهو ليس وحده في الساحة، بل تصاعد دور المثقفين الإعلاميين، ولهذا النوع من المثقفين تأثير حقيقي في الحياة السياسية في مجتمعٍ يكرّس للإعلام وقتًا يفوق ما يمنحه للتفكير والقراءة. كما أنّ له دورًا مهمًا في تحريك "الخطوط الحمراء" بالنسبة إلى قضايا متعددة، ومن شأن ذلك أن يطوّر بصورة إيجابية مناخ اشتغال المؤرخ. وفي هذا السياق، يمكن التذكير بعاملٍ ساعد على الانتقال من الذاكرة إلى المعرفة التحليلية للماضي القريب، في بعض التجارب، من خلال التلاقح بين المؤرخ وعالم السياسة، وبين المؤرخ والصحفي، ومعناه الصحفي الذي يزاوج بين عمله اليومي السريع ونفَس البحث والتأليف؛ ففي الولايات المتحدة الأميركية، جاء ألان نِيفين Alan Nevin مؤسس "التاريخ الشفوي"، من عالم الصحافة. وفي فرنسا يُعدّ الصحفي جان لاكوتير Jean Lacouture مراسل جريدة لوموند في المغرب سابقًا، مؤسس سلسلة "التاريخ الفوري" في إحدى كبريات دور النشر. وجاء روني ريمون من علم السياسة. وهو أوّل من دعا إلى البحث في الملفات الحساسة للقرن العشرين[32].

على الرغم من أهمية الإعلام، يُتَّهَم الصحفيون، على عكس المؤرخين، بأنّهم لا يبحثون عن جذور الظواهر والحوادث التاريخية، وإنّما يكتفون بسردها سردًا سريعًا. وهنا يكمن الفرق بين مهنة الصحفي ومهنة المؤرخ؛ فالصحفي يتحدث فقط عن الحاضر ومشكلاته الآنية من دون الغوص في التفصيلات والجذور، ومن هنا يُعدّ منظوره قصير النظر، في حين ينبش المؤرخ في أعماق الوقائع، فلا يكتفي بما يُعرض على وسائل الإعلام والإنترنت، بل يحاول الوصول إلى الوثائق والمستندات أيضًا. لذلك، فإنّ تحليلات المؤرخين الكبار تُقنع بشموليتها القارئ وتُشبعه، على عكس التقارير الصحافية السريعة، على أهميتها[33]. تختلف أدوات التحليل طبعًا، لدى كلٍ من الصحفي والباحث التاريخي؛ فلا المنهجية واحدة ولا الخلفية واحدة. وإذا كانت وسائل الإعلام المختلفة تعطي حيزًا واسعًا اليوم للحوادث السياسية، فإنّ الطريقة المفكَّكة التي تعالَج بها الوقائع لا تمنح هذه الحوادث أيّ منهجية أو أيّ معقولية تاريخية. وهنا تكمن الخطورة؛ ففي ظلّ افتقاد المشاهد البسيط أيّ نظرة شمولية إلى الظواهر

---

30 ميشيل فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"، في: جاك لوغوف (مشرف)، **التاريخ الجديد**، محمد الطاهر المنصوري (مترجم/مقدم)، عبد الحميد هنية (مراجع)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 178.

31 بشأن تسارع التاريخ، كتب جان نويل جانيني في سنة 2001: "هل يجري التاريخ بسرعة؟"؛ انظر: فرانسوا هارتوغ، **تدابير التاريخانية: الحاضرية وتجارب الزمان**، بدر الدين عرودكي (مترجم)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010)، ص 175 - 213.

32 مقتطف من حوار نشرته جريدة **الاتحاد الاشتراكي** مع المؤرخ عبد الأحد السبتي، 2009/12/11.

33 اتهام الصحفي بأنّه ينجز عملًا سريعًا ناتج من حكم غير صحيح دائمًا؛ لأنّ من الممكن ولوج صرح التاريخ عن طريق الصحافة، بدليل أنّ **تاريخ الفرنسيين الكبير في ظل الاحتلال**، لهنري امورو Henri Amouroux، عمل رائع من إنجاز صحفي انقلب مؤرخًا. انظر: جان تولار وغي تويليه، **صناعة المؤرخ**، عادل العوا(مترجم)، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1999)، ص 15.

التاريخية والسياسية، تقوم وسائل الإعلام، بوعي أو من دون وعي، بتجزئة الصيرورات التاريخية فلا تسجّل الوقائع والحوادث ضمن منظور شمولي.

مثَلُ الصحفي كمثَل مؤرخ اللحظة، يتعامل مع الحدث حين وقوعه، فيؤرخ للحاضر، ولكنه لا يؤرخ للتاريخ الحاضر؛ ذلك أنّ الخبر الصحافي يظلّ غير مكتمل، وغير مفهوم بالصورة المطلوبة، فهو في الغالب يأتي مفصولًا عن سوابقه ولواحقه، ويبقى في حاجة ماسّة إلى الزيادة والإتمام[34]. وهذا من بين الأسباب التي تجعل غالبية المؤرخين تتجنّب تناول التاريخ الحاضر؛ فهذا النوع من الكتابة التاريخية يبقى أفقًا صعبًا بسبب عوامل ثلاثة: **أوّلها** غياب البُعد التاريخي الضامن - في نظرهم - الموضوعية التاريخية المنشودة عند كلّ مؤرخ؛ و**ثانيها** قضية المصادر من حيث تنوّعها، وبخاصة المصادر الشفوية لشهود العيان، وما يحوم حولها من تشكيك في صدقيتها؛ ويكمن **ثالثها** في صعوبة التحليل والتأويل للحدث الآني الذي لا نعرف بعدُ نهايته ومآله وانعكاساته على مجرى الحوادث. هذا إضافةً إلى تخوّفات بعض المؤرخين من التداخل بين التاريخ والصحافة والعدالة أحيانًا[35]؛ فالحوادث الساخنة القريبة تثير الحساسيات، وتسبّب لغطًا كبيرًا، وتطرح الكثير من التساؤلات بالنسبة إلى ممارسة المؤرخين، لوجود الشهود من الناجين ومن مسبّبي الكوارث، فيحدث بذلك تداخل بين دور المؤرخ وشهادة الشهود ودَهْم الذاكرة.

إنّ الضحايا الناجين يسعون إلى تحقيق العدالة القضائية وكشف الحقيقة وحفظ الذاكرة وإعادة الاعتبار. وتناضل فعاليات المجتمع المدني وتعمل من أجل عدم تكرار ما جرى. والدولة التي تكون عادةً طرفًا في بعض القضايا، مطالَبة بالاعتراف والتعويض وجبر الضرر. يطرح هذا التداخل مشكلة عويصة بالنسبة إلى النتائج التي تترتب عن الغوص في تاريخ الزمن الراهن؛ فموقف المؤرخ مختلف جذريًا عن مواقف الأطراف السابقة الذكر المعنيّة بالموضوع، لأنّ غايته ليست التنديد أو كشف الأسرار، وإنّما الفهم، وتقبّل "أنّ ما حدث قد حدث"، من دون الدخول في متاهة اتهام أيّ طرف من الأطراف أو تبرئته. تتعدّد الحوادث والموضوعات التي تنتمي إلى التاريخ القريب زمنيًا، وتطرح إشكالات وحساسيات مفرطة للدولة والجماعات والأفراد؛ فتاريخ حكومة فيشي المتعاونة مع الاحتلال النازي الألماني، في فترة 1940 – 1944، مثالٌ لهذا الشكل من الالتباس[36]؛ فقد تعمدت الدولة الفرنسية تجنّب تدريس هذه المرحلة إلى حدود أواخر الثمانينيات. ولم يتناول التأريخ الأكاديمي نظام فيشي بالبحث إلا بعد مضيّ خمس وعشرين سنة على نهايته. والندوة الأولى التي تصدّت لسنوات نظام الماريشال بيتان Philippe Pétain نظّمها رينيه ريمون René Rémond سنة 1970 في معهد العلوم السياسية، وتناولت "حكومة فيشي والثورة الوطنية بين 1940 و1944". وقد أغفلت المداخلات مسؤولية نظام فيشي عن ترحيل اليهود الفرنسيين واحتجازهم في المعتقلات النازية، لحساسية الموضوع. وفي الثمانينيات، وقع تطوّر مهمّ هو خروج المحفوظات المتعلقة بهذه الفترة المحرجة إلى العلن، الأمر الذي سبّب احتقانًا سياسيًا وفكريًا، وأثار اهتمامًا شعبيًا كبيرًا. وفي سنة 1992 / 1993، أصبح نظام فيشي "شأنًا عامًا"، وهو ما نجم عنه اضطراب في الأوضاع

34 عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، ط 4 (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2005)، ص 72.

35 بن سليمان، ص 151.

36 فيليب بيتان Philippe Pétain، قائد عسكري فرنسي بارز، عدّه الفرنسيون بطلًا بعد الحرب العالمية الأولى، لمساهمته الفعالة في انتصار الفرنسيين على الألمان. وقد ترقّى، نتيجة لذلك، في المناصب العسكرية حتى صار ماريشالًا، لكن بعد استسلام فرنسا في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، وقّع هدنة باسم بلاده مع هتلر Adolf Hitler، اعترف بمقتضاها باحتلال ألمانيا ثلاثة أرباع التراب الفرنسي. وقد شكّل حكومة موالية لهم في مدينة فيشي. وبعد تمكّن الحلفاء من تحرير فرنسا، نُقل إلى ألمانيا. غير أنّه عاد برغبته إلى فرنسا سنة 1945، وقدّم نفسه إلى المحاكمة، حيث دين بتهمة الخيانة العظمى، وسط تشكيك كبير في عدالة المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام عليه، لعدم وجود اقتناع بجدّية تعاون بيتان مع الألمان، فتدخّل الرئيس ديغول Charles de Gaulle وخفّف العقوبة إلى السجن المؤبد. ومات بيتان في السجن سنة 1951، بينما أُعدم مساعده پيير لاڤال Laval Pierre رميًا بالرصاص في تشرين الأول/أكتوبر 1945.

الداخلية؛ إذ خرجت التظاهرات، وكُتبت بيانات في الموضوع، ولم يتحقق احتواء الحوادث إلا بعد تدخّل السلطة. وقد أسفرت تلك الأجواء المتوترة عن قضية جو بوسكيه Joë Bousquet ، المتهم بالتعاون مع الاحتلال الألماني، وكان قد اعتُقل في سنة 1991، ثم اغتيل في سنة 1993. وأسفرت أيضًا عن محاكمة متعاون آخر هو بول توفييه Paul Touvier في سنة 1994، ومحاكمة موريس بابون Maurice Papon في سنة 1997.

أصبح التأريخ لهذه المرحلة أكثر عسرًا جرّاء دهم الذاكرة الحاضر وتخييمها عليه. وقد شمل الدَّهم مصلحة المحفوظات وموظفيها؛ فحُجبت المحفوظات وحُظر على الجمهور مراجعتها[37]، لأنّ مرور خمسين سنة على الحادث لم يكن كافيًا للنسيان وتجاوز العُقَد؛ إذ إنّ "ذاكرة فيشي تشكّل في فرنسا الماضي الذي لا يمضي"[38]، والجيل الذي عانى ويلات الماضي القريب تُعطيه القوانين الحق في فتح محاكمة دائمة لجيل الحرب، وهو ما نلمسه في المثال الذي قدّمناه؛ فقد دين البعض في فترة التسعينيات بتهمٍ تتعلق بفترة حكومة فيشي، استنادًا إلى المعطيات والأسرار الجديدة التي كشفتها المستندات المحرَّرة من الرقابة.

إنّ مهمة المؤرخ إزاء الحوادث الصادمة، كمرحلة حكم فيشي في فرنسا وموضوعات المحرقة ومعسكرات الاعتقال التي تقع على الحدود القصوى، تفرض عليه تنويع الشهود، والتمييز بين الشهادات بحسب أصلها (نازيون سابقون، ومقترفو ذنب، وناجون من معسكرات الاعتقال...)؛ فشهادات الناجين من الضحايا هي غير شهادات المتورطين.

يسعى الباحثون في التاريخ الراهن إلى فصل التاريخ عن الذاكرة في كتاباتهم ونقاشاتهم؛ فطريقة اشتغال الذاكرة تشبه بصورة أو بأخرى طريقة اشتغال المجمّد، بحسب تعبير الروائية الإيطالية سوزانا تامارو Susanna Tamaro، فماذا يحدث حين نقوم بانتزاع ما بداخل المجمّد من طعام مكث بداخله مدة طويلة؟ إنّه يبدأ استعادة شكله ولونه تدريجيًا، ويملأ المطبخ برائحته، وهكذا تقبع الذكريات الحزينة مدةً طويلة في أحد كهوف الذاكرة الكثيرة. تقبع هناك سنوات، بل عشرات السنوات. ثم يحدث في يومٍ ما أن تعود إلى السطح، ويعود من جديد الألم الذي كان قد اصطحبها في يوم من الأيام. يعود حالًا وحادًّا كما كان منذ سنوات كثيرة[39]. وهذا ينطبق بالضبط على التاريخ الحاضر، حيث الخلط الذي يعيق بصورة أو بأخرى تقدّم الأبحاث والدراسات. ويجري التذرّع أيضًا بفكرة عدم مضيّ الوقت الكافي على وقوع الحوادث، على أساس أنّ الوقائع الكبيرة لها ذيول ليست في الحسبان. وهذه الحجة لا تقنع أحدًا اليوم، ولا سيّما المؤرخين؛ فرواية الماضي نفسه محفوفة بالظنون.

خلاصة

لقد تعددت مؤسسات تاريخ الزمن الحاضر؛ إذ أُنشئت معاهد كثيرة في عديد الدول، وخصوصًا في أوروبا. وقد اهتمت بالأبحاث والدراسات المتعلقة بالفترة الراهنة، وبحوادث الأمس القريب التي تتصل بالحاضر، والتي مازالت تخيّم آثارها على عالمنا. وساهم الصعود القويّ لوسائل الإعلام في إعادة البريق للراهن وللشاهد، وللفاعل التاريخي، وللحياة اليومية. لكن كتابة

37 روسو.

38 Garcia, p. 290.

39 سوزانا تامارو، **اذهب حيث يقودك قلبك**، أماني فوزي حبشي (مترجم)، أيمن عبد الحميد الشيوي(مراجع)، سلسلة إبداعات عالمية، 399 ([د. م.]: [د. ن.]، 2014). رواية تطرح فيها الكاتبة الإيطالية، عن طريق رسائل تكتبها على لسان مسنّة إلى حفيدتها التي سافرت للدراسة في أميركا، حوادث في حياتها وحياة المجتمع الذي عاشت فترة من فترات تطوّره، ومن بينها بعض حوادث الفترة الفاشيّة، انظر: المرجع المذكور، ص 116.

هذا التاريخ تَطرح عوائق بالنسبة إلى المؤرخين، بخاصة في الجانب المتعلق بصعوبة الحصول على الوثائق؛ إذ يتعذر ذلك بسبب قصر المسافة الزمنية التي تفصلنا عن هذه الأحداث من جهة، وعدم اكتمال سلسلة حلقات الحدث من جهة ثانية، وحساسية بعض القضايا التي قد تكون محلّ نظرٍ قضائي، وتُطرح قضية الموضوعية بسبب علاقة الأحداث بالواقع المعيش.

ستظلّ مشكلة تناول التاريخ الراهن قائمةً، ما دام صنّاعه وشهوده في قيد الحياة. وسيبقى الخلاف دائمًا بشأن صدقية الحوادث التي تتناولها أقلام المؤرخين وشهود العيان والصحافيين. لكن لا غنى اليوم للمؤرخ عن الخوض، إلى جانب الأطراف الأخرى، في معالجة قضايا الزمن الراهن التي تظلّ ذات أهمية في عصر العولمة؛ فالتقوقع في الماضي السحيق لا يفيد مهنة المؤرخ في عالم اليوم الذي تشعّبت فيه الحوادث والوقائع، وتطوّرت فيه العلوم الدقيقة، وتجددت فيه مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أوجبور، باسو ولحسن أيت الفقيه. **إملشيل الذاكرة الجماعية**، طنجة: مطبعة ألطوبريس، منشورات جمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي، [د. ت.].
- بال، فرنسيس. **الميديا**، فؤاد شاهين.(مترجم)، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008.
- بن سليمان، فريد. **مدخل إلى دراسة التاريخ**، منوبة-تونس: مركز النشر الجامعي، 2000.
- تامارو، سوزانا. **إذهب حيث يقودك قلبك**، أماني فوزي حبشي.(مترجم)، أيمن عبد الحميد الشيوي.(مراجع)، سلسلة إبداعات عالمية 399، [د. م.]: [د. ن.]، 2014.
- تايلور، فيليب. **قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي**، سامي خشبة.(مترجم)، سلسلة عالم المعرفة 256، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000.
- **التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة**، المملكة المغربية: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2006.
- تولار، جان وغي تويليه. **صناعة المؤرخ**. عادل العوا.(مترجم)، دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1999.
- التيمومي، الهادي. **المدارس التاريخية الحديثة**، صفاقس: دار محمد علي، 2013.
- العالي، عبد السلام بنعبد. **ضد الراهن**، سلسلة ملتقى، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2005.
- العروي، عبد الله. **مفهوم التاريخ**، ط 4، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2005.
- لوغوف، جاك (مشرف). **التاريخ الجديد**، محمد الطاهر المنصوري.(مترجم ومقدّم)، عبد الحميد هنية.(مراجع)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007.
- ليسير، فتحي. **تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر**، صفاقس: دار محمد علي للنشر، 2012.
- هارتوغ، فرانسوا. **تدابير التاريخانية: الحاضرية وتجارب الزمان**، بدر الدين عرودكي.(مترجم)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010.
- هيئة الإنصاف والمصالحة. **التقرير الختامي: الكتاب الرابع، مقومات توطيد الإصلاح والمصالحة**، إنجاز اللجنة الوطنية للحقيقة والإنصاف والمصالحة، المملكة المغربية: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2006.

المراجع الأجنبية

- Bourdé, Guy & Martin Hervé. *Les écoles historiques*. Paris: Editions du Seuil, 1983.
- *Faire de l'histoire*. Jacques le Goff et Pierre Nora(dir). Bibliothèque des histoires, Paris: Gallimard, 1974.
- *Historiographies I: Concepts et débats*. C. Delacroix [et al.], Folio histoire 179, Paris: Gallimard, 2010.
- Kenbib, Mohammed (ed.), *Temps présent et fonctions de l'historien*, Série colloques et séminaires 158, Rabat: Université Mohammed V-Agdal, Faculté des lettres et des sciences humaines, 2009.
- Soulet, Jean-François. *L'histoire immédiate: Historiographie, sources et méthodes*, Collection U. Histoire, Paris: Armand Colin, 2009.
- Vermeren, Pierre. *Histoire récente, histoire immédiate: L'historiographie française et le cas du Maghreb*, Série colloques et séminaires 158, Rabat: Université Mohammed V-Agdal, Faculté des lettres et des sciences humaines, 2008.

إسماعيل ناشف

صور موت الفلسطيني

يعالـج هذا الكتاب قضيـة ذات خصوصية، وهـي قضية موت الفلسـطيني وصوره المتعددة. يرى الكاتب أنّ طريقة موت الإنسـان مرهونـة إلى حـدٍ بعيد بشـكل النظـام الاجتماعي الـذي يعيـش فيـه؛ فطريقـة الموت، مثـل المـرض والقتل والمـوت الطبيعـي وغـير ذلـك، نسـق سـلوكي مثـل أيّ ممارسـة اجتماعيـة أخرى، يُشـتق مـن النظـام الاجتماعي العام ويتحقق في سياق حياة الفرد الذي سيموت. ويقود هـذا الفهـم إلى طـرح سـؤالين رئيسـين بخصـوص إمكانية دراسـة المجتمـع وفهمـه مـن خلال دراسـة أنمـاط الموت السـائدة فيـه، وإمكانيـة دراسـة المـوت من خلال دراسـة أنماطـه المتباينـة نتيجة تنوّع المجتمعات عـبر أزمنة وأمكنة مختلفـة. ويتناول هـذا الكتاب هذين السـؤالين في سـياق محدد جدًا: الضحية والشـهادة والاستشهاد بما هي طرائق موت، والمجتمع الفلسـطيني الذي يحتّم هذه الطرائق.

وتسـتند المقاربة الرئيسـة في هـذا الكتـاب إلى أنّ طرائق المـوت تتيـح إمـكان دراسـة المجتمـع الفلسـطيني الـذي تعرّض منذ أواسـط القرن التاسع عشر لممارسات متتالية من التفكيـك أقدَم عليهـا النظام الاسـتعماري الغربي بصوره المختلفـة، تمثّـل الصهيونية آخرها. وقد تمكّنـت الصهيونية مـن تفتيـت الكيانية الفلسـطينية إلى جماعات متفرقة تعيـش كلّ واحدة منها على هامش مجتمع آخـر لا يكفّ عن إقصائها وتهميشـها. وعـلى الرغم مـن ذلك، مـا انفكّ الفلسـطينيون ينتجـون ذواتهم بأشـكال متعـددة من الوجـود الاجتماعي والاقتصـادي. ولعلّ المقاومة بما تتضمنه من عنف وموت كانت إحدى آليات إنتاج الفلسـطيني كينونته الفردية والجماعية.

*Noureddine Teniou | نور الدين ثنيو

الذاكـرة والشـهادة في كتابة تاريـخ الثـورة الجزائرية (1954 - 1962)

الثورة التحريرية في التاريخ الراهن

Memory and Testimony in Writing the History of the Algerian Revolution 1954 - 1962
The Liberation Struggle in History of the Present Moment

نعالج موضوع الثورة الجزائرية في شهادة من صنعوها أو عاصروها وذاكرتهم، بالنظر إلى أنّ الثورة حدثٌ تاريخي بدلالتها العظمـى. فقد تـلازم فعل المسـتعمِر الفرنسي مع ردّة فعل المسـتعمَر الجزائـري في لحظة زمنيـة مكثفة بالمعاني السياسـية الجديدة في عالم العلاقات الدولية والتاريخ العامّ. وأسـفرت الثورة التحريرية عن اسـتمرار التاريخ على الرُّنو إلى مزيد من الحرية والعدالة والمساواة على غرار مواثيق ثورات العالم وبياناتها، وهو ما يترتب عليه وضْع حدّ للاستعمار وبداية منعطف جديد لتاريخ تصفية الاستعمار.

إنّ الشـهادة مصدرًا للتاريخ الشـفاهي تعبّر عـن لحظة زمنية تتطابق فيهـا الواقعة التاريخية مع لحظـة البوح بها وفي التَّـو. فصِلَة الشـهادة التاريخية هـي مع التاريخ ذاته ومع الشـاهد أيضا، ومن ثمّـة تأتي خصوصية التاريـخ الراهن الذي صـارت تصنعه المعلومة الفورية والحديث التلقائي والاسـتجواب والخبر الذي تقدمه الوسـائط المختلفة والمتنوعة في أوعيـة وفي طريقة التقديـم. تحتاج رواية الحدث إلى قـوة إدراك وإلى وعي بالذات وبالموضوع، ومـا افتقده المناضل الجزائري زمن الإستعمار هو الوعي الثقافي والسياسي الذي يوسع به خياله ومداركه وملكاته ليحتفظ بعد ذلك بالصورة والمشـهد ، يسـتطيع أن يسرد شهادته في شـكلها الأقرب إلى الصّحة وإلى ما جرى فعلا. ففقدان التواصل ومجاورة الآخر حرم المناضل الجزائري أيضا من إمكان سرد مجريات الكفاح المسلح على أساس خلفية الوجود الجزائري الفرنسي ولو ضدًّا للآخـر.. لكـن الضد الذي يؤكد الأنا ذاتـًا فاعلةً ويؤكد الآخر طرفًا خصمًا يمكن تحديه وتجـاوزه. والذين كانت لهم القدرة على التواصل مع الفرنسـيين هم الذين تصدروا المشـهد السـياسي والدبلوماسي والوجودي العامّ زمـن الثورة، وهم أيضًا الذين استطاعوا رواية تاريخ الثورة التحريرية كفصلٍ ثانٍ من صنع الثورة ذاتها.

Testimony, as a source for oral history, expresses a moment when historical reality identifies with its immediate disclosure: historical testimony thus provides a link with history itself as well as with the witness. In the context of the Algerian revolution, the author notes how narrating the revolution requires powers of perception and an awareness of self and subjectThe loss of contact with the other also deprived Algerian fighters of the possibility of narrating the course of the armed struggle on the basis of the background of the French-Algerian presence. However, the opposition that affirms the self as an active subject and affirms the other as an opponent can be challenged and overcome. Those who had the ability to communicate with the French were those at the forefront of the general, existential, diplomatic and political fronts at the time of the revolution and they were also those able to narrate the history of the Algerian revolution as a second chapter created by the revolution itself.

* متخصص بتاريخ الجزائر، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر.

تقع الثورة الجزائرية في صلب التاريخ الرَّاهن[1]، في مغزاه الدال على إمكان مجايلة الحدث من بدايته، وفي سياقه، إلى آخر مدلولاته ومآلاته. فالثورة التحريرية التي وقعت في الجزائر (1954 - 1962) هي ثورة وطنية بكلّ المعاني؛ لأنّ ميادينها ومواقعها طالت كلّ ربوع الجزائر، بما في ذلك بعض المدن الفرنسية التي شهدت قبل ذلك ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية في نشأتها الأولى وتطوراتها اللاحقة[2]. فالتاريخ الراهن هو تاريخ معاصر في لحظته الحاضرة التي يتفاعل معها الشاهد والمؤرخ في سياق زمني واحد يَفِي بإمكان الوقوف على مدى صِدْقية الشهادة ورواية الحدث من الذاكرة.

إنّ الشهادة كمصدر للتاريخ الشفهي تُعبر عن لحظة زمنية تطابق فيها الواقعة التاريخية لحظة البوح بها في الوقت نفسه. فصِلَة الشهادة التاريخية هي مع التاريخ نفسه ومع الشاهد أيضًا. وهكذا تتحقّق خصوصية التاريخ الراهن الذي صارت تصنعه المعلومة الفورية، والحديث التلقائي، والاستجواب، والخبر الذي تقدمه الوسائط المختلفة والمتنوعة في مجالات معينة، وفي طريقة التقديم نفسها.

هذا التعدّد والتنوع هو الذي صار يحُثّ على عدم الرُّكون المطلق إلى المعلومة مهما كان مصدرها، وإلى التوَجس والرِّيبة من التصريحات والشهادات والأحاديث. والتاريخ من هذه الناحية لا يُكتب بلغة واحدة، ولا برأي واحد، ولا بشهادة واحدة. فقد زاد الوعي بالحقيقة إلى حدّ لم يعُد حديث "الآحاد" يكفي لإضفاء الصدقية على الرواية والشهادة والحديث من الذاكرة. ولعلّ تطوّر العلوم الإنسانية والاجتماعية التي أضحت روافد لدراسة التاريخ وبحثه أمسى يوجد أدوات وطرائق وآليات فحص ونقد ونقض للمادة التاريخية ويجري عليها كلّ المعالجة والتحليل من أجل تبيُّن معقوليتها وإمكان وجودها من عدمه.

لقد جرت حرب الجزائر، بحسب الوصف الفرنسي، بين طرف جزائري متخلف حضاريًا كسبت نخبته وعيًا سياسيًا وثقافيًا من خلال احتكاكها بالحوار والصراع مع الوجود الفرنسي في الجزائر وفي فرنسا من جهة، وسُلطة استعمارية عبّرت عن تطوّر فاسد لتاريخ فرنسا في الجزائر وفي العالم من جهة أخرى[3]. وقد استمر هذا الصراع بين الطرفين إلى ما بعد الاستعمار، وإلى ما يُعرف بـ "حرب الذاكرات"[4]؛ إذ سعى كلّ طرف لمحاولة استعادة الحدث التاريخي وإدراجه في الذاكرة الجماعية للأمة. وفي لحظة ما بعد الكولونيالية، نشطت ذاكرة المستضعفين سابقًا واستطاعت أن تثبت أنّ الأهالي المسلمين الجزائريين كان لديهم ما يقولون، وأنّ بإمكانهم أخذ الكلمة وتقديم مطالبهم وشفْعها بحيثيات معقولة.

---

1 مدرسة الزمن الرّاهن Histoire du temps présent هي منهج ورؤية في التعامل مع تاريخ العالم المعاصر، دعا إليها المؤرخ الفرنسي فرانسوا بيداريدا François Bédarida (1926 - 2001) أستاذ التاريخ المعاصر. وقوام تاريخ الزمن الراهن، أو الحاضر، أنّ الباحث، أو المؤرخ، يمكن أن يقتحم الحدث ويعالجه في لحظته وفي تلقائيته الفورية بوصفه معاصرًا له، على خلاف ما كان يُعتقد في المنهج التاريخي من ضرورة انضواء الحدث إلى التاريخ الماضي؛ حتى تتسنى القدرة العلمية والمعرفية لدراسته، ويمكن إلحاقه بالتاريخ، وفهمه في ذلك السياق. يقول بيداريدا: "ممارسة البحث التاريخي وفق نظرية تاريخ الزمن الراهن هي أن تعدّ هذا الزمن تجربةً معيشةً، ومن ثمة العودة إلى التعريف السليم لتاريخ العالم المعاصر [يعني التاريخ الذي نحياه ونعيشه ونجايله فعلًا]؛ أي التجربة في لحظتها المعاصِرَة. وهذه النظرية تعني، في حقيقة الأمر، مجالًا متحركًا ينطوي على تحقيبات ومراحل مرنة إلى حدٍّ ما، ومقاربات متنوعة وتفكيكات متلاحقة". وتحثُّ دعوة بيداريدا المؤرخَ على بحث اللحظة المعاصرة واقتحامها، وعلى ألَّا يُترك للآخر الذي سيأتي لاحقًا أن يحتكر الفهم السليم للحدث. فللمؤرخ في التاريخ الحاضر دوره، ويكفيه علميةً وصدقيةً أنه عاصر الحدث بكل تجلياته عبر النص والصورة والصوت، الأمر الذي يجعله لصيقًا بالتاريخ ومتفاعلًا معه، انظر:
François Bédarida, "l'histoire du temps présent, revue science humaines," *Sciences Humaines*, no. 18 (septembre - octobre 1997), p. 31.

2 بشأن صلة باريس بتاريخ ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية وتطورها، يمكن العودة إلى كل الكتب التي تناولت نشأة النزعة الوطنية الجزائرية حتى فترة الاستقلال عام 1962. ولعلّ أهم مرجع ركّز في بلاد المهجر والنزعة الوطنية، هو:
Jacques Simon, *l'immigration algérienne en France, des origines à l'indépendance* (Paris: Méditerranée, 2000).

3 انظر، مثلًا، الحوار الذي أجراه فيليب كريم فليسي Philippe Karim Felissi، وهو مؤلف ومحام، مع المناضل والمحامي جاك فرجيس Jacques Vergès الذي يروي حياته أثناء حرب التحرير الجزائرية وانخراطه العضوي في قضية الجزائر، بوصفها قضيةً إنسانية مناهضةً للاستعمار:
Jacques Vergès, *l'anticolonialiste: entretiens avec Philippe Karim Felissi* (Algérie: Chihab Editions, 2005).

4 Benjamin Stora, *La guerre des mémoires: la France face à son passé colonial* (Paris: l'aube, 2012).

الثورة الجزائرية (1954 - 1962) هي حدث نموذجي اندرج في خطِّ تاريخ العالم الحديث والمعاصر، فضلًا عن الراهن، تعاونَ على صنعه الفرنسيون والجزائريون، كما تروي ذلك شهادات وروايات من عاصروها وكتبوا عنها في ذلك الوقت[5]، أو المذكرات التي جاءت في عُقب الاستقلال، بخاصة بعد الحوادث المأساوية التي شهدتها الجزائر في حقبة تسعينيات القرن العشرين. وقد توزَّع هذه المذكرات الذين سجلوها باللغة الفرنسية من الجانب الفرنسي؛ من عسكريين وسياسيين وكتّاب صحافيين، على اختلاف توجهاتهم الفكرية والسياسية، والذين سجلوها من الجزائريين باللغة العربية[6]، والذين رووها باللغة الفرنسية أيضًا[7]. وإذا كان للثورة ما بعدها - وهو أمرٌ موجود فعلًا – من جهة أنّ الذي استطاع أن يستوعب الحدث في الذاكرة والتاريخ هو الذي تمكّن من تمتين مقومات الأمة والدولة كقاعدة محصِّنة للذات الوطنية من أهوال السياسة والحُكم، ومن صُروف الأزمات الاجتماعية والاقتصادية.

سرد التاريخ من الذاكرة

يكتب التاريخ في جانب منه من الذاكرة. وكلما نشطت الذاكرة وأبدت القدرة على التذكر، كانت الكتابة التاريخية أفضل، وأضفى ذلك صدقيةً وجديةً على التاريخ نفسه. وعندما نتحدث عن التاريخ، فإننا نتحدث بالضرورة عن الذاكرة؛ أي عن رواية الحوادث وسردها وعرض المواقف التي مازالت معلّقةً بذاكرة الشاهد.

ما يساعد على تعزيز الذاكرة من النسيان هو حفظ الأرشيف وصَونه. وإنّ تنظيم مراكز الأرشيف والمحفوظات وجمع الوثائق يتماشى فورًا مع إمكان التعويل على الذاكرة ورواية وقائع الماضي. وقد صار الأرشيف في عصر الثورة الجزائرية وما بعدها ثلاثيّ الأوعية؛ فهو صورة، وصوت، ونص. ولا شكّ في أنّ الأرشيف المنظم يساعد الذاكرة فعلًا على التذكر، ويحفز على كشف ما علق بالذاكرة من حوادث الثورة، وعلى تذكُّر حوادث أخرى، وهو ما يخلع على القصة صدقيتها وشرطها الموضوعي.

وبشأن الصلة بين الذاكرة وكتابة التاريخ في الحالة الجزائرية، يمكن أن نورد ما جاء في توضيح استهلال أحمد طالب الإبراهيمي الذي عكف منذ سنوات على كتابة مذكراته التي صدرت منها إلى حدّ الآن ثلاثة أجزاء؛ إذ يقول:" عندما عزمت على كتابة مذكراتي، رجعت إلى أرشيفي الشخصي، وبدأت أفحص كلّ الوثائق والقصاصات والملاحظات التي دأبت في تدوينها منذ أربعة عقود على الأقل، وقد كنت حريصا كلّ الحرص على إصدار الجزء الأول في آنٍ واحدٍ باللغتين العربية والفرنسية تعميمًا للفائدة. ولكني وجدت أنّ الوثائق والمراجع المتوفرة حول الفترة الزمنية الممتدة من تاريخ ميلادي حتى سنة 1965 مكتوبة في جلّها باللغة الفرنسية، وأنها تتعرض إلى مواقف رجال جمعني بهم القدَر في مرحلة معينة ولا يزالون على قيد الحياة، بمعنى أنّ الشهادة لو نُشرت بعدهم لفقدت كلّ قيمة تاريخية وضعفت صدقيتها وتساءل الناس لماذا الآن وليس قبل اليوم؟ ولهذا كتبت هذا الجزء (الجزء الأول) بالفرنسية ودفعت به إلى المطبعة كسبًا للوقت"[8].

5 Yves Courrière, *la guerre d'Algérie* (Paris: Laffont, 1990); Frantz Fanon, *l'an V de la révolution algérienne* (Paris: Maspero, 1959).

6 أنظر مثلًا: أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح** (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982).

7 سنذكر بعضهم لاحقًا.

8 أحمد طالب الإبراهيمي، **مذكرات جزائري** (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006)، ص 7.

في الفقرة الأخيرة من شهادة الوزير السابق ما يدلّ على أشياء عديدة في مسألة كتابة المذكرة، عندما يضع صاحبها في الحسبان الصدقية ومجيء الرواية على ما وقع فعلًا. فثمة جزء كبير من الأرشيف والوثائق كُتِب باللغة الفرنسية، وثمة من يعنيهم تاريخ الفترة التي يتحدث عنها المؤلِّف، فضلًا عن الوقت الذي يجب أن تُكتب فيه المذكرة قبل أن يُعدمها التاريخ.

تجد إشكالية كتابة تاريخ الوجود الفرنسي في الجزائر تعبيرها في الصعوبة التي تعتري الجزائريين في كتابة تاريخهم؛ لأنّ لحظة ما بعد الاستعمار أوجدت مجالًا أكثر لكتابة الفرنسيين تاريخهم وتاريخ الجزائر أيضًا، في حين لم يواكب الجزائريون السيل المنهمر من الكتابات الفرنسية في حقبة الاستعمار والثورة الجزائرية. فبحسب المناضل السياسي عبد الحميد مهري، بقيت مراحل كاملة من تاريخ الثورة الجزائرية مغمورةً، وذلك راجع إلى عدّة عوامل. وإنّ أبرز هذه العوامل يكمن في ضرورة السرية الصارمة التي فرضتها أوضاع الكفاح على الحركة الوطنية الثورية ضدّ النظام الاستعماري.

إضافةً إلى ما قاله المناضل مهري، ثمّة عدّة عوامل أخرى بعد الاستقلال وراء غمْر تلك المراحل من تاريخ الثورة الجزائرية. وإنّ تداخل هذه العوامل في ما بينها قد حدد لدى جيل حركة التحرير الوطني نظرةً ضيقةً للتاريخ لا تزال متواصلةً إلى حدّ الآن (2010) لدى أبطال كثيرين في تلك المرحلة. ولم يتغير استقلال الجزائر في الأوضاع الصعبة والمعقَّدة التي تعرفها هذه النظرة للتاريخ. بل إنّ الأكثر خطورةً من ذلك، بالنسبة إلى مقتضيات الحرب التحريرية، هو ازدياد التلاعب السياسي من خلال المبالغة والتهميش المعمَّم، أو من خلال الطمس الكلي. ومن الأكيد كذلك أنّ النقص من المعلومات وندرة الشهادات والتوثيق في هذا المجال، من العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الممارسات[9].

الثورة الجزائرية أو الحديث الصعب عنها

من صعوبات الحديث عن ثورة التحرير الجزائرية أنّ رواية الحدث لا تجرى بالوفاء التاريخي الذي يحفظ ذاكرة الأمة ويرصد إنجازاتها التاريخية زمن الحرب وزمن السلم. ونقصد بذلك أنّ ربط حزب جبهة التحرير الوطني في مرحلة ما بعد الاستقلال بجبهة التحرير الوطني زمن الثورة عاق على نحوٍ مرهق جدًّا الذاكرة الوطنية عن تواصل الثورة مع الأجيال الجزائرية المتلاحقة. فقد كان لحرص السُلطة على تطابق الحزب مع الدولة، وللعناد في ربط تاريخ الثورة بواقع حياة الجزائريين في الوقت الراهن، وقعهما المُضرّ بالتاريخ المستقلّ للثورة التحريرية، على الرغم من أنّ تاريخ الأمة غير قابل للاحتكار والملكية شأنَ مقوّمات الوطن، والأمة، والدولة. فالتاريخ المستقلّ للثورة التحريرية يعني بالدرجة الأولى الطرفين الفرنسي والجزائري زمن الاستعمار، كما يعنى بالأساس زمن ما بعد الاستقلال الدولتين في مدلولهما المجرد الذي يشمل كلّ الأحزاب، والأفراد، والتيارات الفاعلة في حياة الأمة المعاصرة، سواء كان ذلك في فرنسا أو في الجزائر.

---

9 ورد ذلك في التقديم الذي مهّد به عبد الحميد مهري كتاب المناضل عيسى كشيدة **مهندسو الثورة: شهادة**، وهي شهادة من أهلها تضع البنان على الجرح النازف، وتشير إلى أزمة استعصت على الوعي الجزائري في ما يتعلّق بحقيقة الثورة الجزائرية. وفي هذا التقديم يعيد عبد الحميد مهري النظر في الأطروحة التي سادت إلى الوقت الحاضر. فالخلاف الحادُّ والخطِرُ الذي فَتّ في عضد حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وأفضى إلى حالة انشقاق بين المصاليين والمركزيين، دفع مجموعةً من الناشطين من الحزب نفسه إلى التمرد وإعلان الثورة طريقًا إلى التحرير والاستقلال. وعلى خلاف ذلك يذهب عبد الحميد مهري إلى أنّ بداية التفكير والإعداد للثورة كان عام 1952، عندما عمد الناشطون السابقون في المنظمة الخاصة إلى إعادة هيكلة الحركة الوطنية وتنظيمها حول فكرة الثورة للتنظيم السابق الذي حلّته الإدارة الاستعمارية. ومنذ تلك اللحظة، بدأ السعي فعلًا للبحث عن وسائل الكفاح المسلح والثوري، انظر: عيسى كشيدة، **مهندسو الثورة: شهادة**، موسى أشرشور وزينب قبي (مترجمان)، (الجزائر: منشورات الشهاب، 2010)، ص 8.

طالت فترة حكم حزب جبهة التحرير الوطني، وطالت معه أيضًا فترة احتكاره واستغلاله لرصيد الثورة التحريرية التاريخي وتوظيفه إيّاه في التستر على إخفاقاته وتعثّره في إنجاز تنمية وطنية شاملة تخلو من الاحتكار والاستحواذ، بما في ذلك الاستحواذ على تاريخ الثورة نفسها. فتطابقُ الحزب مع الدولة هو الذي حال دون إمكان استقلال التاريخ بنفسه ليُعبر عن كلّ من صنعوه، ومن شاهدوا ما جرى وما حدث، ومن كانت لهم أيضًا مواقف أخرى ووجود مختلف، مهما كانت مراكزهم الاجتماعية وانتماءاتهم العائلية وثقافتهم السياسية. واقع الحال الذي تعاملت معه السُلطة في الجزائر هو أنّ رزنامة الاحتفالات والأعياد التاريخية الوطنية كلّها تصبّ في الدعاية للدولة التي تتوكأ سياسيًا وأيديولوجيًا وإعلاميًا على تاريخ الثورة التحريرية. ومن هذه الناحية، يمكن أن نجزم بأنّ هذا الربط بين الدولة، أو السُلطة، وجبهة التحرير[10] هو العائق الأكبر لظهور الديمقراطية في الجزائر.

كانت الثورة التحريرية، كما يقال وكما كُرّست في التداول العامّ، ثورةً شعبيةً، بطلها الحقيقي هو الشعب. فلقد ثارت كتلة بشرية على الوضع الاستعماري، وسعت بكلّ جهدها لنيل الاستقلال. لكنّ الثوريّ، كما حاول أن يعرفّه فرانز فانون Frantz Fanon، وهو المارتينيكي الذي جاء ليعايش الثورة الجزائرية عن كثب، هو "ذلك الفرد الذي أدرك أنه لا يملك ما يخشى عليه عندما ينخرط في الثورة، وأنه قد يستفيد من نجاحها، ولا يضيّع أيّ شيء في حالة فشلها؛ لأنه أصلًا في عداد المعدومين، أو'معذبي الأرض'"[11].

لازمت هذه الحقيقة الفئات الشعبية المعدمة لحظة الثورة وسيرورتها إلى الاستقلال. لكنّ لحظة ما بعد الكولونيالية تتطلب قدرة الوعي، وقوّة الذاكرة وحيويتها؛ لاستعادة المشاهد والمواقف؛ أي كلّ ما يكشف عن ذات عارفة لما يناط بها من إعادة صنع تاريخ الثورة التي تجرى بمقتضيات غير السلاح والخطاب الثوري. وإنّ لحظة ما بعد الكولونيالية لا تتعلق بتحرير الوطن بقدر ما تتعلق، هذه المرة، بالوعي الشديد الذي يجري به الحديث، وسرد رواية الثورة وتاريخها ونطاقها المكاني.

الكلام على الحوادث التي جرت في الجزائر وفي فرنسا في الفترة 1954 – 1962، وعلى الأجواء التي خيّمت عليها وكذلك السياق التاريخي الذي رافقها، هو كلام صعب؛ لأنه لا يتطلب القيام بعملية تفكيك كلّ البناء الأيديولوجي والسياسي الذي شيّده الطرفان الفرنسي والجزائري فحسب، بل إنه يتطلب أيضًا تجريد تاريخ ثورة التحرير من الأساطير والخرافات والأفكار المسبقة، وما ساد من أخطاء شائعة حامت حول الثورة[12]. وفي ما يلي نذكر أمورًا تحتاج إلى إعادة توضيح معقول:

---

10 بعد حوادث تشرين الأول/ أكتوبر 1988 التي أفضت إلى انفتاح الوضع العامّ في الجزائر على بداية التعددية، ظهر في هذا السياق أيضا توجُّه يرمي إلى فصْم عرى السُلطة عن جبهة التحرير الوطني التي صنعت الثورة، وأدّى ذلك فعلًا إلى تنامي هذا التوجه إلى حدّ تنظيم أول انتخابات تشريعية تعددية في نهاية عام 1991، وقد شهدت تراجعًا واضحًا لحزب جبهة التحرير الوطني أمام التيار الإسلامي، وهو التيار الجديد على الساحة السياسية. ومنح فوز الإسلاميين الساحق السلطةَ مؤشرًا قويًّا حتى تعيد النظر في مسألة جبهة التحرير الوطني من أجل إبقائها فاعلًا وحيدًا في ساحة العمل السياسي والانتخابي وتجنيبها أيّ منافسة حقيقية لها. فهي حزب الدولة أو السُلطة، والسُلطة يجب أن تبقى. فالوضع السياسي العامّ، بمعنى آخر، يُرتَّب ويهيَّأ، ليواصل حزب السُلطة سلطةَ الحزب كأفضل آلية لاستمرار دولة الحزب أو حزب الدولة. وبشأن هذه الأزمة التي ولجت فيها الجزائر بسبب إخفاقها في تجربتها الديمقراطية مع مطلع تسعينيات القرن الماضي، انظر:
Benjamin Stora, *l'Algérie en 1995: la guerre, l'histoire la politique* (Paris: Michalon, 1995).

11 Frantz Fanon, *Les damnés de la terre* (Paris: Gallimard, 1991).

12 من الكتب المهمة التي تناولت حدث الثورة وجبهة التحرير الوطني كتاب المناضل والمؤرخ الجزائري محمد حربي:
Aux origines du FLN: le populisme révolutionnaire en Algérie (Paris: Christian Bourgeois, 1975).
فلقد كان هذا المؤلِّف من أوائل من تنبهوا لما يمكن أن ترتبط به رواية الثورة وتقديم الشهادات عنها من أساطير وأفكار مسبقة وأوهام. وجاء كتابه الثاني بشأن الثورة التحريرية بعنوان **سراب وحقيقة: أصول الاستيلاء على السلطة (1945 - 1962)**، لافتًا النظر إلى حقائق لم تُذكر، ولم تكن من معهود الجزائر طوال استقلالها في ظلِّ الحزب الواحد إلى حدِّ التسعينيات. ومحمد حربي مثقف جزائري ومناضل سياسي زمن الثورة ومعارض للحكم زمن الاستقلال، وهو يساري، يكتب في تاريخ الحركة الوطنية والثورة

أيجري الحديث عن ثورة أم عن حرب؟ أيجري عن حوادث داخلية، كما يراها الطرف الفرنسي، أم عن مقاومة مسلحة وسياسية ضدّ الاستعمار الفرنسي، كما كانت تراها جبهة التحرير الوطني؛ أي التنظيم الذي فجّر الثورة في يوم الأول من نوفمبر / تشرين الثاني عام 1954؟

لقد عمدت جبهة التحرير الوطني الفصيلة المنحدرة من حزب الشعب الجزائري/ الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، إلى الإعلان عن الثورة التحريرية ضدّ الاستعمار الفرنسي، بعد كفاح سياسي طويل ومرير إلى حدّ الملل وفقدان أمل الإصلاح من الطرف الفرنسي، وبعد أن دخلت الحركة الوطنية الجزائرية بجميع أطيافها وتعابيرها مأزقًا تاريخيًا وحضاريًا احتقن على نحوٍ خطِر عام 1953، وصار يبحث عن متنفس له في ثورة تتجاوز حالة الاحتقان الوطني المحلي وتتخطى الوضع الاستعماري الفرنسي والدولي.

أمّا الجانب الآخر من الحديث الصعب في الحالة الجزائرية والفرنسية خلال حقبة الثورة، فهو عدم وصف فرنسا لما كان يجري في ذلك الوقت بأنه حرب حتى لا يظهر الوضع حربًا أهلية بين سكان يخضعون للدولة الفرنسية في إقليم ما وراء البحر بسطت عليه سيادتها منذ 1830، ومن ثمّة يجب أن تتحمّل نتائج الحرب في الآن[13] والمآل[14].

تاريخ الثورة الجزائرية تاريخ معقَّد

إنّ تاريخ الثورة الجزائرية بوجه خاص، وتاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر بوجه عامّ، تاريخان معقّدان وشائكان يحتاجان إلى توجس، وإلى حيطة وحذر، وهو أمر يتطلب درايةً لمتاهته ومسالكه الوعرة؛ ويُعزى ذلك إلى وضعه الاستثنائي غير العادي، لكنه في جميع الأحوال رتّب أوضاعًا لدى الطرفين الفرنسي والجزائري يصعب تخطيها بسهولة، أو التغاضي عنها بأيّ نوعٍ من التغاضي. وإذا كان الاستثناء معقّدًا، فإنّ صعوبته تزداد لدى الباحث جزائريًا كان أو فرنسيًا. فكلاهما مضطر إلى الالتفات إلى وضع الجزائريين وهو يكتب عن المؤسسات الفرنسية، أو إلى الفرنسيين وهو يكتب عن حياة الجزائريين. ومحاولة كتابة المرحلة الاستعمارية خصوصًا، وحقبة الثورة التحريرية عمومًا، تدفع إلى بحث أكثر صعوبةً؛ لوجود وضعيات متفاوتة ومتباينة ومختلفة، إنْ لم نقل متناقضةً تناقضًا صارخًا. وليس ذلك بسبب تعدّد العوامل الدينية من مسلمين ومسيحيين ويهود

التحريرية باللغة الفرنسية. ويتموقع من جهة البحث والتفكير في قضايا الجزائر ما بين الضفتين الفرنسية والجزائرية، فهو لا يبتعد كثيرًا عن المجال الفرنسي، ولا يقترب كثيرًا من المجال الذي اختاره حزب جبهة التحرير الوطني للجزائريين: مواصلة الحرب على الاستعمار الفرنسي ولو على سبيل الافتراض والوهم، أنظر:
Mohamed Harbi, *Le FLN Mirage et Réalité: Des Origines à la Prise du pouvoir (1945 - 1962)*, (Paris: Jeune Afrique, 1980).

13 بالنسبة إلى الطرف الجزائري، ثمّة تصميم حقيقي على خوض ثورة تحريرية بالكفاح المسلح والنضال السياسي حتى تحقيق النصر باستقلال الوطن الجزائري. وعلى خلاف ذلك، كانت السُلطة الاستعمارية ترى أنّ ما يجري في الجزائر لا يعدو أن يكون عمليات إرهابيةً يرتكبها إرهابيون، وحوادث داخليةً تحتاج إلى إخماد بالقضاء على "الإرهابيين" و"الفلاَّقة" و"قطَّاع الطرق"، عبر إجراءات ردعية وقانونية بحوزة السُلطة الفرنسية. فالحكومة الفرنسية لم تكتفِ بالقوة العسكرية والأمنية والإجراءات التعزيرية في مواجهة الجزائريين، بل سخّرت كلّ ما أمكنها من مبررات حتى يُعدَّ ما يجري في الجزائر مسألةً داخليةً، بخاصة بعد ما صارت الأمم تنظر في القضية الجزائرية بوصفها حالةَ استعمار.

14 ظلّت الدولة الفرنسية، حتى بعد استقلال الجزائر عام 1962، لا تعترف بأنّ ما جرى في الجزائر خلال حقبة الثورة التحريرية كان حربًا. وليس ذلك لأسباب كانت قائمةً في ذلك الوقت فحسب، بل أيضا لسبب آخر هو عدم الاعتراف لكل من جنّدهم الفرنسيون في تلك الحرب بصفة محارب لئلَّا تترتب على ذلك مستحقات، علاوةً على مستحقات قدماء المحاربين. من أجل ذلك، لم يتم بتّ هذا الأمر وحسْمه إلا بعد تصديق البرلمان الفرنسي ما عُرف بـ "قانون حرب الجزائر" عام 1999؛ أي بعد زوال ضغط الذاكرة الجماعية على أجيال من الفرنسيين، وبعد عناد من شاركوا في حرب الجزائر من الفرنسيين في مطالبهم. بل زادوا على ذلك مع من عُرفوا بـ "الأقدام السوداء"، وهم الفرنسيون الذين وُلدوا في الجزائر ونزحوا إلى فرنسا في أعقاب استقلال الجزائر عام 1962، عندما قدَّموا مشروع قانون إلى البرلمان الفرنسي يُقرُّ بأنّ ما قام به الاستعمار الفرنسي زمن الإمبراطورية الفرنسية في ما وراء البحار كان من الأعمال الإيجابية والنافعة التي تتطلب التقدير والاعتراف بالجميل (مشروع قانون 25 شباط/ فبراير 2005).

فحسب، بل بسبب التفاوت في المراكز الاجتماعية والسياسية والقانونية أيضًا، علاوةً على هيمنة إفراز الممارسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر طوال أكثر من قرن.

فالتباين يشير إلى المستعمرين، وهم مواطنون فرنسيون، حتى إن كانوا من أصول وطنية مختلفة (مالطية، أو إيطالية، أو إسبانية، أو برتغالية) يسري عليهم قانون الدولة الفرنسية على أساس من الجنسية. في حين أنّ الجزائريين المسلمين الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية في عُقب الحرب العالمية الأولى، بناءً على مرسوم 19 شباط/ فبراير 1919 وبعده، وهم قليلون، لا يحظون بحق المواطنة، بل إنّ مركزهم أقل من المواطنين ذوي الأصول الأوروبية، وأقل من اليهود الأهالي الذين حازوا الجنسية الجماعية عام 1870، بموجب مرسوم كرمييه Crémieux، وصاروا فرنسيين لهم كامل حقوق المواطنة الفرنسية. لكنّ هذا المركز القانوني والاجتماعي عمّق هُوةً بينهم وبين الأهالي المسلمين، ورتَّب حالةً من الامتعاض لدى المسيحيين (في مستوى الشعور الديني)، وفي مستوى مزاحمتهم للامتيازات والصلاحيات التي جاؤوا من أجلها إلى الجزائر.

كل هذا التنوع الإثني والديني والاجتماعي، كانت له تداعيات في المستوى السياسي بشأن اتخاذ المواقف والتوجهات، الأمر الذي يحتّم تباينًا واضحًا وبينًا في سرد الحوادث وروايتها لاحقًا، عندما يستعيد الفرد زمام أمره، ويبدأ تسجيل شهادته في الفترة التي عاشها بلا رقيب، ولا قيد لضميره أو رأيه السياسي، أو الفكري؛ لأن كلّ شيء صار ينتمي إلى التاريخ. والمطلوب هو استعادته، حتى إن كانت هذه الاستعادة قريبةً من الذات وعبرها على نحوٍ يُمكن قراءتها وفهمها موضوعيًا. بمعنًى آخر، كلّ شيء قابل للسرد والحديث فيه وروايته بطريقة أفضل تساهم في فهم الماضي وإضفاء المعقولية عليه، بالنظر إلى أنه كان ماضيًا ناقصًا في زمانه؛ أي إنّه لم يفصح عن كامل ما في جعبته، حينئذ، بالشفافية والعلانية والصراحة بحسب ما يقتضيه الوضع، وبالنظر إلى الحالة الاستعمارية الاستثنائية. فقد كان يصعب على الفرد أن يتكلم بالعفوية والصدق والتلقائية لأسباب سبقت الإشارة إليها متعلقة بتعقيد الوجود السكاني في الزمن الاستعماري الحادّ والخطِر.

كان يهود الجزائر زمن الاحتلال مجموعةً من الأهالي الجزائريين مثلهم مثل الأهالي المسلمين حتى عام 1870، ثمّ صاروا يحملون الجنسية الفرنسية بموجب مرسوم كرمييه. كانوا يعرفون أنفسهم بأنهم يهود الجزائر بالهوية، والواقع، والتاريخ، والمصير أيضًا. أمّا حصولهم الجماعي على الجنسية الفرنسية، فزاد مركزهم الاجتماعي والنفسي إرباكًا تجاه الفرنسيين والجزائريين المسلمين. وعلى خلاف ذلك نجد أنّ صورتهم بعد استقلال الجزائر تظهرهم لدى الجيل الجديد من الجزائريين بوصفهم امتدادًا للكولون، وجزءًا من الاحتلال الفرنسي؛ بسبب فكرة الاستقلال ونشوتها الجديدة في حياة الشعب الجزائري وشعوب أفريقيا، وهو الأمر الذي حُرِمَه الفلسطينيون نتيجة الاحتلال الصهيوني للأرض الفلسطينية. هكذا إذن تواطأت الذاكرة الجماعية مع زيف التاريخ لإبعاد طائفة يهودية كانت قائمةً وموجودةً.

شهادة اليهودي الجزائري، كما يقدمها عن الجزائر التي عاشها إلى حدّ الثورة التحريرية، تختلف عمّا استقر عليه الوعي الجديد من الجزائريين في مرحلة ما بعد الاستقلال. ولعلّ شهادة وليام سبورتيس William Sportisse إحدى الشهادات الدالة على ما كان عليه يهود مدينة قسنطينة التي ولد وعاش فيها إلى ما بعد الاستقلال. ففي كتابه الذي يتناول فيه عبر الحوار حياته وحياة عائلته، وبخاصة حياة أخيه المناضل الكبير لوسيان سبورتيس Lucien Sportisse، يروي وليام سبورتيس حياته بوصفه مناضلًا جزائريًا مناهضًا الاستعمار ويساريًا معاديًا للرأسمالية البغيضة، مثله مثل الآلاف من المسلمين الجزائريين الذين جذبتهم الحركة الشيوعية واليسارية إلى النضال السياسي والنقابي والاجتماعي؛ من أجل وضع حدّ للاستغلال الاستعماري

وحيفه وظلمه. ويتحدث أصالةً عن نفسه، بوصفه رفيقَ دربٍ للمناضلين اليساريين على اختلاف أصولهم ومكانتهم القانونية ومراكزهم الاجتماعية[15].

تتعدّد الذاكرة بتعدّد الأشخاص الذين يرومون رواية الماضي أو كتابته. وأبرز ما يظهر التعدّد والتباين والاختلاف عند سرد الشهادة متعلّقة بحوادث الماضي ووقائعه وتقديمها. فالماضي لا يريد أن يمضي بسبب عصريته؛ أي انتمائه إلى التاريخ المعاصر. وإنّ الانتقال من زمن إلى آخر يتطلب عند استعادة الزمن الأول يقظة ضمير ووعيًا فائقًا حتى يتفوق على الشطط، والخطأ، والتزييف، ويسعى على قدر ما تفي به الذاكرة وكلّ حياة الإنسان النفسية والفكرية للاتصاف بالصدق، والرصانة، والعفوية السَّلسة التي لا تتكلف في إعادة صنع الحدث على خلاف ما وقع؛ لأنّ محاولة رواية الماضي حتى مع الحرص على الصدق فيه إعادة بناء، مهما كان نوع هذا البناء. لكنْ هذه المرةَ، تكون إعادة بناء الحدث أمرًا محمودًا؛ لأنّ بين الذات والماضي حقبةً زمنيةً لا يمكن ردمها، بل إنّ هذه الحقبة هي التي تؤكّد أنّ الذي يجري الحديث عنه يقع فعلًا في الماضي.

إنّ رواية حدث يقع لاحقًا مثل حدث الثورة الجزائرية يروم أن يفسر السابق ويتوقف عنده؛ ليتذكره ويصفه ويدلي بشهادته بشأنه لعله يميط اللثام عن بعض حقائقه، تحتاج إلى امتلاك لغة الرواية وسرد الحدث. وإنّ مسألة اللغة، بالنسبة إلى الجزائريين والفرنسيين على قدر كبير من الأهمية، وهي تبدو معركةً متأخرةً عن ثورة التحرير يجب إتمام الانتصار فيها؛ ليعود التاريخ إلى أهله، واستحقاقه عن جدارة. لكنّ الجزائريين، صراحةً، ربما أظهروا عجزًا صارخًا عن محاولة امتلاك التاريخ على صعيد الذاكرة وعلى صعيد كتابته العلمية أيضًا[16].

لقد جاءت اللغة الشامتة بالاستعمار والمندِّدة به في وقت لاحق باستقلال الجزائر، وساهمت بقدر وافر في إعادة بناء الخطاب التاريخي للثورة الجزائرية والتاريخ الاستعماري برمته. فعند الوقوف على الخطاب النضالي في وجهه السياسي والأيديولوجي الذي واجه به المناضلون الجزائريون السُلطة الاستعمارية نجده، بالنسبة إلى الوضعية الثورية التي عاصروها وتفاعلوا معها لكسب قضية شرعية، من الأمور المعقولة؛ إذ كان الخطاب النضالي يتصف بلغة سياسية وموضوعية تقتضيها حالة شعب يرغب في الاستقلال ويلحُّ في أمره.

الحقيقة أنّ الآلاف من المجاهدين الذين ساهموا في الثورة التحريرية الكبرى بمقدار أو آخر، انتظروا طويلًا لكي ينكبوا على سرد مجريات الثورة وكتابة مذكراتهم، وهذا ما ضيّع لحظات مهمّةً في مسار تاريخ الجزائر اللاحق بالثورة والاستقلال. كما أنّ القليل من المجاهدين ومن عايشوا الحدث تحدثوا عن الثورة وتداعياتها عبر وسائط من الصحافيين والكتاب الذين صاغوا مسيرة الكفاح الثوري بلغة لم تكن تفصح كثيرًا عن خيال صاحب الشهادة وتصوُّره. فقد كانت توجد مسافة من المعنى بين المتحدث والمتلقي الذي يكتب ويصوغ. علاوةً على ذلك، فإنّ القدر الزهيد من المذكرات التي وصلت إلى المطابع كانت تعاني – خاصة المذكرات التي

---

15 William Sportisse, *Le camp des oliviers, parcours d'un communiste algérien, entretiens avec Pierre-Jean Le Foll-luciani* (Algérie: El Ijtihad, 2013).

وثمّة بيبليوغرافيا كاملة لمؤلفات يهود الجزائر، ترسم لهم أيضا صورةً أخرى غير التي استقر عليه وعي الجزائريين بعد الاستقلال، انظر على وجه الخصوص أعمال الباحث والمؤرخ الفرنسي اليهودي بنيامين سطورا Benjamin Stora الذي وُلد في الجزائر، وهو أحد المراجع المعتمدة في دراسة تاريخ الجزائر المستعمرة. ومن بين تلك الأعمال كتابه: *Les trois exils: juifs d'Algérie* (Paris: Pluriel, 2006).

16 انظر مقالة المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله "الخوف من تدوين التاريخ عند الجزائريين" في: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج 1 (الجزائر: دار البصائر، 2007)، ص 43 - 50.

صدرت باللغة العربية – الدقةَ والخطاب الرصين والصادق، وهي مسألة موضوعية. فقد عانت الجزائر، في مستوى اللغة والتعبير، مشكلةً لغويةً خطِرة مسَّت هويتها الوطنية. وعجزت المنظومة التربوية والتعليمية عن إيجاد لغة عربية سلسة واضحة تحقق التواصل بين الجزائريين في مستوى التعبير السياسي والفكري، وبينهم وبين المجتمع والسُلطة السياسية أيضًا. وبسبب ذلك حُرم الشعب الجزائري أداة تواصل حيويةً تفصح بوضوح عن مكامن الذات وخطابها الشخصي، على نحوٍ مؤدٍّ إلى إقناع الآخر والتفاعل معه. وإنّ طريقة رواية الثورة التحريرية لا يُستشف منها التواصل الوجداني والنفسي، ولا وضع الذات التي هي موضوع الامتحان عند تقديم الشهادة، على خلاف المذكرات التي صدرت عن فرنسيين وجزائريين رووا مسيرة الثورة باللغة الفرنسية.

الأنا المتكلم وصعوبة تقديم الشهادة

واجهت رواية تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية عوائق وصعوبات لا تعزى إلى حالة التعقيد التي لازمت تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولا إلى الضغط السياسي والأيديولوجي الذي ساد عقودًا من الاستقلال الوطني فحسب، سواء كان ذلك في الجزائر أو في فرنسا إلى حدّ ما. بل إنّ الأمر الصعب يعزى أيضًا إلى الذات التي حاولت أن تتحدث عن تجربة المناضل الجزائري لحوادث الثورة. فقد افتقرت هذه الذات إلى لغة الحديث والتعبير الذي يستوعب الحدث والموقف ويتفاعل بصدق معه، من دون افتئات، أو اختزال، أو تشويه، أو تزييف. وفي أغلب الأحيان، لم تطاوع المناضل الجزائري اللغة التي عبَّر بها عن مجريات الثورة، سواء كان ذلك في جانبها العسكري، أو السياسي، أو حتى في الحياة اليومية، على نحوٍ يكشف فعلًا حقيقة ما وقع. فعلى الرغم من أنّ السرد ورواية الحياة الماضية يجرى عبر الذاكرة المفعمة بالذاتية والخيال، فإنّ جلّ المذكرات وردت خاليةً من البعد الذاتي الذي يُضفي خاصية التفرد وما هو شخصي وخصوصي لصاحب الشهادة.

إنّ الحديث عن الماضي لا يتعلق بشخص واحد بقدر ما يتعلق بكل الذين عاصروا الثورة التحريرية، بوصفه أفضل سبيل إلى معرفة ما جرى وكيفية جريانه. فالذَّات وهي تسرد الوقائع تكون في حالة من الإدراك والوعي لا يضيع في زحمة الحاضر وضغوطه ولا أهواء النفس وطموحاتها المنفلتة، وتبدي قدرةً على النأي عن الأغراض والأطماع عير المستحقة؛ أي إعادة التصرف في التاريخ الذي هو ملك الأمة وليس ملكًا الأشخاص. بناءً على ذلك، فإنّ عملية استعادة الماضي واستحضاره هي لمصلحة الأمة. وهذه الاستعادة تصبّ في الذاكرة الجماعية وبها يتعزّز سند الدولة، والمجتمع، والعالم بأجمعه أيضًا. وإنّ الوقوف على حقيقة ما وقع يضطلع به كلّ من عاصر تجربة الثورة التحريرية وعاشها بكلّ تراكمها وعنفها. ومن خلال تقاطع الشهادات والتقائها واختلافها، تظهر الحقائق التي يستعين بها الباحث في كتابة التاريخ وتحليله.

ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الشهادات مدونةً في كتبٍ لمناضلين جزائريين شاركوا في الثورة التحريرية. وفيها، لا يظهر الأنا المتكلم على نحوٍ جليٍّ يقّرب الموضوع من الذات، أو يمكّن الذات من الاقتراب من الموضوع المراد روايته. فالمجاهد عمر شيدخ العيدوني، مثلًا، يروي في شهادته المتعلّقة بالثورة التحريرية، وقائع الثورة في المنطقة الثانية كما عاشها، ويخص ناحية "أولاد عيدون" ودورها في هذه الثورة. وفي هذه الشهادة لا يتحدث المجاهد بأناه الخاصّ مباشرةً بقدر ما يبوح بتاريخ الثورة إلى من يكتب له، إلى كاتب صحافي تحديدًا.

فالمجاهد - كما يذكر هو نفسه - مناضل بسيط، متابع لشأن الثورة ومساهم فيها على قدْر مستواه في التنظيم. ويقول عن السياق الذي جعله يلتحق بمناضلي الحركة الوطنية من حزب انتصار الحريات الديمقراطية: "كنا نسكن في مشتة 'عرفة' على بعد كيلومترين تقريبًا من المدينة، وكنت أراقب عن كثبٍ نشاط المناضلين، واقتربت أكثر من أعضاء حركة الانتصار، فآمنت بهم واقتنعت بما يحملون من أفكار وتصوّرات لأنها كانت تُعبر بصدق عن أحاسيس كانت تخالجني، فلازمتهم وازدادت ثقتي بهم، فنلت ثقتهم بدوري، وأصبحت واحدًا منهم، وبدأت أكتشف أشياء كثيرةً عن تنظيمهم وطبيعة عملهم فازداد حبِّي لهم وقناعتي بهم، وأكثر ما شدّني إليهم أفكارهم السامية، وهِمَمهم العالية، ونفوسهم الكبيرة، فقد كانوا مثالًا للخُلق الرفيع والسريرة الصافية، يعينون الضعيف وينصرون المظلوم ويغيثون الملهوف من أبناء بلدهم البسطاء. ولشد ما كانوا يكرهون الاستعمار وأدواته"[17].

ذلك ما كانت عليه حالة المجاهد شيدخ قبل الثورة، فهو من أنصار الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي منها انبثقت نواة المجموعة التي قررت التحضير وإعلان الثورة وتنفيذها. وإنّ حياة المجاهد هي حياة عادية جدًّا، وشهادته تصدق على الآلاف من الذين ناضلوا في صفوف الحزب وشاركوا في الثورة. لكنّ محاولة استعادة وقائع الثورة ومجرياتها وسيرورتها هو الامتحان الصعب عندما يراد للجزائر أن تفترض استمرار الحرب على المستعمر، حتى وإن استقلت عام 1962[18].

يقتضي الوعي بتاريخ الثورة التحريرية حديثًا عنها بوصفها وضعًا لازم الجزائريين والفرنسيين أيضًا؛ لأنّ الحرب قامت أصلًا بينهم جميعًا. ومن ثمّة، تندرج الثورة في ما يُعرف بـ "التاريخ المشترك" الذي يشترط الرؤى المتقاطعة في مستوى المقاربة والمنهج. لكنّ هذه الطريقة في التعامل مع التاريخ الفرنسي في الجزائر لم تُستسغ بعدُ، بخاصة من الجهة الجزائرية، وهي مستبعدة من البحث العلمي والتاريخي.

على خلاف التجربة السابقة، نجد تجربةً أخرى للمناضل محمد حربي الذي كتب مذكراته[19]، وحاول منذ البداية أن يعصم نفسه من الزلل وطيش الهوى من خلال رواية الحوادث من الذات؛ لكي يمد التاريخ بأكثر ما يمكن أن يُفهم ويُعقل ويُقبل أيضًا. وفي هذا السِّياق تتمثّل المقاربة بسرد التاريخ الذي عاصره صاحبه ويطلق عليه "أنا - تاريخ"، وهي مقاربة تنطلق من الذات لكي تروي وقائع الماضي بوصفه ماضيًا لصاحبه؛ أي إنه هو الذي رواه، لتصبح قصةً تاريخيةً تُعرِّف صاحبها.

وبدايةً من التمهيد لجأ المناضل والمؤرخ محمد حربي إلى تقديم العوامل التي تستدعيها مغامرة سرد تجربة كفاح. فقد كان على وعي كبير بمسألة التزييف والتحريف في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية، كما أنه يدرك صعوبة رواية الحدث من طرف واحد، أو من جهة رسمية، والبطانة الأيديولوجية التي يمكن أن ترتبط بالتاريخ بمعناه النبيل، ويدرك الحزْف الكبير أيضًا. الحقيقة، أنه لا تاريخ إلا من خلال الأشخاص الذين عاشوا الحدث وتفاعلوا مع نوازله وسياقاته، ثمّ راحوا بعد حين

---

17 عمر شيدخ العيدوني، **مملكة الفلاقة** (عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2011)، ص 30.

18 في تقديمه لكتاب **مملكة الفلاقة**، يقول الإعلامي بلال بوجعدار: "والظاهر أنه هو الذي صاغ شهادة المجاهد عمر شيدخ: **مملكة الفلاقة**، رسالة رجل التفجير، إلى جيل البناء والتعمير، ليواصل المعركة بعزم وثبات، فعدوُّ الأمس مازال متربصًا، وإن بدّل جلده وأسلوبه، ولن يغفر أبدًا للأجيال الحاضرة والآتية ما فعل به الأوَّلون، فليأخذوا حذرهم ويحموا مكتسباتهم وليعدُّوا ما استطاعوا من قوة فالحرب سجال وأبدًا لن تنتهي"، ص 8.
وإنّ الاعتراف بوجود معركة مع عدو أمس هو ضرب من افتراض الاستعمار، وتعليق لكلِّ الإخفاقات التي مُنيت بها تجربة بناء مؤسسات الدولة الديمقراطية، ومن ثمّة تعليق التخلف والفساد المالي والعمراني والإداري بالاستعمار. فحتى بعد خمسين عامًا من الاستقلال، مازال وهْم الاستعمار يطارد حياة الجزائريين ويجبرهم على التعامل معه بوصفه حالةً واقعةً، وبوصف معركة التنمية الوطنية جزءًا من الحرب على مستعمر الأمس الذي لم ينقضِ بعد.

19 Mohammed Harbi, *Une vie debout: Mémoires politiques 1945 - 1962*, vol. 1 (Algérie: Casbah, 2001).

من الدهر يحاولون استعادة اللحظة الماضية، واستبطانها، والبوح بها، بالقدْر الذي تكون مفهومةً وواضحةً لدى الأجيال التي جاءت لاحقًا؛ لكي تتواصل مع التاريخ بأيّ نوع من التواصل كان.

يروي محمد حربي في مذكراته قصة حياته أثناء الثورة، وقد عهد إلى زميله أندري أكُّون André Akoun أن يطارده بالأسئلة ويلاحقه بالنقد الذي يتحرى الصدق والحقيقة؛ حتى تُلجم الذات عن الجنوح كثيرًا إلى الملاطفة والنرجسية، ويلزم نفسه العودة كلّ مرة إلى جادة الطريق والاعتصام بها إلى نهاية القصة. وممّا أعان أيضًا محمد حربي على تحرّي الموضوعية والكتابة السلسة الملتزمة قدْر الإمكان، وأعاده إلى ما كان يدور في هذه الثورة، لغته الفرنسية. فقد كان متقنًا للحديث السياسي والواقعي والتزام الموضوعية في التعبير بهذه اللغة، بعد ما جرى تجريد كثير من الكلمات خلال حقبة الحداثة، حتى أنها صارت تحمل دلالات اصطلاحيةً حديثةً ومعاصرةً، وخُلِّصت من عدّة حمولات إنشائية وبلاغية كثيرة.

يعترف حربي بأنّ ما سَيُقْدم عليه من رواية ماضي ثورة التحرير ليس بالأمر الهيّن؛ لأنه مناضل سابق، ومثقف، ورجل سياسي، فضلًا عن أنه باحث في التاريخ، ومعارض للسُلطة منذ انقلاب جوان 1965. وهو لم يُقدم على رواية قصة حياته من جهة فردية بقدر ما حاول أن يساوق البيئة الاجتماعية والسياسية التي عاشها وتحكمّت فيه أيضًا. إنه فرد لا يبتعد عن الجماعة؛ لأنّ الجماعة تحتاج إليه لحظة سرد الوقائع وشرح المواقف. وفي هذا المدخل المؤطِّر لرواية التاريخ، يتساءل المؤلف: "لماذا هذه المذكرات؟". من خلال تجربتي، أريد أن أفهم الطريقة التي جرت فيها حوادث مهمّة جعلت الجزائر، ومنها بلدتي في الجزائر، تنتقل من عالم تقليدي، ومن عيش حالة من التعقيد والوقوع تحت تأثير الحداثة؛ بحكم وجود الاستعمار، إلى الجزائر الدولة التي لم تتعزّز بعدُ كاملةً. يتعلق الأمر، في هذه المذكرات، بتسليط الضوء على مصائر، وليس ذلك انطلاقًا من حياة خاصة - حتى وإن جرت بصيغة الضمير المتكلم – بل بحياة الجماعة"[20].

ثمّة حالة أخرى لرواية حرب التحرير من جهة بعض الجزائريين الذين شاركوا فيها كفرنسيين جنَّدتهم الحكومة الفرنسية لإخماد الوضع وتسويته على غرار ما يُحفظ النظام العامّ من القلاقل التي يمكن أن تنتاب الحياة العامة في البلد. فقد وُجد جزائريون انخرطوا في مؤسسة الجيش الفرنسي ووصلت إليهم الثورة وهم في كنفه، وكانوا قد شاركوا في بداية الأمر في تنفيذ إجراءات حفظ الأمن قبل قيام ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر 1956. وبعد مؤتمر الصومام، سارع الجزائريون المجنَّدون تحت العلم الفرنسي إلى الهروب من الثكنات إلى جبال الكفاح والنضال. لكنّ الأمر لم يكن يتعلق بجميع من كانوا في الجيش الفرنسي، بل وُجدت فصيلة أخرى من الجزائريين الفرنسيين الذين كانوا يؤدون واجب الخدمة العسكرية ضريبةً عاديَّةً للدولة الفرنسية، وجنّدتهم الحكومة الفرنسية في عملية وضع حدّ لـ "التمرد" و"الفوضى" و"عدم الاستقرار" والضرب على يد "الخارجين عن القانون" و"الإرهابيين"، وهي الكلمات التي كانت تتداولها أجهزة السُلطة الفرنسية العسكرية، والأمنية، والإعلامية.

الحقيقة أنّ ذاكرة الجزائريين لم تنشط، ولم تحاول استعادة حياة من كانوا في الجيش الفرنسي، ولم تسرد تفاصيل ما كان يحدث لهم وما كانوا يفكرون فيه ويتطلعون إليه، في سياق الحرب التحريرية، وخصوصًا أولئك الذين واصلوا العمل في الجيش الفرنسي إلى آخر الاستقلال. ولعلّ يوسف خيضر لُولَح، أحد الذين شذُّوا عن حالة الصمت والتكتم الذي ضربه

20 Ibid., p. 5, 6.

المجاهدون والمناضلون والمجنَّدون في المؤسسة العسكرية الفرنسية على أنفسهم. فقد كتب مذكراته[21]، وقدّم شهادته في كلّ حالاتها حتى وهو يُنفذ سياسة إخماد الوضع العامّ في الجزائر في صفوف الجيش الفرنسي. فكيف واجه هذا المؤلِّف محاولة سرد الحدث التاريخي؟

خيضر لولح، متعلم، يحسن اللسان الفرنسي، وهو مناضل يساري، وصحافي إنْ في فرنسا أو في الجزائر بعد الاستقلال. وفي شهادته، التي جاءت بضمير المتكلم، بعد ما حاول أن يبدأها بضمير الغائب وتيقّن أنّ هذا الضمير يبتعد عن التاريخ ولا يساعده على محايثة الفترة المراد التأريخ لها، ومجايلتها، وإعادة امتلاكها، على أيّ نوع كان من الامتلاك، يقول المؤلف إنّ الشهادة يجب أن تُقدم بضمير المتكلم لأنّ هذا الضمير يُفصح بتلقائية عن ذات المتكلم نفسه ويستحث وعيه بالكامل إذا ما رام الصدق. وفي شهادته بشأن تاريخ الحرب التحريرية سواء طَوال الخدمة التي شارك فيها أو في الفترة التي جاءت بعدها، نقف على ذات تتحرك بوعي، وتتفاعل مع لحظة التاريخ في جميع جوانبها، مع الصدق في الحديث مع الآخر أو مع الذات؛ أي التفكير الداخلي، أو لحظات المناجاة والحديث الصامت.

أبدى المؤلف قدرةً مميزةً على سرد الحوادث من خلال الذات، وأعاد تشكيل حياته كما عاشها في صيغة رواية تاريخية، من دون رومانسية قد تجعل عمله مصنَّفًا ضمن الأعمال الخيالية، وهو القائل في مستهل مذكراته: "السرد، الوارد هنا، حقيقي، لم أرصّع، ولم أحرّف، ولم أغيّر، ولم أتكتّم أيضًا. كلّ شيء واقعي وصحيح: الوقائع، والأسماء، والتواريخ، والأماكن والنوادر. وقد تعيّن عليّ أن آخذ في الحسبان ما هو مهمّ، وأطرح جانبًا كلّ ما لا طائل فيه وزائد ولا أهمية له"[22].

ذلك ما يعترف به المؤلِّف المناضل في سرد الحوادث (أي موضوع التاريخ)، لكن لمّا تعلَّق الأمر بحالة سرد حياته الماضية ووضعيته، فإنه اضطر إلى نوع من التغيير في طريقة الشهادة وعرضها؛ لأنّ فعل التذكُّر لا يتحقّق مرةً واحدةً ولا بكيفية واحدة في كل لحظات العمر، بل إنه يتغير ويتحول بحسب الوضعية، وبحسب الوجود أيضًا[23].

رواية التاريخ وكتابته هي من التاريخ الراهن الذي يكاد يعدم الفواصل بين الموضوع والذات لمصلحة التطابق بينهما. والشاهد في هذا السياق هو ما يقوله المؤلف نفسه: "ظهرت أوّل طبعة لهذه الشهادة عام 2009 في باريس وتلتها طبعة ثانية في شهر سبتمبر [أيلول] بعنوان **مذكرات صغيرة، أن تكون من هنا وهناك**"[24]، إشارةً إلى فرنسا والجزائر. ثمّ يضيف المؤلف: "هذا الكتاب ليس النسخة نفسها التي نُشرت في فرنسا. فقد تعرض مضمون هذه النسخة الجزائرية إلى نظر جديد وإثراء وتحديث حتى يتجاوب، قدر الإمكان، مع رؤية الحوادث والوقائع وطريقتها ومقاربتها من المنظور الجزائري "[25].

---

21 Yousef Khider Louelh, *Un homme du peuple: de la Kabylie à Paris, Moscou et Bakou: parcours d'un militant progressiste* (Algérie: El Othmania, 2012).

22 Ibid., p. 5.

23 الوضعية في هذا السياق هي بالمعنى الفلسفي الذي ساد في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وهي نزعة تربط الإنسان بالوضعية التي يوجد فيها. فهو يتحوّل ويتغير بناءً على وضعية الحياة وسياقها اللذين يوجد فيهما. ولهذه النزعة صلة بالوجودية التي تنزّل الإنسان منزلةً يتحمّل فيها مصيره وعبء حياته بقدر الحالة التي يوجد فيها، ومن ثمّة يحدث التحوّل والتبدّل اللذين يطرآن على الإنسان، ومن أمثلة ذلك مذكرة يوسف خيضر لُولَح *Mémoires minuscules, d'être d'ici et aussi de là-bas*. فطالما غيّر السارد طريقة سرد روايته، بناءً على وضعيته ووجوده.

24 Louelh.

25 Ibid., p. 6.

إنّ الوعي بحقيقة ما حدث في الفترة 1954 - 1962، يستدعي إدراجه في المجال العامّ والتعامل معه بوصفه ثقافةً ونمط تفكير قابل للجدل، والنقاش، والحوار، وإعادة النظر، أو يستدعي توكيد حقائق كانت ضائعةً، أو تفنيد أباطيل كانت سائدةً. وتحت وطأة هذا الإلحاح نحتاج إلى الواقعة "في أبعادها الثلاثة" كما يقال حاليًّا في عالم الإعلام؛ أي الصورة، والنص، والصوت؛ بقصد توافر الصدقية لشهادة معاصر الحدث عندما يعرف أنّ عليه أن يرويَ ما جرى روايةً علانيّةً مباشرةً، وينتظر الرد والنقد والدحض، ويتجشم القدْر الممكن من الصدق، ويلتزم ما وقع فعلًا؛ مخافة الوقوع في التزييف والتشويه اللذين يعطلان الكتابة التاريخية للثورة التحريرية.

في هذا المضمار تحديدًا، نسجّل غيابًا مفزعًا ومروّعًا للشريط الوثائقي بوصفه وسيلةً لتوزيع الوعي التاريخي في المجتمع الجزائري[26]، بخاصة عندما ندرك القيمة الاجتماعية والإعلامية والثقافية التي صارت عليها الأفلام الوثائقية، وهي تتطلب تقنيات واستشارةً تاريخيةً ودرايةً بطرائق الإعداد والإخراج، فضلًا عن التعليق والحوار والنقاش الذي يعقبها بعد ذلك، وهي في أغلب الأحيان، تستقطب أعدادًا كبيرةً من المشاهدين والمستمعين. وهكذا، تظهر قيمة الشريط التاريخي وأهميته في اللحظة التي تضمّ "الجميع" لمشاهدة الحصة التاريخية والاستماع إليها، وهو ما يساعد على تلاقي الوعي المشترك والوعي الجمعي وتلاحمهما بشأن ما جرى في الجزائر، واستعادته في مستوى الذاكرة والكتابة التاريخية.

انتصار على عدوّ مجهول

أغلب المذكرات والشهادات المتعلّقة بالثورة الجزائرية لا تُحدد الخصم الذي رُفع في وجهه السلاح، ولا تظهر أنها تعرفه لكي تبرر السبب الذي جعلت أصحابها ينخرطون في الثورة ويلوذون بالمقاومة المسلحة سبيلًا إلى تحرير الوطن. فالعدو غائب في الذاكرة ولا ذكر له، كأنّ الثورة قامت ضدّ مجهول بلا ملامح، وكأنه لا يوجد أيُّ تحديد يستدعيها؛ إذ توجد حالة من التغاضي عن رؤية الخصم/ العدو كما كان عليه في الواقع سواء بوصفه مؤسسةً وأجهزةً، أو أفرادًا وقوميات. فليس ثمة وصفٌ لحياة الناس ولصلة المناضل الثوري بهم، كما أنّ حياة ما قبل الثورة لا تُذكر إلا لمامًا، إلَّا في حالات متعلّقة بمن رَوُوا مذكراتهم أو كتبوها باللغة الفرنسية. وتظلّ الحقيقة الغائبة في هذه الشهادات متمثّلةً بالسؤال: ما سبب الالتحاق بالثورة أو الدافع إليها؟

ما جاء على لسان الجزائريين وأقلامهم، من الذين حاولوا أن يؤرخوا للثورة، لا ذِكر فيه لأسماء أجانب جاؤوا والرغبة الأممية تمتلكهم في إلحاق الهزيمة بالاستعمار وتحرير الإنسانية منه، كما أنّ هذه المذكرات لا تقف أيضًا على المعارضين الفرنسيين الذين وقفوا ضدّ السُلطة الاستعمارية ووقفوا إلى جانب تنظيمات وشبكات ثورية وتحررية.

26 تعاني الجزائر كلّها دولةً وتاريخًا غياب الشريط الوثائقي لتاريخها، في حين يواكب الجانب الفرنسي دائمًا عبر آلاف من الكتب والأفلام عرضًا متواليًا لا يتوقف للتاريخ الاستعماري وحرب الجزائر. والحقيقة المُرَّة في هذا الأمر أنّ القنوات الفرنسية تُشاهد في الجزائر بوصفها امتدادًا للقنوات الوطنية. ومن ثمّة، تكون هذه المشاهدة أكثر مسايرةً للمعنى الفرنسي وتاريخ الاستعمار وحرب الجزائر، ويدرج ذلك كلّه في البيبليوغرافيا والفيلموغرافيا التاريخية لفرنسا، الأمر الذي يزيد علاقة الوعي الجزائري بالتاريخ الحديث والمعاصر تعقيدًا.

وفي مقابل ذلك، نجد حرصًا على كشف الخصومات والنزاعات التي قطّعت أوصال المناضلين داخل الصف الواحد[27] أو ضدّ التنظيم الآخر[28]. وفي الحقيقة، تبيّن أنّه ثمّة حاجز فكري وسياسي ونفسي يفصل بين جلّ المناضلين الجزائريين، فضلًا عن عُقدتهم تجاه المؤسسات الفرنسية والحياة الفرنسية التي كانت قائمةً زمن الثورة وما قبلها. ولعلّ أبرز أسباب غياب التواصل، أو انعدامه، عدم امتلاك اللغة الفرنسية، والتفاوت الاجتماعي الذي كان يفصل بين سكان الريف وأهل المدن، واختلاف المراكز القانونية بين السكان الجزائريين والأوروبيين، بناءً على الفروق في الحقوق السياسية، والحريات العامة، والمستوى التعليمي والثقافي والوظيفي.

خاتمة

إذا كانت رواية الواقعة التاريخية تحتاج إلى قوّة إدراك، وإلى وعي بالذات وبالموضوع، فإنّ ما افتقده المناضل الجزائري زمن الاستعمار هو الوعي الثقافي والسياسي الذي يوسع به خياله ومداركه وملكاته، ليحتفظ بعد ذلك بالصورة والمشهد فيستطيع أن يسرد شهادته على نحوٍ أقرب إلى الصّحة وإلى ما جرى فعلًا. وقد حرم فقدان التواصل ومجاورة الآخر، أيضًا، المناضلَ الجزائري إمكانَ سرد مجريات الكفاح المسلح على أساس خلفية الوجود الجزائري الفرنسي حتى في حالة كونه ضدًّا للآخر. لكنّ الضد الذي يؤكِّد الأنا بوصفه ذاتًا فاعلةً، ويؤكِّد الآخر بوصفه طرفًا خصمًا يمكن تحديه وتجاوزه. والذين كانت لهم القدرة على التواصل مع الفرنسيين هم الذين تصدروا المشهد السياسي والدبلوماسي والوجودي العامّ زمن الثورة، وهم الذين استطاعوا رواية تاريخ الثورة التحريرية بوصفها فصلًا ثانيًا من صنع الثورة نفسها أيضًا[29].

---

27 نذكر على سبيل المثال الشهيد عبَّان رمضان الذي اغتاله بعض أصدقائه المقربين إليه جدًا. وقد نشرت جريدة **المجاهد**، لسان حال جبهة التحرير الوطني في ذلك الوقت، صورةً له بعنوان "الشهيد عبَّان رمضان يسقط في ساحة الشرف"، انظر: العدد 24 - 25 أيار/ مايو 1958، ج 2، ص 460 - 462.

28 في هذا الصدد، نذكر الصراع المسلح بين أنصار مصالي الحاج في تنظيمهم الحزب "الحركة الوطنية الجزائرية" والتنظيم الثوري الجزائري المتأتي من التيار المصالي نفسه في فترة ما قبل الثورة؛ أي جبهة التحرير الوطني.

29 يُعْزى فضل الكفاح السياسي والدبلوماسي والأيديولوجي، إضافةً إلى الكفاح المسلح الذي أفضى في نهاية المطاف، إلى مجموعة الجزائريين الذين كانت لهم القدرة على التواصل والحديث والحوار، ثمّ التفاوض مع الإدارة الفرنسية باللغة التي تفهمها. فقد كانت مسألة التفاهم والتواصل متوقفةً على قدرة المناضل الجزائري على إبداء الرأي والاقتراح والمطلب، بالقدْر الذي يُقنع الآخر به. ولعلّ المثال الذي يمكن أن يساق في هذا الشأن، أنّ أول رئاسة حكومة موقَّتة للجمهورية الجزائرية، عُهدت إلى فرحات عباس، المناضل السابق في حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، بوصفه شخصيةً متمرسةً في التعامل مع الإدارة الاستعمارية، وممتلكًا للُغة فولتير، وبوصفه مناضلًا سياسيًّا ومثقفًا سبق أن وضع مشروع دستور للجمهورية الجزائرية عام 1948.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- الإبراهيمي، أحمد طالب. **مذكرات جزائري**. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006.
- العيدوني، عمر شيدخ. **مملكة الفلاقة**. عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2011.
- سعد الله، أبو القاسم. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. الجزائر: دار البصائر، 2007.
- كشيدة، عيسى. **مهندسو الثورة: شهادة**، موسى أشرشور وزينب قبي (مترجمان). الجزائر: منشورات الشهاب، 2010.
- المدني، أحمد توفيق. **حياة كفاح**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

المراجع الأجنبية

- Aux origines du FLN: *le populisme révolutionnaire en Algérie*. Paris: Christian Bourgeois, 1975.
- Bédarida, François. "l'histoire du temps présent, revue science humaines," *Sciences Humaines*, no. 18, septembre - octobre 1997.
- Courrière, Yves. *la guerre d'Algérie*. Paris: Laffont, 1990.
- Fanon, Frantz. *l'an V de la révolution algérienne*. Paris: Maspero, 1959.
- ———————— *Les damnés de la terre*. Paris: Gallimard, 1991.
- Harbi, Mohammed. *Le FLN Mirage et Réalité: Des Origines à la Prise du pouvoir (1945 - 1962)*. Paris: Jeune Afrique, 1980.
- ———————— *Une vie debout: Mémoires politiques 1945 - 1962*. Algérie: Casbah, 2001.
- Louelh, Yousef Khider. *Mémoires minuscules, être d'ici et aussi de là-bas.* Paris: Edilivre, 2009.
- ———————— *Un homme du peuple: de la Kabylie à Paris, Moscou et Bakou: parcours d'un militant progressiste*. Algérie: El Othmania, 2012.
- Simon, Jacques. *l'immigration algérienne en France, des origines à l'indépendance*. Paris: Méditerranée, 2000.
- Sportisse, William. *Le camp des oliviers, parcours d'un communiste algérien, entretiens avec Pierre-Jean Le Foll-luciani*. Algérie: El Ijtihad, 2013.
- Stora, Benjamin. *l'Algérie en 1995: la guerre, l'histoire la politique*. Paris: Michalon, 1995.
- ———————— *La guerre des mémoires: la France face à son passé colonial*. Paris: l'aube, 2012.
- ———————— *Les trois exils, juifs d'Algérie*. Paris: Pluriel, 2006.
- Vergès, Jacques. *l'anticolonialiste: entretiens avec Philippe Karim Felissi*. Algérie: Chihab Editions, 2005.

وجيه كوثراني

الفقيه والسلطان:

جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية - القاجارية

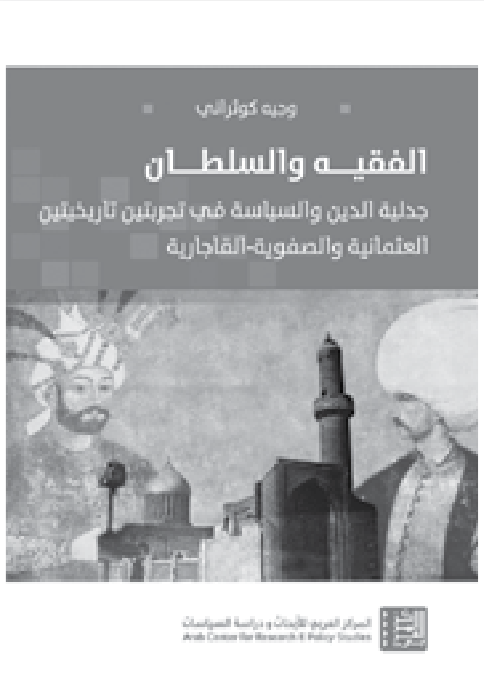

يتكون الكتاب من 254 صفحةً من القطع الكبير، وهو يشـتمل عـلى أربعـة فصـول رئيسـة تسـبقها مقدمـات الطبعـات السـابقة، فضلًا عن مقدمة طبعتـه الحالية، وعلى مجموعة مـن الملاحـق وفهـرس عـامٍّ. وقـد اختـار المؤلـف هاتـين الدولتـين تحديـدًا لعـدة أسـباب مـن بينهـا أنّهما كانتـا آخر الدول الإسـلامية الكبرى التي أعلنت انتسابها إلى الشريعة الإسـلامية، وأنّ ما نجم عن هذا الإعلان مـن نتائج كان له تأثير في الصـورة التاريخيـة الموروثـة في حاضر المسـلمين عن مـاضي دولتهم، كـما أنّ هاتين الدولتين شـهدتا صراعًا حادًّا بينهـما مـن أجـل السـيطرة والتوسـع في مناطـق العالم الإسـلامي، وقـد اعتمـدت كلتاهـما في تبرير صراعهـا تجاه الأخـرى وسـائل أيدولوجيـةً مختلفـةً في صدارتهـا التعبئة الدينيـة، إضافـةً إلى أنّ نهاية كلّ من هاتـين الدولتين كانت في آخر القرن التاسـع عشر ومطلع القرن العشرين وتزامنت مـع بدايـة تبلـور المشروعـات القوميـة وقيـام مشروعات الدول الإقليمية المحدثة في العالمين العربي والإسلامي.

ومن خـلال هـذه المسـتويات كلّها، تـبرز أهميـة الموضوع التاريخي الذي يطرحه الكتاب، وأهمية الاسـتعادة التاريخية للعلاقة بين السياسـة والدين، وبين الدولـة والدعوة، وبين السـلطان والفقيـه. فمسـاحة هـذه العلاقة تُغطِّـي أوجه التقـارب أو التعارض بين الطرفين، وأوجه الاسـتخدام الوظيفي للدين بما هو حالة فقهية يُقدِّمها فقيه السـلطان، أو حالة معاداة الدين للسـلطات بما هو ثورة سياسـية في وجه السلطان، أو حالة انكفاء عن السلطان أو اعتزال ونبذ له.

عز الدين جسّوس | *Azeddine Guessous

إستراتيجية الموحّدين العسكرية في غرب البحر المتوسط

The Almohads Military Strategy in the Western Mediterranean

ضمّ الموحدون إلى دولتهم مجالًا شاسعًا من الغرب الإسلامي بتوسّعهم شرقًا؛ ففتحوا على أنفسهم جبهةً مع القبائل العربيـة التـي كانت في إفريقية ومع بني غانية أصحاب الجزر الشرقية (البليـار) الذين ركّزوا هجماتهم على شرق الدولة. وولىّ الموحـدون وجهة اهتمامهم شـطر الـشرق، وتمثّل ذلك بالحملات العسـكرية الضخمة التي كانـت توجّه إليه تحت قيـادة الحـكام الموحدين أنفسـهم. في حين كانت لهم جبهة شـمالية في الأندلس أخطر بكثير، لم يحشـدوا لها ما كان ينبغي من جهد وإعداد. ولم يكن ما خصصوه عسـكريًا للأندلس بحجم ما بذلوه على الجبهة الشرقية التي لم يكن التوجّه إليها منذ البداية ملحًا ولا ضروريًا.

ولم يتمكـن الموحـدون من المحافظـة على ما كان تحـت يد سـابقيهم المرابطين من الأندلس بسـبب الثـورات الداخلية وتحرشـات حركة الاسترداد المسيحية. وكشـف هذا التوجّه خطأ الإستراتيجية العسكرية الموحدية في غرب المتوسط عقب هزيمـة العقاب. وكانت له عواقب كارثية على الأندلس وعلى المغرب؛ إذ اسـتطاعت حركة الاسـترداد الاسـتيلاء على الجزر الشرقية بعد وقت وجيز من دخول الموحدين إليها. وسـقطت زمن الموحدين أيضًا حواضر كبرى من قبيل قرطبة وبلنسـية ومرسـية وجيان وإشـبيلية وحصون مهمّة في يد المسـيحيين الذين هاجموهم في عقر دارهم في المغرب أيضًا. وهذا يفسر غياب نظرة جيو سياسـية متّزنة ومبنية على واقع التحولات التي كان عليها الحوض الغربي للمتوسـط، فالخطر كان قادمًا من الشمال، وليس من الجهة الشرقية.

Almohads (*al-muwaḥḥidun*) annexed a vast area of the Islamic West to their state by extending their conquest to the East. They then entered into conflict with the Arab tribes in *Ifriqiya* (or al-Maghrib al-Adna, i.e. Lower West) and Banu Ghaniya, rulers of the Eastern Islands (Balearic Islands). The Almohads attached great importance to this eastern front, leading them to wage huge military attacks there under the leadership of the Almohads rulers themselves. They had however a far more dangerous front to deal with in the North, but failed to accord it its due attention. Despite all the military efforts exerted by the Almohads in Al Andalus, their efforts did not match the losses incurred because of the Eastern Front the conquest of which was neither urgent nor necessary. Additionally, they were unable to preserve what their predecessors, the Almoravids, had achieved in Al Andalus due to internal revolts and the attrition resulting from the Reconquest Movement (Reconquista). Such an orientation and vision clearly showed the deficiencies of the Almohads' military strategy in the West Mediterranean whose catastrophic consequences for their domains Al Andalus and North Africa clearly materialized after the defeat in the battle of Las Navas de Tolosa (al Uqa¯b). As a result, the Reconquista seized the Eastern Islands shortly after the Almohads conquest. Major cities such as Cordoba, Valencia, Murcia, Jaen, Sevilla and important fortresses thus fell in the hands of the Christians who also attacked Almohads in their own territories in Al-Maghreb.

* أستاذ باحث في جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب.

أسفر الانتصار في معركة الزلاقة سنة 479هـ / 1086م في الأندلس وما تلا ذلك من إسقاط نظام الطوائف، عن بقاء الوجود الإسلامي في ما كان بيد المسلمين في البلاد لما يناهز ثلاثة قرون ونيف. وكانت المعركة سببًا حاسمًا في المحافظة على هذا المجال الإسلامي المهمّ في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط. وأضحى للأسطول المرابطي السيادة على المنطقة، وبالأخص بعد الوحدة السياسية التي ألّفت بين المغرب والأندلس. وتلا انتصار معركة الزلاقة انتصارٌ آخر في معركة الأرك سنة 591هـ/ 1195م زمن الموحدين. وهي المعركة التي لم تكن لنتائجها القِيمة المهمة والتداعيات البعيدة المدى التي كانت للزلاقة بسبب الوضعية الجديدة التي أضحت عليها الأندلس، وبسبب الإستراتيجية العسكرية التي نهجها الموحدون. ولم يتمتع الموحدون بنشوة الانتصار طويلًا حتى تكبّدوا هزيمةً نكراء في معركة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، وهي الهزيمة الكارثة التي غيّرت موازين القوة في غرب المتوسط وفي العلاقات بين المغرب والأندلس. وتُجمع أدوات البحث من مصادر ودراسات حديثة على أنّ هزيمة العقاب كانت بداية النهاية الطويلة والمأساوية للدولة الموحدية التي تمزقت أشلاؤها بين الانفصال والتشتت والحروب الأهلية؛ بسبب تنازع السلطة بين أفراد البيت الحاكم. وإن كانت الدولة الموحدية قد وحّدت مجالًا شاسعًا في الغرب الإسلامي وأضافت إليه ما تبقّى من الأندلس بعد جهدٍ جهيد، فإنّ هذا التوسع بهذه الطريقة نحو الشرق الذي ضمّ ما يسمّى الآن بالمغرب العربي، تسبّب لها في مشاكلَ سياسية وعسكرية إضافةً إلى الخلل العضوي لتداول السلطة. وهو الخلل الذي نشأ مع تأسيس الدولة منذ ثورة أخوي المهدي. ثم برز بجلاء بعد وفاة المستنصر عام 620هـ/ 1223م وأزهقت فيه أرواح كثيرة، وصرفت فيه أموال طائلة، واستُنزفت فيه قوة عسكرية هائلة.

أولًا: هل كانت للموحدين أولويات عسكرية؟

قد يُعدّ وصول الموحدين إلى إفريقية وطرد النورمانديين من المهدية ثم ضمّهم ما تبقّى من الأندلس، هيمنةً على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. وهذا الوضع إن كان قد منحهم السيادة العسكرية على المنطقة، فإنّه ألقى على عاتقهم الذود عمّا أصبح في أيديهم من البلاد. فلم يرث الموحدون مجال السيادة المرابطية في الغرب الإسلامي فحسب، بل وسّعوا نفوذهم نحو المشرق بالقضاء على دولة بني حمّاد المنهارة. ثم واصلوا توسّعهم نحو إفريقية. فقضوا على الدولة الزيرية التي كانت تحتضر بسبب مشاكلها الداخلية وما تسبّبت فيه القبائل العربية. وكان وصول الموحدين بزعامة عبد المؤمن بن علي إلى المنطقة تخليصًا لها من هجمات المسيحيين في صقلية، عندما تمكّنوا من طردهم من المهدية.

أمّا الأندلس فدخلها الموحدون بطلبٍ من أهلها في وقت مبكر من تأسيس الدولة، قبل الاهتمام بالجبهة الشرقية، وحتى قبل إتمام توحيد المغرب في قبضة عبد المؤمن[1]. لقد مرّ دخول الموحدين الأندلس بمراحلَ تخللتها تقلبات[2]. والراجح أنّ نظرة أهل الأندلس إلى الموحدين وإلى قوّتهم العسكرية استندت إلى ما اضطلع به المرابطون في البلاد من قبل. فقد ظل الملثّمون يدافعون عن الأندلس حتى عشية سقوطهم. وارتأى أهل الأندلس أنّ اللجوء إلى المغرب لحسم الفتنة أمر في مصلحة البلاد التي كانت تتشرذم بسبب الحرب الأهلية، وتضعف أمام ضربات حركة الاسترداد.

1 ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: قسم الموحدين، محمد إبراهيم الكتاني وآخرون(محقق)، (بيروت/ الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي/ دار الثقافة، 1406 / 1985)، ص 33 - 34؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصطفى ضيف(محقق)، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1984)، ص 412 - 413.

2 ابن عذاري، ص 32 - 45.

ولم يتوجه الموحدون إلى الأندلس بل هي التي جاءت إليهم قبل أن يجري توحيد المغرب. وقدّمت وفود من الأندلس بيعتها لعبد المؤمن في مدينة سلا[3]. ولم يشفع سبق أهل الأندلس في البيعة ولا الأخطار التي كانت تحدق ببلادهم لدى الموحدين، لكي يشملوا البلاد بعناية كانت في مسيس الحاجة إليها. فلم تلق مشاكل الأندلس عند عبد المؤمن ما تستحقه من الاهتمام، لأنّه توجَّه شرقًا إلى بجاية عام 547هـ / 1152م ثم إفريقية قبل أن يضبط أمور الأندلس. مع أنّ هذا الاختيار، أي التوجّه نحو المشرق، لم يكن حاجة ملحّة ولا اختيارًا يستحق التقديم، لأنّ الجهة الشرقية لمجال النفوذ الموحّدي لم تكن مجال عدوّ ولا مصدر غزو أو خطر داهم[4]. في حين كانت الأندلس وقتئذ تعرف اضطراباتٍ عميقة بسبب تَوثّب الثوار بعد زوال حكم المرابطين. فتكالبت الدويلات المسيحية على طليطلة وعلى غرب الأندلس. ومن ثمّة كان على عبد المؤمن أن يهتم بأمور الأندلس عوض التركيز على التحركات العسكرية في المغرب وبجاية وإفريقية، بخاصة بعد أن جاءته بيعة زعماء القبائل العربية في إفريقية[5]. والظاهر أنّ اهتمام عبد المؤمن بالأندلس لم يكن يرقى إلى ما ينبغي. فقد اكتفى عندئذ بالعمل على تركيز أقدام الموحدين في قرطبة وإشبيلية والمرية وغرناطة ونواحيها[6]. وكانت هزيمة زغبولة في ربيع الأول عام 552هـ بالقرب من إشبيلية نذيرًا بالوضع الخطير الذي كانت عليه المنطقة. وكاد ابن عبد المؤمن أبو يعقوب يوسف أن يلقى حتفه فيها. وما نجده من ردة فعل الموحدين تجاه هذه الهزيمة، لم يكن إلّا لأنّ عبد المؤمن قرّر استجلاب القبائل العربية من إفريقية لحماية الأندلس[7]. والظاهر أنّ هذا التوجّه السياسي والعسكري على الرغم ممّا قد ينطوي عليه من اهتمام بالجبهة الشمالية، لم يكن في موضعه؛ لأنّ عبد المؤمن نفسه في شوال عام 553هـ /1159م، أي سنة بعد هزيمة زغبولة، جهّز جيشًا ضخمًا بريًا وبحريًا لمهاجمة مهدية، ما يظهر عدم التوازن في الرؤية للجبهة الشرقية والجبهة الشمالية. ومما يزكّي هذا أيضًا ما أعقب ذلك من حملات عسكرية على المنطقتين[8]. ولنا أن نتساءل عن عدم تجهيز ذلك الجيش لتأمين غرب الأندلس لمواجهة تحرشات ابن الرنك Alfonso Enriquez ملك البرتغال وللقضاء على ابن مردنيش، ومن ثمّة إخضاع المنطقة للموحدين.

ولم يكن أمر الجبهة الشمالية مرتبطًا بالجانب المسيحي فحسب بل كان على الموحدين أيضًا مواجهة الثوّار المتحالفين مع الممالك النصرانية. زيادةً على أنّهم منذ دخولهم الأندلس لم يتمكنوا من بسط سيطرتهم على ممتلكات المرابطين ممّا تبقّى من البلاد. والظاهر أنّ هذا الوضع لم يكن من بين اهتمامات الموحدين الأساسية في علاقاتهم بالأندلس؛ ففي سنة 554هـ/ 1160م تعرّضت المناطق الموحدية في جيان وقرطبة وإشبيلية إلى غارات محمد بن مردنيش[9]. ولقد كان عبد المؤمن عندئذ منشغلًا بإخضاع المهدية لطرد النورمانديين منها. وبعد عودته جاز سنة 555هـ الأندلس ولكن دون كبير طائلة. على الرغم من أنّ ابن صاحب الصلاة

---

3 المرجع نفسه، ص 44 - 45؛ ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، سهيل زكار(محقق)، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979)، ص 147 - 148.

4 ابن عذاري، ص 45 - 47؛ ابن سماك، ص 149 - 150، 153 - 154.

5 ابن عذاري، ص 49.

6 المرجع نفسه، ص 53 - 61.

7 عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي(مصحح)، ط7 (الدار البيضاء: دار الكتب العلمية، 1978)، ص 328 - 331؛ ابن عذاري، ص 61؛ ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور، 1972)، ص199 - 200؛ النويري، ص 427؛ مصطفى أحمد أبو ضيف، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين** (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1982)، ص 71.

8 ابن عذاري، ص 61 - 62؛ النويري، ص 421 - 424؛ يفيد ابن سماك بأنّ الجيش الذي توجّه به عبد المؤمن إلى تونس والمهدية ضمّ 75 ألف فارس و500 ألف من الرجالة، ص 153.

9 ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة على المستضعفين**، عبد الهادي التازي(محقق)، (بيروت: دار الأندلس، 1964)، ص 117 - 120، 213 - 215، 398 - 402؛ ابن عذاري، ص 63 - 64، 121 - 122؛ ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، محمد عبد الله عنان(محقق)، (القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1984)، ص 121 - 127.

يجعل سبب ذلك: "ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم المحاربين لها"[10]. ولم يكن ممكنًا عسكريًا وسياسيًا مواجهة حركة الاسترداد إلا بعد أن يجري الفراغ من مشاكل الأندلس الداخلية بالقضاء على حركات التمرد؛ فالاضطراب الداخلي يؤثّر سلبيًا في حماية الثغور. ثم إنّ عبد المؤمن لم يباشر العمليات العسكرية في الأندلس بنفسه على غرار ما قام به في بجاية وإفريقية، بل استقر في جبل طارق حيث استقبل وفود المناطق الخاضعة للموحدين وأرسل جيشًا التقى بالمسيحيين وهزَمهم. وعندما عاد الجيش إلى مركز القيادة في جبل طارق لإخباره بالوضع، كان عبد المؤمن قد عاد إلى المغرب لسببٍ لا نعلمه. وفي صراعهم مع ابن همشك حليف ابن مردنيش، تمكّن الموحدون من دخول قرمونة واستعادة غرناطة منه[11]. ولم يتولَّ عبد المؤمن قيادة الحملة بنفسه بل عهد بها إلى ابنه يوسف الذي ينسب إليه دخول غرناطة. ثم جرَت محاصرة ابن همشك في جيان بينما بقي عبد المؤمن في المغرب يترقّب الأخبار[12]. ثم أصدر قرارًا بأن تصبح قرطبة عاصمة للأندلس[13]. وهو قرار إستراتيجي عسكري مهمّ لموقع قرطبة جغرافيًا ولمكانتها التاريخية في الأندلس وفي العالم الإسلامي؛ قرار يوحي بتوجّهٍ عسكري جديد. ويقع ابن عذاري في تناقضٍ تامّ بين ما يقدّمه عن جواز عبد المؤمن هذا وإنجازاته العسكرية والتنظيمية مدة هذا المقام؛ ولذلك فإنّه: "لم ينفصل عن الأندلس حتى مهدها ورفق برعيتها فاستقامت بذلك الأمور للموحدين"[14]. ونحن نعلم - ويخبر بذلك ابن عذاري نفسه - أنّ الوضع ظل مضطربًا بسبب التحرشات المسيحية وما قام به ابن همشك وابن مردنيش من اضطرابات ظلت تبرز في عضد الدولة زمن عبد المؤمن وبعده[15]. ولقد فطن عبد المؤمن إلى المشاكل التي تعرفها الجبهة الشمالية؛ ففرضت عليه أن يجهّز جيشًا ضخمًا ويتوجه به إلى الأندلس في 15 ربيع الأول من عام 558هـ/ 1163م. وخطّط عبد المؤمن لهجومٍ بري وبحري بحملةٍ كبيرة ضمّت أزيد من 100 ألف فارس ومثلها من الرجالة[16]. وتوحي هذه الاستعدادات أنّ القيادة الموحدية غيّرت سياستها تجاه الأندلس وأيقنت أنّ الأمر لا يحسم إلّا بإستراتيجية عسكرية متفوقة. وممّا يؤكد ذلك أنّ عبد المؤمن ترأّس مجلسًا عسكريًا عندما اجتمع له الجند بالقرب من الرباط وسلا لوضع خطة لحسن استعمال الجيش الضخم في معالجة وضع الأندلس. وكان للحاكم الموحدي رأيٌ عسكري سديد سيدعمه أحد مستشاريه العسكريين سيد راي بن وزير القيسي، فكان الرأي أن لا يقود 200 ألف مقاتل إلى وجهةٍ واحدة، والرأي أن يقسم الجيش ويرسل إلى أكثر من وجهة، ما سيسهّل تحرّك المقاتلين، وأن يقسم الجند إلى أربعة جيوش يتوجّه كلٌّ منها إلى جهةٍ من جهات الأندلس. ثمّ حدّد ابن وزير القيسي الوجهات الأربع كما يلي:

- يتوجّه الجيش الأوّل نحو ابن الرنك ملك البرتغال في قلمرية.
- يتوجّه الثاني إلى السبطاط Cuidad Rodrego de Leon مملكة ليون لمواجهة الببوج وهو El Baboso Fenando II de Leon.
- يتوجّه الثالث إلى قشتالة في طليطلة لمواجهة أذفونش ألفونسو الثامن Alfonso VIII de Castilla.
- يتوجّه الرابع إلى برشلونة في أرغون[17].

10 ابن صاحب الصلاة، ص 147؛ المراكشي، ص 310 - 311؛ ابن عذاري، ص 69؛ ابن أبي زرع، ص 199.
11 ابن صاحب الصلاة، ص 181 - 190؛ ابن عذاري، ص 73 - 77.
12 ابن صاحب الصلاة، ص 199.
13 المرجع نفسه، ص 203؛ ابن عذاري، ص 77.
14 ابن عذاري، ص 70؛ وما يقدّمه ابن سماك، ص 155 - 157.
15 ابن عذاري، ص 73 - 77.
16 ابن صاحب الصلاة، ص 218 - 219.
17 المرجع نفسه، ص 218 - 222.

أقرّ عبد المؤمن ومجلسه العسكري الخطة وجرى استحسانها. وكانت خطةً محكمة وشاملة تهاجَم فيها الإمارات المسيحية التي كانت تتربّص بالأندلس شرقًا وغربًا وشمالًا في وقتٍ واحد. ومن شأن هذه الإستراتيجية العسكرية أن تعمل على تغيير موازين القوة على الجبهة الأندلسية وتبرهن عمليًا لتلك الإمارات على أنّ الموحدين قادرون على مهاجمتهم دفعةً واحدة. وأيّ نظرة إلى الأندلس كان عليها أن تنطلق من هذا الأساس الذي كان ينبغي أن يجعله الموحدون قاعدةً في السياسة العسكرية تجاه الجبهة الشمالية الخطرة. إلّا أنّ ما يؤخذ على الخطة من وجهة النظر العسكرية، أنّها كانت ترمي إلى حماية الحدود لتأمين مجال الأندلس أكثر من اهتمامها بما كان يسبّبه ابن مردنيش داخليًا.

غير أنّ الحملة المنسَّقة تعذّرت لمرض عبد المؤمن المباغت الذي توفّي على أثره. وبُعيد ذلك صرف خلفه يوسف الجند صرفًا يصعب تعليله. وأجّلت الحملة التي لم يُكتب لها أن تتمّ بعد ذلك[18]. ولا نعثر على أيّ موقف لأفرادٍ من المجتمع السياسي أو من القادة العسكريين الذين شاركوا في المجلس الاستشاري، يدافع عن أهمية الحملة ويحثّ على إنفاذها. فالأمر كان يتطلب إصدار الأوامر من الحاكم فقط، لأنّ كلّ شيء كان جاهزًا.

وانهمك المجتمع السياسي في بيعة خليفة عبد المؤمن؛ فعُقدت البيعة ليوسف بن عبد المؤمن وعارضها بعض إخوته[19] وانتهى أمر الخطة، ولن نسمع بخطةٍ مماثلة في الجبهة الشمالية الخطرة. وسنسمع بحملةٍ عسكرية سنة560هـ/ 1165م ضدّ ابن مردنيش قادها أخوَا يوسف أبو حفص وأبو السعيد[20]. ولم تنته قضية ابن مردنيش إلّا عام 566هـ/ 1171م بعد أن انفصل عنه صهره ابن همشك ومال إلى الموحدين، كما تخلّت عنه الإمدادات العسكرية المسيحية التي كان يعوّل عليها، لمّا رأوا أن لا فائدة من البقاء معه. وتمكّن الموحدون من دخول لورقة وبسطة ومرسية[21]. فكان على الموحدين حتى هذه السنة القتال في الأندلس على واجهتين؛ واحدة داخلية والأخرى خارجية. ولعلّ في الأمر ما يوضح أهمية الخطة العسكرية التي وضعها عبد المؤمن للهجوم على الممالك المسيحية دفعةً واحدة، لتطويق ما كان يقوم به ابن مردنيش بسبب لجوئه إلى الاستعانة بالجند المسيحي.

تزامن العزم على القضاء على ابن مردنيش مع توالي الاستعدادات ابتداءً من سنة 563هـ/ 1168م للقيام بحملة عسكرية كبيرة في الأندلس. ومهّد الحاكم الموحدي لذلك بتنصيب أخيه أبي إسحاق إبراهيم واليًا على قرطبة، فوصل بجيشٍ عديد، وبرسالة رسمية تتضمن مرامي هذه الاستعدادات. وحدّد الحاكم في رسالته الرسمية التي عُمّمت على أهل الأندلس بأنّ الهدف من الحملة هو: "الجهاد وحماية البلاد والنظر في المصالح" وأنّ النظر في مشاكل الأندلس من أوكد السياسات وأهمّها[22]. وفي أثناء ذلك، تعرّضت مدينة وادي آش شمال غرناطة إلى هجوم جراندة الجيليقي Giralda Sem pavor الذي كان يتلقّى مساعداتٍ عسكريةً من ملك البرتغال. إلّا أنّ الموحدين تمكّنوا من صدّ الهجوم وتمزيق الجيش المهاجم[23]. ثمّ عقد الموحدون

---

18 ابن صاحب الصلاة ص 232 - 233؛ المراكشي، ص 343؛ ابن أبي زرع، ص 202.

19 عن المعارضة التي واجهها أبو يعقوب يوسف عند بيعته، انظر: ابن صاحب الصلاة، ص 237 - 240؛ المراكشي، المعجب، ص 344 - 345؛ ابن عذاري، 78 - 79 وص84 - 86. ولم يتّخذ يوسف لقب أمير المؤمنين إلّا عام 563هـ عندما استقرت له الأمور داخل أسرته وفي البلاط الموحدي؛ ابن صاحب الصلاة، ص 338 - 346؛ ابن عذاري، ص 98.

20 ابن صاحب الصلاة، ص 269 - 274؛ ابن عذاري، ص 88 - 91.

21 ابن صاحب الصلاة، ص 388 - 384 وص 394 وص 405 - 407؛ المراكشي، المعجب، ص 360 - 363؛ ابن عذاري، ص 110 وص 112 - 114 وص 121 - 122؛ محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964)، ص 53.

22 ابن صاحب الصلاة، ص 355.

23 ابن صاحب الصلاة، ص 356 - 357؛ ابن عذاري، ص 102 - 102.

معاهدة هدنة وتعاون عسكري مع فرناندة الببوج، نصّت على أن يساعد الببوج الموحدين عسكريًا مقابل مساعدته في حربه ضد بني عمّه في طليطلة، فتمكّن الموحدون بذلك في حملاتهم العسكرية، من الوصول إلى أشتريش شمال قشتالة وشمال ليون، وانتصروا فيها. وقام الببوج بإخراج قوات ابن الرنك ملك البرتغال وجراندة الجيليقي من بطليوس[24]. لكن تعرّض بعد ذلك غرب الأندلس في باجة ويابرة والمناطق المجاورة لهما على المناطق الثغرية إلى غاراتٍ قادها ملك البرتغال وحليفه جراندة[25]. فاتّخذ عندئذ يوسف بن عبد المؤمن قرارًا بتوجيه حملة عسكرية إلى الأندلس تولّى قيادتها بنفسه، بعد أن استنفر لها القبائل العربية من الولايات الشرقية، ووصل إليه جيش بقيادة عامل تونس أبي محمد عبد الواحد وعامل بجاية أبي زكريا يحيى بن عبد المؤمن[26]. فاجتمع للموحدين جيشٌ ضخم تطلّب عبوره إلى الأندلس نحو شهر رمضان من عام 566هـ/ 1171م[27].

توجّه يوسف إلى إشبيلية. ثم رحل إلى قرطبة التي قضى فيها عيد الأضحى. وكان قبل ذلك قد وجّه في 20 من شوال حملةً عسكرية ضد طليطلة عبرت نهر تاجه ثم عادت منتصرةً إلى قرطبة[28]. وانتقل إلى إشبيلية ثانيةً حيث استقبل أخاه أبا حفص العائد منتصرًا على ابن مردنيش. واتفقا في أوائل محرم عام 567هـ /1172م على إرسال المؤن الضرورية إلى بطليوس مع جندٍ من الموحدين والعرب[29]. وفي بداية ذي القعدة من سنة 567هـ/1172م، غادر يوسف بن عبد المؤمن إشبيلية على رأس حملةٍ عسكرية حاصرت مدينة وبذة، في أوّل عمل عسكري يقوده الخليفة الموحدي. وفي طريقه، استولى على بعض الحصون. ثم حوصرت وبذة. ووصلت الحملة العسكرية إلى هدفها من الحصار. وتمكّنت من هزم كلّ مقاومة. واستنادًا إلى التقديرات العسكرية ومجرى معارك الحصار، كان من المفترض أن يدخل الموحدون المدينة بالقوة بخاصة بعد أن التحق بالحملة جيش مرسية بقيادة الشيخ أبي حفص بمعيّة أبي الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل إشبيلية. وبلغ عديد الجيش 100 ألف مقاتل بين فارس وراجل[30]. إلّا أنّه لم يدخل وبذة لا صلحًا ولا عنوةً. ويفيد أبو العلاء بن عزون أحد القادة العسكريين الأندلسيين وشاهد عيان بأنّه في إحدى الجولات العسكرية كانت الفرقة التي يقودها على وشك دخول الحصن. وكان الأمر يتطلب دعمًا في مقدور الفرق العسكرية الأخرى تقديمه. وكان اضطراب القيادة في ميدان المعركة سببَ الفتور الذي دبّ في المقاتلين، إلى حدّ أنّ القائد ابن عزون لم يجد من يسانده لتحقيق نصرٍ حاسم. فتوجّه بنفسه إلى الحاكم الموحدي والقائد الأعلى للجيش. وعندئذ حدث أمرٌ غريب وخطير يصعب استيعابه؛ فلم يكترث الحاكم الموحدي ولا أعار الأمر أهميته واستمرّ منهمكًا في حديثه مع طلبة الموحدين، وكأنّه لم يستمع لمقالة ابن عزون[31]. ثم حدث بعد ذلك موقف آخر لا يقلّ غرابةً عن سابقه، ذلك أنّ حاكم البلدة كان قد أيقن بسقوط

24 ابن صاحب الصلاة، ص 371 - 372 وص380 - 383؛ ابن عذاري، ص 103 - 104.

25 ابن صاحب الصلاة، ص 372 - 374.

26 المرجع نفسه، ص 419؛ ابن عذاري، ص 116؛ وعن هذه الاستعدادات، انظر: ابن صاحب الصلاة، ص 409 - 438 .

27 ابن صاحب الصلاة، ص 351 - 352.

28 المرجع نفسه، ص 452 وص 457؛ ابن عذاري، ص 118.

29 ابن صاحب الصلاة، ص 462.

30 المرجع نفسه، ص 497 وص 499.

31 ابن صاحب الصلاة، ص 495 - 497، يقول ابن عزون: "لمّا قاتلت النصارى في البرج الذي كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة وبذة وأشرفت على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحدا من أهل الأجناد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، مشيت إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى أبي حفص وطلبة الحضر يتكلم معهم في المسائل، فقلت يا سيدنا أمير المؤمنين: عسى عون فقد أشرفت على الفتح. وإنما كنت طامعا أن يركب فيراه الناس وجميع العسكر فيدخلون المدينة في حينهم، فلم يجاوبني واشتغل عني بما كان فيه ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص. فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت وأن الغزوة قد تنكدت. ورجعت يائسا من النصر في غاية الهم والفكر. ودام القتال على انحلال وضعف وملال ما بعد أذان الظهر وارتفع وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل وانصرف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وانصرف الناس إلى أخبيتهم وقد فهم الحال من فهمها"، ابن صاحب الصلاة، ص 497.

وبذة وعدم جدوى المقاومة، وبالأخص عندما منع الموحدون الماء عن الحصن. فجاء إلى المعسكر لتسليم المدينة مقابل الأمان. وألحّ في ذلك مرّتين. لكن قوبل استسلامه بالرفض[32]. وتلا ذلك في اليوم الموالي هبوب رياح شديدة لمدة يومين أقلعت الخيام. ثم تلتها أمطار غزيرة مكّنت أهل وبذة من الحصول على الماء. وتسبّب هذا الجوّ في مشاكل للجيش الموحدي؛ إذ أصابته خلخلة واضطراب استغلّهما أهل وبذة في الهجوم على جناحٍ من العسكر. ثم رغبت القيادة الموحدية في قبول استسلام الحصن. وعندئذ رفض حاكم البلدة، بعدما وصلته أخبار بوصول إمدادات عسكرية من طليطلة. ثم عقد يوسف بن عبد المؤمن مجلسًا عسكريًا استشاريًا قرّر فيه رفع الحصار والانسحاب. وكان قرارًا مفاجئًا وذا وقعٍ سيء على نفسية الجند، فسادت الفوضى أثناء الانسحاب. واستغل الجانب المسيحي الوضع في تتبّع المنسحبين ومهاجمتهم، فألحقوا بهم بعض الأضرار، إلا أنّ الموحدين تمكّنوا من صدّهم دون التفكير في إعادة الكرّة على وبذة[33].

كان الفشل في دخول المدينة بهذه الطريقة، نذيرًا بضعف القيادة العسكرية وعدم بُعد نظرها في وضع إستراتيجية عسكرية خاصة بالأندلس. ولم يكن من حسن التدبير السياسي والعسكري في الاجتماع أن يقرّر الانسحاب. ولقد كان الانسحاب الذي نزل كالصاعقة على الجند تتويجًا لسوء التدبير السياسي والعسكري للقيادة التي لم تستغلّ مواطن النصر التي أتيحت لها. وظهر اضطراب القيادة بجلاء في لجوئها إلى قبول استسلام وبذة بعد أن جرى رفضه من قبل. وهذه علامة ضعف استغلّها حاكم المدينة فرفض ما كان قد ألحّ فيه. واستنادًا إلى التقديرات العسكرية ومجرى المعارك عند الحصار، كان من المنتظر أن يدخل الموحدون وبذة دون عناء؛ فالحصار نفسه لم يدم إلا أحد عشر يومًا فقط من 17 ذي القعدة إلى 29 منه. وهي مدة قصيرة لجيشٍ كبير ومتفوّق. لذلك فإنّ ما حدث لا نجد له ما يبرّره لا سياسيًا ولا عسكريًا.

توجّه الجيش المنسحب إلى مدينة قونكة. وعندها ارتكب يوسف بن عبد المؤمن خطأ فادحًا آخر كانت له عواقب وخيمة على المدينة، وعلى شرق الأندلس؛ فعندما عاين الحاكم الموحدي الحال في قونكة وجد أهلها في حال سيئة. ولمّا أمر بإحصائهم، وجدهم لا يتعدّون الـ 700 نسمة من رجالٍ مقاتلين ونساء وأطفال. فأمر لهم بأموال نقدية وعينية. وكان ذلك في غاية الكرم ساهم فيه رجال من البلاط الموحدي فتصدقوا بسخاء على أهل المدينة[34]. ولم تكن قونكة في حاجة إلى هذا الكرم والصدقة فقط. بل كانت في حاجة إلى حامية عسكرية تقيم في المدينة، وإلى مؤن وعتاد حربي. ولم يكن الأمر يحتاج إلى عميق تفكير وتخطيط. فقد حدث ما يؤكّد ذلك، ويوسف بن عبد المؤمن في قونكة. إذ وصل الخبر بوجود تجمّع عسكري لألفونسو الثامن Alfonso VIII والقمط نونة Nuno de Lara على مقربةٍ من المدينة في مجالها الزراعي. فارتأى يوسف نَقل المواجهة بعيدًا عن قونكة، حيث جرى عبور نهر شقر ونزل بالجبل المنيع المتّصل بالمدينة لاتّخاذ موقع حصين للجيش. وحدثت بين الجانبين بعض المناوشات. إلا أنّ الجيش المسيحي فضّل الانسحاب[35]. ثم اتّجه الجيش إلى بلنسية. ولقي في طريقه مشاكلَ عديدة؛ من نقص المؤن وموت الدوابّ والناس[36].

ولقد ترتّب عن اللامبالاة بقونكة أن سقطت المدينة سنة 573هـ/ 1178م في يد ملك قشتالة ألفونسو الثامن بمساعدة ملك أرغون. ولا شكّ في أنّ هذا المصير كان بسبب السياسة العسكرية الموحدية وضعف القيادة وقصر نظرها وتقديرها الأمور. فقد أسلم الخليفة

32 المرجع نفسه، ص 498؛ المراكشي، ص 363 - 364.
33 ابن صاحب الصلاة، ص500 - 501؛ ابن عذاري، ص 123.
34 ابن صاحب الصلاة، ص 505 - 506.
35 المرجع نفسه، ص 506 - 508.
36 المرجع نفسه، ص 510.

الموحدي المدينة بتركها دون أيّ حماية، بخاصة أنّ المساعدات والصدقات لا تبني سياسة ولا تعالج وضعًا حرجًا. أمّا في الجانب الآخر، فقد كانت سياسة الإمارات المسيحية تسير وفقًا للخطة المرسومة للوصول إلى أهدافها؛ فبعد حوالى سنتين من انسحاب الخليفة الموحدي إلى المغرب، حاصر ألفونسو الثامن المدينة لتسعة أشهر، وأعانه ملك أرغون باعتراضه جيش النجدة الموحدي. وكان الاستيلاء على قونكة التي لا تبعد عن طليطلة إلا 110 كيلومترات مفتاحًا للتوسّع نحو بلنسية ومرسية في الجنوب الشرقي[37]، ذلك أنّ المدينة كانت لها أهمية رئيسة في حماية المناطق الثغرية التي تقع في مجالها. وترتّب عن سقوط قونكة أن عقد ألفونسو الثامن هدنةً مع ملك نبرة سانشو السادس .Sancho VI ثمّ أبرم اتفاقية كاسولاCazola في شوال 574هـ الموافق لـ 20 آذار / مارس 1179م مع ألفونسو الثاني ملك أرغون لتقسيم الأندلس. فاختصت مملكة أراغون بمنطقة بلنسية جنوبًا إلى غاية حصن لقنت. واقتطعت مملكة قشتالة لنفسها جميع الأراضي جنوب هذا الثغر[38]. ما يؤكّد الرؤية العسكرية الواضحة لدى الإمارات المسيحية. ثم وصل الجيش إلى مرسية في بداية عام 568هـ/ 1172م حيث طلبت فرق من الجند تسريحهم إلى أوطانهم بسبب طول الحملة، وما أصاب الجيش في طريقه[39]. واستقر خليفة الموحدين في إشبيلية، بعد أن عرّج على غرناطة. ووجّه منها حملة عسكرية ضد حاكم آبلة أبي بردع، ويسمّى شان منوش Sancho Jimeno الذي هاجم إستجة ونواحي قرطبة. وكلّلت الحملة التي عهد بها إلى أخيه أبي زكريا يحيى بالنجاح؛ إذ تمكّنت من تمزيق الجند المهاجم وقتل شان منوش[40]. وأعقب ذلك إرسال إمدادات ومؤن مرةً أخرى مع جند إلى بطليوس. وفي طريقه، مال الجيش المرافق للمؤن بغارة على طلبيرة. ثم صدرت الأوامر بغزو طليطلة وجهاتها. ولم تستطع القوات المسيحية مواجهتهم ولا صدّهم. فكانت حملات ناجحة[41]. ثم ما لبثت مدينة باجة غرب الأندلس أن تعرّضت لهجوم ابن الرنك ملك البرتغال وحليفه جراندة الجيليقي. فخرّبت المدينة، وعانى أهلها الكثير. وكان سبب ذلك استنادًا إلى ما يقدّمه ابن عذاري سوء اختيار عامل المدينة، بعد عزل أحد أبرز القادة الأندلسيين سيد راي بن وزير عن باجة وعن غرب الأندلس، وتعويضه بأحد الطلبة الموحدين الذي كان وبالًا على المدينة[42]. ولم يكن للسلطة ردّة فعل في مهاجمة المعتدين؛ فبعد هدم سورها وإحراقها، عملت السلطة على معاقبة المسؤولين، وأمر الخليفة الموحدي بإعادة بناء ما هدم وعودة سكان المدينة إليها، بعد أن تفرّقوا في إشبيلية وعبَر بعضهم البحر إلى مرّاكش. وكذلك كانت حال سكان الحصون المجاورة لباجة. ثم أرسل جندًا موحديًا للاستقرار فيها[43]. والظاهر أنّ إعادة إعمار باجة ونواحيها، وإرسال فرق عسكرية، لم يرْقَ إلى ما كان تتطلّبه الأخطار المحدقة بغرب الأندلس، بما في ذلك إشبيلية نفسها؛ فقد عاود ابن الرنك الهجوم على باجة عام 573هـ/ 1178م. وأتلف مزروعاتها وضيّق عليها. ثم توجّه نحو إشبيلية. ودخل قرية طريانة. وأتلف محاصيلها الزراعية. وبسبب ذلك، أخلى أهل باجة مدينتهم وساروا إلى مرتلة. وهذا ما عاينه ابن الرنك، عند

---

37 هشام أبو رميلة، **علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس** (عمان: دار الفرقان، 1984)، ص 249 - 251، 252 - 253؛ معمر الهادي القرقوطي، **جهاد الموحدين في بلاد الأندلس** (الجزائر: دار هومه، 2005)، ص 154 - 159؛
Joseph F. O'Callagan, *Reconquest and Crusade in Medieval Spain* (United States: University of Pennsylvania Press, 2004), p. 56;
داود عمر سلامة عبيدات، **الموحدون في الأندلس** (إربد: دار الكتاب الثقافي، 2006)، ص 100 - 105.

38 عنان، ص 443، 586؛
O'Callagan, p. 56.

39 ابن صاحب الصلاة، ص 514 - 515؛ ابن عذاري، ص 124.

40 ابن صاحب الصلاة، ص 518 - 525؛ ابن عذاري، ص 124 - 126.

41 ابن صاحب الصلاة، ص 525 - 526.

42 ابن عذاري، ص 127 - 132؛ وانظر مكانة سيدراي بن وزير في غرب الأندلس: محمد بن عبد الله بن الأبار، **الحلة السيراء**، حسين مؤنس(محقق)، ج 2 (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963)، ص 256، 271.

43 ابن عذاري، ص 134.

عودته من طريانة[44]. ولعلّ أبرز عملية ثغرية قام بها أبو يعقوب يوسف، كانت إعادة بناء حصن القلعة لتقوية الدفاع عن إشبيلية سنة 569هـ / 1173م[45]. إلا أنّ ما قام به ما كان ليحمي إلا مجالًا صغيرًا من الأراضي الداخلية في جهة غرب الأندلس؛ لأنّ الاضطلاع بالسياسة الثغرية كان يتطلب جهدًا أكبر من ذلك بكثير. وفي سنة 570هـ / 1174م، وجّه الخليفة الموحدي حملةً عسكرية أوكل قيادتها لأخيه أبي حفص ضدّ أراضي الببوج صاحب مملكة ليون. فتوجّه إلى العاصمة السبطاط. وافتتح بعض الحصون. وكان سبب الحملة نقض الببوج المعاهدة التي عقدها مع الموحدين[46].

وكانت الحملات المتتالية ضد طلبيرة وطليطلة وآبلة، وإعادة تعمير باجة، وبسبب ما كان يجري بين الممالك المسيحية من صراع على السلطة ومن حرب أهلية، أن سعى القومس نونه في طليطلة وابن الرنك ملك البرتغال إلى طلب عقد هدنة مع الموحدين يؤرّخ لها ابن صاحب الصلاة بذي الحجة من عام 568هـ/ 1172م[47]. ولم تكن السلطة الموحدية في حاجة إلى عقد اتفاقية الهدنة تلك لتفوّقها العسكري ولأنّ الممالك المسيحية كانت تعرف حروبًا فيما بينها، وكانت تلجأ إلى طلب المساعدة العسكرية من الموحدين. ولم يستفد الموحدون من هذا الأمر على وجه الخصوص، ولم يستغلّوه في سياستهم الثغرية وفي حربهم مع الدويلات المسيحية، وفي استعادة الأراضي الأندلسية. ويُستبعد ألّا يكون الموحدون على علمٍ بأسباب الصراع وأهدافه مع الإمارات المسيحية التي كانت تعقد الاتفاقيات فيما بينها لتقسيم الأندلس وطرد المسلمين منها. ومن ثمّة ينبثق التساؤل عن الإستراتيجية العسكرية للموحدين في الأندلس، وعن رؤيتهم للحرب على الجبهة الشمالية.

فقد قضى أبو يعقوب يوسف في الأندلس أربعة أعوام وعشرة أشهر ونصف. وعاد إلى مراكش في رمضان 571هـ/ 1176م[48]. وكانت حصيلة هذه الإقامة عقد اتفاقية هدنة مع عدوٍ له أهداف واضحة؛ فكانت للحملة آثارٌ عكسية سياسيًا وعسكريًا، لأنّها ستحثّ العدوّ على السير قدمًا في مخططه. واستنادًا إلى ما سبق، قد نخلص إلى أنّ الموحدين لم تكن لهم رؤية واضحة لوضع إستراتيجية عسكرية محدّدة لها أهداف. على عكس الجانب المسيحي الذي كان على الرغم من تمزّقه وحروبه الأهلية يتقدّم بعزمٍ ثابت لتحقيق غاياته. وهذا ما حصل في ما استقبله الموحدون والغرب الإسلامي من أيّام. فهل كان الموحدون يدركون حجم الخطر المحدق من الشمال؟

ومن ثمّة لم يدم أمر الهدنة التي رضي بها الموحدون إلا قليلًا حتى نقض حاكم طليطلة الاتفاقية وهاجم قونكة، مستغلًا عودة الخليفة الموحدي إلى المغرب[49]. وردّت السلطة على ذلك بأن أغار جند قرطبة وإشبيلية على طليطلة وطلبيرة؛ لإزعاج الجيش المحاصر قونكة لعلّه يرفع الحصار. وعلى الرغم من نجاح هذه الخطة العسكرية، فإنّ الموحدين لم يهتمّوا بأمر هذه المدينة

44 المرجع نفسه، ص 134.

45 المرجع نفسه، ص 130.

46 المرجع نفسه، ص 130 - 131.

47 ابن صاحب الصلاة، ص 526 - 527؛ بينما يجعلها ابن عذاري سنة 570هـ، ويحددها للصلح الذي عُقد مع ابن الرنك، ص 131.

48 ابن عذاري، ص 135 - 136؛ ابن أبي زرع، ص 212؛ عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، خليل شحادة وسهيل زكار (محقق)، ج 6 (بيروت: دار الفكر، 1981)، ص 322؛ وقبل أن يعود الخليفة الموحدي إلى مراكش تزوّج ابنة ابن مردنيش. وأضحت لأسرة ابن مردنيش بهذا الزواج حظوة كبيرة في البلاط الموحدي، ابن عذاري، ص 135.

49 ابن عذاري، ص 137.

الإستراتيجية بالتفكير في تقويتها[50]. ثمّ ما لبث حاكم السبطاط الببوج أن أغار على جهات إشبيلية ونواحي أركش وشريش. فصدّهم جيش إشبيلية، ومزّق طائفة منهم شرّ ممزّق[51].

ثمّ عاشت الأندلس بعد ذلك اضطرابًا بسبب المشاكل العسكرية مع المسيحيين في غرب الأندلس حيث عاث ملك البرتغال ابن الرنك فسادًا في منطقة الشرف[52] القريبة من إشبيلية وتعرّضت مدينة الأشبونة وشلطيش سنة 574هـ/ 1179م لهجوم بحري قتلت على إثره طائفة من الأهالي وأسرت طائفة[53]. ثم تمادى حاكم طليطلة. وأخذ يقود غارات ضد المجال الإسلامي. ويجمل ابن عذاري ما تعرضت له الأندلس سنة 575هـ/ 1180م، بقوله: "اشتدت فتنة النصارى في البر والبحر"[54]. كان على القيادة السياسية والعسكرية عندئذ أن تضع خطة لمعالجة الوضع وإعداد حملة عسكرية طويلة الأمد في الأندلس حيث تتوجّه إلى الأشبونة برًا وبحرًا، ثم تهتم بعد ذلك بطليطلة لحسم الموقف مع من عقدت معه الهدنة. وتوقيع الهدنة في حدّ ذاته أمرٌ في غير محلّه، وهو خطأ سياسي وعسكري. وإنّ ما يدعو إلى الاستغراب أنّ أيًا من ذلك لم يحدث. وفي 15 شوال 575هـ/ 1180م، وجّه الموحدون حملة عسكرية ضخمة أُنفقت في تجهيزها أموال جمّة نقدية وعينية إلى إفريقية بسبب ما كانت تحدثه القبائل العربية من قلاقلَ، وللحدّ من مشاكلها باستجلابها نحو المغرب[55]. ودخل الموحدون قفصة. واستتبّ الأمن بالمنطقة. ونصّب الحاكم الموحدي أخاه أبا علي الحسن على تونس وأخاه أبا موسى على بجاية. ثم عاد إلى مراكش[56]. ولكن، استنادًا إلى الأولويات العسكرية، يظهر أنّ ما كان يحدث في الجهة الشرقية كان أقلّ خطرًا ممّا يحدث في الشمال في الأندلس المتعددة الجيوب والثغرات والأعداء. ويؤكد هذه الرؤية ما تلا نقض الهدنة لحاكم طليطلة والمشاكل التي تسبّب فيها حاكم أشبونة؛ فقد حدث سنة 576هـ/ 1181م أن: "كلب العدو .. في البحر وكان النصارى من أهل طليطلة وشنترين.... قد ألحوا على بلاد الأندلس بالنكاية وشن الغارات"[57]. ولم يكن لنجاح حملة محمد بن وانودين الهنتاتي على يابرة وعلى حصن قليج والانتصار البحري الذي أحرزه عبد الله بن جامع وأبو العباس الصقلي على أسطول أشبونة كافيَين لثني عزم المسيحيين عن الهجوم على المناطق الثغرية في الأندلس لأنّهم ما لبثوا أن هاجموا شنترين وما لبث حاكم طليطلة يضيق الخناق على إستجة وقرطبة، حتى عزم على مهاجمة قرطبة؛ فأغار على إستجة وإشبيلية، وعاث فسادًا في القرى المحيطة بهما. ثم استولى على شنتفيلة أحد الحصون المهمة[58].

إنّ التفكير في مهاجمة قرطبة الحاضرة الأندلسية الكبرى بما وقر في الأذهان وفي المتخيل عن هذه المدينة بقيمتها التاريخية في العالم الإسلامي، يوضح أمورًا عديدة عن السياسة العسكرية في الأندلس؛ فمن جانب العدوّ يظهر أنّه كان يعي جيدًا الوضع العسكري الموحّدي في هذه المنطقة وعدم جدوى السياسة العسكرية الموحدية التي تتميز بالضعف. وهذا ما شجّع الجانب المسيحي إضافةً إلى اتفاقيات الهدنة، على التفكير في مثل هذه الخطوة الجريئة. وكان قبول الموحدين بما سُمّي باتفاقيات الهدنة قرارات خاطئة لأنّه لم يجْر استغلالها للاستعداد لمواجهة الوضع العسكري المتردّي على الثغور. والظاهر أنّ الأندلس لم تحظَ بمثل ما حظيت به الجهة الشرقية

50 المرجع نفسه، ص 138.

51 المرجع نفسه.

52 الشرف: جبل كبير قريب من إشبيلية، يقال إنّه كان يضمّ ثمانية آلاف قرية عامرة وديارها حسنة"، وسُمّي بذلك لأنّه يشرف على إشبيلية من الجنوب، انظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، إحسان عباس (محقق)، ط2 (بيروت: مكتبة لبنان، 1984)، ص 339 - 340.

53 ابن عذاري، ص 140.

54 المرجع نفسه، ص 140.

55 المرجع نفسه، ص 140 - 143

56 المرجع نفسه، ص 140 - 143.

57 المرجع نفسه، ص 143.

58 المرجع نفسه، ص 145، 149.

من اهتمام؛ فقد صرف الموحدون جلّ جهدهم العسكري شطر شرق المغرب الأقصى. يدلّ على ذلك قيادة الخليفة الموحدي نفسِه كلّ الحملات العسكرية. ويدلّ على ذلك أيضًا ما حصل في الأندلس من غياب ردة فعل الموحدين على الغارات التي تعرّضت لها إشبيلية وقرطبة عام 578هـ/ 1183م، وانصراف الحاكم الموحدي أثناء ذلك في حملة عسكرية إلى بلاد المصامدة قادها بنفسه لتقويم وضعٍ له صلة بمنجم تصارعت عليه قبائل المنطقة[59]. إنّ هذا السلوك يخلو من دون شكّ من أيّ بعد نظر سياسي، ومن كلّ نظرة ذات بعد إستراتيجي يقتضيه السياق التاريخي في تلك الأثناء.

وتظهر مرةً أخرى المكانة الثانوية للأندلس في السياسة العسكرية الموحدية في ما حدث بعد حملة طلبيرة سنة 578هـ/ 1183م؛ ففي هذه السنة قاد ابن وانودين حملة انتصر فيها على طلبيرة وعاد إلى إشبيلية. إلا أنّ هذا النصر نفسه لم يجْرِ استغلاله سياسيًا وعسكريًا، إذ ما لبث إشبيلية أن تعرضت إلى عمليات تخريبية. وبسبب هذا الوضع المتردي الذي لم يحرّك السلطة في مراكش، اضطر أشياخ إشبيلية إلى الذهاب إلى الحاكم لكي يبسطوا له الحالة التي تعيشها البلاد والمشاكل الخطيرة التي تلوح في الأفق[60]. فعندئذ، تحرّك الخليفة بنفسه سنة 579هـ/ 1184م على رأس جيش كبير قدّر عدده بـ 130 ألف مقاتل بين فارس وراجل من العرب والقبائل المغربية والجند الأندلسي. وسيعرف هذا الجيش مشاكل تكتيكية في تحركاته[61]. وعندها تعامل الحاكم الموحدي مع الأندلس بالطريقة التي عالج بها معضلة منجم المصامدة.

وما يثير الاستغراب أنّ الحملة الضخمة المنطلقة من مراكش، لم تكن وجهتها الأندلس، بل كانت حركة استعراضية، الغرض منها وصول الخبر عن حجمها وقوّتها إلى القبائل العربية في إفريقية لإخافتها. وفي المهدية توصّل الخليفة بتقرير عن الوضع العام في إفريقية قدّمه له أبو محمد بن إسحاق بن جامع الذي قدم من المنطقة[62]. ومن قبيل الغرابة أيضًا أنّ القيادة العسكرية لم يكن قد استقر لها رأي على وجهة الجيش. وكأنّ ما كانت تعانيه الأندلس من تحرشات مسيحية وعدم أمن على الحدود ومقْدم أشياخ إشبيلية، لم يكن كافيًا لاتّخاذ قرار حاسم. فكان أن دعا الخليفة الأشياخ والقواد العسكريين للاجتماع؛ لكي "يستشيرهم في هذه الحركة إمّا لإفريقية وإمّا للأندلس"[63]. ولم يحضر الحاكم الاجتماع. وأناب عنه ابنه يعقوب. فأجمع مجلس الحرب هذا على ضرورة التوجّه إلى الأندلس. وأقرّ يوسف القرار. وحُدّدت أخيرًا الجبهة.

لا يوجد في الوضع العسكري للأندلس ما يدعو إلى هذه الاستشارة. ولم يكن الحاكم في حاجة إليها. وللمرء أن يتساءل عن الأسباب التي حدت بالخليفة إلى أن يجعل إفريقية والأندلس سيّان في العناية والاهتمام، على الرغم من وجود القبائل العربية وما كان يحدثه بنو غانية في الجبهة الشرقية. ثم إنّ مجال التحرّك إلى هذه الجبهة أبعد بكثير عن الجبهة الشمالية القريبة. كما أنّ نوايا الإمارات المسيحية وأهدافها كانت أخطر على الموحدين وعلى مجال دولتهم ممّا كان يقوم به بنو غانية والقبائل العربية. وما يفرّق بين هؤلاء والموحدين أقلّ بكثير ممّا يفرّق بين الموحدين وحركة الاسترداد. وهذه السياسة العسكرية هي التي كانت لها آثار كارثية في الأندلس وفي مصير المسلمين فيها. ويفيد إجماع مجلس الحرب على التوجّه إلى الأندلس الرأي العسكري الصائب والراجح، وبأنّ الجميع كان على علم بالحالة المزرية التي أضحت عليها هذه المنطقة.

59 ابن عذاري، ص 147، 149.
60 المرجع نفسه، ص 154.
61 المرجع نفسه، ص 157 - 158.
62 المرجع نفسه، ص 157.
63 المرجع نفسه، ص 157.

أمّا بخصوص حصار شنترين عام 580هـ/ 1184م وأهداف هذه الحملة التي كانت مهمة ترمي إلى قطع أسباب التحرشات المسيحية في غرب الأندلس، فقد كانت نتائجها على الشاكلة التي عرفها حصار وبذة، بسبب ضعف القيادة. ولم يتمكّن الجيش الموحدي من دخول شنترين على الرغم من أنّه كان بإمكانه القيام بأكثر من ذلك[64]. وهذا ما نجده زمن المنصور الذي واجه الإمارات المسيحية في جميع الجهات بعمليات عسكرية أحسن تدبيرها وإدارتها.

والظاهر أنّ السياسة الموحدية تجاه الأندلس تغيّرت ابتداءً من سنة 584هـ/1188م، عند عودة يعقوب المنصور الذي خلف أباه من تونس حيث عمّم قرارًا عبر رسائل إلى جميع جهات الدولة: "تتضمن تتميم الحركة الشرقية والاعتناء بالبلاد الغربية والبلاد الأندلسية"[65]. ويتضمّن هذا القرار الذي فيه عناية بالجهة الشرقية السياسة العسكرية الجديدة، السياسة العسكرية التي كان على الدولة اتّباعها في مجالها الشاسع وتخصيص العناية ذاتها للجهة الغربية في المغرب الأقصى والأندلس. وكأنّ المنصور بعمله هذا قد فطن إلى ما كان يتطلّبه الوضع العسكري للدولة في مشرقها وفي مغربها، من دون تركيز الاهتمام على منطقة دون غيرها. والراجح أيضًا أنّ الأمر كان بسبب الاضطرابات التي باتت تعرفها هذان الجبهتان. ويوحي هذا القرار الحاسم الذي أقدم عليه المنصور بجسامة المهمة التي كان على الدولة الاضطلاع بها في غرب المتوسط. ومن ثمّة فإنّ ما كان يقع على عاتقها، لم يكن بالأمر السهل لما يتطلبه هذا التوجّه من نفقاتٍ وتكاليفَ مرتبطة بالجهد العسكري.

لقد تمكّن المنصور في حملته على الجهة الشرقية من إعادة الهدوء إلى المنطقة في بلاد الجريد وتونس. وكان قد عانى الأمرّين قبل ذلك في استرجاع بجاية من بني غانية. ثم عاد إلى المغرب، بعد أن حقّق انتصاراتٍ في حروبه مع العرب والأغزاز وبني غانية[66]. لكن الوضع في الأندلس كان مضطربًا، فقد استفادت الإمارات المسيحية من انشغال الموحدين بالجبهة الشرقية، وشنّت الهجمات لتحقيق أهداف الاسترداد. وهذا ما كان على الموحدين الانتباه إليه في سياستهم العسكرية؛ فقد حدث سنة 585هـ/1189م - أن هاجم ابن الرنك غرب الأندلس برًا وبحرًا، مستعينًا بالبحرية الصليبية المتّجهة إلى بيت المقدس. وأسفرت هذه الحملة عن سقوط شلب[67]. ثم استولى ألفونسو في السنة ذاتها على حصن المنار، وهاجم قرطبة وإشبيلية. واستولى في هجومه على أم الغزالة وربينة. ووصل إلى قلعة جابر وحصن شلير[68]. ولا تفاجِئ هذه الهجمات الناظر إلى وضع الأندلس؛ لأنّه كان من المرتقب أن تتعرّض البلاد إلى مثلها لمكانة الأندلس في السياسة العسكرية الموحدية، ولعزم حركة الاسترداد على بلوغ أهدافها. ولم يتأخر ردّ المنصور الموحدي؛ فتوجّه إلى الأندلس على رأس حملة عسكرية برية وبحرية[69]. ولم يكن الوضع الداخلي الأندلسي على ما يرام؛ لأنّ العلاقة بين الولاة والرعية كانت متوترة، وتتطلب معالجة السلطة المركزية[70]. كانت هذه الحملة ترمي إلى ردع ابن الرنك في غرب الأندلس بالوصول إلى قلمرية. وكانت لها آثار إيجابية في غرب الأندلس، بعد العمليات العسكرية على قصر أبي دانس إلى شلب. فاستعاد المنصور شلب[71]. وبرز ذلك في أن أسرع ابن الرنك إلى

64 المرجع نفسه، ص 157 - 162؛ ابن أبي زرع، 214 - 215؛ عنان، ص 116 - 121.

65 ابن عذاري، ص 197.

66 المرجع نفسه، ص 181، 191 - 194.

67 المرجع نفسه، ص 201 - 202.

68 المرجع نفسه، ص 202.

69 المرجع نفسه، ص 205.

70 المرجع نفسه، ص 204، 207. لا يسمح المقام ببسط هذا الموضوع، والظاهر أنّ بعض العمال الموحدين في الأندلس لم يكونوا أهلًا للمنصب في منطقة ثغرية تعيش حربًا دائمة. ولم تكن السلطة المركزية تنتقي العمال المناسبين من قبيل ما حدث في باجة مع طائفة ما كان يسمّى "حفاظ الموحدين" بإشبيلية وفي باجة إلى أن أدّى الأمر إلى تنصيب أحد طلاب الموحدين يسمّى عمر بن سحنون وكان لا دراية له بأمور السياسة وغيرها. وانتهى ذلك بأن دخل ملك البرتغال المدينة وخرّبها سنة 568هـ/ 1172م، انظر: ابن عذاري، ص 127–128.

71 الحميري، ص 342 - 343.

طلب عقد هدنة، وكذلك فعلت الإمارات المسيحية الأخرى التي أرسلت سفراء إلى مراكش لعقد هدنة تخدم مصالح المسيحيين. فأغضب المنصور هذا التمادي، وردّ السفارة دون جواب، ممّا يفسّر الحزم السياسي والقوة العسكرية اللذين تمتّع بهما هذا الحاكم الموحدي[72].

وقد تزامنت مشاكل الأندلس هذه مع حدوث قلاقل في الجبهة الشرقية تمثّلت بثورة الأشل وما أحدثته من اضطرابات[73]. وكان المنصور قد عزم على التوجّه إلى إفريقية. فاستغلّ ألفونسو الوضع ونقض العهد الذي عقده مع الموحدين. فعرفت الأندلس اضطرابًا أمنيًا عمّ جهاتها الشرقية والغربية. ووقع المنصور بين خيارَين؛ إمّا تأكيد العزم على الوجهة الأولى، وإمّا التوجّه نحو الجبهة الشمالية. وكان اختيار المنصور صائبًا. فظهرت العناية الخاصة التي تتطلبها الأندلس. وكانت معركة الأرك التي أحرز فيها الموحدون انتصارًا كبيرًا. وقد كانت هذه الحملة موجّهة في الأصل إلى إفريقية. وكان المنصور قد استقر آنئذ في رباط الفتح مستعينًا في ذلك بولاته على الأندلس. فاستغلّ ملك قشتالة هذا الوضع ونقض الهدنة ووجّه غاراته شرقًا وغربًا في الأندلس. وبوصول هذه الأنباء إلى المنصور، جرى تغيير الوجهة لخطورة الموقف في الجبهة الشمالية. والأكثر من ذلك أنّ الجند استبشر ونشط عندما علم بتغيير الوجهة نحو الأندلس، لقربها، ولِما كان يأتيهم منها من مؤنٍ وخيرات[74]. ويدلّ تغيير الوجهة بهذه السرعة وما أسفرت عنه الحملة من انتصار، على الإمكانات التي كانت بيد الموحدين لتغيير ميزان القوة في الأندلس وفي غرب المتوسط. وهو ما قام به الموحدون زمن المنصور الذي استوعب ما كان على عاتق الدولة عسكريًا.

كانت الجبهة الشمالية تتطلّب مثل هذه المعركة؛ لأنّ الانتصار فيها كان سيسفر عن وضعٍ جديد سياسيًا وعسكريًا يلائم ما تتطلّبه البلاد، وسيكون بداية عهد جديد وإستراتيجية عسكرية لها رؤية مغايرة لسابقتها ممّا قد يعمل على تغيير موازين القوة في غرب المتوسط. لقد وعت السلطة الموحدية بهذا الأمر. وأجمع المجلس العسكري الذي عقده المنصور على نقل العمليات العسكرية إلى أرض العدوّ، بمهاجمته في عقر داره، ووضع خطة لاسترجاع الحصون والمدن التي سلبها. فكان الاتفاق على غزو طليطلة عاصمة ألفونسو سنة 592هـ/ 1196م. فتمكّن الموحدون في هذه الغزوة من الاستيلاء على بعض الحصون، وحاصروا طليطلة. وأغاروا على جميع جهاتها[75]. وكانت هذه السياسة أعود على الموحدين وعلى الوجود الإسلامي بالأندلس، بدليل إرسال سفارة إلى المنصور لعقد هدنة. وكان ردّ المنصور على السفارة يتّسق مع سياسته الجديدة في الأندلس؛ فقد رفض الصلح، ما يعني أنّ عقد المعاهدات والهدنة كان رأيًا غير صائب وأنّ الحلّ في ميادين القتال[76]. ولم يتأخّر الجواب العسكري؛ فغزا المنصور طليطلة ثانية. ووصل الخبر آنئذ أنّ حاكم برشلونة أمدّ ألفونسو بمساعدة عسكرية، وأنّهما اجتمعا في حصن مجريط. وممّا يؤكّد الحزم العسكري للمنصور أنّه توجّه إلى الحصن وحاصره. والظاهر أنّ المدد البرشلوني انسحب وبقي ألفونسو وحده؛ ممّا أثناه عن المواجهة. ثمّ عرج المنصور شرقًا على وادي الحجارة على رأس غزوةٍ أثبت أثناءَها القوة العسكرية الموحدية في المجال الأندلسي. ثم عاد إلى قرطبة[77]. أسفرت هذه العمليات العسكرية في الأندلس برًا عن منح الموحدين التفوّق العسكري في هذه المنطقة غرب المتوسط. وهو ما يفسّره جنوحهم إلى عقد اتفاقيات الهدنة. وكان للأمر تأثيره في المجال البحري لمساهمة الأسطول الموحدي في هذه العمليات. وكان سعي الإمارات المسيحية إلى عقد الهدنة يرمي إلى تحقيق أهداف سياسية بتنشيط العمليات العسكرية في الجبهة الشمالية. وما زاد من تأكيد التفوّق الموحدي بقاء المنصور في الأندلس إلى غاية

---

72 ابن عذاري، ص 214.

73 المرجع نفسه، ص 215 - 216.

74 المرجع نفسه، ص 217.

75 أحمد عزاوي، **رسائل ديوانية موحدية** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1985)، ص 237 - 246؛ المراكشي، ص 406؛ ابن عذاري، ص 224؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب**، يوسف الشيخ محمد البقاعي (محقق)، ج6 (بيروت: دار الفكر، 1986)، ص 163؛ عمر سلامة، ص 106.

76 ابن عذاري، ص 226.

77 المرجع نفسه، ص 227.

سنة 594هـ/ 1197م. وهي إقامة أزعجت القوة المسيحية وأربكتها وأخافتها، بخاصة أنّها تخللتها استعدادات عسكرية جعلت الجند في حالة استنفار دائم[78]. فكان طلب عقد الهدنة. وقبل المنصور ذلك.

والظاهر أنّ عقد الهدنة لا في زمن المنصور ولا قبله ولا بعده، كان خطأً سياسيًا ترتّبت عنه عواقب عسكرية وخيمة. وتؤكد جميع الأحداث في الأندلس عدم جدوى اتفاقيات الهدنة أو الصلح الواهية. وهي اتفاقيات وقف عندها الموحدون، ونبذها المسيحيون. لذلك انضاف إلى خطأ القيادة السياسية والعسكرية خطأ معاهدات الصلح؛ فلطالما طالبت الإمارات المسيحية بعقد اتفاقيات الهدنة. ولطالما نقضتها. لذلك ما جدوى عقد مثل هذه الاتفاقيات التي خُرقت أكثر من مرة؟ والراجح أنّ السلطة الموحدية لم تدرك جيدًا الأهمية الكبرى التي كانت للجبهة الشمالية، ولخطورة الموقف فيها، إلا زمن المنصور فقط، وما كان قد خطّط له عبد المؤمن من قبل. أمّا ما عدا ذلك فكانت تعمّ المنطقة اضطرابات عميقة. وسيجري استغلال الأندلس في الصراع على السلطة بين الحكّام الموحدين عندما تخلَّوا عنها نهائيًا؛ ما ساعد المسيحيين على إنهاء الوجود الإسلامي فيها.

وتوحي التحركات العسكرية للناصر الذي خلف أباه المنصور، بأنّ ثمة توجّهًا إستراتيجيًا عسكريًا على الجبهة الشمالية، ومن ثمّ استمرار التفوّق العسكري الذي دشّنه المنصور؛ ففي عهده دخل الموحدون الجزر الشرقية ابتداءً من 599هـ - 600هـ / 1203م، وأنهَوا حكم بني غانية، وتخلصوا من عدوٍ أذاقهم المرارة منذ قيام دولتهم. ثم قاد الناصر حملة عسكرية ضخمة ضد الأندلس انتهت بهزيمة العقاب لسنة 609هـ/ 1212م. الهزيمة التي تكبّدها الموحدون بسبب المشاكل الداخلية وضعف القيادة[79]. وبعدها مباشرةً هاجم ألفونسو الثامن بياسة وأبدة مستغلًا انتصاره ومؤكدًا عزمه على سياسته العسكرية التوسعية في الأندلس؛ لأنّ الرؤية كانت واضحة[80]. وعندئذ ستتسارع وتيرة انهيار القوة العسكرية ليس في الأندلس فحسب بل في جميع الدولة. لم تكن هزيمة العقاب إلا حلقة في سجال الحرب بين الموحدين والإمارات المسيحية. وكان بإمكان الموحدين معاودة الكرّة مرةً أخرى، لأنّهم كانوا يملكون القدرات البشرية والمؤن والعتاد للقيام بذلك. إلا أنّه لم يكن لهم أيّ ردّ عملي تجاه هذه الهزيمة التي باتت حاسمة وللوجود الموحدي بخاصة والإسلامي عامة في الأندلس؛ فعوض أن ينغلق الناصر على نفسه بسبب ما حدث[81] كان عليه إعداد العدّة للقيام بحرب شاملة في الأندلس، على غرار ما قام به أبوه، أو كما كان قد خطّط له جدّه عبد المؤمن.

وقد تلا هزيمة العقاب كارثة أخرى في قيادة الدولة، عندما عمد أشياخ الموحدين إلى تنصيب ابن الناصر الذي لُقّب بالمستنصر الطفل ذي العشر سنين خليفة للموحدين. يصف ابن عذاري نقلًا عن ابن رشيق حال هذا الحاكم في مدة حكمه، بقوله: "وكان أبوه قد أوصى عليه بعض أشياخ الموحدين بحضرته فتغلبوا عليه في أيام دولته. فلم تكن له حركة تشهر ولا غزوة تذكر لكن أيامه كانت هادنة ليس فيها مفاتنة"[82]. كانت الوضعية الحرجة التي أضحت عليها الدولة تتطلب حاكمًا صاحب خبرة وحنكة سياسية وتجربة وقيادة. فقد ظهر أشياخ الموحدين بتنصيبهم المستنصر وكأنّهم يتقاسمون تركة أو إرثًا استأثروا به وتنازعوه، بينما تركوا الدولة كالسائمة التائهة دون توجيه أو قيادة. ويوضح موقف أشياخ الموحدين قصور رؤيتهم لمصلحة الدولة وقلة اهتمامهم بالحفاظ على ما أسّسه الحكام السابقون؛ فلم تكن لديهم رؤية سياسية ولا بعد نظر سياسي وإستراتيجي. وقد أمضى الطفل الحاكم أوقاته في ما كان يلهو به أقرانه، أمّا أمور

78 المرجع نفسه، ص 226؛ المقري، ج6، ص163.

79 المراكشي، ص 457؛ ابن عذاري، ص 262 - 263؛ ابن خلدون، ج6، ص 334 - 335؛ المقري، ج6، ص 164.

80 المراكشي، ص 458؛ O'Callaghan, p. 74 - 76.

81 المراكشي، ص 458 - 459؛ ابن عذاري، ص 265.

82 ابن عذاري، ص 265.

الدولة فقد تولّاها الأشياخ الذين كانوا فئة لها مصالح مختلفة ومشارب متباينة. ولم يفكّر أحدهم أو لم يفكّر بعضهم في القيام بأيّ غزوة. ولم يكن المستنصر الطفل ليضطلع بهذه الأمور العسكرية. ولذلك كانت مدة حكمه زمن انكماش وانطواء انتهت بصراعٍ على السلطة، وليس بصراع مع الأعداء وبحرب أهلية بين أفراد البيت الحاكم. ومن سوء التدبير السياسي لدى الوزير ابن جامع ولدى فئة أشياخ الموحدين هذه عقد هدنة وصلح مع مملكة قشتالة باسم المستنصر، وإلزام ولاة الأندلس بها[83]. وهذا ما زكّى أمر الوهن العسكري الذي خيّم على بطانة الحاكم بعد العقاب وقصر نظرهم. ثم إنّه لا فائدة من عقد مثل هذا الصلح لأنّه لن يجري التزامه. والغالب على الظن أنّ أفرادًا من الأشياخ كانوا على علم يقين بعدم جدوى عقد الاتفاقية مع عدوٍ لا يفي بوعوده واتفاقياته. كما ظهر زمن حكم المستنصر أيضًا سنة 613هـ/1216م. في نواحي فاس، بنو مرين الذين التقوا بالجيش الموحدي وهزموه[84]. ثم استولى ملك البرتغال ألفونسو الثاني على قصر أبي دانس سنة 614هـ/ 1217م غرب الأندلس. ومُني الجيش الذي خرج من قرطبة وإشبيلية وجيان لإنقاذ المدينة بالهزيمة. ثم توفي المستنصر سنة 620هـ/ 1223م دون أيّ ردة فعل[85]. ولذلك فَنَعْتُ ابن عذاري حكم المستنصر بأنّه كان زمنًا هادئًا خاليًا من "المفاتنة" أمر يصعب استيعابه لأنّ أيّ هدوء لا يخلو من مشاكلَ ويخفي عواقبَ وخيمة. وقد يكون بداية نهاية. ولذلك قلّما يطمئنّ أهل الحكمة والرأي للهدوء وللاستقرار لتخوّفهم من مفاجآتهما. فكانت الهدنة التي أمر ولاة الأندلس بتنفيذ بنودها إعلانًا عمليًا أكّده ما جاء من بعد من انسحابٍ من المواجهة العسكرية في الجبهة الشمالية وترْك الأندلس تلقى مصيرها بنفسها[86]. والأفظع من ذلك أنّها استُعملت واستعمل ما تبقّى منها في الصراع على السلطة بين أفراد البيت الحاكم؛ فبعد المستنصر تولّى الحكم عبد الواحد المخلوع ثم المقتول خنقًا، وقد حكم حوالى ثمانية أشهر وقتل بعد ثلاثة أيام من خلعه سنة 621هـ/ 1124م[87]. وثار عليه في مرسية زمن حكمه الوجيز ابن أخيه عبد الله بن يعقوب المنصور الذي تلقَّب بالعادل، وذلك بعد شهرين من بيعته، وسانده في ذلك أخوه أبو العلاء المأمون والي قرطبة وعبد الله البياسي والي إشبيلية. ولم تكن بيعة العادل بالإجماع في الأندلس. فلم تبايعه بلنسية ودانية وشاطبة وجزيرة شقر، لكونها في سلطة أبي زيد أخي عبد الله البياسي وأخي أبي دبوس[88]. ثم ما لبث البياسي الذي عيّنه العادل عاملًا على قرطبة أن ثار على العادل وخرج عن الموحدين سنة 623هـ/ 1226م؛ مستعينًا بالمسيحيين. وهاجم إشبيلية. ودلّهم على مواطن الضعف في الأندلس. وعرفت البلاد غاراتٍ وتخريبًا بسبب ما وقع بين البياسي والمأمون إلى أن انتصر المأمون وثار أهل قرطبة على البياسي وقتلوه[89]. وفي هذا الوضع المكفهرّ، انسحب العادل إلى المغرب ليدافع عن حكمه وترك الأندلس تئنّ تحت ضربات القوة المسيحية التي صعّدت غاراتها على إشبيلية ومرسية، وتوالت الهزائم على ما تبقّى للموحدين من جند[90]. وما لبث أن تفاقم الأمر بعد ذلك سنة 624هـ/ 1226م؛ بأن ثار المأمون على أخيه العادل في إشبيلية، وأعلن نفسه حاكمًا للموحدين[91]. ولجأ إلى طلب مساعدة المسيحيين مقابل تنازلات ضخمة عنت التخلي عن الأندلس وأهلها. ثم دخل المغرب بالمساعدة العسكرية المسيحية وبجيش الأندلس التي أُفرغت من الجند بهدف الدخول إلى

83 ابن عذاري، ص 268؛ ابن خلدون، ص 337.

84 ابن عذاري، ص 266؛ ابن خلدون، ج6، ص 337.

85 ابن خلدون، ج6، ص 337؛ عمر سلامة، ص 126.

86 أكّد ابن عذاري هذه النتيجة بقوله عن معركة العقاب: "وفي هذه السنة كانت واقعة العقاب التي كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن"، ص 263؛ ويقول ابن سماك: "وفي صفر 609هـ كانت عليه (أي الناصر) وعلى المسلمين الهزيمة العظمى التي فنى فيها أهل المغرب والأندلس"، ص 161.

87 ابن عذاري، ص 269.

88 ابن عذاري، ص 270؛ ابن خلدون، ج 6، ص338؛ وانظر ما عانته الأندلس بعد بيعة العادل: عمر سلامة، ص 128 - 134.

89 ابن عذاري، ص 271؛ ابن خلدون، ج6، ص 339.

90 ابن خلدون، ج6، ص 339.

91 ابن عذاري، ص 273، 275؛ ابن خلدون، ج6، ص 338.

مراكش ومحاربة أخيه عوض محاربة الخطر المسيحي[92]. فسقطت الجزر الشرقية. وانفصلت إفريقية. وعاشت البلاد تمزّقًا آخر، عندما ثار المتوكل بن هود على الموحدين في مرسية وشرق الأندلس، وأعلن اعترافه بالعباسيين[93]. فعانت الأندلس والمغرب والحوض الغربي للبحر المتوسط من تعفّن الوضع السياسي والعسكري الموحدي، ممّا كان يخدم التطلعات المسيحية بأكثر ممّا كانت تحلم به. وليس من الغريب أن يسفر هذا الوضع عن سقوط قرطبة بعد أن جرَتْ مهاجمتها من قبل، في حركة الاسترداد في 23 شوال 633هـ/ 1235م في وقتٍ وجيز من هذا الانحدار، ما يؤكّد الخطر الكبير الذي كانت تمثّله الجبهة الشمالية[94]. ولم يحرّك الموحدون ساكنًا؛ فقد كانوا منهمكين في صراعاتهم على السلطة في ما تبقّى لهم من المغرب الأقصى، مستخدمين في ذلك التحالف مع القبائل العربية والاستعانة بالعدوّ في الجبهة الشمالية. ولم تُحدث هذه الكارثة هزّةً لدى السلطة السياسية. فالحاكم الموحدي الرشيد كان منهمكًا في حربه مع يحيى بن الناصر، واستعان في ذلك بالمسيحيين[95]؛ فسقوط طليطلة جاء بعد حوالى سبعين سنة من التمزّق السياسي والوهن العسكري بعد الفتنة البربرية والأزمة التي عاشتها الأندلس مع ملوك الطوائف. أمّا سقوط قرطبة برمزيتها ومكانتها في العالم الإسلامي، فقد كان إبان حكم الموحدين الذين أخطأوا التقديرات الجيوسياسية والعسكرية بما فيها مصلحة الدولة ومصلحة الغرب الإسلامي. فكان التوسّع شرقًا خطأً فادحًا؛ لأنّ الموحدين كانوا يعلمون علم اليقين أنّ أخطر جبهة لديهم بعد قضائهم على المرابطين هي الأندلس وليس المشرق. وفي هذا الصدد يقول ابن عذاري عن الوضع الذي باتت عليه الأندلس في تلك الأثناء: "فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي وتنهد له الجبال الرواسي ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[96]. ثم سقطت بلنسية ومرسية سنة 636هـ/ 1238م، وجيان سنة 644هـ/ 1246م، وشاطبة سنة645هـ/1247م، وإشبيلية سنة 646هـ/1248م.

ثانيًا: قضية الجزر الشرقية "جزر البليار"

للجزر الشرقية مكانة إستراتيجية في غرب المتوسط عمومًا، ولها أهمية خاصة في شرق الأندلس. والسيطرة عليها تدعم القوة العسكرية البحرية للدفاع عن شمال إفريقية وعمّا تبقّى من العدوة الأندلسية وبالخصوص الشواطئ الشرقية. لقد عانى الموحدون مشاكلَ كثيرة من حكّام بني غانية بقية المرابطين الذين كانوا يحكمون هذه الجزر للعداء الذي كان بين الجانبين. وقد تمكّن بنو غانية من السيطرة لمدة على بجاية وعلى إفريقية بمساندة القبائل العربية، ممّا كان يكلف الموحدين الكثير ماليًا وعسكريًا[97]. ولم ينته مشكل بني غانية إلا عام 599هـ - 600هـ / 1203م عندما ضمّ الموحدون الجزر الشرقية إلى مجال سيادتهم[98]. والظاهر أنّ السياسة التي نهجها الموحدون مع بني غانية لم تكن ترمي إلى القضاء على هؤلاء فحسب بل كان لها أيضًا بعد إستراتيجي عسكري مرتبط بالدفاع عن الأندلس أو تثبيت التفوّق العسكري في غرب المتوسط. وهكذا كانت الحرب سجالًا بين الفئتين. وكانت جلّ المعارك تدور في مجال الموحدين الشرقي، حيث كان يهاجم بنو غانية. امتزج فيه الصراع المذهبي والعسكري.

92 ابن أبي زرع، ص 250 - 251؛ ابن عذاري، ص 273 - 274؛ لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، محمد عبد الله عنان(محقق)، (القاهرة، د.ن، 1973)، ج1، ص 411 - 412؛ ابن خلدون، ج6، ص 340 - 341.

93 ابن عذاري، ص 276 - 278؛ المقري، ج1، ص 427 - 428.

94 ابن عذاري، ص 331؛ المقري، ج1، ص 427؛ O'Callagan, p. 78 - 98.

95 ابن عذاري، ص 331 - 332.

96 عزاوي، ص 248 - 253؛ ابن عذاري، ص 331.

97 يجمل ابن خلدون ما عاناه الموحدون مع بني غانية في شرق الدولة، انظر: ابن خلدون، ج 6، ص 252 - 263.

98 عن السبي والأموال التي استولى عليها الموحدون بعد دخولهم ميورقة، انظر: المراكشي، ص 448 - 449.

غير أنّ هذه العلاقة العدائية للموحدين مع بني غانية تختلف في تقلباتها عن علاقاتهم العدائية مع الإمارات المسيحية في الأندلس. فقد كانت العلاقات العدائية بين الموحدين والإمارات المسيحية على الرغم من طابعها العدائي المتأصّل تتخلّلها أوقات هدنة واتفاقيات كان يخرقها في كلّ الحالات الجانب المسيحي. أمّا مع بني غانية، فانعدمت اتفاقيات الهدنة. وكان الموحدون يرون أنّ من حقّهم ضمّ الجزر الشرقية إلى ممتلكاتهم لكونهم ورثة المرابطين[99]. وقد تمثّل السياسة السلمية التي اتّخذها الموحدون تجاه بني غانية نوعًا من الاستثناء زمن أبي يعقوب يوسف؛ وذلك لمّا أرسل سفارة إلى ميورقة ترأّسها أبو الحسن علي بن الربرتير. ولم تكن سفارة القائد العسكري بهدف عقد هدنة أو البحث عن حلٍ للصراع، بل كان موضوع السفارة هو ضمّ الجزر إلى السيادة الموحدية - وهذا ما يطلق عليه ابن عذاري "الجماعة" - وإنذار بني غانية من عواقب موقفهم. فكان الردّ أن جرى رفض "جماعة" الموحدين وإلقاء القبض على أبي الحسن. ثم هاجم بنو غانية بعد ذلك بجاية ودخلوها في صفر 581هـ/1185م[100]. ولم نسمع بهذا النوع من السفارات يرسَل إلى الممالك المسيحية في الأندلس أو إلى إحداها، ممّا سيكون له أبعاد سياسية، بخاصة إذا جاء الأمر بعد الانتصارات العسكرية التي كان يحرزها الموحدون. وقد ظهر من خلال ما سبق أنّ سياسة الموحدين تجاه بني غانية كانت ترمي إلى القضاء عليهم وكسر شوكتهم. وهذا ما تمّ لهم في سنة 599هـ/ 1202م حين ضمّوا الجزر إلى مجال نفوذهم[101]. وبات على الموحدين الحفاظ على أمن الجزر التي تساعدهم بموقعها في حماية الشواطئ الشرقية للأندلس[102]. غير أنّ أيًا من ذلك لم يحدث؛ فلا الجزر الشرقية حُميت ولا الشواطئ الشرقية أمنت. ويخبرنا الحميري عن تجهيزات الأسطول البحري الذي أرسله الناصر ضد ميورقة، وهو ما أسفر عن دخول الموحدين إليها والقضاء على حكم بني غانية فيها، فكان الأسطول مكوّنًا من "ثلاثمائة جفن منها سبعون غرابا وثلاثون طريدة وخمسون مركبا كبارا، وسائرهم قوارب منوعة. وأما العدد والسلاح والمجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشيء لا يأخذ عددا، وكذلك الدروع والسيوف والرماح والبيضات والأتراس والدرق والقسي وصناديق النشاب وجملة وافرة من الطعام"[103]. كان توجيه هذا الأسطول الضخم بهذه المؤن والمعدات إلى ميورقة قرارًا صائبًا من الناحية العسكرية لأنّه كان موجَّهًا ضد عدوٍ قوّض مضاجع الموحدين من بجاية إلى إفريقية. وهو ما يذكّرنا بالجيوش الموحدية التي كانت تتّجه نحو إفريقية. وما هذا الأسطول الكبير إلّا لقطع أسباب القلاقل التي كان يحدثها بنو غانية بتحالفهم مع القبائل العربية. فالأمر مرتبط مرةً أخرى في هذا القرار العسكري بالجبهة الشرقية. وعلى المرء أن يتساءل عن الكسب السياسي والعسكري لضمّ الجزر الشرقية للموحدين، وما ترتّب عن ذلك عسكريًا في غرب المتوسط.

لم يكن لدخول الموحدين الجزر الشرقية وقعٌ لدى أهل حركة الاسترداد. والظاهر أنّ استيلاء الموحدين على هذه الجزر قد شجّع سنة 601هـ/ 1204م بيدو الثاني على التفكير في ضمّها لأراضيه؛ فأخذ يعدّ العدّة لمشروعه. وتوجّه بنفسه إلى روما للحصول على دعم البابوية وتزكيتها[104].

---

99 ابن عذاري، ص 175.

100 المرجع نفسه، ص 175؛ عصام سالم سيسالم، **جزر الأندلس المنسية: التاريخ الإسلامي لجزر البليار** (بيروت: دار العلم للملايين، 1984)، ص 353 - 367.

101 انظر أحداث الحملة: سالم سيسالم، ص 398 - 407.

102 اتبع بنو غانية سياسة عسكرية للدفاع عن مجال سيادتهم ضد الهجمات المسيحية، وقد نظموا حملات عسكرية لمهاجمة المعتدين حفاظًا على مكانتهم في المنطقة، انظر: المراكشي، ص 397؛ سالم سيسالم، ص 331 - 341.

103 الحميري، ص 567 - 568.

104 سالم سيسالم، ص 404 .

ويرى أحد الباحثين أنّ ضمّ الموحدين ميورقة جاء متأخرًا ولم تكن تُرجى منه فائدة؛ لأنّ دولة الموحدين أخذت في الانهيار، وأنّ دخول الموحدين الجزر على عهد الخلفاء السابقين للناصر كان من الممكن أن يكون له وقعٌ أفضل على الجيش الموحدي بعدم بعثرة جهوده شرقًا وغربًا، ومن ثمّة تركيز جهوده على الأندلس[105]. إلا أنّ الأمر في جوهره لم يكن كذلك؛ لأنّ هذه الرؤية لم تأخذ في حسبانها الإستراتيجية العسكرية للموحدين في غرب المتوسط. فمصدر القلاقل في الجبهة الشرقية لم يمثّله بنو غانية وحدهم، بل كان ثمّة العرب والأغزاز والرفض المذهبي للعقيدة التومرتية. ثمّ هنالك العناية الخاصة التي حظيت بها هذه الجبهة. وحسبنا دليلًا أنّ عبد المؤمن مؤسّس الدولة عرج على المشرق قبل أن تستقيم له أمور الأندلس التي كانت تعيش آنئذ اضطراباتٍ عميقة. ثم إنّ الأندلس، كما ذكرنا سابقًا، كانت تأتي من الناحية العسكرية بعد الجبهة الشرقية.

لم يمض زمن طويل على دخول الموحدين الجزر الشرقية حتى أخذت هذه الجزر تتعرض إلى تحرشات حاكم برشلونة؛ فابتداءً من سنة 607هـ/1210م نهج هذا الحاكم سياسةً عسكرية واضحة المعالم في شرق الأندلس بما في ذلك الجزر الشرقية[106]. ولم يكن دخول الموحدين إليها ليثني عزمه أو ليغيّر جانبًا من سياسة الإمارات المسيحية تجاه الوجود الإسلامي في الأندلس، بل بدَا كأنّه عاملٌ مشجّع، ما دفع أعيان شرق الأندلس إلى التوجّه إلى مراكش لتقديم شكواهم بسبب الوضع العسكري والأمني المتردّي[107]. يؤكّد لنا هذا الواقع ضعف القدرة العسكرية الموحدية وقوة ردعها في الأندلس، والنظرة التي كانت للإمارات المسيحية لها على الرغم من تمكّنها من السيطرة عل الجزر الشرقية. ويفيد توصّل الناصر في مراكش بشكاوى أهل شرق الأندلس أنّ ثمة وهنًا عسكريًا لدى الولاة ولدى الجند، لأنّهم لم يستطيعوا مواجهة المشكل. وممّا يسير في اتّجاه الخلاصة ذاتها ما قام به الناصر عسكريًا في الأندلس استجابةً للشكوى التي توصّل بها. فقد أعدّ جيشًا توجّه به إلى الأندلس في أواخر سنة 607هـ/1210م في ظروفٍ عصيبة عانت فيها البلاد مسغبة أثّرت في الجند، وتلا ذلك أمطارٌ غزيرة تسبّبت في فيضانات سنة 608هـ/ 1211م[108]. وارتأت القيادة العسكرية مهاجمة الأراضي القشتالية. وأسفر ذلك عن فتح حصن شلبطرة[109]. ولم نسمع بتحركات ضد برشلونة؛ فالوضع العسكري كان يتطلب توجيه أسطول حربي لمهاجمة برشلونة بحرًا أو انطلاقًا من الجزر الشرقية على شاكلة الأسطول الذي أعدّ للقضاء على حكم بني غانية. ما يدعو إلى الاستغراب ويفسّر من جانب تركيز الموحدين على الجبهة الشرقية. ولم يكن لهذه التحركات بعد نظر عسكري ولا إستراتيجي؛ إذ حدثت قبيل هزيمة العقاب لسنة 609هـ/1212م وقد تكون مهّدت لها ومن بين أسبابها. وبعد واقعة العقاب كانت نهاية الأندلس بأن تخلّى عنها الموحدون نهائيًا؛ فتساقطت مدنها الكبرى بسرعة فائقة. وأثّرت هزيمة العقاب في القوة البحرية الموحدية، فتقوّت أساطيل أراغون وجنوة وبيزة والبندقية. وقد تمكّن ملك قطلونيا وأرغون خايمي الأوّل من الاستيلاء على الجزر الشرقية، بعد أعمالٍ وحشية في 14 صفر سنة 627هـ/ 1229م[110]. ونتيجة لهذا الضعف العسكري البحري - وبسببه - هاجمت جنوة سبتة، وحاولت احتلالها سنة 633هـ/ 1236م[111].

---

105 القرقوطي، ص 224.

106 ابن عذاري، ص 258؛ المقري، ج 6، ص 259 - 262.

107 ابن عذاري، ص 258.

108 المرجع نفسه، ص 259 - 261.

109 المراكشي، ص 453 - 454؛ ابن عذاري، ص 261.

110 سالم سيسالم، ص 412 - 433.

111 ابن عذاري، ص 350.

ثالثًا: الجبهة الشرقية والجبهة الشمالية

لم تكن الجبهة الشرقية بالخطورة التي كانت عليها الحال في الأندلس؛ فالعدوّ في المشرق يختلف اختلافًا بيّنًا عن العدوّ في الشمال. ثم إنّ فقدان قفصة أو بلاد الجريد أو إفريقية وهو ما سيحدث فيما بعد، لم تكن له الآثار السلبية والعواقب الخطيرة سياسيًا وعسكريًا لفقدان حصنٍ واحد من حصون الأندلس. لقد كان على الموحدين عدّ الأندلس منطقة حرب دائمة وجبهةَ أكبر خطر على الدولة في جميع مجالها. وعوض التوسّع شرقًا وتبديد جهدهم العسكري في هذه المنطقة كان عليهم التركيز على الأندلس بالعمل على القضاء على التهديد الذي تمثّله والخطر الذي تشكّله ليس على الوجود الإسلامي في الأندلس بل بحماية الغرب الإسلامي من هذا الخطر. ثم إنّ الإمارات المسيحية كانت تعي جيدًا الانشغال العسكري بالجبهة الشرقية بما كانت تتطلّبه من أموال وجهد وجند واهتمام. إضافةً إلى أنّهم لاحظوا العناية الخاصة التي كانت تحظى بها لدى الحكّام الموحدين الذين ما فتئوا يقودون بأنفسهم الحملات العسكرية في هذه الجبهة التي ركّز عليها أيضًا بنو غانية[112]. ولم يكن يغيب هذا الأمر عن الموحدين في سياستهم العسكرية ولكنّهم لم يغيّروا موقفهم ولا أعادوا ترتيب سياستهم العسكرية بحسب الأهمية والخطر الذي تمثّله الجبهة[113]. من قبيل ما عمد إليه ألفونسو الثامن لمّا استغل ما حدث للناصر مع بني غانية، فنقض الهدنة التي سبق أن طالب بتوقيعها بعد هزيمته في الأرك، وعقد صلحًا مع ملكي نفارا (نبرة) وأرجون بغية الثأر لهزيمته[114].

لقد استأثرت العاصمة مراكش باهتمام أمراء الموحدين في صراعاتهم من أجل السلطة بعد أن تلاشى نفوذهم في المناطق التي كانت تحت حوزتهم. وبات حكّامهم المتناحرون بجيوش الهزيمة يستأسدون في الدفاع عن حكمهم – في ما تبقّى بين أيديهم من المغرب الأقصى - بحرب أهلية أنهكت المجتمع وأضعفت قدراته[115]، وهم يرون المدن الأندلسية وحصونها وقلاعها وسهولها وهضابها تتساقط بسرعة فائقة الواحدة تلو الأخرى. ولم يحرّك هذا المصير المأساوي أيّ إرادة للمقاومة أو أيّ إستراتيجية عسكرية ضد عدوٍ يعرفون نواياه وتوجّهاته وسياسته. ويجعل هذا المصير الناظر إليه يعيد النظر في بداية دولة الموحدين وحركة ابن تومرت ودعوته، ومتابعة هذا المشروع من جانب عبد المؤمن الذي رأى أن يذهب نحو الشرق إلى إفريقية؛ المجال الذي كان يعرف اضطرابًا وضعفًا وتمزّقًا وحظي باهتمام سياسي وعسكري كبير زاد من حدّته ما كان يقوم به بنو غانية بمساندة القبائل العربية.

لقد كانت أبرز سياسة عسكرية مفيدة لوضع الأندلس ما اتّخذه يعقوب المنصور. وإذا ما ابتعدنا عمّا قام به عبد المؤمن وابنه يوسف لا نجد لدى السلطة الموحدية سياسة عسكرية ملائمة للحالة الخاصة التي تتطلّبها الأندلس سواء في ما يرتبط بالمواجهة العسكرية أو بالعلاقات مع الدويلات المسيحية الناشئة في ما كان ينهجه الحكّام الموحدون من توقيع ما يسمّى بـ"الهدنة". والظاهر أنّ الدعوة الموحدية بعمليات التقتيل الرهيب التي قامت عليها لإخضاع المغرب لم تكن لديها نظرة جيوسياسية متّزنة مبنيّة على واقع التحوّلات التي كان عليها الحوض الغربي للبحر المتوسط. والراجح أنّ العقيدة التومرتية قامت بدور سلبي في

112 عمّا عاناه الموحدون في طرابلس وإفريقية وبجاية، انظر: لخضر بولطيف، **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي** (هرندن، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، 2009)، ص 362 - 366.

113 ابن عذاري، ص 217.

114 القرقوطي، ص 226.

115 يصف ابن عذاري الوضع في المغرب بقوله: "وكانت أكثر بلاد الغرب غالية الأسعار بسبب كثرة الفتن وقلة الأمطار في تلك الأقطار وبسبب عدم الحماة والأنصار لتلك الجهات والأمصار. فقد كان أهل تلك البلاد اشتعلت بالفتن نارهم وقلة حماتهم وأنصارهم حتى اشتدت حالهم وتكاثرت أوجالهم بسبب ما كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع والفتن والزعازع، واشتغالهم عنهم بأمور أحوالهم في حضرتهم المراكشية"، ص 351.

هذه الرؤية؛ لأنّ الموحدين عدّوا أنفسهم الفرقة الناجية التي كانت على حقّ، فاستحلّوا أموال المسلمين ودماءهم. ولهذا يقال إنّه كانت لهم نيّة في غزو مصر[116]، في الوقت الذي لم يستطيعوا فيه استرداد أيّ منطقة من الأندلس أمام عدوّ أخطر ممّا عدّوه عدوًا في الجبهة الشرقية. بل عقدوا معاهدات هدنة مع الإمارات المسيحية، ولم يستغلّوا هذا الجانب الدبلوماسي في علاقاتهم بالمشرق. لذلك، صنع الموحدون لأنفسهم انفصالًا بين الرعيّة والسلطة الحاكمة لا من حيث العقيدة التومرتية التي رفضها المجتمع ونأى عنها، فاندثرت بزوال حكمهم، ولا من حيث إنهاك المجتمع بسياسة عسكرية للدفاع عن مجال دولة أكبر من الحكّام، ولم تكن ترجى منه فائدة في المشرق. ومن هنا، علينا أن نتساءل عمّا جناه الموحدون من ضمّ إفريقية، وهي منطقة ستنفصل عن قلب الدولة سنة 627هـ/ 1229م، في وقتٍ لم يبق فيه من الدولة الموحدية إلّا الاسم. وقد يؤكّد هذا الانفصال الخطأ الإستراتيجي الذي سقط فيه الموحدون في هذه الجبهة التي استنفدت فيها مجهودات عسكرية كبيرة من دون فائدة. أمّا الأندلس، فكان بإمكانها أن تمنح السلطة الموحدية دعمًا سياسيًا بنجاح السياسة العسكرية في مواجهة الخطر المسيحي الذي بات يهدّد منذئذ السواحل المغربية بصورة فظيعة، إذ أضحى للقوى المسيحية كلمة الفصل في الحوض الغربي للبحر المتوسط. ولذلك تمكّنت مملكة قشتالة من تخريب مدينة سلا واحتلالها سنة 657هـ/ 1259م. وهو أمر له دلالته السياسية والعسكرية. ويؤكّد خطأ الإستراتيجية العسكرية الموحدية. لذلك لم تعمّر دولة الموحدين فعليًا في الغرب الإسلامي إلا خمسين سنة فقط بعد وفاة مؤسسها. وبعدها، أخذت في الانهيار[117]. وعلينا الأخذ في الحسبان في هذا المقام أنّ جزءًا من تأسيس الدولة مضى في عمليات التقتيل الرهيب. وانضاف إلى ذلك مشكل تداول السلطة وما ترتّب عنه من حروب أهلية وسوء تدبير سياسي وعسكري.

خلاصة

كانت سياسة الموحدين العسكرية في غرب المتوسط من بين أسباب ضياع الأندلس، بخاصة أنّ الغرب الإسلامي آنئذ كان ينظر بنوعٍ من التقدير البالغ إلى أيّ مبادرة عسكرية من شأنها أن توطّد دعائم الحكم الإسلامي بما تبقّى للمسلمين في الأندلس. ولذلك تكون الحرب في هذه الجبهة سياسة مُدعمة للموحدين وعامل ائتلاف ومساندة من الرعية؛ لأنّها حرب ضدّ عدوٍ مسيحي يهدف إلى طرد المسلمين من المنطقة. وهذا ما كان أعود على السلطة الحاكمة من التوجّه نحو الشرق والتركيز عليه. لقد تمكّن الموحدون من إسقاط دولة بني حماد وإسقاط الدولة الزيرية، وضمّ الجزر الشرقية. إلا أنّهم لم يستطيعوا استعادة أيّ حاضرة من الحواضر الأندلسية ولا إسقاط أيّ إمارة من الإمارات المسيحية ولا المحافظة على ما كان بين أيدي سابقيهم المرابطين من الأندلس.

---

116 المراكشي، ص 407.

117 روجي لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، أمين الطيبي (معرّب)، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع، 1998)، ص 68، 87.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- ابن الأبار. **الحلة السيراء**، حسين مؤنس (محقق)، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963.
- ابن أبي زرع الفاسي. **روض القرطاس**، الرباط: دار المنصور، 1972.
- ابن الخطيب. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، محمد عبد الله عنان (محقق)، القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1984.
- ابن خلدون، عبد الرحمان. **تاريخ**، خليل شحادة وسهيل زكار (محقق)، بيروت: دار الفكر، 1981.
- العاملي، ابن سماك. **الحلل الموشية**، سهيل زكار (محقق)، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979.
- ابن صاحب الصلاة. **المن بالإمامة على المستضعفين**، عبد الهادي التازي (محقق)، بيروت: دار الأندلس، 1964.
- ابن عذاري. **البيان المغرب**، محمد إبراهيم الكتاني وآخرون (محقق)، بيروت/ الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي/ دار الثقافة، 1985.
- أبو ضيف، مصطفى أحمد. **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1982.
- بولطيف، لخضر. **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، هرندن: المعهد العلمي للفكر الإسلامي، 2009.
- الحميري. **الروض المعطار**، إحسان عباس (محقق)، بيروت: مكتبة لبنان، 1984.
- سالم، سيسالم. **جزر الأندلس المنسية**، التاريخ الإسلامي لجزر البليار، بيروت: دار العلم للملايين، 1984.
- عبيدات، داود عمر سلامة. **الموحدون في الأندلس المغرب والأندلس ما بين سنتي 541هـ-667هـ**، إربد: دار الكتاب الثقافي، 2006.
- عزاوي، أحمد. **رسائل ديوانية موحدية**، الرباط: رباط نت، 2006.
- عنان، محمد عبد الله. **عصر المرابطين والموحدين**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964.
- القرقوطي، معمر الهادي. **جهاد الموحدين في بلاد الأندلس**، الجزائر: دار هومه، 2005.
- لوتورنو، روجي. **حركة الموحدين في المغرب**، أمين الطيبي (معرب)، الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع، 1998.
- المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (مدقق)، ط 7، الدار البيضاء: دار الكتب العلمية، 1978.
- المقري. **نفح الطيب**، يوسف الشيخ محمد البقاعي (محقق)، بيروت: دار الفكر، 1986.
- النويري، شهاب الدين. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصطفى أبوضيف (محقق)، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1984.

المراجع الأجنبية:

- O'Callagan, Joseph F. *Reconquest and Crusade in Medieval Spain*, Pennsylvania State: University Press, 2004

محمد الأرناؤوط | *Muhammed Al-Arnaout

معركة كوسوفو 1389م: من الأسطرة إلى الأدلجة

The Battle of Kosovo 1389: From Myth Making to Ideology

تُعتبر معركة قوصوة (بالعثمانية) أو كوسوفو Kosovo (بالسلافية) التي جرت في 1389/6/28 بين السلطان العثماني مراد الأول وحلفائه في المنطقة وبين أمير صربيا لازار هربليانوفيتش Lazar Hrebeljanovic وحلفائه في المنطقة من الأحداث الملْغزة والمهمة في نهاية العصر الوسـيط بأوروبا. فقد كانت أول معركة يلقى سـلطان عثماني فيها حتفه، وهذا هو العنصر الوحيد المؤكد فيها، في حين أنّ مجرياتها كانت غامضة وتُركت لاحقًا للمخيلة الشعرية والرغبة في توظيفها حسب السـياق التاريخي والسـياسي في المنطقة خلال القرون اللاحقة؛ إذ خدمت أولاً كرمز للصراع بين الاسلام والمسيحية حتى القـرن الثامـن عشر، ثم أصبحت رمزًا للأيديولوجية القومية الصاعدة في القرن التاسـع عـشر والمتجدّدة في نهاية القرن العشرين، في مرحلة ما بعد الشـيوعية، واسـتمرت حتى مطلع القرن الجديد كرمز مفتوح للمستقبل يعكس واقع القوى والتحالفات في المنطقة.

The battle of Kosova (in Ottoman Turkish), or Kosovo (in Slavic), which took place on June 28, 1389 between the Ottoman *Sultan Murad I* and his allies and the Serbian prince *Lazar Hrebeljanovic*, is a critical but also puzzling historical event taking place at the end of the middle ages in Europe. It was the first battle in which an Ottoman sultan met his death – this being the only certain fact about the battle. The details of the battle are were not accurately recorded and therefore subsequently left to the poetic imagination of those who wanted to make use of the battle according to the historical and political context in the region over the following centuries. To begin with, the battle served as a symbol of the conflict between Islam and Christianity until the 18th century. Then it became a symbol of rising nationalist ideology in the 19th century and nationalist revival at the end of the 20th century in the post-communist period. Right up to the beginning of the present century, the battle of Kosovo remains on open symbol for the future, reflecting the reality of powers and alliances in the Balkans.

* أستاذ التاريخ في جامعة العلوم العالمية الإسلامية، الأردن.

مقدمة

بالقرب من مدينة بريشتينا Prishtina في قلب البلقان يقع "سهل كوسوفو" Kosovo polje (سهل الطيور السوداء) الذي استمدّ منه لاحقًا المكان المحيط به اسمه (كوسوفو). وقد جرت في هذا السهل معركتان مهمتان في نهاية العصر الوسيط، الأولى في 1389/6/28 بين السلطان العثماني مراد الأول وحلفائه في المنطقة وبين أمير صربيا لازار هربليانوفيتش Lazar Hrebeljanovic وحلفائه في المنطقة، والثانية خلال 17 - 1448/10/20 بين السلطان العثماني مراد الثاني وحلفائه في المنطقة والقائد المجري يانوس هونيادي János Hunyadi على رأس التحالف الأوروبي المسيحي. وفي حين أنّ الثانية كانت معروفة الوقائع والنتائج، إذ إنها مثّلت آخر محاولة أوروبية في نهاية العصر الوسيط لإخراج العثمانيين من أوروبا، فإنّ المعركة الأولى بقيت غامضة في وقائعها باستثناء مقتل قائدي الجيشين، ولكنها أصبحت غنية في دلالتها وتأثيرها حتى اليوم بسبب الملاحم التي حيكت حولها وتوظيفها أيديولوجيًا لأجندة سياسية مختلفة. وبهذا تبدو معركة كوسوفو 1389 نموذجًا لتوظيف التاريخ المؤسطر في المشاريع الأيديولوجية والسياسية وما صاحبها من نزاعات بين الأطراف المختلفة.

معركة كوسوفو في السياق التاريخي

ليست من المصادفة أن تتزامن وفاة الإمبراطور الصربي دوشان Stefan Dušan في عام 1355م مع بداية التوسّع العثماني في شبه جزيرة البلقان. فقد استفادت الإمارة العثمانية الصاعدة من ضعف الإمبراطورية البيزنطية نتيجة لانشغالها بمشاكلها الداخلية ومن الخلافات بين حكام البلقان بعد انفراط إمبراطورية دوشان التي كانت تشمل معظم شبه جزيرة البلقان. وكانت صربيا قد برزت كإمارة صغيرة في قلب البلقان في نهاية القرن الثاني عشر وتوسّعت نحو الجنوب بضم كوسوفو الحالية خلال القرن الثالث عشر، والتي غدت في قلب الدولة الصربية الجديدة تحت حكم آل نيمانيا Nemanja. وبعد الأمير ستيفان Stefan Nemanja (1196 - 1228م)، الذي كان أول من تلقّب بملك في عام 1217م، جاء الملك دوشان (1331 - 1355م) ليوسّع كثيرًا الدولة الصربية حتى شملت تقريبًا نصف البلقان ويعلن نفسه في عام 1346 "إمبراطور الصرب والبلغار واليونان والألبان" في سكوبيه Skoplje التي اتخذها عاصمة له بالإضافة الى العاصمة الصيفية بريزرن Prizren في كوسوفو التي دُفن في جوارها. ولكن بعد وفاته في 1355م لم يستطع خلفه أوروش أن يحافظ على وحدة الإمبراطورية وقوتها، إذ برز من الأمراء الصرب في مكدونيا كفوكاشين Vukasin الذي منحه الإمبراطور البيزنطي لقب "ملك"، والأمير برانكو Branko الذي برز ابنه لاحقًا في كوسوفو. ومع وفاته عام 1371م من دون أن يخلفه ولد له، انتهى حكم آل نيمانيا التي وصلت خلاله صربيا إلى الذروة في القرون الوسطى. وهكذا تمكنّت القوات العثمانية من التوغل باتجاه الغرب والقضاء على جيش الملك فوكاشين في معركة ماريتسا Marica في العام ذاته لتسيطر بذلك على معظم مكدونيا[1].

وبعد معركة ماريتسا تقدّم العثمانيون بسرعة باتجاه الغرب (مكدونيا وكوسوفو وألبانيا وصربيا والبوسنة). وهكذا وصلت القوات إلى وسط ألبانيا في عام 1382م وأخضعت الأمير كارل ثوبيا K. Thopia الذي تحوّل إلى تابع للدولة العثمانية. وفي تطور مهم آخر، استفاد العثمانيون من صراع الأمراء الألبان في ما بينهم ليتوغّلوا في ألبانيا وينتصروا في معركة سافرا Savra عام 1385م التي انتهت بإخضاع هؤلاء الأمراء للدولة العثمانية. وفي ما يتعلق بكوسوفو المجاورة فقد تقاسم النفوذ فيها بعد موت الإمبراطور الصربي الأخير أوروش ثلاثة أمراء: أمير صربيا لازار هربليانوفيتش الذي توسّع نحو الجنوب ليسيطر على شرق كوسوفو الغني بالمعادن، والأمير جورج برانكوفيتش (ابن الامير برانكو في مكدونيا) في الوسط، وجورج بالشا في الغرب الممتد حتى الجبل الأسود. وبسبب خلاف جورج بالشا مع ملك البوسنة تفرتكو الأول Tvrtko I، طلب مساعدة القوات العثمانية الموجودة في مكدونيا التي توجهت إلى جنوب البوسنة، لكنها مُنيت بهزيمة

1 Noel Malcolm, *Kosovo: A Short History* (London: Macmillan, 1998), pp. 48 - 49.
وللمزيد عن الظروف التي ساعدت العثمانيين على التوغل في البلقان وصولًا الى معركة كوسوفو انظر: خليل إينالجك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة محمد م. الأرناؤوط (بيروت: دار المدار الإسلامي، ط 2، 2014)، ص 23 - 32.

هناك في معركة بيلتشا Bileca التي جرت في 27 آب/ أغسطس 1388. وقد أقسم السلطان مراد الأول على الانتقام وأعدّ حملة لذلك في صيف 1389، إذ كان لا بد له من العبور في سهل كوسوفو للوصول إلى البوسنة. ومع انتشار أخبار هذه الحملة تداعى أمراء الصرب للتحالف مع ملك البوسنة لوقف هذا التقدّم العثماني عبر كوسوفو[2].

وفي هذا السياق، وصل السلطان مراد في حزيران/ يونيو 1389 على رأس قواته إلى سهل كوسوفو بالقرب من بريشتينا ليواجه هناك القوات البلقانية تحت قيادة أمير صربيا لازار في المعركة التي جرت في 28 حزيران/ يونيو 1389. ومع أنّ المعركة لم تستمر سوى يوم واحد، فإنها دخلت التاريخ الأوروبي والعثماني (الذي قيل فيه إنّ العلم العثماني استمد لونه الأحمر من كثرة الدماء التي سالت فيها) بشهرة كبيرة غطّت على ما جرى فيها بالفعل نتيجة للملاحم التي حيكت حولها[3].

ومن المؤكد أنّ المشاركة في المعركة كانت مختلطة بسبب الصراعات المحلية والتحالفات السياسية، إذ إنّ الصرب والألبان مثلًا كانوا في الطرفين المتواجهين في المعركة؛ ففي الطرف العثماني كان الجيش بقيادة السلطان مراد، الذي حرص أيضًا على اصطحاب ولديه يعقوب وبايزيد وأشهر قادته، وقوات الأمراء الصرب في مكدونيا مثل قسطنطين ديانوفيتش Konstantin Dejanović وماركو كراليفتشMarko Kraljević. وفي الطرف الآخر كان الجيش بقيادة الأمير لازار، الذي كان يتألف من قواته التي جاء بها من عاصمته كروشفاتس ومن قوات الأمير فوك برانكوفيتش Vuk Branković الذي جرت المعركة في أراضيه، ومن قوة جاءت من البوسنة بقيادة فلاتكو فوكوفيتش Vlatko Vuković من قبل ملكها تفرتكو الأول Tvrtko I باعتباره "ملك الصرب والبوسنة"، ومن قوة جاءت من كرواتيا بقيادة البان جون بالإضافة إلى قوة من ألبانيا بقيادة الأمير ثيودور موزاكا[4].

ومع أنّ الأمر المؤكد لنهاية المعركة التي استمرت من صباح إلى مساء 28 حزيران/ يونيو 1389، هو مقتل القائدين (السلطان مراد والأمير لازار)، فإنّ نتائجها بقيت غامضة ومتناقضة، وربما لن نعرفها أبدًا.

من المصادر الى الملاحم

إنّ أقدم مصدر يتعلق بهذه المعركة يعود إلى الأيام القليلة التي أعقبتها؛ فبعد اثني عشر يومًا مرّ بالمنطقة الراهب الروسي أغناتيه في طريقه إلى الحج، ومع أنه لم يحدِّد بالضبط مكان المعركة، فإن ما سمعه عن المعركة التي حدثت آنذاك لا يشير إلى أيّ نصرٍ عثماني. أما تفرتكو الأول "ملك الصرب والبوسنة"، الذي أرسل قوة من جيشه للمشاركة في المعركة، فقد استعرض هذه المعركة في رسائله إلى الحكام المجاورين بوصفها نصرًا شخصيًا له من دون أن يشير بكلمة إلى الأمير لازار. ففي آب/ أغسطس 1389 (أي بعد نحو شهر من المعركة) كتب إلى حاكم تروغير Trogir عن هزيمة الأتراك، وبعد شهرين كتب مثل ذلك الى حاكم فلورنسا. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تفرتكو

---

2 Oliver Jeans Schmitt, *Kosova: Histori e shkurter e nje treve qendrore ballkanike,* perktheu Enver Robolli (Prishtine: Koha, 2012), pp. 43 - 44.

3 يسوق د. محمد حرب في كتابه هذه المعلومة عن ارتباط العلم العثماني الأحمر بما سال من دماء في معركة قوصوة/ كوسوفو من دون ذكرٍ للمصدر، مع أنّ فريد بك المحامي قد أوضح في كتابه الذي صدر قبل أكثر من مئة سنة أنّ تيمور طاش الذي تولى تنظيم فرقة الخيالة (سيباه) قبل معركة قوصوة/ كوسوفو هو الذي حرص على اختيار اللون الأحمر لأعلامهم "الذي لا يزال شعارًا للعثمانيين": محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي (بيروت: دار النفائس، ط8، 1988)، ص132؛ ومحمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة** (دمشق: دار القلم، 1989)، ص19.

4 حول المشاركة في هذه المعركة لدينا اختلاف في المصادر المتأخرة وفي الدراسات الحديثة عند الصرب والألبان. انظر على سبيل المثال:
Peter Tan, *Kosovska bitka* (Beograd 1968); Instituti i histories, *Beteja e Kosoves 1389*, (Tirane 2005).
وانظر مقاربة شاملة وأكثر موضوعية للمصادر المتنوعة لدى المؤرخ البريطاني نويل مالكولم:
Malcolm, pp. 50 - 80.

الأول لم يعتبر قدوم السلطان مراد نفسه إلى سهل كوسوفو خطرًا يهدّد دولته، ولذلك لم يذهب للقتال بنفسه بل أرسل أحد قادته (فلاتكو فوكوفيتش) على رأس قوة من جيشه[5].

وقد انتشرت نتيجة هذه المعركة في أوروبا الغربية باعتبارها هزيمة للأتراك، حتى نجد أنّ المؤرخ الفرنسي فيليب دي مسيير Philipe Mesiere يكتب قبل تشرين الأول/ أكتوبر 1389 أنّ السلطان "مراد قد هُزم تمامًا في أراضي ألبانيا". ولدينا من ذلك الوقت رسالة مهمة من أحد الكتّاب البيزنطيين (ديمتروس سيندونيوس D. Cydonius) إلى الإمبراطور البيزنطي في المنفى مانويل باليولوغ الثاني Manuel II Palaiologos ينتقد فيها بيزنطة لعدم استغلال نتيجة هذه المعركة (الهزيمة) لإخراج الأتراك من أوروبا، وفي نهاية الرسالة يرد فيها بوضوح "أنّ غيابك قد أفسد فرصتنا بالنصر على الأعداء". ولو تابعنا المصادر المعاصرة لسلّمنا مع المؤرخ الصربي ميخائيلو دنيتش M. Dinic الذي انتهى في عام 1940 إلى أنّ "كل المصادر المعروفة منذ السنة التي وقعت فيها المعركة وحتى الآن لا تشير إلى أي نصر تركي"[6].

ويميل المؤرخ الصربي راده ميخالتيتش R. Mihajlcic في كتابه "معركة كوسوفو في التاريخ والتراث الشعبي"، الذي صدر أيضًا بالإنكليزية في الذكرى الـ 600 للمعركة، إلى أن كلا الطرفين مُني بخسائر كبيرة ولكن المحصلة النهائية للمعركة جاءت لصالح الجهة الأقوى (الدولة العثمانية) التي كانت قوة إقليمية لايمكن أن تقارن بصربيا آنذاك. ومع الغموض الذي لم توضّحه المصادر المعاصرة يسلّم ميخالتشيتش بتحوّل هذا الحدث لاحقا إلى اسطورة بما أضيف لها من عناصر اسطورية وأسماء وأحداث جديدة ولذلك "كل محاولة لإعادة تركيب ماحدث في 1399 بالاستناد إلى المعلومات والملاحم اللاحقة تجانب الحقيقة"[7].

وبالفعل فقد ألهمت هذه المعركة فيما بعد المخيلة الشعبية في المنطقة حيث ظهرت الكثير من الأغاني والملاحم الشعبية حولها لدى الصرب والألبان والأتراك والبلغار واليونان إلخ. ومن المعروف أن هذا التراث الملحمي، بعد أن أصبح يُغنّى مع الآلات الموسيقية التقليدية، كان له دوره الكبير في الإبقاء على روح هذه المعركة حية في النفوس وفي شحن النفوس لدى الشعوب المذكورة بمشاعر ورؤى مختلفة حول أسباب ومجريات ونتائج المعركة. وقد تطعّم هذا التراث بعناصر دينية وسياسية جديدة، نتيجة التطورات الجديدة في المنطقة، وأصبح يوظف لاحقًا في خدمة الأجندة الأيديولوجية للحركات السياسية الجديدة.

الملاحم الصربية والألبانية حول المعركة

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أنّ هذه المعركة ألهمت منذ وقت مبكر الشعر الشعبي بأغاني وملاحم بآلاف الأبيات، ومع ذلك يمكن القول إنّ أقدم تراث ملحمي وأضخمه حول هذه المعركة نجده عند الصرب والألبان[8].

5 للمزيد حول ذلك انظر: محمد م. الأرناؤوط، **كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني في القرن العشرين** (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 1998)، ص29 - 31.

6 Mihajlo Dinic, "Dva savremenika o boju na Kosovu", *Glas SKA,* CLXXXII (Beograd 1940), pp. 133 - 148; Rade Mihajlcic, *The Battle of Kosovo in History and in Popular Tradition* (Beograd: BIGZ, 1989), pp. 47 - 48.

7 Mihajlcic, pp. 49 - 51.

8 تجدر الإشارة هنا بشكل خاص إلى دراستي شوكت بلانا وفاتوس عربي حول المقاربة بين الملاحم الصربية والألبانية:
Shefqet Pllana, "Epika popullore shqiptare mbi Luften e Kosoves 1389," *Seminari i kultures shqiptare per te huaj* 2 (Prishtine: 1976), pp. 111 - 128; Fatos Arapi, "Kenge popullore per Luften e Kosoves," *Studime historike* 2 (Tirane 1983), pp. 65 - 76.

ومع أنّ أول ملحمة شعرية سجّلت المعركة تعود إلى سنة 1390 وهي "اسكندر نامه" للشاعر التركي أحمدي، الذي أورد أول رواية عن نتيجة المعركة[9]، فإنّ أول إشارة لملحمة محلية/ كوسوفية تعود إلى نحو عام 1530[10]. وقد سجلت لأول مرة واحدة من هذه الملاحم الصربية في نهاية القرن الخامس عشر ونشرت في الإيطالية في عام 1601 في كتاب مافرو أوروبيني M. Orbini "مملكة السلاف"[11]. وفي الوقت نفسه تقريبًا (عام 1622) كان الرحالة التركي المعروف أوليا جلبي Evlija Celebi يسجّل خلال وجوده في كوسوفو وجود ملحمتين عن معركة كوسوفو مع بعض التفاصيل عنهما[12]. ولكن شهرة هذه الملاحم ازدادت في القرن التاسع عشر، مع الاهتمام الكبير في المنطقة بجمع التراث الشعبي ونشره. وفي هذا الإطار، فقد قام الباحث الصربي المعروف فوك كاراجيتش V. Karazic بجمع بعض الأغاني والملاحم الصربية وطبعها ضمن كتابه "أغاني شعبية صربية" الذي نشره في فيينا عام 1845[13]. وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر جمع الباحث الصربي دينا ديبلكوفتش D. Debelkovic عدة أغاني وملاحم أخرى عن معركة كوسوفو، التي نشرت في ما بعد[14]. وقد تصاعد اهتمام الباحثين الصرب والألبان خلال النصف الأول من القرن العشرين بجمع هذا التراث الملحمي عن معركة كوسوفو ونشره حتى أصبح في متناول الأيدي سواء في اللغتين الصربية والألبانية أو في اللغات الأوروبية الأخرى[15].

ويمكن القول الآن بشكل عام إنّ هذا التراث الملحمي عند الصرب والألبان يمكن اعتباره مصدرًا مهمًا عما جرى بعد المعركة وليس عن المعركة ذاتها. فمع النتيجة الغامضة للمعركة، عاد السلطان الجديد بايزيد بسرعة إلى العاصمة أدرنة للحفاظ على الاستقرار بعد انتقال العرش إليه، وبقي الأمير فوك برانكوفيتش في كوسوفو يتابع المقاومة للدولة العثمانية حتى عام 1392م على الأقل ولم يستطع العثمانيون أن يسيطروا بالفعل على كوسوفو إلا في عام 1455م، بينما بقيت إمارة صربيا قائمة في الشمال حتى عام 1459م حين سقطت

---

9 مع أنّ ملحمة "اسكندر نامه" تدور حول حياة الاسكندر الكبير وحروبه، فإن القسم الأخير المتعلق بالتاريخ العثماني المبكر له أهميته. ففي الجزء الخاص بالمعركة يقدّم الشاعر أحمدي الرواية أو الصورة التالية التي ستصبح الأساس للرواية أو الصورة الرسمية اللاحقة: "بينما كانت أغلبية الجيش تطارد العدو كان الحاكم يقف وحيدًا مع بعض رجال حاشيته في مكان ما ... كان هناك أحد الكفار مطروحًا وغارقًا في الدماء من رأسه إلى قدميه. كان مختفيًا بين العسكر ولكنه رأى بسهولة الخان البطل. وكما شاء القدر فقد نهض من مكانه وطعن الحاكم":

Savet Basagic, "Najstarija turska vijest o Kosovskom boju," *GZMBiH* 36 (Sarajevo 1924), p. 97; Selami Pulaha, *Lufta shqiptare-turke ne shekullin XV: burime osmane* (Tirane: Instituti i histories, 1968), p. 30.

وللمزيد حول الشاعر أحمدي والملحمة انظر:

Maydan Larousse, vol. 1 (Istanbul: Sabah, 1997), p. 175; vol. 10, p. 16.

10 لهذه الملحمة قيمة خاصة لانها أول واحدة تذكر بوضوح اسم قاتل السلطان مراد الأول (ميلوش أوبيليتش Miloš Obilić)، وهي تنتهي إلى مايلي: "حين خسر الاتراك قائدهم انسحبوا براياتهم. وهكذا فقد سلم الحاكم (لازار) وجيشه وبلاده من الاتراك":

Malcolm, p. 75.

11 Mavro Orbini, *Il regno de gli Slavi* (Pesaro: 1610).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أوربيني كان كاتبًا ومؤرخًا من راغوصة/ دوبروفنيك (توفي 1614) وترك مؤلفه هذا "**مملكة السلاف**" أثره اللاحق في نمو فكرة وأيديولوجية الجامعة السلافية.

12 في الأولى تكاد تتكرر الرواية أو الصورة الواردة في ملحمة "اسكندر نامه" مع ذكر صريح للقاتل ميلوش أوبيليتش، أما الثانية فهي أقرب إلى الأغنية الملحمية الموجودة في الملحق، إذ يقترب القاتل من السلطان ليقبّل يده ثم يقتله ويهرب من دون أن يتمكّن الجنود من إصابته إلى أن تنبّههم امرأة إلى أن يوجّهوا سهامهم إلى حصانه حتى يقع ويمسكوا به:

Evlija Celebi, *Putopis*, prevod i komentar Hazim Sabanovic, (Sarajevo: V.Maslesa, 1979), p. 269.

13 Vuk Karadzic, *Srpske narodne pjesme* II (Wien 1854).

14 Vladimir Bovan, *Antologija srpske narodne epike sa Kosova i Metohije* (Pristina: 1974).

15 في الألبانية بدأ طبع هذه الأغاني الملحمية في وقت متأخر بسبب تأخر ظهور الأبجدية الموحدة والطباعة عند الألبان. فقد طبع الباحث الألباني لف نوسي L. Nosi ثلاثًا منها في الباسان بألبانيا عام 1918، وطبع الباحث الصربي الكوسوفي غليشا الزوفيتش G. Elezovic واحدة منها في الألبانية مع ترجمة صربية في بلغراد خلال عام 1921 ثم تتابع ذلك في يوغسلافيا الملكية وألبانيا في الربع الثاني للقرن العشرين وفي كوسوفو بشكل خاص بعد عام 1950. أما في اللغات الأوروبية فانظر بشكل خاص:

M.M. Hasluck, "An Albanian ballad on the assassination in 1389 of Sultan Murat I on Kosovo Plain," *Occident and Orient* (London 1936), pp. 210 - 233; Katherina A.Penington-Peter Levi, *Marko The Prince: Serbo-Corat Heroic Songs* (London: 1984); Anna di Lellio, *The Balttle of Kosovo 1389 An Albanian Epic* (London- New York: I.B.Tauris, 2009).

عاصمتها سمدرفو Smedervo في صيف 1459م. ومن هنا، ليس من الصحيح ما نجده في الملاحم الصربية حول معركة كوسوفو باعتبارها الكارثة التي محقت الصرب والدولة الصربية، والتي أثارت لذلك مشاعر الألم والغضب والانتقام خلال القرون اللاحقة ضد كل ما هو تركي/ عثماني/ مسلم، وهو ما استفادت منه الأيديولوجية القومية الصربية الجديدة منذ القرن التاسع عشر في توجيه المشاعر والأفكار وفق أجندتها الخاصة لتحرير الصرب في كل مكان من الحكم العثماني وبعث صربيا من جديد بجذورها القروسطية كدولة قومية للصرب.

ويبدو أنّ التمايز بين الملاحم الصربية والألبانية بدأ بعد استقرار الحكم العثماني في كوسوفو وانتشار الإسلام هناك، إذ أدى ذلك إلى اعتناق أغلبية الألبان للإسلام بينما بقيت أغلبية الصرب على ديانتهم الأرثوذكسية. وبهذا يمكن أن تكون الأغاني التاريخية والملاحم الألبانية عن معركة كوسوفو (22 أغنية تشتمل على 5000 بيت) مصدرًا لهذا الانعطاف المهم الذي حدث، والذي باعد ما بين الشعبين، وجعل الأغاني التاريخية والملاحم الألبانية تكتسب عناصر جديدة وتعبّر عن رؤية مغايرة عن المعركة نتيجة لاعتناق أغلبية الألبان للإسلام[16].

فمن الطبيعي في هذه الحالة أن تختلف النظرة كليًا بين الطرفين إلى السلطان الذي جاء على رأس الجيش العثماني، إذ أصبحت الملاحم الألبانية تركّز على تقواه وحرصه على نشر الإسلام واستعداده للتضحية بحياته في سبيل ذلك، كما غدت هذه الملاحم تعبّر عن القيم المرتبطة بالدين الجديد (الشهادة، الحلال والحرام ... إلخ). ولكن من ناحية أخرى حافظت الملاحم الألبانية على ما يميّزها عن تلك الصربية بحرصها على إبراز دور البطل المحلي/ الكوسوفي ميلوش أوبيليتش الذي اغتال السلطان مراد.

وهكذا نجد أنّ الملاحم الألبانية تبدأ برؤية السلطان مراد لحلم غريب يتمثل في وجود نسرين على كتفه الأيمن، وعندما استدعى المنجّمين في قصره بشّروه بفتح كوسوفو. وبعد ذلك تتابع هذه الملاحم استعداد السلطان لذلك الفتح، وتركز في التفاصيل التي تدل على تقواه كحاكم مسلم وأنّ دوافعه في ذلك ليست إلا لخدمة الإسلام. وفي هذا السياق تكتسب الملاحم الألبانية بعض العناصر الأسطورية. فعندما وصل السلطان إلى شاطئ البحر خاف على جنوده من الركوب في البحر الهائج ولذلك دعا الله إلى شق البحر حتى يتمكن جنوده من عبور البحر على التراب، مما مكّنه أن يتابع طريقه بسلام، بينما نجد في ملحمة أخرى من 460 بيتًا أنّ السلطان يدعو الله ويضرب البحر بعصاه (كما فعل النبي موسى) فينشق البحر عن درب آمن لجنوده[17].

وبعد هذا العبور تتابع الملاحم الألبانية سير فتوحاته الناجحة على الطريق، مع أنّ هذا لا ينسجم مع الحقائق المعروفة، إذ تجعله يبدأ بفتح سالونيك والتوجه بعدها إلى سكوبيه ومنها إلى كاتشانيك، الممر الصعب بين مكدونيا وكوسوفو، حيث يفشل السلطان هناك في إحراز أي نصر. وتميل هنا الملاحم الألبانية إلى إبراز القيم الأخلاقية المرتبطة بالدين الجديد/ الإسلام (الحلال والحرام)، حيث يشك السلطان في أسباب هذا الفشل ويجمع جنوده ليتأكد إن كان قد ارتكب أحدهم الحرام. ولما يكتشف أنّ أحد الجنود، أخذ في طريقه تفاحة من أحد البساتين من دون أن يستأذن صاحب البستان يأمر السلطان فورًا بأن يذهب وفد إلى صاحب البستان ليطلب منه وهب هذه التفاحة إلى السلطان لكي تخرج من الحرام إلى الحلال.

---

16 تركّز النظرة الصربية على أنّ علاقات الصرب مع الألبان كانت على ما يرام إلى أن اعتنق الألبان الإسلام وابتعدوا بذلك عن جيرانهم الصرب:
Dimitrije Bogdanovic, *Knjiga o Kosovu* (Beograd: SANU, 1986), pp. 91 - 92.
وفيما يتعلق بالنظرة الألبانية، تتمايز في السنوات الأخيرة النظرة الكاثوليكية عن تلك المسلمة حول أسباب هذا الانعطاف ونتائجه:
Gjin Gasperi, *Skopsko-Prizrenska biskopija kroz stoljeca* (Zagreb: KS, 1986), pp. 125 - 140; Don Shan Zefi, *Islamizimi i shqiptareve gjate shekujve XV-XI* (Prizren: Drita, 2000).

17 Haxhi Krasniqi, *Kenga e Luftes se Kosoves 1389*, voll. III (Prizren: 1968), pp. 144 - 157.

وتميل هنا الملاحم الألبانية إلى المبالغة؛ إذ يرفض صاحب البستان، ثم يفرض شروطه بتعيينه صدرًا أعظم للسلطان، وهو ما يضطر السلطان إلى الموافقة بسبب تلك التفاحة، ومع هذا الحلّ أو التحليل يتابع جيش السلطان مسيرته المظفرة إلى أن يصل إلى سهل كوسوفو حيث جرت المعركة المشهورة[18].

وحتى خلال الاستعداد والترقّب للمعركة نجد أنّ الملاحم الألبانية تُعلي من أخلاق الجنود في معسكر السلطان وتمسّكهم بدينهم. فقد رأى البطل المحلي/ الكوسوفي أوبيليتش أن يرسل إلى معسكر السلطان ثلاثين فتاة جميلة، وفي ملحمة أخرى 12 ألف فتاة؛ أي على عدد الجنود الأتراك، محمّلات بالذهب لزعزعة نفوس الجنود هناك. ولكن الفتيات عدن شاكيات من أنه لم يلتفت أحد من الجنود إلى جمالهن أو ذهبهن[19].

ومع اندلاع المعركة نجد الذروة الملحمية في اغتيال السلطان مراد. فالبطل المحلي/ الكوسوفي يقرر أن يذهب إلى السلطان بنفسه ويتصرف هناك بناء على موقف السلطان: إذا مدّ يده فسيقبّلها ويستسلم له، وإذا مدّ قدمه ليقبلها فسيطعنه بالخنجر. وفي مجلس السلطان يدور النقاش حول الموقف الذي يجب أن يتخذه السلطان. فشيخ الإسلام في إحدى الملاحم الألبانية يوضّح له أنه لا يجوز أن يمدّ يده لغير المسلمين، ويؤكد له آخرون في المجلس أنه إذا مدّ له قدمه ليقبّلها فهذا يعني أنّ الرعية ستبقى خاضعة له على الدوام. ومع هذا الموقف (تقديم السلطان لقدمه) يقوم أوبيليتش بإمساك هذه القدم بيد وطعن السلطان باليد الأخرى[20].

ونجد هنا بين الملاحم الألبانية بعض العناصر الأسطورية الأخرى التي تمجّد السلطان وتقدّسه. ففي واحدة من هذه الملاحم نجد أنّ السلطان مراد يطير في السماء وهو يحمل رأسه تحت إبطه فتسقط منه نقطة دم يقيم فوقها الجنود ضريحًا له في أرض المعركة، بينما يتابع هو طريقه إلى مسقط رأسه بورصة حيث يدفن هناك[21].

وفي المقابل نجد أيضًا التمجيد/ التقديس ذاته لكوبيليتيش الذي قتل السلطان، إذ لا يُدان كمجرم كما يُفترض وإنما يمجّد أو يقدّس كبطل في الملاحم الألبانية، مما يمكننا من تفسير أنّ هذا الجزء هو من الأصل الذي بقي موجودًا. وهكذا يطير أوبيليتش أيضًا وهو يحمل رأسه تحت إبطه إلى أن يسقط ويموت بفعل خيانة من امرأة مسيحية[22]، وهو ما يمكن تفسيره أيضًا بإضافة لاحقة لتنزيه المسلمين عن الخيانة بعد أن أصبحت أغلبية الألبان من المسلمين.

التوظيف الأيديولوجي للملاحم حول معركة كوسوفو

بعد انبعاث صربيا من جديد خلال الفترة 1815 - 1830، كإمارة وراثية ذات حكم ذاتي، أخذت العاصمة الجديدة (بلغراد) تتحوّل إلى مركز للأيديولوجية القومية الصربية الجديدة التي هدفت إلى بعث صربيا بحدودها في القرون الوسطى كدولة قومية للصرب. وقد تحوّلت هذه الأيديولوجية إلى سياسة دولة بعد المشروع الذي قدمه الوزير إيليا غراشانين I. Grasanin 1847 إلى الأمير ميلوش اوبرنوفيتش M. Obrenovic[23]. وحسب المؤرخ الصربي ميودراغ بوبوفيتش Miodrag Popovic ، فإنّ الإنتلجنسيا الصربية الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هي التي حولت "أسطورة كوسوفو" Kosovo myth إلى نواة للأيديولوجية القومية

18 انظر الأغنية الملحمية الواردة في الملحق.

19 المرجع نفسه.

20 المرجع نفسه.

21 المرجع نفسه.

22 المرجع نفسه.

23 Arapi, p. 196.

الصربية[24]. فحسب الأسطورة كانت هزيمة الصرب في المعركة تُفسّر بقبول صربيا لـ "المملكة السماوية" وهو ما تحوّل مع الزمن إلى "وعد إلهي بانبعاث صربيا من جديد كإمبراطورية أرضية كما كانت عشية المعركة". ومع أدلجة هذه الأسطورة تحوّل اليوم الذي جرت فيه المعركة (15 حزيران/ يونيو حسب التقويم القديم و28 حزيران/ يونيو حسب التقويم الجديد) من "يوم النبي آموس والقديس لازار" في التقويم الكنسي والرسمي إلى "يوم فيد" Vidovdan ابتداءً من عام 1892، والذي أصبح بذلك يومًا مقدسًا ويومًا قوميًا. والمهم هنا أنّ فيد Vid كان إله الشمس والحرب عند الصرب القدماء قبل اعتناق المسيحية ولكنه بقي حاضرًا ومستمرًا في الأغاني الشعبية حتى بعد اعتناق الصرب للمسيحية بقرون[25]. ومن الواضح هنا أنّ انبعاث إله الحرب كان يناسب المرحلة الجديدة التي تميّزت بتجييش المشاعر لـ "استعادة كوسوفو".

فبعد استقلال صربيا وتوسعها في عام 1878 أصبحت حدودها الجديدة تطل على سهول كوسوفو الغنية، ولذلك فقد ازداد الاهتمام والترويج للملاحم الصربية حول معركة كوسوفو التي أخذت تتحول الآن إلى "الأرض المقدسة" للصرب التي لا بد من تحريرها من العثمانيين/ المسلمين. وقد ازداد هذا بعد عام 1882، حين تحولت صربيا إلى مملكة، وخاصة مع اقتراب الذكرى الـ 500 للمعركة في عام 1889، التي تم الاحتفال بها لحشد التأييد للنظام الملكي الساعي إلى "تحرير كوسوفو". وقد حانت اللحظة المناسبة في خريف 1912 حين اندلعت الحرب البلقانية لتصفية التركة العثمانية في البلقان. فقد شنت صربيا الحرب بشعارات استردادية، دينية وقومية، لاسترداد "الأرض المقدسة" التي فقدت أمام العثمانيين في عام 1389. وفي هذا الإطار حدثت مجازر جماعية ضد الألبان المسلمين، الذين كانوا يشكلون أغلبية السكان، على اعتبار أنّ الجيش الصربي جاء لتحرير "الأرض المقدسة" و"الأخوة الأرثوذكس"؛ ولذلك اعتبر هؤلاء المسلمون غرباء عن كوسوفو أو لا مكان لهم هناك[26].

ومع انتصار صربيا في الحرب البلقانية وتوسّعها بضم كوسوفو تصاعدت الروح القومية المرتبطة بـ "أسطورة كوسوفو" إلى الذروة، ولذلك لم يكن من المستغرب أن تختار المنظمة القومية الصربية التي قررت اغتيال ولي عهد النمسا والمجر في سراييفو "يوم القديس فيد" (28 حزيران/ يونيو) لتنفيذ الاغتيال. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى في صيف 1914 أدى بسرعة إلى انهيار صربيا في خريف وشتاء 1915 - 1916، وهو ما أنعش أيضًا روح معركة كوسوفو 1389؛ إذ قورن انهيار صربيا في 1389 (الذي لم يحدث كما رأينا) مع انهيار صربيا في 1915 - 1916. ولم تكن هذه المقارنة تجري في صربيا فحسب، بل في أقصى القارة الأوروبية أيضًا نتيجة للدعاية الصربية التي اعتمدت على توظيف التراث الملحمي حول معركة كوسوفو. ففي صيف 1916 انتشرت في لندن الملصقات التي كتبت عليها "فكروا في صربيا وصلّوا لأجل صربيا". وبمناسبة "يوم كوسوفو" في 28 حزيران/ يونيو طُلب من الجميع أن يشاركوا في هذا اليوم بتقديم المساعدة إلى صربيا، فاستجابت لتلك الدعوة 12 ألف مدرسة شارك فيها التلاميذ في التعبير عن مشاعر التضامن مع صربيا[27]، في الوقت الذي كانت تتفق فيه بريطانيا مع الحلفاء على تقسيم ألبانيا من جديد ومنح صربيا المزيد من الأراضي الألبانية[28].

---

24 Miodrag Popovic, *Vidovdan i casni krst* (Beograd: Slovo ljubve, 1997), p. 144.

25 Branimir Anzulovic, *Heavently Serbia: From Myth to Genocide* (New York: New York University Press, 1999), pp. 81 - 85.

26 بعد اندلاع الحرب البلقانية أرسلت وزارة الحرب البريطانية العقيد كريستوفر طومسُن *Christopher Thomson* كمراقب إلى ميدان العمليات للجيش الصربي. وبعد لقائه بالعقيد الصربي غ. ب كتب مايلي: "لقد أعطاني العقيد صورة عن مشاعر الحقد التي يكنّها الصرب للألبان ... وهي التي عززتها تصرفات الجيش الصربي في القرى الألبانية. فقد دُمّرت قرى بكاملها وشملت المجازر هناك الشيوخ والنساء والأطفال في بيوتهم أو كُتب عليهم الموت من البرد والجوع بعد أن نهبت قراهم ولم يترك لهم شيء ... لم يحدث أفظع من هذا في أيّ بلد بكوكبنا الأرضي أو في تاريخ الحروب":
Xheladin Shala, *Pushtimi i Kosoves nga Serbia dhe Mali i zi 1912 - 1913* (Prishtine: Instituti albanologjik, 2012), pp. 235 - 236.

27 Tim Judah, *Kosovo: War and Revenge* (New Haven & London: Yale nota Bene & Yale University press, 2002), pp. 16 - 17.

28 Peter Bartl, *Shqiperia nga mesjeta deri me sot, perktheu Shkumbim Brestovci* (Prizren: Drita, 1999), pp. 173 - 174.

ولذلك فقد كافأ الحلفاء صربيا في نهاية الحرب بتوسيع حدودها إلى أقصى حد ممكن على حساب النمسا/ المجر وبلغاريا، التي تحالفت معها الدولة العثمانية. وفي إطار الدولة الجديدة (مملكة الصرب والكروات والسلوفين)، التي تميزت بهيمنة الصرب على مفاصل الدولة، حرص النظام الجديد على تمرير الدستور الأول للدولة في "يوم القديس فيد" (28 حزيران/ يونيو 1921)، ولذلك بقي يعرف بـ "دستور فيد". وفي هذا السياق نجد أنّ الاهتمام الكبير بجمع الملاحم الصربية حول معركة كوسوفو ونشرها يترافق مع الإصرار على التخلص من وجود الآخر/ المسلم في كوسوفو الذي له صورة سلبية في تلك الملاحم الصربية. وبعد تهجير مئات الألوف من الألبان المسلمين والاتفاق مع تركيا الكمالية في عام 1938 على تهجير عدد مماثل، أراد النظام الملكي أن يتوج إنجازه في 28 حزيران/ يونيو 1939 باحتفال مهيب بالذكرى الـ 550 لمعركة كوسوفو[29].

ومن مفارقات ذلك اليوم أن الحزب الشيوعي اليوغسلافي، الذي كان على رأس المعارضة ضد النظام، قد وزّع في ذلك اليوم المناشير التي تلفت الانتباه إلى أنّ كل هذا يجري على حساب شعب آخر في كوسوفو: الألبان. ولكونه في المعارضة، فقد اعترف الحزب الشيوعي اليوغسلافي بكيان متميز لكوسوفو وحق الألبان فيها بالبقاء والتمتع بالمساواة مع بقية شعوب يوغسلافيا. وبعد وصول الحزب الشيوعي إلى السلطة اعترف للألبان بحكم ذاتي في كوسوفو وتطور هذا الوضع في عام 1974 إلى حد الاعتراف بكوسوفو وحدة فيدرالية ذات دستور على قدم المساواة مع الوحدات الفيدرالية الأخرى، إذ أصبحت الأغلبية الألبانية تؤدي دورًا حاسمًا منذ ذلك الحين[30].

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى بروز معارضة صربية متزايدة ضد الرئيس جوزيب تيتو Josip Tito بحجة "خسارة كوسوفو" مرة أخرى بعد الخسارة الأولى في عام 1389. وربما ليس من المصادفة أنّ يصدر في تلك السنة (1974) طبعة جديدة من الملاحم الصربية عن معركة كوسوفو[31]. وقد برز في تلك السنوات على رأس تلك المعارضة الروائي الصربي دوبريتسا تشوسيتش Dobrica Ćosić وعضو الأكاديمية الصربية الذي أصبح يُعرف بلقب "أبو القومية الصربية"، إذ أكّد في كلمة له في الأكاديمية الصربية عام 1978هذا الترابط بين القومية الصربية الصاعدة و"أسطورة كوسوفو": "إنّ وجودنا الروحي جاء نتيجة للدين والأسطورة القومية، وبالدرجة الأولى نتيجة لأسطورة كوسوفو والشعر الملحمي العظيم"[32]. وقد تحوّلت هذه المعارضة الصربية بعد وفاة تيتو في عام 1980 إلى المطالبة بمراجعة يوغسلافيا التيتوية و"استرداد كوسوفو" مرة أخرى. وقد برز على رأس هذه النزعة الجديدة داخل الحزب الشيوعي في صربيا سلوبودان ميلوشيفيتشSlobodan Milošević في عام 1986 بعد أن اكتشف أهمية كوسوفو كرافعة أيديولوجية للسلطة[33].

ومع هذا التحوّل المهم، الذي ترافق مع الدعوة إلى توحيد الصرب في يوغسلافيا وتوحيد صربيا (أي ضم كوسوفو ثانية إلى صربيا)، كانت قد اقتربت الذكرى الـ 600 لمعركة كوسوفو 1389. وخلال تلك السنوات 1986 - 1987 برزت بقوة "روح كوسوفو" من خلال الملاحم الصربية عن معركة كوسوفو، التي حظيت برواج آنذاك لتبشّر بقرب المعركة القادمة لاسترداد كوسوفو مرة أخرى. ويلاحظ هنا أنّ العنصر المشترك بين العثمانيين والألبانيين كان الإسلام، ولذلك فقد ساعدت الملاحم الصربية على التركيز الآن على الطابع الديني لمعركة كوسوفو الأولى (1389) ومعركة كوسوفو الجديدة (1989). وهكذا فقد أصبح يُسمع لأول مرة أنّ صربيا كانت تدافع عن أوروبا

---

29 انظر الترجمة العربية لهذه الاتفاقية مع الظروف التي أدت إليها: الأرناؤوط، ص117 - 124.

30 Radosin Rajovic, *Ustavni razvoj od konstituisanja autonomije do reforme 1989, in Kosovo: Proslost i sadasnjost* (Beograd: Medhunarodna politika, 1989), pp. 151 - 164.

31 Vladimir Bovan, *Antologija Srpske narodne epike sa Kosova I Metohije* (Pristina: 1974).

32 Anzulovic, p. 113.

33 Slavoljub Djukic, *Covek u svom vremenu: Razgovor s Dobricom Cosicem* (Beograd: 1989), p. 209.

المسيحية في عام 1389 أمام الخطر الإسلامي، كما أنّ صربيا في عام 1989 تدافع كذلك عن أوروبا أمام الخطر الجديد الذي أصبح الآن "الأصولية الإسلامية"[34].

وفي هذه الأجواء قام ميلوشيفيتش بالخطوة المتوقعة في آذار/ مارس 1989؛ إذ ألغى الحكم الذاتي الواسع لكوسوفو وجعلها جزءًا من صربيا، ولذلك فقد حقّ له أن يحتفل في 28 حزيران/ يونيو 1989 بنصر تاريخي أمام مليون صربي احتشدوا في ساحة المعركة للمشاركة في الاحتفال بهذا النصر. وفي خطابه المشهور قال ميلوشيفيتش وهو يذكر اسم ميلوش الذي قتل السلطان مراد "إنّ صربيا قد ربحت من جديد دولتها ووحدتها القومية والروحية، ولذلك لم يعد من الصعب أن نجيب على السؤال القديم: كيف لنا أن نواجه ميلوش؟". أما الجماهير فقد هتفت له وهي تقارنه بالأمير لازار الذي قاد المعركة في عام 1389 "لازار القيصر، يا لحظك العاثر لعدم وجود سلوبو(دان) إلى جانبك"[35].

وفي هذا الجو الهادر المشبع بالحماس كان هناك من يريد "إشراك" أوروبا في هذا النصر ضد الآخر (المسلم) لتعويض ما حدث في عام 1389. وهكذا قال ماتيا بتشكوفيتش رئيس رابطة الكتّاب في صربيا في خطابه بهذه المناسبة إنّ كوسوفو يجب أن تبدو كـ "القدس حيث تكون لكل أوروبا كنائس فيها"[36].

وقد تكرّر هذا التوظيف بشكل مختلف بعد عشر سنوات (1999) حين تدخل حلف الأطلسي بالقوة العسكرية لإخراج القوات الصربية من كوسوفو بعد مجزرة راتشاك Racak التي ارتكبتها القوات الصربية في قرية ألبانية خلال كانون الثاني/ يناير 1999. فقد ركزت الدعاية الميلوشيفية خلال القصف الأطلسي (24 آذار/ مارس - 8 حزيران/ يونيو 1999) على أنّ صربيا لا يمكن أن تتخلى عن كوسوفو لأنها "أورشليم الصرب". ولكن مع اضطرار بلغراد إلى سحب قواتها وتشكيل إدارة دولية انتقالية بموجب قرار مجلس الأمن 1244 بتاريخ 1999/6/10 وصولًا إلى إعلان استقلال كوسوفو عن صربيا في 2008/2/17، برزت من جديد روح معركة كوسوفو 1389 التي تعني خسارة كوسوفو أمام الأتراك/ المسلمين (الذين حلّ محلهم الألبان الآن)، فقد عبّر عن ذلك رأس الكنيسة الصربية الأرثوذكسية البطريرك ايرينيه منذ تنصيبه في عام 2010 باعتبار كوسوفو "أورشليم الصرب"[37].

وبالاستناد إلى ذلك، لم يعد "يوم فيد"، على حد قول المؤرخ الصربي دراغومير انجلكوفيتش Dragomir Andjelkovic في 2013، جزءًا من الماضي بل إنه لا يزال "يرمز إلى الكفاح لأجل كل ما يستحق الحياة، وإذا لم يتحقق ذلك فالموت أفضل لأجل أن نترك لأولادنا الأسس لحياة كريمة"[38]. وبعبارة أخرى، فقد ترك المؤرخ انجلكوفيتش "معركة كوسوفو" مفتوحة للأجيال القادمة بعد أن انتهت إلى ما انتهت إليه مع جيله.

ومن ناحية أخرى، نجد أنّ الجانب الألباني أيضًا حاول أن يوظّف هذا النتاج الملحمي لأهداف أيديولوجية حسب أولويات المرحلة التي كانت تمرّ فيها كوسوفو وألبانيا.

---

34 Tihomir Djordjevic, "Kosovo 1389, in Kosovo 1389 - 1989," *Serbian Lierary Quarterly* 1 - 3 (Special edition on the occasion of 600 years since the Battle of Kosovo), (Beograd 1989), pp. 33 - 34.

35 Judah, p. 82.

36 Robert Thomas, *Serbia under Milosevic: Politics in the 1990s* (London: Hurst, 1999), p. 49.

37 "Kosovo je srpski Juresalem," *Blic* (Beograd 5/10/2010).

وبمناسبة ذكرى المعركة في 2012/6/28 زار البطريرك ايرينيه كوسوفو وصرّح هناك "لقد جئنا هنا لنقول إنّ هذه الأرض كانت وستبقى صربية" وهي "أورشليم الصرب": *Danas* (Beograd 28/6/2012)

ويلاحظ هنا أنّ هذا الاستدعاء لم يعد يقتصر على الكنيسة الصربية، بل أصبح يشمل الحكومة الصربية لدواع سياسية سواء في الداخل أو في الخارج (العلاقة مع إسرائيل)؛ ففي 2014/3/21 صرح وزير الدولة لشؤون كوسوفو الكسندر فولين في لقاء مع جريدة **جيروزاليم بوست** الإسرائيلية أنّ كوسوفو هي "أورشليم الصرب" وحتى "جبل صهيون الصرب":
"Vulin for Jerusalem Post: Kosovo is our Jerusalem," *International Radio Serbia* (21/3/2014).

38 Dragomir Andjelkovic, "Vidovdan i 'datum'," *Danas* (Beograd 3/7/2013).

ففي مرحلة ستينيات القرن العشرين كانت ألبانيا تتميز بشيوعية قومية انعكست على النتاج الأكاديمي والكتب المدرسية بتبني موقفٍ حاشدٍ للقومية الألبانية والأصل الأليري للألبان ومعادٍ للحكم العثماني الذي استمر نحو 500 سنة في ألبانيا. وفي هذا السياق نجد أنّ المؤرخ المتخصص في الدراسات العثمانية بألبانيا سلامي بولاها S. Pulaha ينشر في عام 1968 كتابه **الحروب الألبانية - التركية في القرن الخامس عشر: المصادر العثمانية**، الذي تضمن ترجمة لمقاطع من ملحمة "اسكندر نامه" للشاعر التركي أحمدي Aḥmet bin Ibrāhīm Aḥmedī ونصوص للمؤرخ نشري وغيره من المؤرخين الأتراك عن معركة كوسوفو. ولكنّ المهم هنا ما قاله في المقدمة، إذ أوضح أنّ الهدف من هذا الكتاب توضيح "كفاح الألبان في سبيل الدفاع عن حريتهم واستقلالهم عن الإمبراطورية العثمانية"[39]، وهو ما شمل معركة كوسوفو.

وبعبارة أخرى، فقد سعى المؤرخون الألبان في كوسوفو خلال العهد اليوغسلافي إلى إثبات مشاركة الألبان في هذه المعركة إلى جانب الصرب، في حين أنّ الرواية الصربية كان تركّز على كونها معركة الصرب ضد الأتراك. وفي هذا السياق أصبحت معركة كوسوفو رمزًا للمعركة المتصاعدة بين المؤرخين الصرب والألبان حول "الحق التاريخي" لكل طرف في كوسوفو، التي كانت تتداخل مع المعركة السياسية حول مصير كوسوفو بين جمهورية صربيا والفيدرالية اليوغسلافية. ففي السنوات الصعبة على الألبان التي تلت موت تيتو، نشر المؤرخ الكوسوفي المختص بالدراسات العثمانية اسكندر رضا S. Rizaj عام 1982 كتابه **كوسوفا خلال القرون 15 - 17** وأكد فيه وجود الألبان في كوسوفو خلال القرون الوسطى، في الوقت الذي كان المؤرخون الصرب ينفون ذلك، كما أكد "مشاركتهم المؤكدة في معركة كوسوفو طالما أنّ المعركة جرت في أراضيهم"[40].

وفي الوقت الذي كان فيه الصرب يحتفلون منتصرين بالذكرى الـ 600 لمعركة كوسوفو بالتركيز على أنّ الصرب كانوا في تلك المعركة لا يدافعون عن صربيا فحسب، بل عن أوروبا من "الخطر الإسلامي"، نجد أنّ بعض المؤرخين الألبان انخرطوا بذلك اعتقادًا منهم أنّ الموقف الأوروبي منهم يرتبط بالموقف من الإسلام. ومن هنا، نجد أنّ المؤرخ الألباني سلامي بولاها يعبّر عن ذلك بدراسة نُشرت في كتاب صدر بالإنكليزية في تيرانا بعنوان **الحقيقة حول كوسوفو** موجّه إلى الغرب، ويذكر فيها أنّ الألبان شاركوا في معركة كوسوفو لمواجهة "الإسلام المتخلف"، وأنهم لذلك يحتلون "مكانة مشرّقة في تاريخ شعوب البلقان بكفاحهم للدفاع عن حريتهم واستقلالهم وعن الحضارة الأوروبية أيضًا"[41].

وفي هذا السياق نجد أنّ الألبان يركزون في هذه الفترة على إثبات ألبانية البطل الحقيقي في الملاحم الصربية والألبانية عن المعركة (ميلوش كوبليتش)، الذي قام باغتيال السلطان مراد الأول. فقد كان هذا قد تحوّل إلى "أيقونة الصرب" وأصبح شخصية ملهمة للجيش الصربي خلال الحرب البلقانية ضد الدولة العثمانية 1912 - 1913 وصولًا إلى الذكرى الـ 600 لمعركة كوسوفو؛ فقد قال الرئيس ميلوشيفيتش بنشوة الانتصار أمام مليون صربي احتشدوا في أرض المعركة "لم يعد من الصعب الآن أن نجيب عن السؤال القديم: كيف نقف أمام ميلوش؟"، بينما سعى بعض المؤرخين الكوسوفيين من الجيل الثاني إلى سحب البساط من تحت أقدام الجانب الصربي بإثبات أنّ هذا البطل للملاحم الصربية والألبانية حول المعركة ليس سوى ألباني باسم ميلوش كوبيلا أو ميلوش أوبيليتش[42].

---

39 Pulaha, p. 9.

40 Skender Rizaj, *Kosova gjate shekujve XV, XVI dhe XVII Administrim, Ekonomia, shoqeria dhe levizja popullore* (Prishtine: Rilindja, 1982), pp. 18 - 19.

41 Selami Pulaha, "on the presence of Albanians in Kosova during the 14th-17th Centries" in *The Truth on Kosova* (Tirana: Instituti i histories, 1993), p. 27.

42 لدينا عدة كتب صدرت في كوسوفا حول هذا الموضوع استعرضتها بالإنكليزية آنا دي ييلو في كتابها:
Anna di Lellio, *The Battle of Kosovo*, pp. 33 - 48.

ولكن بعد حرب عام 1999 وسحب صربيا لقواتها من كوسوفو ساد نوع من الحماس بين الألبان للغرب الذي تدخل لإنقاذهم وللاندماج السريع في أوروبا. وفي هذا السياق برزت دعوات تطالب الألبان بالارتداد الجماعي إلى "دين الأجداد" والثقافة االمسيحية المشتركة مع أوروبا[43]. وفي هذا السياق نجد أنّ التناول الألباني لبطل الملاحم الصربية والألبانية ميلوش كوبيليتش أصبح يركّز على الأصل المسيحي للألبان وعلى الماضي المشترك للألبان مع شعوب البلقان المسيحية. ولأجل ذلك يلوم أحمد تشيريزي مؤلف كتاب **ميلوش كوبيليتش: صربي أو ألباني؟** المؤرخين الألبان على تناسيهم مثل هذه "الشخصية الألبانية"، ويعيد ذلك لكون الألبان اعتنقوا بشكل جماعي "دين السلطان المقتول"[44].

خاتمة

تُعتبر المعركة التي جرت بين الطرف العثماني وحلفائه وبين الطرف الصربي وحلفائه في "سهل كوسوفو" في 1389/6/28 من المعارك المهمة في تاريخ البلقان والدولة العثمانية والعلاقات بين الشرق والغرب (بالمعنى الديني الأيديولوجي اللاحق) على الرغم من غموض ما حدث في ذلك اليوم.

فالأمر المؤكد أنّ السلطان مراد الأول الذي حرص بنفسه على قيادة الجيش في هذه المعركة سقط قتيلًا، كما هو الأمر مع الأمير لازار الصربي، وعاد أثر ذلك الجيش العثماني بسرعة إلى العاصمة أدرنة بعد إعلان بايزيد خلفًا لأبيه. ومع أنّ المصادر الأورربية المعاصرة تشير إلى "هزيمة" لحقت بالعثمانيين، فإنّ المصادر اللاحقة (العثمانية والصربية) أصبحت تشير إلى "هزيمة" لحقت بالصرب في أرض المعركة.

ولكنّ المهم هنا أنّ ما حدث في عام 1389 تحوّل إلى "أسطورة كوسوفو" التي عبّرت عن نفسها في الملاحم الكثيرة لدى شعوب البلقان، وخاصة لدى الصرب والألبان، التي أصبحت تغنّى في المناسبات المختلفة عبر القرون اللاحقة لتبقي "روح كوسوفو" حية وشاهدة على ما يتطور من أحداث سياسية ونزعات أيديولوجية جديدة في المنطقة.

فكوسوفو بعد قرون من الحكم العثماني لم تعد للصرب بل أصبح الألبان يشكلون أغلبية سكانية وهي على عداء مع الصرب الأرثوذكس بعد أن فرّق بينهم الدين. فالصرب بعد انهيار دولتهم في عام 1459م لم تعد لهم سوى مؤسسة واحدة توحّدهم؛ الكنيسة الصربية الأرثوذكسية التي حوّلت أبطال معركة كوسوفو إلى قديسين وصبغت كوسوفو بصبغة دينية صربية لتبقي "روح كوسوفو" حيّة عند الصرب لاسترجاع دولتهم، في حين أنّ الألبان مع اعتناقهم للإسلام أصبحت الملاحم عندهم تقدِّم صورة مختلفة عما حدث في معركة كوسوفو. وفي هذا السياق، أصبحت الملاحم المؤسطرة لما حدث في 1389 تخدم أجندة أيديولوجية جديدة عند الصرب والألبان، سواء في ما يتعلق بالسعي لتأسيس دولة مستقلة أو للعلاقة ببين الشرق والغرب.

43 ارتبطت هذه الحملة بأسماء كبيرة في الأدب والأكاديميا وعلى رأسهم الروائي المعروف إسماعيل كاداريه وغيره. للمزيد عن ذلك انظر: محمد م. الأرناؤوط، **إسماعيل كاداريه بين الادب والسياسة** (عمان: دار أزمنة، 2005)، ص 83 - 94. وأذكر هنا بالمناسبة أنّ رئيس جامعة بريشتينا زينل كلمندي Z. Kelmendi دعاني إلى فنجان قهوة في فندق غراند بوسط بريشتينا في آب/ أغسطس 2000 وقال لي في ذروة الحماس للغرب والاندماج في أوروبا آنذاك "خلال عشر سنوات سيعود معظم الألبان إلى دينهم القديم، وهو ما سيسّهل علينا الاندماج في أوروبا". ولكن في أول إحصاء بعد استقلال كوسوفو عن صربيا (2011) كانت نسبة المسلمين هي الأعلى في أوروبا (95%).

44 Ahmet Qerizi, *Milosh Kopiliqi, serb apo shqiptar* (Prishtine: Radio Kosova e lire, 2003), pp. 38 - 39.

الملاحق

1 - سقوط الإمبراطورية الصربية

تعتبر هذه الملحمة من أقدم الإبداعات الشعبية، وقد سجّلت بروايات عديدة منذ القرن التاسع عشر تختلف من واحدة إلى أخرى بإضافات طفيفة، ترجمت لاحقًا إلى عدة لغات ولدينا في الإنكليزية ترجمتان لها:

Anne Penington-Peter Levi, *Marko The Prince: Serbo-Croat Heroic Songs* (London 1984), pp. 17 - 18; *The Battle of Kosovo-Serbian Epic Poems*, translated from Serbian by John Mattias and Vladeta Vuckovic, preface by Charles Simic (Athens: Swallow Press, 1987), pp. 33 - 35.

سرب من الطيور
من الأرض المقدسة
من أورشليم
يضمّ طائر سنونو، يحمل عصفورًا
إنه القديس إيليا؛
لا، إنه لا يضم طائر سنونو ولا يضم عصفورًا
بل رسالة من أم الله
إلى القيصر في كوسوفو
يسقط الرسالة على حضنه
ويقول للإمبراطور:
"لازار، أيها الإمبراطور المجيد،
أي مملكة اخترت،
مملكة الأرض،
أم مملكة السماء؟
إذا اخترت مملكة الأرض
فاحزم الخيول وجهز العتاد
وادفع بالرجال الأقوياء، المحملين بالسيوف،
للهجوم على الأتراك،
وسيقضون عليهم جميعًا.
ولكن إذا أردت مملكة السماء
انسج كنيسة حول كوسوفو،
ولا تبن أسسها بالرخام
بل بالحرير والجوخ الأحمر.
صلّ وأمر رجالك،

هم سيموتون،
وأنت ستموت،
ستموت بينهم
حين يموتون".
حين سمع الإمبراطور هذه الكلمات
فكّر في نفسه:
"يا إلهي، ماذا أفعل؟
أيّ مملكة أريد؟
هل هي مملكة السماء؟
هل هي مملكة الأرض؟
وإذا اخترتُ مملكة الأرض
فمملكة الأرض قصيرة،
ومملكة السماء سرمدية".
واختار الإمبراطور مملكة السماء
وترك مملكة الأرض.

2 - معركة كوسوفا[45]

تعتبر هذه من أشهر الملاحم عن معركة كوسوفو عند الألبان. سجّلها الباحث الصربي ف. دانتشتوفيتش V. Dancetovic في عام 1952 من فم أحد الرواة الشعبيين (رستم كاباشي) بقرية بولاتس الكوسوفية وطبعت لأول مرة عام 1953 في المجلد الثاني من "أغاني شعبية ألبانية من كوسوفا وميتوهيا" (بريشتينا 1953)، ومن ثم طُبعت عدة مرات خلال الفترة 1968 - 2007. وفي غضون ذلك سُجّلت روايات أخرى من هذه الأغنية الملحمية في أماكن أخرى بكوسوفو خلال الفترة 1954 - 1955 وطبعت مؤخرًا حسب الأصول العلمية عن معهد الدراسات الألبانية في بريشتينا:

Demush Shala, *Kenge popullore historike* (Prishtine: 1973), pp. 47 - 52; Instituti albanologjik i Prishtines, *Kenge popullore historike I* (Prishtine: 2007), pp. 27 - 40, 41 - 48, 49 - 65, 66 - 72, 73 - 75.

في أحد الأيام
خلد السلطان مراد للنوم،
ورأى أبونا في نومه
نسرين يسقطان عليه
ويحطّان على كتفه الأيمن.
حين أفاق السلطان في الصباح

45 في الأصل Kosova حسب الصيغة الألبانية للاسم.

أخذ في الوضوء

وصلى صلاة الفجر في وقتها

أرسل وراء مفسري الأحلام[46]

وحين وصلوا عند السلطان سألوه:

- خير يا أبونا؟ لماذا أرسلت وراءنا؟

- خير إن شاء الله يا أولادي!

لقد رأيت شيئًا في نومي

وأرجو الله أن يجعله خيرًا.

لقد رأيت نسرين يحطان على كتفي

أخذ أحد المكبرين في التكبير:

ستفتح كوسوفا يا أبونا!

سارع السلطان مراد

بإرسال الأخبار للسعاة ليأتوه[47]

وبعد أن اجتمعوا عنده سألوه:

- خير الله يا أب كل تركيا؟

لماذا أرسلت وراءنا؟

وماذا يمكن أن نخدمك؟

- خير إن شاء الله يا أولادي!

أخذ السلطان يوزع عليهم الرسائل:

خذ يا بني هذه الرسالة لشيخ الإسلام

وأرسل هذه للصدر الأعظم

وأوصل هذه إلى جيان العربي[48]

أرسلت الرسائل إلى وكلاء السلطان

وقال السلطان لوكيله:

---

46 في الأصل " تكبيرجي" takbirxhi المؤلفة من تكبير + جي التركية، وأصبحت تعني عند الألبان مفسر الأحلام لأنّ المفسر يكبّر عند تفسير الحلم.

47 في الأصل " التتار" tatar، وغدت تعني في الألبانية كما في التركية والعربية الساعي الذي ينقل البريد السريع على فرسه في الدولة العثمانية، وهي تستخدم بهذا المعنى في التراث الشعبي الألباني:
Tahir Dizdari, *Fjalor i orientalizmave ne gjuhen shqipe* (Tirane-Rabat: 2005), pp. 1001 - 1002.

48 في الأصل السراسيني Sarasini والسراسنة اسم كان يطلق على المشارقة بشكل عام ويشمل العرب.

لقد قرأوا الرسائل،

وأرسلوا جنودهم للانضمام إلى جيشنا

حتى ملأ الأرض

بقدرة الله.

توضأ السلطان

ونشر الصنجق الشريف(49)

وخرج أمام العسكر

وقام أبونا بتوجيههم(50)

فسجد على الأرض كل الجنود.

دعاهم الأب إلى القيام

وقادهم كالحمامة

وحين وصل بهم إلى البحر

وجد البحر مغلقًا

توجه السلطان بالدعاء:

يا ربي أنت الذي لا إله غيرك،

أفسح الماء من البحر

لكي يسير العسكر على الأرض

استجاب الله لدعائه

وفسح المجال بين الشاطئين

فسار العسكر على التراب.

توجه السلطان إلى الجميع

اسمعوا جيدًا يا أولادي!

إذا كان بينكم من هو نادم

فليعد قبل أن يغلق البحر ثانية!

---

49 في الأصل "صنجق شريف" Sanxhak sheriff، ويقصد به الراية التي احتفظ بها العثمانيون من الذخيرة النبوية، وكانت لا تستخدم أو تنشر إلا في المعارك التي لها أهمية كبرى: Dizdari, p. 876..

50 في الأصل يلقّنهم أو يقوم بالتلقين talkin؛ والتلقين أخذه الألبان من الأتراك ويعني عندهم ما يقوم به الشيخ عند دفن الميت لتعليمه بماذا يجيب عن أسئلة الملكين منكر ونكير عما فعله في حياته.

أجابه العسكر بصوت واحد:

لسنا نادمين على موتنا!

توجه السلطان نحو سالونيك

وحاصرها من كل جهة

جرت هناك معركة قوية:

كان السلطان لا يتوقع شيئًا من الدنيا

فبقي يقاتل سبعة أيام وسبع ليال

حتى فتح السلطان سالونيك

وأقام الحكم فيها[51].

توجه الأب مع قواته إلى اسكوب

وحاصرها من جميع الجهات

جرت هناك معركة قوية

ولم يكن هناك من يقف في وجه السلطان.

بقي يقاتل سبعة أيام وسبعة ليال

حتى فتح اسكوب

وأقام الحكم فيها[52].

توجه السلطان إلى كاتشانيك[53]

وحاصرها الأب من كل الجهات

وجرت هناك معركة قوية

لم تسر الأمور على ما يرام مع السلطان

وأخذ العسكر يتراجعون إلى الوراء.

---

51 من المعروف أنّ سالونيك تعرّضت للحصار العثماني لأول مرة في عام 1383م، واستسلمت دون قتال للعثمانيين في نيسان/ أبريل 1387م، حيث خضع حاكمها مانويل باليولوغ (الإمبراطور اللاحق) للسلطان مراد. ولكن بعد هزيمة السلطان بايزيد في عام 1402م أمام تيمورلنك عادت سالونيك إلى الحكم البيزنطي إلى أن فتحها السلطان مراد الثاني في 833هـ/ 1430م:
Mark Mazower, *Salonica City of Ghosts 1430 - 1050* (New York: Alfred A.Knopf, 2005), pp. 27 - 31.

52 اسكوب أو سكوبيه Skopje كما تعرف في السلافية (عاصمة جمهورية مكدونيا الآن) كانت تحت حكم الأمير الصربي ماركو كراليفيتش، الذي كان قد خضع للدولة العثمانية. ولذلك فقد انضم بقواته إلى جيش السلطان المتوجه إلى كوسوفو.

53 **(8)** من المعروف أنّ كاتشانيك قد برزت إلى الوجود بعد نحو 200 سنة من المعركة، إذ أسس فيها الصدر الأعظم سنان باشا في إطار وقفه نواة عمرانية في نهاية القرن السادس عشر تتألف من جامع وكتاب وعمارة/ تكية وحمام وخانين بالإضافة إلى حصن صغير كمركز لحامية عسكرية. وقد تحوّلت هذه النواة إلى حاضرة سكنية صغيرة في مطلع القرن السابع عشر وإلى بلدة صغيرة في منتصف القرن السابع عشر عندما زارها الرحالة أوليا جلبي. ولكن المشكلة ربما كانت في المضيق نفسه، الذي كان يسمح لقلة من قطاع الطريق أن يتحكموا فيه. ومن هؤلاء الذين اشتهروا باسم " الكاتشاك "(من التركية kacmak) اشتق اسم القرية/ البلدة: محمد م. الأرناؤوط، **دور الوقف في المجتمعات الإسلامية** (دمشق: دار الفكر، 2000)، ص56 - 58

وصل ذلك إلى مسامع السلطان

فطلب فورًا وقف القتال.

نادى السلطان على حملة الأبواق

وحين تجمعوا لديه خاطبهم:

- انفخوا الأبواق ودعوا العسكر للاجتماع!

تصاعدت أصوات حملة الأبواق

لنداء كل العسكر،

وتمكنوا من جمعهم كلهم.

قسى السلطان عليهم باللوم:

لقد حلت علينا اللعنة،

لقد بقي في عنقي شهداء كثر:

شيخ الإسلام مع ابنه

والصدر الأعظم مع حفيده

فمن منكم ارتكب الحرام؟[54]

أجابه العسكر بصوت واحد:

لا يوجد بيننا من يرتكب الحرام!

خرج عسكري من الحشد:

أنا فقط ارتكبت الحرام

في بساتين اسكوب أخذت تفاحة

لا تزال في شنطتي لم آكلها بعد.

ضمّ السلطان العسكري إليه

ودعا السُحّار إليه[55].

جاء السحار إلى الأب:

اذهبوا بسرعة إلى اسكوب

وخذو التفاحة إلى صاحب البستان

54 في الأصل "حرام" haram التي لا تزال تستخدم في الألبانية: Dizdari, pp. 354 - 355

55 في الأصل suhar.

وقولوا له ليجعل التفاحة حلالًا لي![56]

ذهب هؤلاء إلى صاحب البستان

وقالوا له إنّ الأب الملك يسلم عليك

ويطلب منك أن تجعل التفاحة حلالًا له.

نهض صاحب البستان على قدميه قائلًا:

بشرط أن يجعلني صدرًا أعظم!

عاد السحّار إلى السلطان

وأخبروه بما جرى:

لا يقبل أن يجعل التفاحة حلالًا لك

إلا إذا جعلته صدرًا أعظم.

أرسل السلطان وراء النيشانجي[57]

وكتب بتعيينه صدرًا أعظم.

ضيق السلطان من حصاره على كاتشانيك

وقاتل ثلاثة أيام وثلاث ليال

غضب السلطان وأقسم بالله:

إما أن يقبل هؤلاء بالدين

أو أقتلهم جميعًا بالسيف!

جرت معركة كبيرة

وأثار الله زلازل كثيرة

جمعت بين الدم والمطر

وأخذت في طريقها كل شيء

حتى الحمير المحمّلة بالحطب

والأحجار الكبيرة.

فتح السلطان كاتشانيك

56 في الأصل "حلال" hallall التي لا تزال تستخدم في الألبانية مع مشتقاتها: Dizdari, pp. 340 - 341

57 النيشانجي من كبار العاملين في الديوان السلطاني. كان عمله في البداية يقتصر على ختم القرارات الرسمية بالطغراء (النيشان) حتى تكون نافدة، ثم أصبح يشمل مراجعة النص ومقارنته مع التشريعات السابقة، وكتابة الرسائل السلطانية في عهد السلطان سليمان القانوني الذي برز في عهده مصطفى جلال زاده الشهير بالنيشانجي الأكبر، انظر: **تاريخ الدولة العثمانية**، إشراف روبير مانتران وتعريب بشير السباعي، ج 1 (القاهرة: دار الفكر، 1989)، ص 282 - 283.

وأقام فيها الحكم.

توجه الأب إلى فريزوفيتش[58]

وحاصرها من جميع الجهات

وجرت هناك معركة كبيرة.

استمر القتال يومين وليلتين،

لم يكن هناك من يقف أمام السلطان.

فتح السلطان فريزوفيتش

وأقام فيها الحكم.

وصل السلطان أخيرًا إلى كوسوفا[59]

فغطتها الخيام باللون الأبيض

من المشرق إلى المغرب[60]

الجميع بالخيام

و(صاحب) الدولة[61].

وبعد أن استقروا واستراحوا

كتب الملك رسالة

وأرسلها إلى ميلوش:

هل ترسل لي مفاتيح القلاع السبعة،

هل ترسل لي الخراج عن سبع سنوات،

أم تقوم الحرب بيننا؟

قرأ ميلوش الرسالة باهتمام

58 فريزوفيتش أو فيرزاي Ferizaj كما نعرف الآن من أحدث المدن في كوسوفو. نشأت بعد 1873 حول محطة القطار التي بنيت على سكة الحديد التي توصل إلى سكوبيه - اسطنبول وإلى سكوبيه – سالونيك. وكان في مكان المحطة خان اشتهر باسم المالك (فريز)، ولذلك دعيت القرية، ثم البلدة الجديدة التي نشأت في نهاية القرن التاسع عشر، باسم فريزوفيتش أو فريزاي. وبعد الاحتلال الصربي لكوسوفو في عام 1912 دعيت باسم اوروشفاتس Urosevac. ومن الواضح هنا أنه لدينا إضافة حديثة على هذه الأغنية/ الملحمة:

Kosovo/Kosova (Beograd: Ekonomska politika, 1973), p. 971.

59 في الأصل أطلق الاسم على السهل الذي يمتد حول نهر سيتنيتسا Sitnica قرب بريشتينا، كما أنه لدينا قريتان تحملان الاسم نفسه في ألبانيا مما يشير إلى أنّ هذا الاسم انتشر مع التوسع السلافي في المنطقة خلال العصر الوسيط. وقد بدأ هذا الاسم يرد في الوثائق منذ نهاية القرن الثاني عشر؛ أي حين دخل هذا المكان في إطار الدولة الصربية الجديدة. وقد توسّع مفهوم هذا الاسم حتى أصبح يطلق على كل الحوض/ السهل الذي يمتد نحو 80 كيلومترًا من نهر إيبار Ibar في الشمال إلى مضيق كاتشانيك في الجنوب، ثم أصبح يطلق منذ عام 1877 على الولاية الجديدة التي أسسها العثمانيون في عام 1868 باسم "ولاية بريزرن" مع أن عاصمة الولاية انتقلت في عام 1888 إلى سكوبيه وبقيت هناك حتى عام 1912، انظر: الأرناؤوط، **كوسوفو/ كوسوفا**، ص 21 - 26.

60 في الأصل "المشرق" Mashrik و"المغرب" Magrib التي تعني هنا الشرق والغرب.

61 في الأصل "الدولة" dovleti التي كان الألبان يطلقوها على الدولة العثمانية، ولكن هنا تطلق أيضًا على السلطان.

وأخذت دموعه تسيل على وجهه،
فسألته زوجته لاتينكا:
- ماذا بك يا ميلوش حتى تبكي؟
- لقد حلّ بنا اليوم الأسود يا لاتينكا،
لقد وصل السلطان إلى كوسوفا
وصار لونها أبيض من كثرة الخيام.
نهض ميلوش على قدميه
شدّ الفرس
وركب عليها.
ذهب إلى بيا[62]،
حيث اجتمع هناك الملوك،
توجه إلى الملوك قائلًا:
وصل السلطان إلى كوسوفا
وغدا لونها أبيض من كثرة الخيام!
كان الملك الأكبر في سراييفو
فأرسلوا إليه رسالة
وقالوا له فيها بوضوح:
لقد وصل السلطان إلى كوسوفا
وأصبح لونها أبيض من كثرة الخيام.
لم يصدق الملك ذلك:
أيها البشناق، ياخسارتي فيكم!
كان ملك بيا من الأشرار[63]
فذهب الملوك الستة إلى تشيتشا فيتسا[64]

---

62 في الألبانية Peja وفي الصربية Pec، مدينة قديمة تقع في غرب كوسوفو قرب الحدود مع ألبانيا والجبل الأسود. تشتهر بكنائسها التي بنيت في عهد توسع الدولة الصربية الجديدة، وخاصة الدير الذي أقيم في ضواحيها في النصف الأول من القرن الثالث عشر وتحول إلى مقر للبطريركية الصربية بعد عام 1253م، وجوامعها الأثرية التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (جامع البيرق وجامع الرصاص):

Kosovo/ Kosova, pp. 833 - 838

63 في الأصل " شر" sherr التي تستخدم في الألبانية أيضًا للدلالة على الداهية:

Dizdari, pp. 966 - 967

64 تشيتشافيتسا Cicavica جبل يطل على سهل كوسوفو الذي جرت فيه المعركة.

وتطلعوا في المناظير[65]

ورأوا الخيام

فصدقوا حينها ميلوش.

قال ميلوش للملوك:

ماذا تريدون أن تفعلوا أيها الملوك؟

أنا أريد أن أدخل في دين السلطان!

قال ملك بيا:

يا للعيب الكبير لما تقوله يا ميلوش!

غضب ميلوش كثيرًا.

ذلك الملك عرف بالدهاء:

اجمعوا ثلاثين فتاة

واجعلوهن يلبسن كما في العيد الكبير[66]

وأعطوهن ثلاثين صينية من الذهب،

وأرسلوهن إلى معسكر السلطان.

وحين تسرق الفتيات

وتغتصب،

سأبدأ فورًا بالقتال.

ذهبت الفتيات إلى المعسكر

فلم يسمح لهن صاحب النوبة بالدخول[67]،

أخبر السلطان:

جاءت معسكرنا ثلاثون فتاة:

فهل نسمح لهنّ أيها الأب بالدخول؟!

أجاب السلطان صاحب النوبة:

دع الفتيات حيثما يردن!

تجولت الفتيات في المعسكر

65 في الأصل durbi من الفارسية "دربين". ويلاحظ في الأغاني الشعبية الألبانية ذكر واضح لهذه الأداة التي تستخدم لمشاهدة ما هو بعيد: Dizdari, p. 240

66 في الأصل وردت في السلافية velikdan أو اليوم العظيم.

67 في الأصل nebetxhi التي تتألف من نوبة + جي التركية.

ولكن لم ينظر إليهنّ أحد من العسكر

ولم يأخذ أحد منهم شيئًا من الذهب

تعبت الفتيات كثيرًا

وذهبت إلى إيلي الفران

وقلن له:

- ما هذا اليوم السيء؟

ربما لسنا حسناوات

ولكن ألا يغريهم الذهب؟

كاد إيلي أن يموت من القهر

وقال للفتيات:

ليس هذا اليوم يومنا أيتها الفتيات!

سألوا السلطان آنذاك:

هل نوزع عليهنّ الخبز أم لا؟

أرسل الملك خبرًا إلى إيلي:

أعطوهن الخبز دون مقابل حتى يشبعن!

أخذت الفتيات من الخبز ما رغبن

وذهبن عند الملك

وقلن له:

لقد قضي علينا!

نهض ميلوش على قدميه

وألبسوه الحديد

حتى الفرس ألبسوها الحديد.

امتطى ميلوش الفرس

وذهب مع الجنود عند السلطان.

لم يسمح صاحب النوبة له بالدخول،

وأرسل يسأل السلطان:

هل أسمح لميلوش بالدخول؟

أرسل (صاحب) الدولة خبرًا له:

دع ميلوش يأتي هنا!

سأل الملك الوكلاء:

هل أمدّ له يدي اليمنى

أم قدمي اليسرى؟

- مدّ له القدم اليسرى

حتى تبقى الرعية خاضعة على الدوام!

سُمح لميلوش بالدخول

وذهب عند (صاحب) الدولة

مد السلطان قدمه اليسرى

فأمسك بها ميلوش بيد

وطعنه بالخنجر باليد الأخرى

حتى أخرج أحشاءه على الأرض.

بقي السلطان 24 ساعة على قيد الحياة،

حتى توفي بعدها.

اندلعت معركة كبيرة،

ولم يكن هناك من يقف أمام ميلوش.

كان يضرب بالبندقية والبندقية لا تستجيب[68]،

وحتى السيف لم يجد معه.

قالت امرأة مسيحية:

- أمات الله عسكر الدولة!

ألا ترون ميلوش كيف يقضي عليكم؟

صوّب الجميع بنادقهم نحو الأسفل

وأصابوا حلقات الفرس

فسقطت على الأرض،

وأمسكوا بميلوش وهو حي.

---

68 من المعروف أنه في معركة كوسوفو استخدمت الأسلحة النارية لأول مرة هناك (المدافع)، ولكنه من المؤكد أنّ البنادق لم تكن قد استخدمت بعد. وفي الملاحم الأخرى يرد استخدام السيوف بدلًا من البنادق، مما يعني أنها من الإضافات المتأخرة.

كان يضرب بالبندقية والبندقية لا تستجيب،
وحتى السيف لم يجد معه.
قالت المرأة المسيحية للعسكر:
أشعلوا النار في سبع عربات مملوءة بالحطب
وضعوا ميلوش في وسط النار!
قال ميلوش:
الأمان يا عسكر الدولة!
أريد تلك المرأة هنا،
لدي الكثير من المال،
وأريد أن أترك لها ذلك.
اقتربت المرأة منه
فأخذ ينهشها بأسنانه.
ضربوا حينئذ ميلوش بالسيف،
فطار رأس ميلوش،
حتى أنّ ميلوش حين وصل إلى المغرب(69).
رأته النساء والفتيات وهنّ يغسلن:
-انظروا، إنسان دون رأس!
- أنا دون رأس، وأنتن دون عيون!
وحينها سقط رأس ميلوش على الأرض.

3 - أغنية إلى سلوبودان الذي دافع عن الأرض المقدسة

العنوان في الأصل "أغنية إلى سلوبودان"، أي سلوبوادن ميلوشيفيتش، رئيس الحزب الشيوعي في صربيا خلال الفترة 1986 - 1989 الذي أصبح معبود الصرب خلال ثمانينيات القرن الماضي بعد أن أحيا "روح كوسوفو" وضمّ كوسوفو إلى صربيا عشية الذكرى الـ 600 للمعركة (1989/6/28)، حيث خطب في ساحة المعركة أمام مليون صربي احتشدوا بهذه المناسبة وأثار الجمهور المحتشد حين قال إنّ "صربيا قد ربحت من جديد دولتها ووحدتها القومية والدينية"، وردّ عليه الجمهور مرددًا "يا لازار القيصر، يا لحظك العاثر لعدم وجود

69 في الأصل "المغرب" Magrip التي تستخدم للدلالة على شمال أفريقيا ما بعد مصر باتجاه الغرب:
Dizdari, pp. 601 - 602.

سلوبو(دان) إلى جانبك". ومن الواضح أنّ هذه الأغنية تعود إلى الشهور التي تلت خطاب ميلوشيفيتش في الذكرى الـ 600 لمعركة كوسوفو ونشرت بعد ذلك:

T. Popovic, *Die Mythologisierung des Alltags-Kollektive Erinnerungen*, Geschichtsbilder und Vergangenheitskultur in Serbien Und Montenegro seit Mitte der 1980er Jahre (Zurich: 2003), p.138.

يا صربيا
الملتحمة مع الله
يا من منحتينا سلوبودان.
من بريزرن إلى كنين[70]
تصدح الهتافات لابن صربيا:
لقد تحررت بلادنا من الأتراك[71]
والأوستاش[72]
من الألمان والمجر
من اللاتين والشيبتار[73].
ياصربيا القديس سافا،
لقد أنقذ سلوبودان رؤوسنا.
سلوبودان
حتى أطفال الصرب يقدّروك
لأنك دافعت عن الأرض المقدسة

70 بريزرن Prizren كانت العاصمة الصيفية للإمبراطور الصربي دوشان (1331 - 1355) ودفن في دير بضواحيها وأصبحت لاحقًا عاصمة لولاية قوصوة العثمانية، أما كنين Knin فهي مدينة ذات تاريخ قروسطي تقع اليوم في جنوب كرواتيا قرب الحدود مع البوسنة.

71 يستخدم الصرب هنا الأتراك بمعنى المسلمين في البلقان بشكل عام بوصفهم اعتنقوا "دين الأتراك".

72 المقصود هنا الكروات بشكل عام مع أنّ المعنى الأصلي لـ "الاستاشا" يفيد فقط أعضاء المنظمة القومية الكرواتية التي دعت إلى فصل كرواتيا عن يوغسلافيا.

73 يقصد باللاتين الكاثوليك الذين ينتمي إليهم الكروات وبعض الألبان، أما "الشيبتار" فهو لفظ مهين يستخدمه الصرب لتسمية الألبان.

قائمة المصادر والمراجع

العربية

- الأرناؤوط، محمد. **إسماعيل كاداريه بين الأدب والسياسة**. عمان: دار أزمنة، 2005.
- ـــــــــــــ **كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني في القرن العشرين**. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 1998.
- إينالجك، خليل. **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**. ترجمة محمد م. الأرناؤوط. بيروت: دار المدار الاسلامي، ط2، 2014.
- حرب، محمد. **العثمانيون في التاريخ والحضارة**. دمشق: دار القلم، 1989.
- فريد بك المحامي، محمد. **تاريخ الدولة العلية العثمانية**. تحقيق إحسان حقي. ط8، بيروت: دار النفائس، 1988.

الأجنبية

- Anzulovic, Branimir. *Heavently Serbia: From Myth to Genocide*. New York: New York University Press, 1999.
- A. Penington, Katherina-Levi Peter. *Marko The Prince: Serbo-Corat Heroic Songs*. London, 1984.
- Arapi, Fatos. "Kenge popullore per Luften e Kosoves." *Studime historike* 2. Tirane, 1983.
- *ballkanike*, perktheu Enver Robolli. Prishtine: Koha, 2012.
- Bartl, Peter. *Shqiperia nga mesjeta deri me sot*, perktheu Shkumbim Brestovci. Prizren: Drita, 1999.
- Basagic, Savet. "Najstarija turska vijest o Kosovskom boju." *GZMBiH* 36. Sarajevo, 1924.
- Bogdanovic, Dimitrije. *Knjiga o Kosovu*. Beograd: SANU, 1986.
- Bovan, Vadimir. *Antologija srpske narodne epike sa Kosova i Metohije*. Pristina: 1974.
- Celebi, Evlija. *Putopis, prevod i komentar Hazim Sabanovic*. Sarajevo: V. Maslesa, 1979.
- Di Lellio, Anna. *Balttle of Kosovo 1389 An Albanian Epic*, London- New York: I.B. Tauris, 2009.
- Dinic, Mihajlo. "Dva savremenika o boju na Kosovu." *Glas SKA CLXXXII*. Beograd, 1940.
- Dizdari, Tahir. *Fjalor i orientalizmave ne gjuhen shqipe*. Tirane-Rabat: AIITC-ISESCO, 2005.
- Djordjevic, Tihomir. "Kosovo 1389, in Kosovo 1389 - 1989." *Serbian Lierary Quarterly* 1 - 3 (Special edition on the occasion of 600 years since the Battle of Kosovo), Beograd, 1989.
- Djukic, Slavoljub. *Covek u svom vremenu: Razgovor s Dobricom Cosicem*. Beograd: 1989.
- Gasperi, Gjin. *Skopsko-Prizrenska biskopija kroz stoljeca*. Zagreb: KS, 1986.
- Hasluck, M.M. "An Albanian ballad on the assassination in 1389 of Sultan Murat I on Kosovo Plain." *Occident and Orient*. London, 1936.
- Instituti i histories, *Beteja e Kosoves 1389*. Tirane: 2005.
- Judah, Tim. *Kosovo: War and Revenge*. New Haven & London: Yale Nota Bene & Yale University press, 2002.
- Karadzic, Vuk. *Srpske narodne pjesme* II. Wien 1854.

- *Kosovo/Kosova*, Beograd:Ekonomska politika, 1973.
- Krasniqi, Haxhi. Kenga e Luftes se Kosoves 1389. vol. III, Prizren, 1968.
- Malcolm, Noel. *Kosovo: A Short History*. London: Macmillan, 1998.
- Mazower, Mark. Salonica City of gosts 1430 - 1950. New York: Alfred A. Knop, 2005.
- Mihajlcic,Rade. *The Battle of Kosovo in History and in Popular Tradition*. Beograd: BIGZ, 1989.
- Orbini, Mavro. *Il regno de gli Slavi*. Pesaro, 1610.
- Peter Tan, *Kosovska bitka*. Beograd, 1968.
- Pllana, Shefqet. "Epika popullore shqiptare mbi Luften e Kosoves 1389." *Seminari i kultures shqiptare per te huaj* 2. Prishtine, 1976.
- Popovic, Miodrag. *Vidovdan i casni krst*. Beograd: Slovo ljubve. 1997.
- Pulaha, Selami. "on the presence of Albanians in Kosova during the 14th-17th Centries" in *The Truth on Kosova*. Tirana: Instituti i histories, 1993.
- Pulaha, Selami. *Lufta shqiptare-turke ne shekullin XV: burime osmane*. Tirane: Instituti i histories, 1968.
- Qerizi, Ahmet. *Milosh Kopiliqi, serb apo shqiptar*, Prishtine: Radio Kosova e lire, 2003.
- Rajovic, Radosin. "Ustavni razvoj od konstituisanja autonomije do reforme 1989," in *Kosovo: Proslost i sadasnjost*, Beograd: Medjunarodna politika, 1989.
- Rizaj, Skender. *Kosova gjate shekujve XV, XVI dhe XVII Administrim, Ekonomia, shoqeria dhe levizja popullore*. Prishtine: Rilindja, 1982.
- Schmitt, Oliver Jeans. *Kosova:Histori e shkurter e nje treve qendrore* perktheu Enver Robolli. Prishtine: Koha, 2012.
- Shala, Demush. *Kenge popullore historike*. Prishtine 1973.
- Shala, Xheladin. *Pushtimi i Kosoves nga Serbia dhe Mali i zi 1912 - 1913*. Prishtine: Instituti albanologjik, 2012.
- Thomas, Robert. *Serbia under Milosevic: Politics in the 1990s*. London: Hurst, 1999.
- Zefi, Don Shan. *Islamizimi i shqiptareve gjate shekujve XV-XI*. Prizren: Drita, 2000.

حسام عبد المعطي | *Hussam Abdelmoti

الكارمية في مصر خلال العصر العثماني (923 - 1040هـ/1517 - 1630م)

أضواء وثائقية جديدة على تجارة التوابل

"*Karimi*", Egypt during the Ottoman Era (1517 - 1630/923 - 1040 H): New Documents Shed Light on the Spice Trade

سادت مقولة أصبحت ثابتة في أذهان أجيال عديدة بأنّ اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، أدّى إلى انهيار الاقتصاد العربي والمصري إبان العصر العثماني، وأنّ ذلك أدّى إلى انهيار الطبقة التجارية الوسطى وأهمّ شرائحها، وهم التجار الكارمية العاملون في تجارة التوابل عبر البحر الأحمر. غير أنّ هذه الدراسة تناقض هذه الفكرة تمامًا؛ فتؤكّد أنّ أثر وصول البرتغاليين إلى طريق رأس الرجاء الصالح لم يكن طويلًا، فقد أخذ التجار العاملون في تجارة البحر الأحمر في العمل على استعادة هذه التجارة المربحة. وقد ساعدهم على ذلك العديد من العوامل التي ساعدت على عودة تجارة التوابل للوصول إلى أوروبا عبر طريق البحر الأحمر، وعاد التجار الكارمية إلى الظهور في المصادر والوثائق الرسمية؛ إذ قاموا بدور كبير في الاقتصاد المصري خلال هذه الفترة التاريخية. غير أنّ عام 1040هـ/1630م وما يليه شهد تحوّلًا كبيرًا في مواد التجارة الدولية، فقد حلّ البن اليمني محلّ التوابل بوصفه أهمّ سلعة منقولة عبر البحر الأحمر. وحلّت الأقمشة القطنية المنقوشة محلّ التوابل بوصفها أهمّ سلعة متبادلة مع الهند، بينما تراجع دور التوابل في حركة التجارة عبر البحر الأحمر من المرتبة الأولى إلى المرتبة الثالثة. ومع هذا التراجع اختفى مسمّى التجار الكارمية.

There is a common misconception thatthe discovery of the Cape of Good Hope by the Portuguese led to the collapse of the Arab and Egyptian economies during the Ottoman era, and to the downfall of the *Karimi* caste of Muslim merchants who dominated the spice trade along the Red Sea beginning in the Mameluke and Ayyubid periods. This study challenges these misconceptions, demonstrating how these merchants maintained their supremacy in this profitable trade thanks to the relatively short distance between India and Europe via the Red Sea, as well as the Ottoman presence there which allowed the Egyptians access to ship-building wood. The Ottoman abolishment of monopolies allowed for traders to trade freely, away from state interference, enabling Egyptians to build a strong shipping fleet in the Red Sea and to regain a large part of the African gold dust market, which was necessary for buying spices from India. Portugal's ability to control the entrance to the Red Sea had also suffered a setback after the year 1572 (980 H) when Spain overtook Portugal. All these factors contributed to the spice trade continuing to reach Europe through the Red Sea and to the reemergence of the *Karimi* traders in official documents and sources highlighting their prominent role in the Egyptian economy during that period. What did eventually lead to the downfall of the *Karimi* merchants was a major shift in the global trade market occurring c. 1630 (1040 H), when Yemeni Coffee replaced spices as the most important product shipped through the Red Sea, and dyed cotton cloth replaced spices as the most traded item from India.

* أستاذ مشارك في التاريخ الحديث في جامعة قطر، وجامعة بني سويف، مصر.

مقدمة

روّجت العديد من الكتابات للرأي القائل إنّ مصر أصبحت كمًا مهملًا بعد اكتشاف الطريق التجاري عبر رأس الرجاء الصالح، وترتّب على ذلك في رأيهم فقدان مصر أهميتها التجارية ثم تدهورها الصناعي والحرفي في تلك الحقبة[1]. وقد جرى صوغ تلك الآراء قبل أن يبدأ المؤرخون دراسة ما كان يحدث في مصر والمنطقة في تلك الحقبة دراسةً جادّة من خلال مصادرها الوثائقية الضخمة والمتراكمة في الأرشيف المصري. وقد سادت فترة طويلة مقولة أصبحت ثابتة في أذهان أجيال عديدة بأنّ اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح أدّى إلى انهيار الاقتصاد العربي والمصري إبان العصر العثماني[2]. وقد قدّم العديد من المؤرخين أسبابًا عديدة لتفسير حالة الركود التي أصابت في رأيهم التجارة المحلية في مصر العثمانية؛ إذ أرجعوا ذلك دائمًا إلى فكرة التفوّق الغربي (البرتغالي - الإسباني)، أو بالأحرى المركزية الأوروبية. وترتّب على ذلك النظر نظرة سلبية إلى كلّ ما هو ليس على النمط الأوروبي في مصر العثمانية[3]. ومن بين العوامل التي ساقها هؤلاء، ضعف مركز التجار الذين عملوا في الأسواق الداخلية، فقيل إنّهم خضعوا لسيطرة الدولة التي كانت تصادر الفوائض المتجمّعة عندهم. وبذلك أحبطت الدولة مساعيهم للدخول في مشروعات تجارية وصناعية ذات عائد كبير، مما حال دون تزايد رأس مالهم بصورة كبيرة. وأرجع بعض التفسيرات أيضًا التراجع التجاري إلى الأدوات التجارية التي استخدمها التجّار، ونظام طوائف الحرف الذي لم يطوّر على قدر التحديات الاقتصادية[4]. والحقّ أنّ ذلك التفسير في حاجة إلى مراجعة جوهرية؛ فإنّ إلقاء نظرة فاحصة على الوثائق المصرية المتعلقة بالتجارة والنشاط الاقتصادي سوف يكشف حقيقة التناقضات الواضحة في تلك المقولات.

بيد أنّ الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الأرشيفات المحلية تشير إلى أنّ كميات التوابل الواردة إلى الإسكندرية عبر البحر الأحمر خلال نهاية النصف الثاني من القرن السادس عشر، أصبحت أكبر ممّا كانت عليه خلال العصر المملوكي[5]؛ أي قبل وصول البرتغاليين إلى الهند[6]. فكيف حدث ذلك؟ ولماذا لم يفقد البحر الأحمر أهميته بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح؟ وكيف عاد الجزء الأكبر من التوابل ليمرّ عبر البحر الأحمر؟ ولماذا؟ وما هي القوى التي حاولت إعادة تجارة البحر الأحمر والتجارة مع الهند إلى قوّتها؟ وهل نجحت في ذلك؟ ولماذا نسمّي هؤلاء التجار بالكارمية؟ وكيف نجح هؤلاء التجار في تكوين شبكات تجارية من أجل نقل البضائع الهندية من مصادر إنتاجها إلى السويس، على الرغم من الحصار البرتغالي؟ ولماذا يتوقّف البحث عند عام 1630م؟ وما هي النتائج التي ترتّبت على عودة تجارة التوابل إلى البحر الأحمر مرةً أخرى؟

ترتكز الدراسة على تحليل المادة التاريخية ونقدها، وتحليل ما ورد في المصادر المختلفة من آراء، والمقارنة بينها؛ فمن خلال مقارنة مادة الدراسة وتحليلها سنلقي الضوء على جانب مهمّ من جوانب تاريخ التجارة والتجّار في هذه الفترة التاريخية التي ظلّ يكتنفها الكثير من الغموض. وتعتمد الدراسة على العديد من المصادر؛ منها سجلّات المحاكم الشرعية في مصر[7]، بخاصة منها سجلات محاكم

1 هايد، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، أحمد رضا محمد(مترجم)، عز الدين فوده(مراجع)، ج4 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994)، ص 30.

2 محمد فهمي لهيطه، **تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة** (القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، 1944)، ص 39.

3 روبرت يانج، **أساطير بيضاء، كتاب التاريخ والغرب**، أحمد محمود(مترجم)، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003)، ص 67.

4 عبد السلام عامر، **طوائف الحرف في مصر 1805 - 1914** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993)، ص 15.

5 نللي حنا، **تجار القاهرة في العصر العثماني سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار**، رؤوف عباس(مترجم)، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997)، ص 64.

6 رولان موسنييه، **تاريخ الحضارات العام القرنان 16، 17**، يوسف أسعد داغر(مترجم)، ج4 (بيروت: منشورات دار عويدات، 1994)، ص 609؛ فرناند بروديل، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية**، مصطفى ماهر(مترجم)، ج1 (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1994)، ص 293.

7 هناك دراسات عديدة حول هذه الوثائق وأهميتها في كتابة تاريخ مصر والمنطقة العربية من خلال الاعتماد عليها، راجع مثلًا: سلوى علي ميلاد، **الوثائق العثمانية دراسة أرشيفية وثائقية لسجلات محكمة الباب العالي** (الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، 2001).

القسمة العسكرية والقسمة العربية والباب العالي، والإسكندرية ورشيد، إضافةً إلى اعتماد الدراسة على العديد من المخطوطات والمصادر والحوليات العربية، من أجل كشف العديد من التطورات التي لحقت بالتجارة في البحر الأحمر إبان هذه الحقبة التاريخية.

الكارمية في نهاية الدولة المملوكية

كان التجار الكارمية[8] دعامة من الدعامات الأساسية في بناء الاقتصاد المصري والعربي خلال العصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي[9]. بيد أنّ دور هؤلاء التجار أخذ في التراجع، بعد احتكار السلاطين المماليك منذ عصر السلطان برسباي تجارة التوابل منذ عام 836هـ/1432م؛ إذ تحوّل هؤلاء التجّار في مصر إلى مندوبين للسلطان يكسبون عيشهم في ركابه بعد فرض سيادته على تجارتهم. وتدريجيًا أدّى احتكار السلاطين المماليك تجارة التوابل ورفعهم أسعارها في أوروبا في النهاية إلى تواصل البعثات الاستكشافية الأوروبية من أجل الوصول إلى منابع التوابل في الهند[10]. ومع تراجع دور التجّار الكارمية في تجارة التوابل تراجع دورهم أيضًا في تمويل تجارة التبر الوارد من تمبكتو وكانو. وكانت هذه التجارة المموّل الأوّل لتجارة التوابل؛ إذ كان الهنود يفضّلون دائمًا النقد الذهبي للتبادل التجاري. ولم تعر الإدارة السلطانية المملوكية هذه التجارة أهميتها. ما أدّى إلى توقّف وصول التبر الأفريقي. وهو ما دفع السلاطين المماليك إلى المصادرات المتتالية من أجل توفير النقد[11]. وأدّى كلّ ذلك إلى حدوث اضطراب نقدي كبير في الدولة المملوكية، فصكّ المماليك النقود من النحاس، وعادت عمليات التجارة بالمقايضة.

كان لوصول البرتغاليين إلى مشارف خليج غينيا في الساحل الغربي لأفريقيا في عام 865هـ/1460م ونجاحهم في جذب تجارة التبر la poudre d'or إليهم بما يحملون من الأقمشة والأواني النحاسية، إضافةً إلى سلع مراكش من الخيل والقمح وغيرها، أثرٌ كبير في التغيرات التي حدثت في المنطقة؛ فعن طريق ذلك استطاع البرتغاليون أن يأخذوا لأنفسهم النصيب الأكبر من كلّ المعدن الثمين الذي تنتجه مناجم غرب أفريقيا[12]. وبذلك فقد تغيّر طريق التبر الأفريقي؛ فبدل المرور ببلاد الشمال الأفريقي، اتّجه إلى المحيط الأطلسي، حيث قام البرتغاليون باستخدامه في تمويل تجارة التوابل عبر رأس الرجاء الصالح[13]. هكذا نشأت أزمة في وجود الذهب، تلتها أزمة في وصول التوابل إلى مصر أصابت كلتاهما اقتصاد الدولة المملوكية بضرباتٍ عنيفة، إن لم تكن قاضية[14]. وقد خسرت مصر منذ 904هـ/1498م موردًا من أهمّ مواردها الاقتصادية، وهي الأرباح التي كانت تجنيها من تجارة العبور. وفشل المماليك في صدّ البرتغاليين

---

8 هناك تعريفات عديدة لكلمة الكارمية، بيد أنّ جميع هذه الدراسات يُجمع على أنّ هؤلاء التجار كانوا هم التجار المتخصصون في التجارة الدولية وبصورة خاصة تجارة التوابل، ويشار إلى أنّ كلمة الكارمية لا معنى لها في اللغة العربية ويقال إنّ أصلها "الكانمي" بالنون نسبةً إلى الكانم "كانو"، وهي مدينة مهمة من مدن الذهب كان عدد من أفرادها الذين استقروا في مصر يعمل في تجارة التوابل. ويشير القلقشندي إلى أنّ هذه التسمية عرفت بهم، راجع: شوقي عبد القوي عثمان، **التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك** (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1999)، ص 45.

9 لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى مقالة: صبحي لبيب، "التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى"، **مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية**، (القاهرة)، المجلد الرابع، العدد الثاني، أيار/مايو 1952، ص 6 - 62.

10 تشير الدراسات المملوكية إلى اختفاء التجار الكارمية، فقد عمدت الدولة إلى احتكار أقسام كبيرة من النشاط مما كان يعدّ اقتصادًا خاصًا، فخلال العقود الأولى من القرن الخامس عشر اتخذت الدولة خطوات كبيرة لاستيعاب التجار استيعابًا كاملًا في الدولة ولإضعاف طبقة التجار المستقلين، وأنشأ السلطان برسباي أوّل جهاز لاحتكار تجارة الكارم بموجب أمر سلطاني صدر في عام 1428م، وأجبر الأوروبيين على شراء مقادير محددة من التوابل بأسعار محددة بواسطة وكلائه: عثمان علي محمد عطا، **الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي 648 - 923هـ/1250 - 1517م** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002)، ص 222.

11 البيومي إسماعيل الشربيني، **مصادرات الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك**، ج1 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)، ص 89.

12 مارك بلوك، **بحوث في التاريخ الاقتصادي**، توفيق إسكندر (مترجم)، (القاهرة: دار النشر للجامعات، 1961)، ص 86.

13 Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*. (Paris: Armand Colin, 1966), pp. 423, 426.

14 الشربيني، ص 91.

وتحطيم مراكزهم في الهند خلال معركة ديو البحرية في عام 915هـ/1509م. وكان ذلك بدايةً لانهيار الدولة المملوكية التي ما لبثت أن سقطت على أيدي العثمانيين في عام 923هـ/1517م.

ومنذ وصولهم إلى الهند، رأى البرتغاليون أنّ مهمتهم الأساسية تنحصر في فرض احتكارهم على تجارة التوابل. ولهذا حاولوا تدمير القوى البحرية العربية سواء المملوكية أو العثمانية في البحر الأحمر، ومن هنا إيقاف تجارة العرب البحرية وإغلاق طريق البحر الأحمر والخليج العربي التجاري مع الهند[15]. غير أنّ البرتغاليين أخذوا يستغلون الحصار البحري الذي فرضوه على البحار العربية ورفعوا أسعار التوابل في أوروبا بصورة كبيرة، بخاصة أنّ رحلتَي الذهاب إلى الهند والعودة منها كانتا مكلفتين، وكانتا تستغرقان عامًا ونصف العام، ما أدّى إلى زيادة الطلب على التوابل في الإسكندرية. وكان على التجار في مصر البحث عن طرقٍ أخرى لإخراج هذه التجارة من القبضة البرتغالية من أجل إعادة جنْي الأرباح الهائلة لتجارة التوابل، بخاصة بعد أن فتح الباب أمامهم للعمل التجاري الحر بعيدًا عن قبضة الدولة مع وصول العثمانيين إلى القاهرة[16]، وبعد الصراع الضاري بين العثمانيين والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، واستسلامهم للأمر الواقع بالسيادة البرتغالية على المحيط الهندي، والعثمانية على البحر الأحمر؛ فقد كانت تجارة التوابل تشهد نموًا كبيرًا منذ عام 948هـ/1540م، حيث تفاعلت العديد من العوامل لتعيد التجارة الدولية العابرة إلى طريق البحر الأحمر مرةً أخرى. فماهي تلك العوامل التي أدّت إلى ذلك؟

العوامل التي أدّت إلى عودة تجارة التوابل إلى البحر الأحمر

أولًا: تميز البحر الأحمر جغرافيًا مقارنةً بطريق رأس الرجاء الصالح؛ فقد كانت الرحلة للوصول إلى أوروبا عبر رأس الرجاء الصالح تستغرق عامًا ونصف العام على الأقل[17]. بيد أنّ الرحلة نفسها للوصول إلى أوروبا عبر البحر الأحمر كانت تستغرق ثلاثة أشهر. وتميّز البحر الأحمر أيضًا بالأمن النسبي خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، بعد أن تراجعت المواجهات العثمانية البرتغالية، وفرض العثمانيون سيطرتهم على شواطئه.

ثانيًا: حرية التجارة وإلغاء الدولة العثمانية الاحتكارات؛ إذ تركت للتجار حقّ ممارسة نشاطهم التجاري بصورة كاملة، فتخلّصوا من السياسة الاحتكارية المملوكية. والواقع أنّ الدولة العثمانية لم تعتن طيلة أغلب فترات حكمها باحتكار أيّ سلعة، فكان قانون العرض والطلب هو المتحكّم الأول في السوق[18]، ولم تتدخّل الإدارة السياسية إلا في حالات الأزمات الغذائية التي تؤدّي إلى أزمات سياسية، مثل غياب القمح أو السلع الضرورية[19].

وبذلك، فقد أنيط بالتجار تحريك التجارة المصرية الداخلية والخارجية مما دعم قواهم وقام بدور كبير في زيادة مواردهم. وقد دفعتهم الرغبة في تحقيق أرباح طائلة من وراء تجارة التوابل، إلى تكوين شبكات تجارية فعّالة من أجل الوصول إلى مصادر الإنتاج في الهند، على الرغم من المخاطر التي كانوا يتعرضون لها. وقد أدّى ذلك إلى ظهور نخبة تجارية أعادت الحيوية للنشاط التجاري في البحر الأحمر مرةً أخرى؛ فقد أدّى سعي هؤلاء التجار من أجل زيادة ثرواتهم وتحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، إلى قيامهم

15 هايد، ج4، ص 30.

16 حنا، **تجار القاهرة**...، ص 48.

17 يشير بروديل إلى أنّ أحد التجار الإنكليز سافر في عام 1780 من لندن ووصل في 72 يومًا إلى كلكتا في الهند: بروديل، ج3، ص 614.

18 عبد الحميد سليمان، **تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، ص 276.

19 ناصر أحمد إبراهيم، **الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر** (القاهرة: دار الآفاق العربية، 1998)، ص 35.

بمبادرات فردية لإدخال أنماط جديدة على العمل التجاري من أجل تنمية تجارة التوابل المربحة، فعملوا على السفر بأنفسهم[20]، أو عن طريق أتباعهم[21] ووكلائهم[22]. وسرعان ما أقاموا شبكات تجارية متكاملة من أجل جلب التبر الأفريقي والتوابل الهندية والحرير الفارسي والشامي والتركي، فمع منتصف القرن السادس عشر، ظهرت فئة تجارية قوية متماسكة تمتلك ثروات هائلة من خلال عملها في تجارة التوابل التي كان الطلب عليها يتزايد في الإسكندرية بصورة كبيرة[23].

وتتميز الحقبة التالية لضمّ العثمانيين مصر بعودة التجار إلى احتلال موقع الصدارة من حيث الثروة والنفوذان الاقتصادي والاجتماعي[24]. ويمكن إرجاع ذلك في الواقع إلى أمرين، أوّلهما: ما اتّسم به النشاط التجاري من حيوية بالغة خلال هذه الحقبة في حوض البحر المتوسط، حيث ساد هذه الفترة المعروفة بعصر التجاريين تطلّع الأوروبيين من الفرنسيين والبنادقة المنافسين للبرتغاليين إلى توسيع نشاطهم التجاري مع الشرق[25]. وعزّز ضمّ مصر إلى الدولة العثمانية فرص توسّع تجارتها في أرجاء الدولة العثمانية؛ فقد أدّى احتكار البرتغاليين تجارة التوابل ورفعهم أسعارها في أوروبا معتمدين على محاصرتهم السواحل العربية، إلى تزايد طلب البنادقة والفرنسيين عليها، ومن ثمّة فقد أخذ التجار في مصر يبحثون عن مخارج لعودة هذه التجارة المربحة. وثانيهما: أنّ الدولة العثمانية أسهمت بصورة غير مباشرة في زيادة أعداد التجار في القاهرة، عندما أخذت في صبغ الإدارة والقضاء في مصر بالصبغة العثمانية منذ عام 935هـ/1528م بإحلال قضاة وإداريين عثمانيين محلّ المصريين[26]؛ فقد دفع ذلك العديد من العائلات المصرية التي كانت تمتهن العمل فيهما، إلى التوجّه نحو العمل التجاري. وتمثّل حياة عائلات ابن نجيم والدميري والبساطي والسنباطي[27] والمسيري[28]، فصلًا مهمًا من هذا التحوّل. وسمح ضمّ الدولة العثمانية لعدد كبير من أقاليم المنطقة بهجرة كبيرة إلى القاهرة من أقاليم الدولة العثمانية، بوصفها أهمّ مراكز التجارة في الدولة، وتمثّل حياة عائلات أبو طاقية والذهبي وعريقات والرويعي وأمغار والشرايبي جزءًا من الاندماج في الكيان التجاري المصري[29]. هكذا أنيط بالتجار تحريك التجارة المصرية الداخلية والخارجية، ما دعم قواهم وأدى دورًا كبيرًا في زيادة مواردهم[30].

ثالثًا: الوجود العثماني في البحر الأحمر؛ فالواقع أنّ وصول حملة سليمان باشا الخادم إلى اليمن وفرض العثمانيين سيطرتهم على عدن، مكّنا العثمانيين من السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبي[31]. وعلى الرغم من أنّ سليمان باشا الخادم فشل في إقصاء

---

20 حنا، **تجار القاهرة...**، ص 137.

21 الدشت، س155، ص 702، بتاريخ 1048هـ/1638م.

22 القسمة العربية، س6، ص 204، م316، بتاريخ 987هـ/1579م.

23 تشير إلى ذلك تركات هؤلاء التجار بوضوح في سجلات المحاكم الشرعية، القسمة العربية، س1، ص441، م947، بتاريخ 970هـ/1562م؛ راجع أيضًا: رفعت موسى محمد، **الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية**، ط1 (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1993)، ص 18.

24 مثلًا يشير الغزي إلى أنّ أحمد باشا الشهير بالخاين عندما قام بتمرده ضد العثمانيين أنّه "قبض على الخواجا قاسم الشرواني والخواجا عبد الرحمن بن الجمال والخواجا ابن الصيرفي الإسكندري، وطلب من كل واحد منهم مئة ألف دينار"، نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة**، جبرائيل سليمان جبور (مترجم)، ج1 (بيروت: المطبعة الأميركانية، 1945)، ص 157.

25 موسنييه، ج4، ص 609.

26 سليمان، ص 86.

27 الصالحية النجمية، س464، ص 267، م779، بتاريخ 991هـ/1583م.

28 مثال ذلك عائلات البرديني والوقاد والبساطي، ففي عام 930هـ/1523م كان قاضي القضاة الشافعي هو الشيخ شرف الدين البرديني، والقاضي المالكي كان بدر الدين الوقاد، راجع: الغزي، ص 157.

29 حسام محمد عبد المعطي، **العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008)، ص 91.

30 حنا، **تجار القاهرة...**، ص 136.

31 محمد نصر الدين محمد إبراهيم عثمان، "السياسة العثمانية في جنوب البحر الأحمر وساحل الصومال (1538-1578)"، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1994، ص 188.

البرتغاليين عن مراكزهم في الهند، فإنّ استيلاءه على عدن سمح للسفن والشبكات التجارية للتجار العرب بالعمل بصورة أكثر فاعلية؛ فقد نجح في الاستيلاء على جزيرة قمران في مدخل باب المندب. ونجح في تحصينها بإنزال بعض المدافع الكبيرة إليها[32]. وسمح ذلك للسفن العمانية والهندية واليمنية بالعمل بصورة أفضل في نقل التوابل[33]. وأدّى وصول العثمانيين إلى مياه البحر الأحمر إلى التحسّن في نوعية السفن[34] المستخدمة في البحر الأحمر تحسّنًا كبيرًا[35]. ويرجع ذلك إلى غنى غابات الأناضول بالأخشاب؛ فمع وصول العثمانيين إلى البحر الأحمر، أنشأوا ترسانة بحرية في السويس، وقاموا بنقل أعداد كبيرة من البحّارة وصنّاع السفن من الإسكندرية ورشيد[36] وبولاق إلى ميناء السويس. وقد أدّى ذلك إلى انتعاشٍ كبير في السويس؛ إذ جرى نقل كميات كبيرة من الأخشاب إلى بولاق حيث جرى نقلها على ظهور الجمال إلى السويس. وهناك جرى تصنيع سبعين سفينة مسمارية كانت هي السفن التي استخدمها سليمان باشا في حملته إلى الهند. ومع استخدام السفن المسمارية أصبحت السفن تعمل بالأشرعة والمجاديف، كما جرى تزويد هذه السفن بالمدفعية.

ومع إعمار السويس، جرى نقل النشاط التجاري إليها[37] بدلاً عن الطور. وقد أصبح هؤلاء البحّارة أو النواخيذ[38] يعملون في التجارة إلى جانب عملهم بحّارة بين الموانئ اليمنية والحجازية والسويس[39]. وتشير الوثائق إلى أنّه منذ عام 947هـ/1540م، كان هناك ارتفاع كبير ومتتالٍ في كميات التوابل الوافدة من الهند من خلال هؤلاء البحّارة. وتشير المصادر إلى أنّ بعض البشوات الذين تولّوا حكم اليمن حاول احتكار تجارة البهار[40] الوارد من الهند. ويقول الإسحاقي في ذلك: "وتوجّه إلى باشاوية اليمن، ولمّا تمكن منها احتكر البهار

32 فاروق عثمان أباظة، **أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر** (القاهرة: دار المعارف، 1985)، ص 127.

33 تشير هذه الوثيقة مثلًا إلى وجود إدارة جمركية في جزيرة كمران، حيث كان يجري تحصيل الرسوم الجمركية عن السلع والبضائع الوافدة من الهند: دشت، س155، ص 702، بتاريخ 1048هـ/1638م.

34 تشكّل الأسطول المملوكي في البحر الأحمر في الأساس من سفن الداوات ومفردها داوة وغيرها من السفن الهندية، فقد أدى عدم وجود غابات خشبية في مصر والمنطقة العربية إلى الاعتماد أساسًا على شراء السفن الهندية، ولم يكن في الإمكان في ذلك الوقت أن تحمّل هذه السفن بالمدفعية الثقيلة، إذ كانت هذه السفن تخاط بخيوط ليف النارجيل، وعلى الرغم من كلّ ما يمكن أن يقال عن أهمية هذه السفن فهي لم تكن مجهزة للمعارك الحربية، إذ كانت مخصصة للرحلات التجارية حيث كانت تسود روح المودة والتعاون داخل المحيط الهندي قبل وصول البرتغاليين، شوقي عبد القوي عثمان، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية 41 - 904هـ/661 - 1498م**، سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990)، ص 89.

35 منذ وصولهم إلى الهند، حرص البرتغاليون على عدم بيع الهنود أيّ سفن للموانئ العربية التي كانت في مجملها لا تمتلك الموارد الخشبية من أجل بناء السفن، إذ تفتقد المنطقة العربية الموارد الخشبية من الغابات، ولعل ذلك هو الذي دفع المماليك إلى طلب المساعدة من العثمانيين في عام 1509.

36 ويجب أن نشير إلى أنّ العثمانيين قاموا بتغييرات مهمة في شكل الملاحة النهرية في مصر، فخلال العصر المملوكي كانت فوه هي المركز الأساسي لحركة التجارة مع الإسكندرية، بيد أنّ حركة التجارة تغيّرت لتصبح رشيد هي الميناء الأساسي لإمداد الإسكندرية ويبدو أنّ ذلك قد أثّر بالإيجاب في حركة التجارة والنقل، إلهام محمد علي ذهني، **مصر في كتابات الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر** (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1991)، ص 116.

37 وعلى الرغم من ذلك ظلت بعض السفن التجارية تتخذ من الطور ميناءً لها حتى بداية السبعينيات من القرن السادس عشر، فمثلًا وصل للخواجا محمد بن قاسم الشهير بابن الحلبي إلى ميناء الطور كميات كبيرة من النيلة الهندي والزنجبيل والفلفل والكودة، القسمة العربية، س1، ص 12، م16، بتاريخ 970هـ/ 1562م؛ عبد القادر بن محمد الجزيري، **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، محمد حسن محمد حسن إسماعيل(محقق)، (بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، 2002)، ص 623.

38 ناخوذه وجمعها نواخيذ هي كلمة أعجمية تتكون من مقطعين هما "نا" وتعني السفينة، و"خوذه" وتعني صاحب، فتصبح الكلمة تعني صاحب السفينة،، وقد استخدمت هذه الكلمة في مصر للإشارة إلى أصحاب السفن في البحر الأحمر قادة السفن والقباطين العاملين بين السويس وجدة وعدن، أحمد السعيد سليمان، **تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل** (القاهرة: دار المعارف، 1960)، ص 183.

39 توجد أمثلة وثائقية عديدة تشير إلى ذلك، فمثلًا في عام 1013هـ/1604م توفي محمد بن نوار السكندري "من أرباب الريس بالسويس بلوك 32 علوفته 9، وكان من المخلف عنه 18 قنطار فلفل، و12 قنطار بن، وكميات كبيرة من الأقمشة والنقود، ما يوضح تحوّل هؤلاء البحارة إلى تجار وهو ما سيؤدي مع مرور الوقت إلى حلول لقب النوخذة محل لقب الخواجا عند منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، القسمة العسكرية، س25، 37، م694، بتاريخ 1013هـ/1604م؛ س34، ص 52، م66، بتاريخ 1038هـ/1628م.

40 كان ديوان أو قلم البهار هو المكتب (القلم) المختص بتحصيل الضرائب الجمركية في ميناء السويس، نظرًا لأنّ البهار كان العنصر الأساسي المستورد إلى السويس ومثّل الغالبية العظمى من الجمارك المحصّلة في هذا الجمرك، راجع: ليلى عبد اللطيف أحمد، **دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام في العصر العثماني** (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980)، ص 23.

والبن والبضائع وكان التجار لا يأخذون إلا ما فضل منه"[41]. مما يبرز تزايد أهمية التوابل بصورة كبيرة في تجارة البحر الأحمر، وكانت سفينة حربية عثمانية على الأقل ترافقها العديد من سفن التجار تتحرّك من السويس في اتجاه عدن كلّ عام. وتعود محمَّلة بالبضائع الهندية واليمنية والحبشية. لقد استفادت مصر بصورة كبيرة من وصول العثمانيين إلى البحر الأحمر؛ إذ سمح لها ذلك بامتلاك أسطول بحري قويّ يحمل المدفعية، ما جعل البرتغاليين يتراجعون عن المغامرة بمهاجمة البحر الأحمر. وهو ما سمح بعودة وصول التجار بصورة كبيرة من جديد إلى عدن وجدة.

رابعًا: نجاح تجار القاهرة في استعادة جزء كبير من تجارة التبر الأفريقي؛ ففي الواقع، للوهلة الأولى، تبدو التجارة بين مصر والهند تجارة مباشرة وبسيطة، فمصر تصدّر بعض السلع إلى الهند وتجلب بدلًا منها التوابل. ولكن المدقق في الأوضاع التجارية يجد أنّ الموضوع أعقد من ذلك بكثير؛ ففي ذلك الحين لم تكن الهند ولا حتى الصين ترغبان في سلعٍ أو بضائعَ من مصر أو الدولة العثمانية، ولا حتى من أوروبا. ولم تكن تقبل بديلًا للتوابل إلّا الذهب، وحتى الفضة لم تكن مقبولة إلا على مضض[42]. وعليه، فقد حتّم ذلك على تجار القاهرة العمل على استعادة تجارة التبر الأفريقي؛ وذلك لسببين، الأول: إدراكهم أهمية الذهب في تمويل شراء التوابل من الهند. والثاني: أنّ المستوردين الأوروبيين (البنادقة، والفرنسيين) والعثمانيين أيضًا لم يكن في إمكانهم توفير الذهب الذي لا يقبل الهنود غيره بدلًا لتصدير التوابل، وكان على المستوردين الأوروبيين البحث عن منتجات بديلة للذهب تجد إقبالًا من الهنود، من أجل استمرار دورهم التجاري في التجارة الشرقية.

هكذا وقع على تجار القاهرة عبء إعادة الذهب الأفريقي الذي سلبه البرتغاليون بعد وصولهم إلى خليج غينيا. وليس ثمة شك في أنّ الشبكات التجارية التي كوّنها هؤلاء التجار هي التي ساعدت على اجتياز أزمة النقود وتوفير الذهب للخزانة المصرية؛ إذ عمل التجار على تمويل هذه التجارة بانتظام. وعملوا أيضًا على تطوير آلياتها؛ فعدلوا المنسوجات المصدرة إلى هذه المناطق حتى تتلاءم مع ذوق أهالي هذه المنطقة؛ فقد كانت تصنع لهم ملابس خاصة عُرفت بـ"التكرورية"[43]، كان يجري تصنيعها من الكتّان ورسم أشكال عليها بالخيوط الحريرية. وأصبحت منفلوط وأسيوط وحي طولون في القاهرة مناطقَ رئيسة لإنتاج هذه المنسوجات لتصديرها إلى كانو وتمبكتو[44]. وكانوا يجلبون لهذه التجارة الخيول التي أُعدّت خصيصًا لذلك في الفيوم[45]. وكان يرسل من مصر بعض السلع الغذائية كالسكر والأرز[46]، إذ كان السكر المصري يجد إقبالًا كبيرًا في بلاد التكرور حيث كان يقدّم بوصفه نوعًا من الهدايا إلى العظماء والنساء. ولذلك فقد كان يباع بأضعاف ثمنه[47].

واستوردوا لهذه التجارة كلّ ما كانت تحتاج إليه من بضائع من فارس والأناضول وأوروبا؛ فقام تجار القاهرة باستيراد الحرير والكودة واللؤلؤ من فارس وبغداد[48]. واستوردوا من إسطنبول المسك والأقمشة الصوفية (رومية) والنحاس والأواني النحاسية التي

41 محمد عبد المعطي الإسحاقي، **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، ط1 (القاهرة: المطبعة العثمانية، 1304هـ)، ص 183.

42 محكمة الإسكندرية الشرعية، س11، ص 315، م1272، بتاريخ 978هـ/1570م.

43 كارستن نيبور، **رحلة إلى بلاد العرب وما حولها (1761/1767)**، مصطفى ماهر (مترجم)، ج1 (القاهرة: المطبعة العالمية، 1977)، ص 261.

44 محكمة طولون الشرعية، س162، ص 21، م130، بتاريخ 944هـ/1533م.

45 طولون، س 178، ص 281، م 1090، بتاريخ 991هـ/1583م.

46 الباب العالي، س17، ص 433، م1177، بتاريخ 966هـ/1558م.

47 علي محمود، ص 91.

48 القسمة العسكرية، س64، ص 202، دون رقم، بتاريخ 1070هـ/1659م.

كانت مطلبًا قويًا في هذه المناطق[49]. واستوردوا من أوروبا الأسلحة والمنتجات الزجاجية من الخرز والمرايا والسكاكين إضافةً إلى النحاس أيضًا[50]. وكانت الكتب والمخطوطات الدينية والفقهية، وأجزاء القرآن الكريم محلّ طلب كبير في هذه المناطق التي أخذ الإسلام ينتشر فيها[51]. وبذلك فقد كان تجار القاهرة يرسلون من مصر الأقمشة الكتانية والأواني النحاسية والسيوف والخرز والكوده والأدوات الزجاجية والخيل والحرير والأثواب المخيطة خصيصًا لأهالي (التكرور) فهذه البضائع منقولة حرفيًا عن قائمة بضائع شحنها التاجر علي بن يوسف بن سلطان من القاهرة إلى كانو؛ من أجل جلب التبر في عام 970هـ/1562م[52].

ومنذ الربع الثاني من القرن السادس عشر، ساعدت هذه الشبكات التجارية وزيادة الطلب على الذهب في عودة وصول الذهب الأفريقي إلى شرايين مصر، ومن ثمة الدولة العثمانية مرةً أخرى، فمن دون تمويل هذه التجارة مسبقًا من القاهرة لم تكن لتصل الكميات المطلوبة للوفاء باحتياجات مصر وإسطنبول من الذهب[53]. لذلك فقد موّل كبار تجار القاهرة جماعات التجار الذين يعملون على خطوط التجارة مع كانو وتمبكتو[54]، وأكدر بالبضائع والسلع لجلب التبر[55]؛ فتشير الوثائق إلى قيام الخواجا سعيد بن قاسم بن أمغار الشهير بابن أيوب بتمويل سفر زكريا بن محمد الدمسيطي من أجل جلب 1032 مثقالًا من الذهب[56]. وعند وفاة الخواجا يحيى بن عمر الجمال شاه بندر تجار القاهرة في عام 976هـ/1568م كان له بذمّة تاجر واحد فقط هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد المسراتي، 2337 مثقالًا من تراب الذهب تسلّمها ورثته[57]. ويشير الجزيري إلى أنّه عند وفاة حاكم كجرات بهادر خان في عام 943هـ/1536م، كان له في جدة 25 قنطارًا من الذهب[58].

خامسًا: نجاح التجار الأوروبيين سواء البنادقة أو الفرنسيين في أن يوفروا بضائع وسلعًا تجد قبولًا لتمويل جلب التوابل أو الذهب[59]؛ فقد كان على الشركاء الأوروبيين في التجارة من البنادقة والفرنسيين أن يبحثوا عن سلعٍ أخرى يمكن عن طريقها تمويل تجارتهم مع مصر. وقد وجد التجار الأوروبيون ضالّتهم في سلعتين كانت إحداهما تتّجه إلى الهند[60] حيث تجد إقبالًا كبيرًا من الهنود وهي المرجان؛ فقد كانت مغاصات استخراجه منتشرة في بلدان البحر المتوسط منذ القدم، حيث أسهمت العلاقات الجيدة بين الدولة العثمانية وفرنسا

49 الباب العالي، س21، ص 29، م 75، بتاريخ 970هـ/1562م؛ جيرار، **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، زهير الشايب(مترجم)، "وصف مصر"، ط1 (القاهرة: الخانجي، 1984)، ج4، ص 322.

50 أشتور، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى**، عبد الهادي عبلة(مترجم)، أحمد غسان سبانو(مراجع)، (بيروت: دار قتيبة، 1985)، ص 389؛ القسمة العسكرية، س1، ص 161، م355، بتاريخ 969هـ/1561م.

51 محكمة طولون الشرعية، س162، ص 21، م130، بتاريخ 944هـ/1533م.

52 الباب العالي، س 21، ص 274، م 769، بتاريخ 970هـ/1562م.

53 يقول ليون الأفريقي Africanus Leo عند وصفه مملكة غاو "ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر وأوروبا، لكنهم لا يجدون أبدًا ما يكفي منها لإنفاق ذهبهم، فيعودون دائمًا إلى بلادهم بنصفه أو ثلثه. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف أفريقيا**، عبد الرحمن حميدة(مترجم)، (القاهرة: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005)، ص 543.

54 الباب العالي، س33، ص 287، م1170، بتاريخ 972هـ/1564م.

55 الباب العالي، س21، ص 29، م 75، بتاريخ 970هـ/1562م.

56 القسمة العربية، س7، ص 100، م220، بتاريخ 967هـ/1559م.

57 القسمة العربية، س7، ص 7، م17، بتاريخ 976هـ/1568م.

58 عبد القادر بن محمد الجزيري، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، محمد حسن محمد حسن إسماعيل(محقق)، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، ج1، ص 525.

59 الإسكندرية الشرعية، س11، ص 315، م1272، بتاريخ 978هـ/1570م.

60 كانت السلعة الثانية هي الخرز أو المشغولات الزجاجية من الكريستال، وكانت تأتي من ألمانيا أساسًا عن طريق البندقية، وكان يجري إعادة تصدير جزء منه في اتجاه التكرور حيث يجري به تمويل عمليات جلب الذهب، وجزء آخر في اتجاه جدة.

خلال حكم السلطان سليمان القانوني في توقيع اتفاقية تجارية مهمة بين الدولتين في عام942هـ/ 1535م حصلت بموجبها فرنسا على حقّ التجارة في الموانئ العثمانية بحرّية كبيرة، وسمحت لهم باصطياد المرجان في شمال تونس[61]. وقد أتاح ذلك فرصة جيدة للفرنسيين الذين تزايد وجودهم التجاري في الإسكندرية؛ إذ سمح لهم وجود المرجان بالحصول على كميات كبيرة من التوابل. وكان معروفًا لدى تجار القاهرة أنّ المرجان سلعة يمكن تصديرها دون خوف إلى الهند وحتى وسط أفريقيا[62].

ولم يكن المرجان فقط هو ما حاول الأوروبيون توفيره من أجل شراء التوابل؛ فقد كانت المشغولات الزجاجية (الخرز) والكريستال تجد سوقًا مهمة في مصر. وكانت هذه المشغولات الزجاجية والكريستال تورّد من النمسا وألمانيا. وكانت تجد إقبالًا كبيرًا سواء في وسط أفريقيا أو الحجاز. وقبل عام 998هـ/1589م كانت الكميات التي ترد منه قليلة الأهمية في هذه التجارة. ولكن في أعقاب هذا العام ارتفع الوارد من الخرز والمشغولات الزجاجية إلى 200 صندوق كبير في كلّ عام. وهو ما دفع السلطات الجمركية في الإسكندرية إلى فرض ضرائب 10% على الكميات الواردة منه إلى الإسكندرية؛ إذ كان تجار مصر يصدّرون ما لا يقلّ عن مئة وخمسين صندوقًا منها إليهم من أجل جلب التبر (كانت مصر تستخدم أيضًا أصداف البحر والشعاب المرجانية في هذه التجارة)، فمثلًا في عام 972هـ/1564م، دفع الخواجا عمر بن يحيى الجمال 428 شدة من الخرز في مقابل جلب 131مثقالًا من تراب الذهب[63]، وفي العام نفسه كان وكيله في الإسكندرية يبيع 200 قنطار من الفلفل الأسود إلى جوان تيمودا أخ القنصل البندقي في الإسكندرية في مقابل 2425 رطلًا من المرجان[64]. وكان التجار الأوروبيون يصدّرون إلى مصر الزئبق والجوخ وأقمشة حريرية أو أيّ معادن أخرى سواء النحاس[65] أو الحديد في مقابل التوابل. وتشير الوثائق إلى الدور الكبير للتجار الفرنسيين في هذه التجارة من خلال اعتراض القنصل الفرنسي في الإسكندرية على زيادة أجرة حزامي البهار في الثغر، مما يوضح ضلوعهم في هذه التجارة بصورة كبيرة[66].

ولا يمكننا إغفال تزايد وصول الفضة إلى شرق البحر المتوسط بصورة كبيرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، فلا شك في أنّ وصول فضة العالم الجديد إلى شرق البحر المتوسط قد أحدث سيولة مالية كبيرة في حركة التجارة بين الموانئ الأوروبية والعثمانية كلّها وبخاصة المصرية، فقد أدّى ذلك إلى تزايد الطلب على سلع الرفاهية سواء التوابل أو البنّ أو السكر أو التبغ[67]. هكذا فقد عمل جميع عملاء تجارة التوابل القدماء على السعي إلى استعادة دورهم الذي فقدوه مع الوصول البرتغالي إلى رأس الرجاء الصالح، وعمل العثمانيون والبنادقة والفرنسيون على التعاون من أجل مصالحهم لاستمرار تجارة التوابل عبر الإسكندرية.

سادسًا: تراجع قدرة البرتغاليين في السيطرة على المنافذ البحرية. لقد حاول البرتغاليون بكلّ ما يملكون من قوة عسكرية وسياسية أن يحتكروا تجارة التوابل ويمنعوا وصولها إلى البحر الأحمر. وقد قلّل هذا النجاح الضعف العددي للقوى العسكرية البرتغالية الموجودة في الهند، تزامنًا مع الوصول العثماني إلى اليمن مما عزّز قوة المسلمين في المحيط الهندي وأشعر البرتغاليين بالخطر. كما أنّ إغلاق البحر

61 مشيل تشرير، "مرسوم تجديد امتيازات طائفة الفرنج الفرانسة والكتيلان في الإسكندرية سنة 935هـ/1528م"، **مجلة الروزنامة**، العدد 10، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة، 2013)، ص 65.

62 إسكندرية الشرعية، س27، ص 252، م780، بتاريخ 993هـ/1585م.

63 الباب العالي، س33، ص 287، م1170، بتاريخ 972هـ/1564م.

64 إسكندرية الشرعية، س49، ص 310، م800، بتاريخ 972هـ/1564م.

65 للمزيد عن أهمية النحاس يمكن مراجعة: حسام محمد عبد المعطي، "أثر النحاس في تطور الصناعات الحرفية في مصر خلال العصر العثماني"، في: **جدل الموضوعية والذاتية في كتابة تاريخ مصر**، ناصر أحمد إبراهيم(محرر)، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012)، ص 219.

66 تشير الوثائق إلى طائفة حزم البهار بالثغر، حيث كان هؤلاء يقومون بإعداد البهار وتغليفه من أجل شحنة في بالات من الخيش وسعف النخيل، إسكندرية الشرعية، س29، ص 412، م1192، بتاريخ 1000هـ/1591م.

67 بروديل، ج1، ص 294.

الأحمر أمام رحلات المسلمين من الهنود لأداء الحج، كان مسألة صعبة للغاية، وكان الحج فرصة طيبة للتجارة؛ فقد حرص كلّ حاج من الهنود على التزوّد بكميات من التوابل والأقمشة الهندية ما يسمح لهم بتحقيق تغطية نفقات رحلتهم[68]. وتشير المصادر المحلية في مصر إلى وصول عدد من تجار الهند إلى مصر؛ فتشير الوثائق إلى علام بن عبد الله الهندي؛ إذ كان من أهمّ ما خلفه الفلفل والنيلة الهندية[69]. وتشير الوثائق أيضًا إلى "الخواجا جعفر بن إبراهيم بن الحسين المدني عين أعيان التجار ببندر سورات من بنادر الهند"، فقد كان وصيًا على تركة تاجر كبير آخر هو محمد بقي بن محمد صالح بن السيد بقي الحسيني النيسابوري. وكان محمد بقي يعمل في التجارة بين الهند والحجاز ومصر[70].

والحقيقة أنّ البرتغاليين المقيمين في الهند وجدوا أنفسهم بمعزل عن تجارة ضخمة في المحيط الهندي، في وقت يعملون هم فيه بوصفهم قراصنة، على إعاقة هذه التجارة. وأدركوا أنّ اندماجهم وعملهم في هذه التجارة سيعود عليهم بأرباح أكبر من التجارة مع أوروبا عبر رأس الرجاء الصالح. لذلك، فقد أخذوا في الاندماج في هذه التجارة والعمل في نقل البضائع والتوابل بين الصين والهند. ثم سرعان ما سمحوا بمرور التوابل عبر البحر الأحمر مقابل تحصيل عوائد لفائدتهم دون ملكهم الموجود في لشبونة. وبذلك قرروا أن يندمجوا في هذه التجارة المربحة. ولا شكّ في أنّ ذلك وصل إلى القمة منذ عام 980هـ/1572م في أعقاب استيلاء إسبانيا على البرتغال، مما جعلهم يندمجون بصورة أكبر في تجارة المحيط الهندي؛ فأصبحت تجارتهم بين البلدان الآسيوية تحقق لهم أرباحًا تصل إلى 80% من حجم تجارتهم. بينما نجد أنّ 20% فقط هي التي حصلوا عليها من تجارتهم عبر رأس الرجاء الصالح[71]. لذلك فقد انهمكوا في العمل في التجارة بين البلدان الآسيوية والبحر الأحمر.

عودة التوابل إلى عرشها

هكذا شهد النصف الثاني من القرن السادس عشر استعادة القاهرة والإسكندرية دورهما الأساسي لتزويد أوروبا بالتوابل، بعد أن استطاع تجار القاهرة توفير الذهب والمرجان لتمويل هذه التجارة المربحة. وتشير دراسة فريدريك لين Fredrik Laneإلى مدى تزايد قلق البرتغاليين من الوجود العسكري العثماني، وتزايد حجم تجارة التوابل عبر البحر الأحمر؛ فيشير لين إلى أنّ الإسكندرية تلقّت 40.000 قنطار من التوابل يكون الفلفل الجزء الرئيس منها في عام 968هـ/1560م. وأكّد مدى ما أصبحت تمثّله تجارة البحر الأحمر في التوابل من التحدي الكبير للتجارة البرتغالية في أوروبا. وفي عام 972هـ/1564م قدّرت كميات التوابل الواردة إلى جدة بـ 30.000 قنطار. بيد أنّه في عام 974هـ/1566م وصلت ثماني سفن فقط إلى جدة من الهند. وكانت حمولتها 24.000 قنطار من التوابل. إنّ هذه الأرقام التي يقدّمها لين تدلّ على أهمية كميات التوابل الواردة إلى الإسكندرية. ويذكر لين أنّ كميات التوابل الواردة إلى الإسكندرية خلال القرن السادس عشر كانت أكبر مما كانت عليه خلال العصر المملوكي، وقبل وصول البرتغاليين إلى الهند[72]. ويرجع ذلك في الواقع إلى تزايد الطلب على التوابل، وبخاصة الفلفل الأسود، نتيجة لارتفاع مستوى المعيشة في أوروبا، بعد توافد الفضة من العالم الجديد. وإضافةً إلى ذلك، يجب

68 تشير المصادر الهندية إلى أنّ السلطات المغولية خلال فترة حكم السلطان جلال الدين محمد أكبر (963 - 1014هـ/ 1556 - 1605م) نجحت في عقد معاهدة مع البرتغاليين سمحت للحجاج المسلمين بالحج من ميناء سورات في كلّ عام دون مهاجمة منهم، أحمد زين الدين المعبري المليباري(ت 991هـ)، **تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين**، محمد سعيد الطريحي(مقدم ومحقق)، (بيروت: مؤسسة الوفاء، 1985)، ص 297.

69 القسمة العربية، س6، ص 204، م316، بتاريخ 987هـ/1579م.

70 الدشت، سجل 139، ص 79، بتاريخ 1029هـ/1619م.

71 فرانك، ص 275.

72 Fredrik G. Lane, "Notes and suggestions, The Mediterranean spice trade", *American historical review*, Vol. Xl April, 1973, pp. 589, 588.

أن نشير إلى الدور الكبير للتجار الفرنسيين في تجارة التوابل؛ فقد استورد تجار مرسيليا التوابل من الإسكندرية. وكانت سفنهم تعود مليئة بالتوابل من الإسكندرية. وقد أبرز فرناند بروديل Fernand Braudel آلاف الوثائق الفرنسية التي أثبتت على نحوٍ قاطع أنّ طريق التوابل عبر البحر الأحمر قد عاد إلى كامل نشاطه في الفترة الواقعة بين السنوات 957 - 978هـ/1550 - 1570م. وبدأت أوروبا الغربية بأسرها باستثناء إسبانيا والبرتغال ومقاطعات فرنسا الأطلسية، من جديد تتزود بالبهارات من الإسكندرية[73]. وبحلول عام 993هـ/1585م، أصبح ما ينقل عبر البحر الأحمر ثلاثة أضعاف ما يُنقل عبر رأس الرجاء الصالح.

أمّا المصادر والوثائق المصرية، ففيها مشكلة أساسية تعرقل تقديم بيانات إجمالية عن كميات التوابل الواردة إلى مصر من الهند عبر ميناء الطور ثم السويس. هذه المشكلة هي فقدان أوراق ديوان البهار وسجلاته التي كان من الممكن أن تقدّم لنا صورة إجمالية أكثر وضوحًا عن كميات التوابل الواردة إلى مصر في كلّ عام. وما زاد المشكلة صعوبةً فقدان سجلات المحكمة الشرعية في السويس أيضًا في ظروفٍ غامضة أثناء الحصار الإسرائيلي للسويس في عام 1393هـ/1973م. وعلى الرغم من أنّ محكمة الإسكندرية الشرعية، وبعض محاكم القاهرة قد سدّت جزءًا من الثغرة التي فتحت بغياب هذه الأوراق الوثائقية المهمة، فدائمًا نقول ونؤكّد أنّ هذه الصفقات التي جرى ذكرها في المحاكم هي الصفقات التي كانت تحتاج إلى اللجوء إلى القضاء؛ بمعنى أنّ هذه الصفقات كانت تجري إمّا بالائتمان (الأجل) أو لمشكلة ما على هذه الصفقات. بينما لم تكن الصفقات التي تجري بالدفع المباشر، وهي بالطبع تمثّل الجزء الأكبر من العمل التجاري، تحتاج إلى التسجيل في سجلات المحاكم. ولكن هذه الصفقات كانت تسجّل في سجلات القبانية (الوزانين) في كلّ سوق حيث يتمكّن القضاء من اللجوء إليها عند الحاجة إلى ذلك.

وتشير الوثائق المحلية إلى أنّ عام 980هـ/1572م قد شهد تغيّرًا كبيرًا في حجم الواردات والصادرات من التوابل؛ فقد تزايدت كميات التوابل بصورة كبيرة. وتشير سجلات المحاكم إلى عددٍ هائل من الحجج المتعلقة ببيع الفلفل والقرفة وجوز الطيب والنيلة وغيرها[74]؛ فمثلًا في عام 981هـ/1573م توفي الخواجا علي القواهري، ولم يكن قد سلّم بعد إحدى الصفقات إلى أحد التجار البنادقة في الإسكندرية، فقام هذا التاجر بتوكيل القنصل البندقي في القاهرة من أجل أن يتسلم ما له بذمة القواهري؛ إذ تقدّم القنصل إلى المحكمة لتسلّم هذه الصفقة من التوابل، وكانت على النحو التالي: 495 قنطارًا من الفلفل، و32 قنطارًا من القرفة، و74 قنطارًا من جوزة الهند، و12 قنطارًا من القرنفل، و119 قنطارًا من الزنجبيل، و52 قنطارًا من اللبان، و110 قناطير من النيلة الهندي[75]. ويُبرز ذلك في الواقع تزايد حجم تجارة التوابل بصورة كبيرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. ويكفي أن نشير إلى أنّ الخواجا عبد العزيز بن يحيى الشهير بالفهمي في عام 982هـ/1574م، والذي كانت تطلق عليه الوثائق عين أعيان التجار الكارمية، بلغت تركته 100314 دينارًا، عندما توفي. وكانت له شركة واحدة مع الخواجا سعيد بن قاسم أمغار الشهير بابن أيوب متخصصة في الأساس في جلب التوابل من الهند برأس مال يبلغ 50 ألف دينار، لكلّ واحد منهما النصف[76]. ولأنّ هذه التجارة كانت تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة، فقد تكوّنت شركات تجارية كبيرة بين التجار، من أجل تقليل المخاطر، ومن أجل استثمارات متعددة؛ فمثلًا تكوّنت شركة بين الخواجا محمد بن يغمور والخواجا عامر جعفر برأس مال قدره 30000 دينار كان لكلّ منهما النصف. وكان يجري حسابها الختامي في كلّ عام. ويجري خصم الأرباح من ذلك[77].

---

73 Braudel, pp. 424 - 428.

74 إسكندرية الشرعية، س43، ص 9، م21، بتاريخ 1018هـ/1609م.

75 الباب العالي، س34، ص 219، م1162، بتاريخ 981هـ/ 1573م.

76 القسمة العربية، س6، ص 92، م153، بتاريخ 982هـ/1574م.

77 الباب العالي، س79، ص 258، م1146، بتاريخ 1011هـ/1602م.

وقد وقع على الإسكندرية[78] دور تزويد إسطنبول[79] والأناضول[80] والمغرب العربي بالتوابل. وتشير الوثائق إلى أنّ جزءًا مهمًا من التوابل كان يجري إرساله إلى تونس[81]. وقد تمكّن الباحث من متابعة بعض الصفقات التي عقدها أحد التجار العاملين في تجارة التوابل، وهو الخواجا سعيد بن قاسم بن أمغار خلال سنتي 977هـ/1569م، و979هـ/1571م. ويمكن توضيحها في الجدول(1):

الجدول(1)

التاريخ	اسم المشتري	اسم البائع	الكمية بالقنطار/ والنوع	الثمن بالدينار
14 ربيع الأول 977هـ / 1569م	شركة بين الخواجا سعيد أمغار والخواجا عبد الرحمن الفهمي	الخواجا يحيى بن عبد الحق السنباطي	131 قنطارًا/ فلفل	2096 دينارًا
2 رمضان 977هـ / 1569م	الخواجا سعيد بن محمد الحضري	الخواجا سعيد بن أمغار	350 قنطارًا/ فلفل	5600 دينار
16 محرم 977هـ / 1569م	الخواجا علاء الدين بن بدر الدين الجمال	الخواجا سعيد بن أمغار	89 قنطارًا/ فلفل	1790 دينارًا
ذو الحجة 977هـ / 1569م	المعلم موسى بن يعقوب بن موسى اليهودي الريان	الخواجا سعيد أمغار	128 قنطارًا/ زنجبيل 6 قناطير/ قرنفل 86 قنطارًا/ فلفل	3346 دينارًا
979هـ / 1571م	الخواجا علاء الدين بن بدر الدين الجمال	الخواجا سعيد أمغار	100 قنطار/ فلفل	1475 دينارًا
979هـ / 1571م	الخواجا سعيد بن محمد الحضري	الخواجا سعيد أمغار	16 قنطارًا/ زنجبيل 110 قناطير/ فلفل	1518 دينارًا
979هـ / 1571م	الخواجا بهاء الدين عبد العزيز الديربي	الخواجا سعيد أمغار	89 قنطارًا/ فلفل	1790 دينارًا
979هـ/1571م	الخواجا سعيد أمغار	المعلم باولو ميونشيني الفرنسي	1093 قنطارًا/ فلفل	21980 دينارًا
979هـ/ 1571م	ميخائيل النصرانى البندقي وجبران فرانسيس	الخواجا سعيد أمغار والخواجا عبد الرحمن الفهمي	355 قنطارًا/ فلفل 200 قنطار/ لوبان	9939 دينارًا
979هـ/1571م	الخواجا سعيد أمغار	مصطفى بن عبد الله الرومي	54 قنطارًا/ فلفل	857 دينارًا
17 ذو القعدة 979هـ/1571م	المعلم شموال بن يوسف اليهودي الشهير بكوهان	الخواجا سعيد أمغار	319 قنطارًا/ فلفل	5480 دينارًا
5 ذو الحجة 979هـ/1571م	الخواجا سعيد أمغار	الخواجا محمد بن عثمان الدنجيهي	جوز الطيب "دون ذكر الكمية"	4000 دينار
ذو الحجة 979هـ /1571م	محمد بن حسن الغزاوي الشهير بالرملي	الخواجا سعيد أمغار	283 قنطارًا/ فلفل	5670 دينارًا

من إعداد الباحث من خلال سجلات المحاكم الشرعية، وإسكندرية الشرعية، والقسمة العربية، والصالحية النجمية.

78 إسكندرية الشرعية، س8، ص 226، م643، بتاريخ 973هـ/ 1565م.
79 إسكندرية الشرعية، س33، ص 187، م378، بتاريخ 980هـ/1572م.
80 الصالحية النجمية، س478، ص 120، م481، بتاريخ 1015هـ/1606م.
81 إسكندرية الشرعية، س26، ص 72، م223، بتاريخ 997هـ/1588م.

وهكذا يوضح الجدول(1) الدور الكبير الذي قام به هؤلاء التجار في تجارة التوابل. أمّا عن أسباب اختلاف أسعار الفلفل في الجدول، فترجع إلى أنّ الفلفل كان نوعين: خوري، وأشي. وكان الأول أفضل من الثاني؛ إذ كان فارق السعر بينهما يصل إلى حوالى 15% لفائدة الخوري[82]. هكذا عادت التوابل إلى طريق البحر الأحمر بصورة أساسية، ونتج من ذلك تكوّن نخبة تجارية بارزة نجحت في تكوين ثروة كبيرة[83]. وتشير الألقاب التي أصبح يحوزها هؤلاء التجار إلى تطور وضعهم الاقتصادي والاجتماعي بصورة كبيرة.

الكارمية: المسمّى والدلالة

في البداية، علينا أن نشير إلى أنّ كلمة الكارمية أُطلقت على التجار العاملين في التجارة الدولية العابرة في البحر الأحمر (بخاصة التوابل) خلال العصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي. ويذكر صبحي لبيب في مقالته المهمة عن "التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى" أنّ مسمّى الكارمية ربما يعود إلى العنبر الذي يقال له الكارم وأنّه كان يوجد في مصر سوق مشهور به، ونتيجة لتجارتهم به فقد أخذوا اسمهم منه[84]. ويرى البعض أنّه مرتبط ببلاد الكانم. وهي إحدى مقاطعات بلاد التكرور. وهو اعتقاد يؤيده أنّ الكانم كانت مصدر الذهب الذي كان يجري من خلاله تمويل شراء التوابل؛ إذ تشير بعض النقوش الأشورية إلى (الكركم Karkuma) بمعنى الأصفر[85]. على العموم، فمن الثابت اليوم أنّ تجار الكارم كانوا في الأساس هم تجار التوابل. ويشير الأشقر إلى أنّه لم يكن هناك مسمّى واحد للتجار العاملين في تجارة التوابل. ويشير إلى أنّ المصادر المملوكية كانت تنعتهم بألقاب؛ مثل الخواجا والخواجكي وعين أعيان الجواجكية، والكارمي وعين أعيان التجار الكارمية[86]. وعليه، لم يكن هناك مسمّى واحد لهؤلاء التجار الكبار. والمعروف أنّ وجود هؤلاء التجار الكارمية قد انتهى مع نهاية العصر المملوكي، خلال عصر برسباي أو على الأكثر قايتباي. فلماذا إذًا نطلق على هؤلاء التجار الكارمية؟

في الواقع، إنّ وثائق الأرشيف في مصر هي التي تشير إلى استمرار الألقاب نفسها التي كانت سائدة خلال العصر المملوكي، طيلة القرن السادس عشر والنصف الأول من السابع عشر؛ فقد ظلّت الوثائق تطلق على هؤلاء التجار العاملين في تجارة التوابل ألقاب الخواجا، والخواجكي، وعين أعيان الخواجكية، والكارمي، وعين أعيان التجار الكارمية[87]. وكان لهؤلاء التجار الكارمية أو الخواجكية رئيس منهم، كانت الوثائق تطلق عليه ملك التجار[88]، أو ريس التجار[89]، أو شاه بندر التجار[90]، أو عين أعيان التجار الكارمية[91]؛

82 سليمان محمد حسين، **تجار القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003)، ص 40.

83 نللي حنا، **حرفيون مستثمرون بواكير تطور الرأسمالية في مصر**، كمال السيد (مترجم)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص 77.

84 لبيب، ص 10.

85 هناك تفسير يقول إنّه إذا اقتطعنا لفظة كارم قسمين وجدناها تتكوّن من كلمتين: "كار" في المقطع الأول ثم "يم" في المقطع الثاني، وكار معناها الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة، و"يم" معناها المحيط أو البحر البعيد الشواطئ أو النهر الكبير، ثم سقط حرف الياء من كاريم فأصبحت كارم وبذلك تصبح الكلمة تعني حرفة التجارة في البحار أو التجارة البعيدة، الوقاد، ص 202 إلى ص 204.

86 الأشقر، ص 160.

87 تشير الوثيقة إلى "الخواجكي السامي الكبير الأصيلي جلال الدين محمد بن الخواجكي نور الدين علي بن المرحوم عمر بن محمد الشهير نسبه بابن يعقوب عين الخواجكية الكارمية بالثغر"، محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، ص 147، م693، بتاريخ957هـ/1550م.

88 نجد الوثائق تشير مثالًا لذلك إلى الخواجا محمد بن نجيم الشهير بابن أبو علي الرشيدي "بلقب ملك التجار بالديار المصرية"، محكمة الصالحية النجمية، س466، ص 339، م1445، بتاريخ 992هـ/1584م.

89 تقول الوثائق مثلًا: "الخواجا يحيى بن الخواجا عمر بن عبد الله الشهير نسبه بابن الجمال ريس التجار الخواجكية بالديار المصرية"، محكمة الإسكندرية، س16، ص 212، م780، بتاريخ 969هـ/1561م.

90 القسمة العسكرية، س41، ص 232، م341، بتاريخ 1039هـ/1629م.

91 القسمة العسكرية، س5، ص 467، م1489، بتاريخ 973هـ/1565م.

فكلّ تلك الألقاب أطلقتها الوثائق الرسمية عليهم، فقد استخدمت المحاكم جميع هذه الألقاب؛ إذ ساد في محكمة الإسكندرية إلى حدٍ كبير لقب عين أعيان التجار الكارمية. في حين ساد لقب عين أعيان الخواجكية في محكمة الباب العالي. واستخدمت الصالحية النجمية كلّ الألقاب[92]. وقد ميزت الوثائق بصورة واضحة بين كبار التجار أو الخواجات العاملين في تجارة التوابل والتجارة الدولية، ومتوسطي التجار وأصاغرهم بأنّها كانت تشير إلى هؤلاء باسم التاجر وتشير إلى محلّ عمله فتقول التاجر بسوق الشرب، أو التاجر بسوق خان الخليلي. وقد شهد القرن السادس عشر صعودًا متتاليًا لعدد التجار الخواجكية أو الكارمية؛ ففي بداية العصر العثماني كان عدد هؤلاء التجار محدودًا إلى حدٍ كبير وقلّما يظهر لقب الخواجا في الوثائق[93]. غير أنّ الربع الثاني من القرن السادس عشر شهد تحوّلًا كبيرًا في عدد هؤلاء التجار حيث تزايد عددهم تزايدًا كبيرًا، وأخذ لقبا شهبندر التجار وملك التجار يترددان بصورة واضحة[94]. ويتماشى ذلك في الواقع مع عودة تجارة التوابل للمرور عبر البحر الأحمر مرةً أخرى.

وظلّ لقب التاجر الكارمي أو الكارمية يُطلق على كبار التجار في مصر حتى الثلاثينيات من القرن السابع عشر، عندما أخذ هذا اللقب في التلاشي والاختفاء. في حين استمرت ألقاب الخواجا، والخواجكي، وعين أعيان التجار. ويتفق ذلك في الواقع مع تراجع نشاط تجارة التوابل لفائدة تجارة البنّ. ويتفق أيضًا مع بروز دور النقد الفضي بصورة أكبر في حركة التجارة، وتراجع دور النقد الذهبي وبمعنى آخر تراجع تجارة التكرور وعدم سفر التجار بصورة دورية إلى كانو وتمبكتو. كما يتفق مع تغيرات جوهرية أخرى في شكل الحركة التجارية في المنسوجات؛ إذ تراجع دور الحرير الوارد من فارس وبورصة لفائدة القطن والملابس القطنية؛ فقد كان الحرير يُستخدم بصورة واسعة في التجارة مع مراكز الذهب في أفريقيا.

طائفة التجار

الطائفة هي كلّ مجموعة بنيوية من الأشخاص لهم مواقف ومظاهر سلوك مشتركة. ويملك الكلّ داخل هذه الطائفة هدفًا مشتركًا ومجموعة مصالح مشتركة، تحدّد تماسك أعضائها. وتمثّل طائفة التجار في القاهرة العثمانية جماعة ذات ملامح واضحة. غير أنّ هذه الجماعة كانت ضخمة لدرجة تجعل من الصعب أن نطلق عليها جماعة نوعية واحدة؛ فقد انقسمت طائفة التجار إلى طوائفَ عديدة داخلية. ولكنّها ظلت دائمًا تتميز بالعمل في المجال التجاري. ويهمّنا هنا تجار التوابل أو البهار. وهم تجار التجارة الدولية في البحر الأحمر. وكان هؤلاء يؤلّفون شريحة عليا من التجار. وليس ثمّة شكوك في أنّ لكلّ جماعة زعامة أو قيادة تعمل من أجل إدارتها وتنظيمها وتوجيهها وتنسيق جهودها وبثّ روح الحماس والأمل في أعضائها، بقصد تحقيق الأهداف والمصالح المشتركة. ويفرض الزعيم أو الرئيس نفسه على الأعضاء بقدرته وبراعته الواقعيتين على حلّ مشاكل الجماعة الطارئة، وبلوغ أهدافها، وتحقيق مصالحها المشتركة. وكان ذلك الرئيس هو شاه بندر التجار.

وكان اختيار شاه بندر التجار يخضع أساسًا للتجار أنفسهم. ولم تتدخّل الدولة غالبًا في هذا التعيين إلّا لإقراره وصبغه بالصبغة الشرعية والقانونية؛ فقد كان هذا الاختيار يقرّر أمام القاضي ويدوَّن في المحاكم اعترافًا رسميًا من السلطة بهذا الاختيار. وإذا لم يكن لدى التجار ما يشْكون منه من التعامل مع شاه بندر التجار، فإنّه لم يكن باستطاعة السلطة أن تغيّر شاه بندر التجار. والواقع أنّ منصب شاه بندر التجار لم يكن منصبًا إداريًا تابعًا لأجهزة الإدارة. بل كان منصبًا شرفيًا. لذلك فقد كان أوّل واجب يناط به وأهمّه، الدفاع عن

92 الصالحية النجمية، س471، ص 11، م41، بتاريخ 1000هـ/1591م.
93 القسمة العربية، س21، ص 214، م310، بتاريخ 1025هـ/1616م.
94 الصالحية النجمية، س486، ص 286، م1176، بتاريخ 990هـ/1582م.

مصالح التجار والتجارة المصرية، وحماية التجار من أيّ اعتداء على مصالحهم وتجارتهم. وكان يختاره التجار أنفسهم. ولم يكن الجهاز الإداري غالبًا يتدخل في عمليات تعيينه إلّا بعد ترشيح التجار له وموافقتهم عليه[95]؛ فكان تدخّل الدولة هنا لإقرار هذا التعيين وإعطائه الصبغة الشرعية[96]. وكان من أهمّ الواجبات الموكولة إلى شاه بندر التجار محاولة الحدّ من المنافسة العنيفة بين التجار للمحافظة على تحقيق أرباح عالية تعوّض تجار النخبة التجارية عن أيّ خسائر قد تلحق بهم من وراء غرق الشحنات أو نهب العربان التجارة. فكانت الأسعار غالبًا مستقرة في الأسواق. وبالطبع لم يكن ذلك في مصلحة المستهلكين وإن كان في مصلحة التجار؛ فكان التجار دائمًا يعوّضون خسائرهم من أسعار السلع المصدّرة أو المستهلكة، فإذا غرقت سفينة من الخمس عشرة سفينة الوافدة من جدة والمحمَّلة بالتوابل، كانت أسعار التوابل ترتفع على الفور لتعوّض هذه الخسارة. وبالطبع كان شاه بندر التجار يقوم بالدور الأكبر في محاولة تقريب أسعار هذه السلع لتعويض خسائر التجار[97].

وتشير الوثائق إلى مدى قدرة هذه الطائفة على الدفاع عن حقوقها؛ ففي عام 1017هـ/1608م حضر إلى المحكمة عدد من كبار التجار "العاملين في تجارة البهار" بعد شكوى وكلائهم في السويس من شيخ طائفة العتالين صالح بن جرباش الذي كان يقوم بتحصيل رسوم إضافية على أحمال البهار الواردة للتجار. وفور وصول هذه الشكوى من وكلائهم، صعد تجار البهار إلى محمد باشا في القلعة. ونجحوا في الحصول منه على بيورلدي بعزل صالح جرباش من منصبه وتعيين نور الدين بن عبيد. وقد أخذوا على نور الدين تعهّدًا في المحكمة بعدم تحصيل أيّ رسوم إضافية على بضائعهم وأحمالهم سواء الصادر منها أو الوارد. وعلى حدّ قول الوثيقة "فإنّه متى فعل ذلك كان معزولًا"[98].

وثمة قائل إنّ التجار الكارمية خلال العصر المملوكي لم يكونوا مصريين بالأساس، وأنّهم كانوا متعددي الأصول[99]. وهو أيضًا ما تميز به هؤلاء التجار خلال القرن السادس عشر؛ فلم يكونوا من موطنٍ واحد. بل كانوا متعددي الأعراق والبلدان؛ فكان منهم اليمني والحجازي والشامي والفارسي والتركي والمغربي والتكروري واليهودي[100]. ولم يكن المصريون أكثرية في عددهم. بل كانوا في مكانة وسط من حيث عدد التجار، إن لم يكونوا أقلية. أمّا من حيث ثروات هؤلاء التجار فقد كانت لا تقلّ بحال من الأحوال إن لم تزد عن ثروات التجار في العصر المملوكي؛ فقد ترك الخواجا صالح بن عبد المنعم البساطي بضائعَ وأموالًا وشركاتٍ قُدّرت بأكثر من مئتي ألف دينار دون العقارات والوكالات[101]. ومن المثير للجدل أنّ أحد التجار الكارمية (العجم) الفرس العاملين في خان الخليلي قد دفعه الطموح لتحقيق أرباحٍ أكبر إلى التفكير في السفر والإقامة في البندقية، من أجل العمل وكيلًا تجاريًا لبني جنسه فيها، حيث كان البنادقة والفرنسيون واليهود يحتكرون عمليات نقل التوابل من الإسكندرية. وكان صراعًا ضاريًا يدور فيما بينهم. إلا أنّ قنصل البنادقة في القاهرة تصدّى بكلّ قوة لهذه المحاولة. وعمل على إثناء هذا التاجر عن السفر إلى البندقية[102].

---

95 رفعت موسى، ص 108.

96 حنا، **تجار القاهرة...**، ص 63، 64.

97 الدشت، س 141، ص 257، بتاريخ 1030هـ/1620م.

98 الباب العالي، س90، ص 96، م416 ؛ م417، بتاريخ 1017هـ/1608م.

99 عبير كريم عبد الرضا الشاوي، "تجار الكارم، أثرهم الاقتصادي والحضاري من القرن الرابع وحتى القرن التاسع الهجري"، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة بغداد، 2005، ص 23.

100 عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990)، ص 158؛ القسمة العسكرية، س15، ص 249، م359، بتاريخ 995هـ/1586م.

101 احتوت التركة على كميات كبيرة من التوابل، مثل اللك الدابولي، والبخور والشبة والصمغ والقرفة والورق الهندي: القسمة العربية، س36، ص 379، م608، بتاريخ 1049هـ/1639م.

102 هذا التاجر هو الخواجا محمد شريف بن الخواجا كمال بيك بن الخواجا محمود العجمي القزويني: الباب العالي، س86، ص 54، م363، بتاريخ 1015هـ/1606م.

وتوضح دراسة تركات هذه العائلات بصورة واقعية مدى ضخامة حجم التوابل في هذه التركات؛ ففي تركة الخواجا أحمد الرويعي المسجَّلة في عام 1020هـ/1611م مثّلت التوابل حوالى 65% من إجمالي التركة البالغة مليونَي بارة[103]. وتشير تركة القاضي علي بن علي الخطيب المسيري الشهير بابن القاق إلى ضخامة التركة التي خلفها؛ إذ بلغت التركة 208.101 دينارًا دون احتساب ثمن العقارات والقصور والتوابل الموجودة في عدن وجدة. وقد بلغت كميات الفلفل المخلّفة في التركة 421 قنطارًا كانت قيمتها 10115 دينارًا، إضافةً إلى 86 قنطارًا من اللك الشمطري كانت قيمتها 2076 دينارًا[104]. هكذا يمكننا القول إنّ إطلاق لقب الكارمية على تجار التوابل خلال القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر، كان امتدادًا طبيعيًا للفترة المملوكية، وإنّ ذلك لم يكن استمرار مسمّى فقط بقدر ما كان استعادة التجار العاملين في تجارة البحر الأحمر دورهم الفاعل في تجارة التوابل.

وقد أدّت عودة تجارة التوابل إلى التدفّق عبر البحر الأحمر مرةً ثانية، إلى تراكمٍ كبير في الثروة لدى كبار تجار القاهرة العاملين في هذه التجارة[105]؛ فقد كانت التوابل إبان هذه الحقبة تحقّق أرباحًا تراوح بين 40 و50% للتجار العاملين فيها بعد خصم المصاريف والضرائب؛ فكان قنطار الفلفل يصل إلى جدة بحوالى 6 إلى 8 دنانير أشرفية. وكان يباع في القاهرة ما بين 14 و16 دينارًا. في حين كان سعره في الإسكندرية يراوح بين 21 و30 دينارًا. لذا كان من البداهة أن تكون عوائد التوابل مهمة في تكوين ثروات كبيرة بالنسبة إلى التجار العاملين فيها[106]. وقد أدّى ذلك إلى تكوّن رأسمالية تجارية كبيرة في مصر، قامت بدورٍ مهمّ في دعم النشاط الاقتصادي في جميع نواحي الحياة في المجتمع المصري[107].

هكذا، أسهمت تجارة التوابل في تراكم رأسمالي واضح لدى العديد من العائلات التجارية في مصر إبان القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر. وقد أسهم ذلك في خلق طبقة تجارية وسطى عريضة في المجتمع المصري. وقد بلورت هذه الفئة التجارية العديد من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في بنيان المجتمع المصري. وتمكّننا وثائق الأرشيف المصري من توضيح أسماء ستين عائلة كانت من أهمّ العائلات التجارية التي عملت في تجارة التوابل، والتي يمكن توصيفها بأنّها نخبة مالية للمجتمع المصري، إبان القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، كانت منها عائلات مصرية، وشامية، وتركية، وتكرورية، وحجازية، ويمنية، ومغربية.

أمّا عن دور العائلات اليهودية في تجارة التوابل، فالواقع أنّه ظلت هناك مبالغات كبيرة في دور اليهود في تجارة التوابل؛ فقد قال البعض إنّ تجّار الكارم هم من اليهود فقط. وقال آخرون إنّ الجزء الأكبر منهم كان من اليهود[108]. وتشير وثائق المحاكم الشرعية إلى دورٍ محدود لليهود في تجارة التوابل. وقد تركّز دورهم الأكبر في إدارة الجمارك وعمليات السمسرة والوساطة بين التجار المسلمين والبنادقة والفرنسيين[109]. والحق أنّ اليهود ظلوا جزءًا أصيلًا من المجتمعات العربية والإسلامية خلال العصر العثماني، ولم يقع عليهم تمييز طائفي أو عنصري إلّا خلال الأزمات التي كان لبعضهم دورٌ في صنعها. وقد كان عملهم الأهمّ والأبرز في إدارة الجمارك دافعًا لهم للاضطلاع بدور تجاري أقرب إلى عمليات السمسرة منه إلى النشاط التجاري[110]؛ فقد فضّل الجزء الأكبر منهم القيام بشراء التوابل

103 محافظ الدشت، س131، ص 77، بتاريخ 1020هـ/1611م.

104 القسمة العسكرية، س17، ص 307، م412، بتاريخ 997هـ/1588م.

105 القسمة العربية، س4، ص 265، م498، بتاريخ 983هـ/ 1575م.

106 الصالحية النجمية، س466، ص 364، م1562، بتاريخ 992هـ/.1584

107 القسمة العسكرية، س39، ص 385، م592، بتاريخ 1037هـ/1627م.

108 محاسن محمد الوقاد، **اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة 648 - 923هـ/1250 - 1517م** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999)، ص 208.

109 محسن علي شومان، **اليهود في مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر**، ج1 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000)، ص 182.

110 المرجع نفسه، ج2، ص 258.

من القاهرة أو رشيد أو الإسكندرية، بيعها للتجار الأوروبيين في مقابل أرباح أقلّ، ولكنّها كانت أكثر ضمانًا[111]. ولم يكن ذلك يعني عدم امتلاك اليهود شركات تجارية في البحر الأحمر؛ فقد كان بعضهم شركاء لعدد من كبار تجار التوابل. كما أنّ عددًا من التجار اليهود كان يقطن في البندقية[112]؛ ما أعطى الشبكات التجارية اليهودية مدًى أوسع في اتجاه أوروبا، وجعلهم في حالةٍ من الصراع والمنافسة مع البنادقة والفرنسيين ما أدّى إلى الصدام بينهما. وتشير وثائق الإسكندرية بوضوح إلى شكاوى القناصل الأوروبيين الممارسات اليهودية[113].

والجدير بالذكر أنّ التجار الكارمية موّلوا التزام المعلمين اليهود لمقاطعة البهار؛ إذ كان جمرك البهار أكبر العوائد والجمارك التي تحصّلها الدولة لتمويل التزاماتها من دفع رواتب الجنود وحراس القلاع ورواتب رجال الإدارات المختلفة. ونتيجة لضخامة المبالغ المحصّلة على التزام جمرك البهار، لم يكن أمام الأمراء والمعلمين اليهود الراغبين في التزام الجمارك إلّا التجار الذين يمتلكون الثروة والأموال[114]. وغالبًا ما كان هؤلاء التجار يقومون بتمويل المعلمين والأمراء الملتزمين الجمارك؛ فقد كان يجري خصم هذه المبالغ من الرسوم المفروضة على بضائعهم مع تخفيضات خاصة لهم كانت تراوح بين 2% و5% مقابل تسلّم هذه الأموال مسبقًا وللبعد عن شبهة الربا[115]. وكان هؤلاء الملتزمون وبخاصة اليهود يستغلون وجودهم في إدارة الجمارك وعملهم مترجمين، ويقومون بشراء التوابل من التجار ووكلائهم وإعادة بيعها للبنادقة والفرنسيين. لذلك، فقد حاول ملتزمو الجمارك منع وصول الأوروبيين إلى القاهرة، من أجل أن يحقّقوا أرباحًا كبيرة من عمليات الوساطة والسمسرة[116].

الشبكات التجارية للكارمية

الحقيقة أنّ القرن السادس عشر شهد تطوّرًا للشبكات التجارية للتجار الكارمية العاملين في التجارة الدولية بصورة كبيرة؛ فقد نجح هؤلاء التجار في اختراق الحصار البرتغالي للبحار العربية والوصول مرةً أخرى إلى مصادر إنتاج التوابل في الهند والجزر الهندية. فتشير الوثائق إلى نجاح هؤلاء التجار في بناء شبكات تجارية فعّالة أصبحت ذات قدرة كبيرة على جلب التوابل عبر البحر الأحمر. وقد أخذ بناء هذه الشبكات ثلاثة أشكال يمكن تحديدها من خلال الوثائق، وهي:

أولًا: سفر التجار بأنفسهم أو أبنائهم إلى الهند. تشير الوثائق إلى أنّ عددًا من تجار القاهرة سافر إلى الموانئ الهندية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن السادس عشر، على الرغم من الظروف الصعبة في ذلك الوقت. إلا أنّ الأرباح الكبيرة التي كانوا يحقّقونها كانت الدافع وراء هذه المغامرات الكبيرة؛ فمثلًا نجد الخواجا علي بن أحمد بن محمد الشجاعي التاجر السفار إلى بلاد الهند والتكرور حيث

111 تشير الوثيقة التالية مثلًا إلى شراء المعلم موسى بن يهود بن إبراهيم الربان الشهير بابن هاني في الإسكندرية 79 قنطار فلفل خوري كانت قيمتها 968دينارًا من وكيل الخواجا عمر الجمال: الإسكندرية الشرعية، س8، ص 157، م459، بتاريخ 973هـ/1565م.

112 تشير الوثيقة التالية مثلًا إلى المعلم مردخاي بن شالوم البندقي: الباب العالي، س11، ص 903، م316، بتاريخ 957هـ/1550م.

113 الإسكندرية الشرعية، س4، ص 38، م119، بتاريخ 974هـ/1566م.

114 الإسكندرية الشرعية، س43، ص 288، م847، بتاريخ 1019هـ/1610م.

115 نشأت بين الملتزمين والتجار آلية للتعامل شبه منتظمة، كانت تسمح للملتزم بتقاضي مبالغ كبيرة تحت مسمًّى "موجبات ومعشرات سلطانية وذخيرة وترجمة ومصاريف ورسم جاري به العادة"، على أن يتحاسبا كلّ فترة، ويخصم منها ما يتعين على التاجر أداؤه من رسوم، ويستردّ الباقي: شومان، ج2، ص 256.

116 في عام 931هـ/1524م مثلًا التزم المعلم إبراهيم إبراهيم بن يوسف بن إسحاق بجمرك الإسكندرية لمدة سنتين وقد اشترط في عقد الالتزام ما نصّه "أن لا يأتوا تجار الفرنج إلى القاهرة المحروسة بل يجلسون بالثغر السكندري ويبيعون ويشترون فيه على العادة القديمة في زمن السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري": الدشت، س4، ص 475، بتاريخ 931هـ/1524م؛ الإسكندرية الشرعية، س43، ص 288، م847، بتاريخ 1019هـ/1610م.

كان من كبار تجار الكارمية ومن أعيان الخواجات في القاهرة[117]. وفي عام 976هـ/1568م، كان الخواجا أحمد بن عمر الدريني التاجر بوكالة قايتباي غائبًا في الهند[118].

ثانيًا: عن طريق التاجر السفار، جذبت الأرباح الكبيرة التي يمكن جنيها من وراء القيام بالرحلات الطويلة عددًا من التجار للمغامرة بهدف الحصول على الأرباح العالية التي يمكن جنيها من وراء هذه التجارة[119]. وتوضح السجلّات المحلية في مصر ظاهرة التاجر السفار بصورة واسعة خلال القرن السادس عشر[120]. وقد نجح هؤلاء التجار في اختراق الحصار البرتغالي في المحيط الهندي مدفوعين بهامش الربح الكبير جراء ذلك[121]. والواقع أنّ التاجر السفار هو تاجر متوسط الثراء لديه طموح كبير في الثراء السريع؛ فكان يسافر سنويًا بين السويس والهند. وكان يجمع أكبر عدد من الصفقات التجارية للتجار الراغبين في جلب التوابل[122]. ولم يكن التجار الكبار يغامرون بوضع أموالهم كلّها مع تاجرٍ واحد. بل كانوا يمنحون أموالهم لأكبر عدد ممكن؛ بحيث يقللون نسبة المخاطرة؛ وإذا ضاعت هذه الأموال أو توفّي هذا التاجر لأيّ سبب لا يضيع كلّ المال؛ فخلال عام 944هـ/1537م قام الحاج سليمان بن سعيد بن موسى المغربي الجربي الشهير بالفلاح بتمويل سفر الحاج محمد بن يفرن المعروف بابن بليحه إلى كيلكوت في الهند[123]. وفي عام 995هـ/1586م توفّي تقي الدين بن عثمان الحلبي التاجر السفار، وقد ترك كمياتٍ كبيرة من التوابل شملت نيلة هندي، ولك وكابلي، وفلفل قُدّرت قيمتها بثلاثة آلاف دينار[124].

ثالثًا: إرسال العبيد أو المماليك في المهام التجارية؛ فقد قام بعض كبار التجار بشراء عدد من الرقيق وقاموا بتدريبهم على العمل التجاري في محالّهم. وعندما كانوا يثقون بهم كانوا يقومون بإرسالهم في مهام تجارية بعيدة، (كان هؤلاء العبيد وكلاء غير دائمين لأسيادهم)، مع الوعد بمنحهم العديد من المنح والعطايا؛ فقد عمل كبار التجار الكارمية على إرسال عبيدهم في هذه المهام التجارية حرصًا منهم على حياتهم، وحتى يظلّوا إلى جانب إدارة أعمالهم في القاهرة؛ ففي عام 970هـ/1562م كان جوهر بن عبد الله مملوك الخواجا قاسم الحضري في الهند يقوم بشراء التوابل لحسابه هو وأخيه ولعددٍ كبير آخر من تجار الإسكندرية[125].

لقد نجحت هذه الشبكات التجارية في إعادة الحيوية للمحاور التجارية المصرية مع الهند بصورة فعلية؛ فخلال عام987هـ/1579م كان الخواجا كريم الدين البرديني غائبًا في الهند مع مملوكه مرجان، وكان أخواه يقومان بإدارة شؤون شركتهم في القاهرة[126]. وفي عام 1017هـ/1608م كان الخواجا محمد بن زيان وهو تاجر من أسرة سكندرية عريقة غائبًا في الهند، وكان يحمل أمانات لعدد كبير من كبار تجار القاهرة العاملين في تجارة التوابل[127]. وكوّن بعض التجار شركات بينهم غالبًا ما كان يقوم أحدهم، وهو الذي لا يمتلك رأس مال كبيرًا لكنّه كان يقوم بالسفر والمخاطرة، في مقابل اشتراكه في الأرباح وحصة صغيرة من رأس المال.

---

117 القسمة العربية، س1، ص 108، م165، بتاريخ 970هـ/1562م.
118 الصالحية النجمية، س452، ص 441، م1210، بتاريخ 976هـ/1568م.
119 الباب العالي، س37، ص 476، م1804، بتاريخ 984هـ/1576م.
120 القسمة العربية، س11، ص 342، م544، بتاريخ 1004هـ/1595م.
121 القسمة العربية، س6، ص 199، م309، بتاريخ 987هـ/1579م.
122 القسمة العسكرية، س1، ص 568، م1170، بتاريخ 969هـ/1561م.
123 الدشت، س19، ص 556، بتاريخ 944هـ/1537م.
124 الدشت، س102، ص 12، م21، بتاريخ 995هـ/1586م.
125 الباب العالي، س21، ص 464، م1241، بتاريخ 970هـ/1562م.
126 القسمة العربية، س6، ص 153، م244، بتاريخ 987هـ/1579م.
127 القسمة العربية، س19، ص 238، م344، بتاريخ 1017هـ/1608م.

تغيّر الطلب على التوابل

مع منتصف القرن السابع عشر، حدثت تغيرات عديدة جعلت الطلب على التوابل يتراجع تراجعًا كبيرًا؛ فقد تراجع الطلب على التوابل في السوق الأوروبية، بسبب تزايد استهلاك الخضروات واللحوم الطازجة الواردة من المستعمرات الأميركية في العالم الجديد إلى أوروبا خلال فصل الشتاء، وعليه، تراجع استهلاك اللحوم المحفوظة والمتبّلة في أوروبا، بعد وجود البدائل من المستعمرات في العالم الجديد. ويشير بروديل إلى تراجع استهلاك التوابل منذ عام 1061هـ/1650م. ويعزو ذلك إلى تزايد استهلاك موادّ ترفيه جديدة مثل البنّ والكاكاو والتبغ. على العموم، لم تعد أوروبا في حاجةٍ كبيرة إلى التوابل. ومن هنا، أخذ الطلب عليها في التراجع. ويشير بروديل إلى أنّ عام 1038هـ/1620م هو العام الذي شهد إحكام الهولنديين سيطرتهم على تجارة التوابل، وأنّ هذا التحكّم الهولندي هو الذي أدّى إلى توقّف تدفّق التوابل عبر البحر الأحمر[128].

والواقع أنّه على الرغم من حلول التجارة الهولندية محلّ التجارة البرتغالية في شرق آسيا وجنوبها، فلم تكن لدى الهولنديين رغبةٌ في إيقاف وصول التوابل إلى عدن، بل على العكس من ذلك حاول الهولنديون أنفسهم الوصول إلى عدن من أجل بيع التوابل في مقابل البنّ اليمني الذي أخذ يتزايد عليه الطلب في شرق آسيا. غير أنّ السلطات العثمانية التي كانت لا تزال تتوجّس خيفةً من الأوروبيين لم تسمح لهم بزيارة عدن. وهو ما دفع الهولنديين إلى قذف الميناء بالمدفعية[129]. والواقع أنّ الهولنديين لم يفرضوا حصارًا على الشواطئ العربية كما فعل البرتغاليون. بل على العكس من ذلك، فقد كانت السياسة الهولندية والإنكليزية قائمة على العمل في التجارة بين موانئ الشرق، حيث عملت الشركتان الهولندية ثم الإنكليزية على تحقيق مكاسبَ وأرباح كبيرة من جراء المتاجرة بين موانئ الشرق الأقصى وفارس والموانئ العربية. ومن أجل هذه الأرباح أخذ الهولنديون يضغطون على العثمانيين في اليمن من أجل فتح موانئ اليمن للتجارة الحرّة معهم. وقد انتهج الهولنديون أساليب عدة للوصول إلى ذلك الهدف؛ منها ما هو دبلوماسي، ومنها ما هو عسكري؛ فأخذوا في القيام بعمليات قرصنة واسعة النطاق ضد السفن التجارية العربية والهندية. وقد مثّل هذا الاتجاه ورقة رابحة في أيدي الهولنديين للضغط على اليمن لفتح الموانئ اليمنية للتجارة الأوروبية. إلا أنّه من المرجّح أن يكون ذلك الأسلوب قد زاد من إصرار الإدارة العثمانية في اليمن على ضرورة الحصول على إذن مسبق من السلطان العثماني لفتح الموانئ اليمنية أمام الهولنديين والإنكليز[130]. على العموم، تشير المصادر الهولندية إلى رغبة الهولنديين في ممارسة التجارة بصورة كبيرة مع عدن ومخا حيث يمكن الحصول على البنّ اليمني بالتبادل بالتوابل؛ فمن خلال التقارير الهولندية التي جرى نشرها يتّضح أنّ السفن الهولندية كانت تحمل التوابل إلى عدن من أجل جلب البنّ. ويبدو أنّ ذلك استمر حتى عام 1140هـ/1712م عندما تمكّن الهولنديون من نقل شجرة البنّ إلى أميركا[131]. وفي الحقيقة، فإنّه أمام التقلبات في سوق التوابل وتراجع أرباحها، لجأ التجار في البحر الأحمر إلى تنويع أنشطتهم التجارية؛ فعملوا على توسيع استيراد الأقمشة القطنية من سورات وبومباي، إذ تزايد عليها الطلب في الأسواق العثمانية والأوروبية.

هكذا، كانت تجارة التوابل تشهد تراجعًا كميًا منذ ثلاثينيات القرن السابع عشر. غير أنّ ذلك لم يَعْنِ توقّف وصول التوابل عبر البحر الأحمر؛ فقد ظلّت التوابل طيلة القرن السابع عشر تحتلّ المركز الثالث بين السلع الوافدة إلى مصر عبر البحر الأحمر[132]، فقد تقدّم عليها

---

128 بروديل، ج 3، ص 594.

129 راجع: أحمد فؤاد متولي، "الوجود الروسي المبكر في البحر الأحمر"، في: **دراسات في الأدب والتاريخ التركي المصري** (القاهرة: دار الفكر العربي، 1989)، ص 64، 65.

130 إريك مكرو، **اليمن والغرب (1571-1962)**، حسين عبد الله الغمري(مترجم)، (دمشق: دار الفكر، 1978)، ج1، ص 32.

131 فاروق عثمان أباظة، "النشاط الاستعماري الهولندي في البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية أثناء القرن السابع عشر الميلادي"، في: **دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1994)، ص 511.

132 تشير الوثيقة التالية مثلًا إلى تركة أحمد جوربجي النحال حيث ورد له من السويس كميات كبيرة من البن والفلفل والكودة: القسمة العسكرية، س61، ص 79، م143، بتاريخ 1064هـ/1653م.

البنّ ثم تلته المنسوجات القطنية الهندية منذ منتصف القرن السابع عشر. والواقع أنّ وصول التوابل لم يتوقّف كما قيل مرارًا بسبب السيطرة الهولندية على هذه التجارة في عام 1038هـ/1620م[133]. غير أنّ التطوّر الأكبر في التغيّر جاء من دخول البنّ إلى السوق التجارية بصورة كبيرة، والذي أصبح يجد إقبالًا كبيرًا في إسطنبول وأوروبا بصورة كبيرة؛ فقد توسّع تجار القاهرة في تجارته بسبب استقرار أسواقه وأرباحه الطائلة. وشهدت بذلك تجارة التوابل تراجعًا كبيرًا في حجمها الوارد عبر البحر الأحمر لفائدة البنّ؛ فمنذ عام 1030هـ/1620م كانت التوابل تشهد تراجعًا في حجم تجارتها الإجمالية عبر البحر الأحمر؛ إذ في تركة الخواجا إسماعيل أبو طاقية شاه بندر التجار وأهمّ تجار القاهرة في التوابل خلال الربع الأول من القرن السابع عشر، لم يترك إسماعيل أبو طاقية إلا سبعة قناطير من الفلفل وخمسة من اللك وكميات قليلة جدًا من القرفة والزنجبيل. بيد أنّ السكّر سيطر على مجمل عامّ التركة؛ فقد ترك أبو طاقية 397 قنطارًا من السكّر. كما ظهر البنّ أيضًا بصورة واضحة. والسؤال الذي يبدو ذا دلالة وأهمية هنا، هو كيف تطوّرت نسبة تجارة البنّ إلى تجارة التوابل من حيث الكميات والأسعار؟

في البداية، علينا أن ندرك أنّ البنّ كان يجد مشكلة أساسية في تسويقه منذ منتصف القرن السادس عشر؛ فلم تكن عملية تسويقه كبيرة، وكانت سوقه لا تزال صغيرة، بينما كان الطلب على التوابل لا يزال كبيرًا. وعليه، فقد كان البنّ يأتي بصورة أقلّ من التوابل في المرتبة سواء من حيث الربح أو سرعة التسويق[134]. غير أنّ أسواق البنّ عند بداية القرن السابع عشر، كانت في تزايدٍ مستمر، وكانت أسعاره باستمرار في تزايد كبير من جراء تزايد الطلب العالمي عليه. كما كان سعره في القاهرة يراوح بين 7 و11 دينارًا للقنطار في عام 1003هـ/1594م. بيد أنّ سعر قنطار الفلفل في العام نفسه كان يراوح بين 19 و22 دينارًا في القاهرة[135]. وهو ما كان يعني أنّ الاستثمار في التوابل يحتاج إلى ضعف الأموال المستثمرة في البنّ؛ فقد كان قنطار الفلفل يساوي ثمن قنطارين من البنّ في الوقت الذي كان هامش الربح فيهما قد تقارب إلى حدٍ كبير. وعليه، كان الإقبال من التجار يتزايد باتجاه تجارة البنّ بصورة أكبر كلّما تقدّمت السنوات. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان حجم البنّ لا يتعدى حوالى 15 إلى 30% من تركات النخبة التجارية في مصر وتعاملاتها، حتى كانت الفترة الواقعة بين 1042 - 1047هـ/1632 - 1637م عندما انهمك أغلب تجار مصر في تجارة البنّ مع تزايد الطلب العالمي عليه، وتضاعفت أرباح البنّ بعد أن وسّع تجار البحر الأحمر شبكاتهم التجارية باتّجاه إسطنبول وسالونيك وإزمير بدلًا من سورات وجوجورات[136].

وعلى الرغم من تحفّظ الدوائر السياسية الحاكمة في إسطنبول إزاء المحاولات التي بدأ يبذلها الهولنديون ثم الإنكليز من أجل الوصول إلى البحر الأحمر، فقد وجدت السلطات العثمانية أنّ من الحكمة تنشيط الحركة التجارية في الموانئ اليمنية بالسماح للقوى الأوروبية الجديدة بالوصول إلى عدن ومخا، بخاصة وأنّ هذه الدول الأوروبية أظهرت عدم تركيزها على التعصب الديني – على عكس ما كان عليه البرتغاليون – لذلك فقد سمح السلطان العثماني للإنكليز بحرية التجارة في الموانئ اليمنية في عام 1027هـ/1618م، وسمح لهم أيضًا بإقامة وكالة تجارية في مخا، وحدّدت الضريبة على البضائع بـ 3.5% تدفع نقدًا أو عينًا. وفي عام 1029هـ/1620م منح السلطان فرمانًا مماثلًا للهولنديين. وأخذت السفن الإنكليزية والهولندية تزور مخا بانتظام دوري في كلّ عام تقريبًا، تحمل معها الأقمشة الهندية والفلفل وجوز الطيب والقرنفل واللبان الجاوي، لتبادله بالبنّ اليمني أو بالنقد من الفضة أو الذهب[137]. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن تجار القاهرة في حاجة كبيرة إلى التوابل التي تراجع الطلب عليها بصورة كبيرة، وظلّت جدة تزوّد القاهرة وإسطنبول باحتياجاتهما من التوابل[138].

133 بروديل، ج 3، ص 594.

134 القسمة العربية، س4، ص 395، م498، بتاريخ 983هـ/1575م.

135 القسمة العربية، س10، ص 177، م275، بتاريخ 1003هـ/1594م.

136 القسمة العسكرية، س44، ص 36، م51، بتاريخ 1044هـ/1634م.

137 جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة والعلم**، قدري قلعجي (مترجم)، (بيروت: دار الكاتب العربي، 1963)، ص 85.

138 يمكننا أن نشير أيضًا إلى تحسّن عمليات طهي الطعام خلال هذه الفترة تحسّنًا ملحوظًا مع تزايد استخدام الأواني النحاسية، إذ أدّى ذلك إلى تراجع استهلاك كميات التوابل تراجعًا كبيرًا.

ومع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر، كانت تجارة البنّ قد تمكّنت من إزاحة التوابل عن عرشها القديم في الهيمنة على حركة التجارة بين الشرق والغرب عبر البحر الأحمر؛ فقد قفزت أرباح البنّ[139] إلى ما بين 34 و74%[140]، ما أدّى إلى عزوف التجار في جدة والقاهرة عن جلب التوابل مفضّلين عليها البنّ. ولم يكن ذلك هو التغير الوحيد في شكل العلاقة الاقتصادية مع الشرق، فقد حلّت الأقمشة القطنية الهندية المنقوشة محلّ التوابل في العلاقة بين الهند ومصر. وأصبحت تجد إقبالًا كبيرًا في أنحاء الدولة العثمانية وأوروبا[141]. ومع نهاية القرن السابع عشر، أصبح عدم وصول البنّ أو الأقمشة القطنية الهندية إلى الأسواق العثمانية أو الأوروبية يمثّل أزمة اقتصادية. وبعد البنّ والأقمشة القطنية الهندية، ظلّت التوابل تأتي بصحبة السفن الهندية والهولندية والإنكليزية إلى عدن وجدة[142]. ولكنّها في النهاية لم تبق في صدارة المشهد الاقتصادي؛ فقد أصبح البنّ والقطن هما اللذان يحتلّان صدارة العلاقات الاقتصادية في البحر الأحمر[143].

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت التوابل تصل بكميات كبيرة إلى مصر عبر عدن وجدة، إذ تشير إلى ذلك وثائق الأرشيف المصري، فتؤكّد استمرار تدفّق التوابل عبر جدة. وإن حدث تراجع نوعي في الكميات الوافدة إلى جدة، فإنّ ذلك لم يكن يرجع إلى إحكام الهولنديين سيطرتهم على هذه التجارة كما ذكر المؤرخون الغربيون؛ فتشير الوثائق المحلية إلى استمرار وصول التوابل في الفترات التالية وأنّ التجار كانوا يقومون بجلب التوابل والأقمشة القطنية الهندية معًا؛ ففي تركة التاجر أحمد بن شحادة المتوفّى في عام 1060هـ/1650م نجد أنّه جلب من جدة 156 قنطارًا من البنّ و35 قنطارًا من الفلفل. وفي تركة سليم جلبي بن قاسم الجزار الشهير بجلمام المتوفّى في عام 1069هـ/1658م نجد أنّه ورد له من جدة 1590 قنطارًا من البنّ كان سعر القنطار عشرين غرشًا أسديًا[144]. في حين أنّه ورد له 350 قنطارًا من الفلفل كان ثمن القنطار 15 ريالًا أسديًا[145]. ويبرز ذلك في الواقع تراجع أسعار التوابل في مقابل البنّ، وذلك مع تراجع الإقبال على التوابل أيضًا مما عزز إقبال التجار على جلب البنّ بدلًا من التوابل.

فمنذ النصف الثاني من القرن السابع عشر، أخذت التوابل في التراجع من حيث الأهمية من المرتبة الأولى إلى المرتبة الثالثة في تجارة البحر الأحمر. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلّ عدد غير قليل من التجار يعمل في الاتجار بها، وظلت التوابل تمثّل في تركات العديد من كبار التجار العاملين في البحر الأحمر حوالى 10 إلى 15%[146]؛ ففي تركة الخواجا محمد الوفائي الشهير بالصباغ مثلًا كانت التوابل لا

---

139 أصبحت مصر تستورد من اليمن في كل عام ما بين مئة ألف ومئة وخمسين ألف قنطار من البن اليمني، كانت تعيد تصدير 75% منها في اتجاه إسطنبول وبلاد المغرب العربي وأوروبا، وكان البن في أواخر القرن الثامن عشر يمثّل ثلث الواردات المصرية حوالى 200 مليون بارة، من أصل 830 مليون بارة، وكانت الجمارك المحصلة عليه تمثّل أحد أهم مصادر دخل الإدارة المصرية، (60مليون بارة): آندريه ريمون، "مصر وقهوة اليمن"، **مجلة المعهد الفرنسي للدراسات القانونية والاجتماعية "سيداج"**، مجلد 12، القاهرة، 1995، ص 189.

140 آندرية ريمون، **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**، ناصر أحمد إبراهيم، وباتسي جمال الدين(مترجم)، رؤوف عباس(مراجع ومشرف)، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ج1، ص 269.

141 القسمة العربية، س19، ص 355، م462، بتاريخ 1020هـ/1611م.

142 القسمة العسكرية، س 117، ص 291، م 402، بتاريخ 1131هـ/1718م؛ نيبور، ص 261.

143 القسمة العربية، س 42، ص 448، م 686، بتاريخ 1063هـ/1652م.

144 كلمة ريال من Royal"" بمعنى ملكي، وكان الإسبان أول من تداول هذا النقد في الأسواق التجارية، وقد وردت أقدم إشارة إلى الريال الإسباني تحت اسم الريال الحجر، وهو نقد فضي، وكان قد أطلق اسم الريال في الدولة العثمانية على عملات أوروبية عديدة منها الهولندي والإسباني والنمساوي والفرنسي، وقد سمّي الإسباني بالريال المشط الحجر أو أبو مدفع نسبة لأعمدة هرقل المرسومة على أحد وجهي الريال، بينما سمّي الريال النمساوي أو التالير باسم الريال الحجر أبو طاقة نسبة للنافذة المرسومة على صدر النسر المصوّر على أحد وجهي الريال، وقد أصبح أكثر تداولًا في تجارة البحر الأحمر منذ القرن الثامن عشر، وعرف الريال الهولندي بأبي كلب نسبةً للأسد المرسوم على أحد وجهي الريال، وظل الريال الهولندي متداولًا في الأسواق المصرية حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر حين أقصاه الريال الفرنسي والإسباني: أحمد الصاوي، **النقود المتداولة في مصر العثمانية** (القاهرة: مركز الحضارة العربية، 2008)، ص 162؛ ريمون، **الحرفيون والتجار**، ج 1، ص 104.

145 دشت ، س178، ص 540، بتاريخ 1069هـ/1658م.

146 القسمة العسكرية، س77، ص 392، م 522، بتاريخ 1094هـ/1683م.

تزال تمثّل حوالى 45% من إجمالي تركته البالغة نحو نصف مليون بارة[147]، وفي تركة الخواجا محمد بن قاسم الشرايبي الجد الأكبر لآل الشرايبي، والذي توفّي في سنة 1067هـ/1656م كانت التوابل لا تزال تمثّل حوالى 65% من إجمالي تركته البالغة 29 ألف ريال. ويوضح الجدول(2) حجم التوابل في تركته.

الجدول (2)

السلعة	الكمية والوزن	الثمن بالريال
كودة	18 إردب	1260 ريالًا
لوبان	495 قنطارًا	2475 ريالًا
قرفة	385 قنطارًا	6930 ريالًا
فلفل	91 قنطارًا	5060 ريالًا
كوركم يمانى	24 قنطارًا	388 ريالًا
صبر	28 قنطارًا	200 ريال
سم حوت	63 قنطارًا	945 ريالًا
مر	102 قنطارًا	1342 ريالًا
لك	16 قنطارًا	224 ريالًا

المصدر: سجلات محكمة القسمة العسكرية، س 67، ص 138، م 194 بتاريخ 1067هـ/1656م.

وهكذا يوضح الجدول(2) أنّ التوابل لم ينقطع وصولها عبر البحر الأحمر. وتشير تركة الخواجا حدو بن عربي المنجور أيضًا والمتوفّى عام 1133هـ/1720م إلى ذلك؛ فقد ورد له من السويس بصحبة المراكب 490 قنطارًا من الفلفل كانت قيمتها 55354 بارة، والخواجا طاهر بن حدو الزرهوني المغربي التاجر في وكالة الحمزاوي وصل له عند وفاته عام 1131هـ/1718م بصحبة المراكب من جدة 79 قنطارًا من الفلفل إلى جانب كميات أخرى من البخور والقرفة. وعند زيارته مصر في سنة 1178هـ/1764م، أكّد الرحّالة الدنماركي كارستين نيبور Carsten Niebuhr[148] استمرار وصول التوابل إلى مصر عبر البحر الأحمر بكميات كبيرة. هكذا شهدت تجارة التوابل تراجعًا كميًا. ولكن لم ينقطع وصولها عبر البحر الأحمر. وكان هذا التراجع يتماشى إلى حدٍ كبير مع الاستهلاك العالمي للتوابل.

النتائج التي ترتّبت على عودة تجارة التوابل

ليس ثمة شكّ في أنّ انتعاش النشاط الاقتصادي للسوق الخارجية كان له أثره الإيجابي في تطوّر السوق المحلية؛ فقد كان يعاد ضخّ أرباح هذه التجارة الخارجية وفوائضها، واستثمارهما في أنشطة اقتصادية داخلية، فقد حرص التجار على استثمار جزء كبير من

147 القسمة العربية، س50، ص 415، م767، بتاريخ 1075هـ/1664م.

148 يقول نيبور: "وتحمل السفن القادمة من جدة والقوافل الآتية من مكة الكثير من التوابل المستوردة من الهند"، كارستن نيبور، **رحلة إلى بلاد العرب وما حولها (1761/1767)**، مصطفى ماهر(مترجم)، (القاهرة: المطبعة العالمية، 1977)، ج1، ص 261.

عوائدهم وأرباحهم المالية في النشاط التجاري والصناعي المحلي، وذلك بدافع تنويع نشاطهم التجاري، والعمل في النشاط الاقتصادي الأكثر ضمانًا وإن كانت أرباحه أقلّ. فلا شكّ في أنّ النشاط التجاري المحلي داخل مصر كان أقل عرضةً للخطر؛ فقد شهدت مصر نموّ جماعة تجارية منظمة ارتكزت في وجودها على العديد من المحاور الأساسية، وهي تجارة خارجية نشطة في تجارة التوابل، وتجارة داخلية رائجة في منتجات بلد زراعي كانت سلعه لا تزال محلّ طلب واسع ليس في أوروبا فحسب بل في أنحاء الدولة العثمانية والمغرب وحتى في قلب أفريقيا، حيث شهدت هذه الفترة رواجًا للعديد من المنتجات الزراعية، بخاصة الكتان والسكر[149]. ومن أجل استثمارٍ أكثر أمنًا وأعلى ربحية، فقد أخذ هؤلاء التجار في استثمار جزء من أموالهم في التجارة الخارجية وتوجيه جزء أساسي إلى التجارة الداخلية وتفعيلها؛ فعملوا على تمويل زراعة قصب السكر وتصنيعه وإعادة تصديره، وموّلوا أيضًا عمليات زراعة الكتان وصناعة الأقمشة الكتانية والحريرية وإعادة تصديرها في مناطق عديدة سواء في أفريقيا أو ولايات الدولة العثمانية[150].

وكانت مصر قد شهدت منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر أزمة اقتصادية من جراء تزايد وفرة النقد وتزايد الإقبال بصورة كبيرة على السلع الغذائية والترفيهية، مثل السكر والبنّ والملابس[151]. وعليه، فقد كان على أصحاب الثروات من التجار ضخّ مزيد من النقد في القطاع الإنتاجي الزراعي والحرفي من أجل تلبية احتياجات الأهالي المتزايدة. وكان التجار يرون ضرورة تنويع استثماراتهم، بخاصة أنّ الاستثمار الداخلي ظلّ الأكثر أمنًا، وإن كان الأقلّ ربحًا. لذلك فقد تزايدت استثمارات التجار في الزراعة تزايدًا كبيرًا خلال هذه الفترة، حيث قاموا بتمويل زراعة قصب السكر والكتان والقطن والسمسم. وتشير تركات التجار إلى تزايد استثماراتهم في القطاع الزراعي والحرفي بصورة كبيرة خلال هذه الفترة[152]. فقدّموا للبعض الأموال أو الأدوات اللازمة لهذه الصناعة بأجرٍ ثابت شهريًا[153]؛ فمثلًا نجد في تركة إسماعيل أبو طاقية شهبندر تجار القاهرة العديد من المراجل النحاسية المؤجّرة لأمراء من هؤلاء الملتزمين كما يوضحها الجدول(3).

الجدول(3)

اسم الأمير	عدد المراجل	الوزن بالقنطار	الثمن بالقرش
الأمير دلاور أغا	5	20 قنطارًا	300 قرش
الأمير ساغوس	1	9 قناطير	179 قرشًا
الأمير بالي بن سليمان	11	52 قنطارًا	886 قرشًا
الأمير مصطفى الدنهاجي	4	15 قنطارًا	225 قرشًا
الأمير محرم بن حسين	-	-	350 قرشًا

المصدر: سجلات محكمة القسمة العسكرية، س38، ص113، م134 بتاريخ 1034هـ/1624م.

149 القسمة العربية، س10، ص 321، م501، بتاريخ 1003هـ/1593م.

150 القسمة العربية، س18، ص 269، م448، بتاريخ 1016هـ/1607م.

151 أندريه جوندر فرانك، **الشرق يصعد ثانية الاقتصاد الكوكبي في العصر الآسيوي**، شوقي جلال (مترجم)، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، ص 231.

152 القسمة العربية، س13، ص 251، م359، بتاريخ 991هـ/1583م.

153 الباب العالي، س75، ص 787، م2893، بتاريخ 1010هـ/1601م.

لم يكن هذا فقط ما قدّمه إسماعيل أبو طاقية لتمويل صناعة السكر، فقد قدّم أبو طاقية نحاسًا قيمته 1790 قرشًا[154] لعدد آخر من الأمراء لم يشر إليهم تفصيلًا، كما كان لديه في مطبخه تعاقدات لتوريد 1275 قنطارًا من السكر[155]. ولم يكن أبو طاقية حالة فردية فقد قدّم التجار الكبار العاملون في التجارة الدولية الأموال اللازمة لتنمية هذه الصناعة بصورة واسعة، وأخذت الأموال تنساب من المدينة إلى الريف، وهو ما أدّى إلى تحسّنٍ ملحوظ في إنتاج القطاع الزراعي؛ فقد قدّم التجار الجزء الأكبر من أموال شراء السكر مقدّمًا إلى الملتزمين والفلاحين. وتطلق الوثائق على ذلك "رأس مال سلم شرعي"؛ فمثلًا، قدّم الخواجا علي بن محمد الرويعي شاه بندر التجار في مصر مبلغ 1000 قرش(40000 بارة) في عام 1022هـ/1613م إلى الأمير وإلى بن علي كاشف المنوفية، وكان عليه أن يورد له بها 152 قنطارًا من السكّر[156]. ولم تكن عقود السلم هذه ابتكارًا جديدًا؛ فالقوانين التي تحكمها كانت حددت في الشريعة الإسلامية بوضوح، منذ عدة قرون؛ والمذهب الحنفي مثلًا يوجب دفع المال عند كتابة العقد، وتحديد صنف السلعة ومقدارها ونوعيتها إضافةً إلى زمن التسليم ومكانه[157]. غير أنّ الجديد هنا كان تسجيل هذه العقود في أوراق الدولة الرسمية من خلال المحاكم الشرعية، وعليه، ضمان سلامة هذه المعاملات وحسن أدائها[158].

إضافةً إلى ذلك، تزايدت استثمارات التجار الكارمية في الصناعات الحرفية الأخرى، وبخاصة صناعة الأقمشة الكتانية[159] والحريرية والزيوت؛ إذ كانت هذه الحرف تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة لم تكن تتاح غالبًا إلا لدى التجار. لذلك، فقد امتلك أغلب تجار الإسكندرية الكبار ورشًا لصناعة الحرير الخامّ؛ إذ كان يستورد من بيروت وحلب وبورصة[160]، ليجري تصنيعه وتوزيعه سواء في مصر أو في أفريقيا من أجل جلب الذهب.

ووظّف التجار فائض ثرواتهم في شراء ممتلكات وعقارات ووكالات وحوانيت ومعاصر وحمامات وخانات. وهذا ما جعل منهم قوة اجتماعية هائلة أسهمت إسهامًا كبيرًا في تطوير بنية المدن والموانئ العمرانية. وتُظهر سجلات المحاكم الشرعية وحجج الأوقاف أنّ العديد منهم قد قام بإنشاء عدة منشآت معمارية كبرى سواء في ذلك مباني المنفعة العامة ذات الأهمية الكبيرة في حياة المدينة، كالمساجد[161] والمدارس والتكايا والأسبلة[162]، أو القصور والمباني الشخصية[163]؛ فقد حوّلت ثروة التجار نفسها إلى قوة اجتماعية هائلة من خلال قيامهم بتقديم الخدمات العامة للأهالي داخل المدن المختلفة وبخاصة القاهرة، فقد كان يجري ضخّ جزء مهمّ من فائض هذه التجارة باتّجاه تنمية المجتمع المحلي في مصر. وقد تمثّل ذلك بقيام هذه النخبة التجارية وغيرهم من وسطاء تجارة التوابل بإنشاء العديد من المنشآت الخدمية والحرفية؛ مثل ورش صناعة الحرير والكتان والأفران والطواحين التي تساعد على استمرار الحياة بصورة جيدة في وقت تركت فيه الدولة الخدمات العامة لحياة الناس دون تدخّل كبير[164]. ولم يقتصر أثر هؤلاء التجار على المدن الكبرى

154 كان القرش المعروف بالغرش الرومي والمضروب من الفضة يساوي 40 بارة.

155 محكمة القسمة العسكرية، س38، ص 113، م134، بتاريخ 1034هـ/1624م.

156 االدشت، س133، ص 620، بتاريخ 1022هـ/1613م.

157 بشارة دوماني، **إعادة اكتشاف فلسطين أهالي جبل نابلس 1700 ـ 1900**، حسين زينة(مترجم)، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002)، ص 166.

158 القسمة العربية، س46، ص 336، م462، بتاريخ 1067هـ/1656م.

159 القسمة العربية، س10، ص 321، م501، بتاريخ 1002هـ/1593م.

160 إسكندرية الشرعية، س 49 ، ص 194، م 528، بتاريخ 985هـ /1577م.

161 إسكندرية الشرعية، س67، ص 108، م 157، بتاريخ 1133هـ/1623م؛ إسكندرية الشرعية، س 58، ص 187، م 333، بتاريخ 1103هـ/ 1691م.

162 القسمة العسكرية، س 1، ص 622، م 1267، بتاريخ 969هـ /1561م.

163 القسمة العربية، س18، ص 538، م 844، بتاريخ 1015هـ/1606م.

164 إسكندرية الشرعية، س39، ص 132، م432، بتاريخ 1031هـ/1621م.

فحسب بل امتد ليشمل تطوّر الزراعة المصرية، والقطاع الريفي العريض من السكان؛ فقد موّل هؤلاء التجار زراعة الكتان والسكر والسمسم وغيرها من الزراعات الصيفية التي احتاجت دومًا إلى مبالغَ واستثمارات كبيرة من أجل زراعتها[165].

والجدير بالذكر أنّ تجار التوابل قاموا بدور كبير في توفير الأموال للدولة من خلال تمويل الجمارك مسبقًا؛ فكثيرًا ما كانت الإدارة في حاجة إلى الأموال من أجل سداد جوامك (رواتب) الجنود العاملين في القلاع. وتشير محكمة الإسكندرية إلى قيام إدارة الجمارك بتسديد رواتب الجنود دوريًا[166]. ولجأت الإدارة العثمانية أيضًا إلى هؤلاء التجار من أجل تمويل الحملات العسكرية؛ فمثلًا في عام 992هـ/1584م طلب والي مصر إبراهيم باشا قرضًا من تجار القاهرة من أجل الوفاء برواتب جنود الفرق العسكرية. وكان مبلغ القرض 19984 دينارًا. وقد قام شاه بندر التجار الخواجا محمد بن أبي علي بتوزيع دفع هذا المبلغ على كبار التجار، كلّ بحسب مقدرته[167].

والحقيقة أنّ تجارة التوابل قد أسهمت في تراكم مالي واضح لدى النخبة التجارية التي أطلقت عليها الوثائق الرسمية لقب الكارمية، في القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر. وبذلك يمكننا القول إنّ هؤلاء التجار لم يكونوا يقلّون بحال من الأحوال عن أسلافهم في العصر المملوكي؛ فقد أدار هؤلاء التجار نشاطًا اقتصاديًا كبيرًا، إذ كانوا يستوردون من الهند السلع الكارمية نفسها من التوابل المختلفة سواء الفلفل والزنجبيل والنيلة والبخور وغيرها، وكانوا يعيدون تصديرها إلى بلدان البحر المتوسط عبر الإسكندرية. ولم يكن يقتصر هذا الدور على الوساطة فقط، بل تدخّل هؤلاء التجار في إدارة منظومة تجارية متعددة الأطراف؛ إذ قاموا بتمويل جلب الذهب من وسط أفريقيا، عبر السلع المصرية والعثمانية والفارسية والأوروبية، وقاموا بدور كبير في تطوير بنية المجتمع الزراعي والحرفي والعمراني في مصر خلال هذه الفترة.

خاتمة

يمكننا القول إنّ القرن السادس عشر كان بتكوينه الاقتصادي أقرب إلى العصر المملوكي؛ فقد استمرت آليات النشاط التجاري في التوابل بصورة أساسية وعاد التجار الكارمية للظهور مرةً ثانية، فقد قاموا بدور كبير في تمويل زراعة قصب السكر والكتان والصناعات الحرفية، ما أدّى إلى ظهور نخبة تجارية قامت بدور محوري ومؤثّر في التغيرات الاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع المصري، غير أنّه مع منتصف القرن السابع عشر كان البنّ قد حلّ محلّ التوابل بصورة تامة وأزاحها عن عرشها الذي ظلّت تتربع عليه قرونًا خلت. وحلّت زراعة القطن والغلال محلّ الكتان وقصب السكر. وتغيّرت إلى حدٍ كبير شبكات التجارة المصرية؛ فبدلًا من التمدد في اتّجاه الهند، اكتفت بالوصول إلى اليمن، في حين عملت على التمدد في اتجاه الأناضول والروملي وشرق البحر المتوسط. وهو ما ظهر في تزايد حجم تجارة مصر الخارجية مع الدولة العثمانية منذ منتصف القرن السابع عشر.

165 بولاق الشرعية، س 49، ص 231، م 547، بتاريخ 1064هـ/1653م.

166 إسكندرية الشرعية، س9، ص 63، م 196، بتاريخ 1035هـ/1625م.

167 الدشت، س93، ص 439، بتاريخ 992هـ/1584م.

الملاحق

طائفة التجار تعزل شيخ طايفة التعالين في السويس بسبب ضرره بمصالحهم: المصدر/ الباب العالي، س90، ص96، م416 ؛ م417،

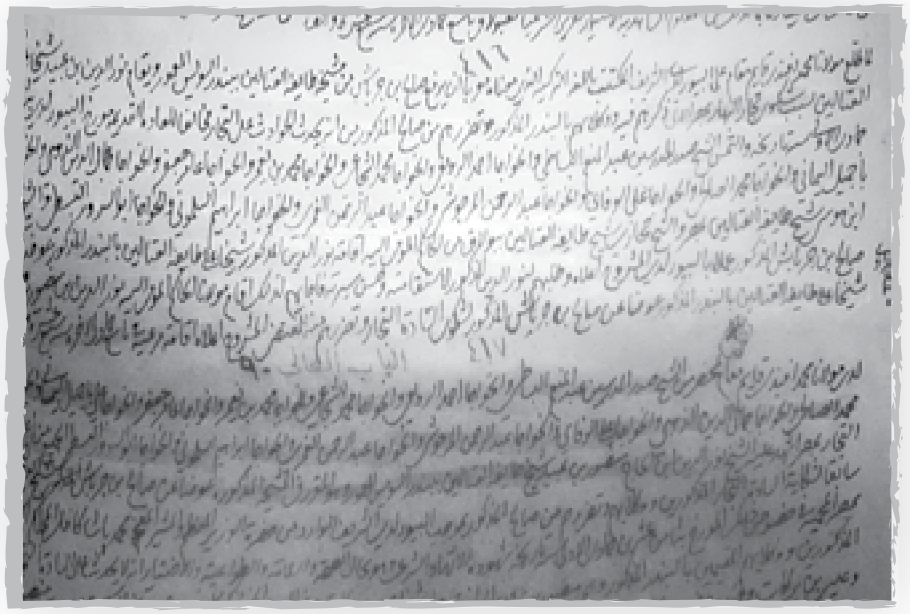

الخواجا قاسم بن الخواجا أحمد الغزي عين أعيان السادة التجار الكارمية بالديار المصرية المصدر: محكمة القسمة العسكرية، س5، ص467، م1489

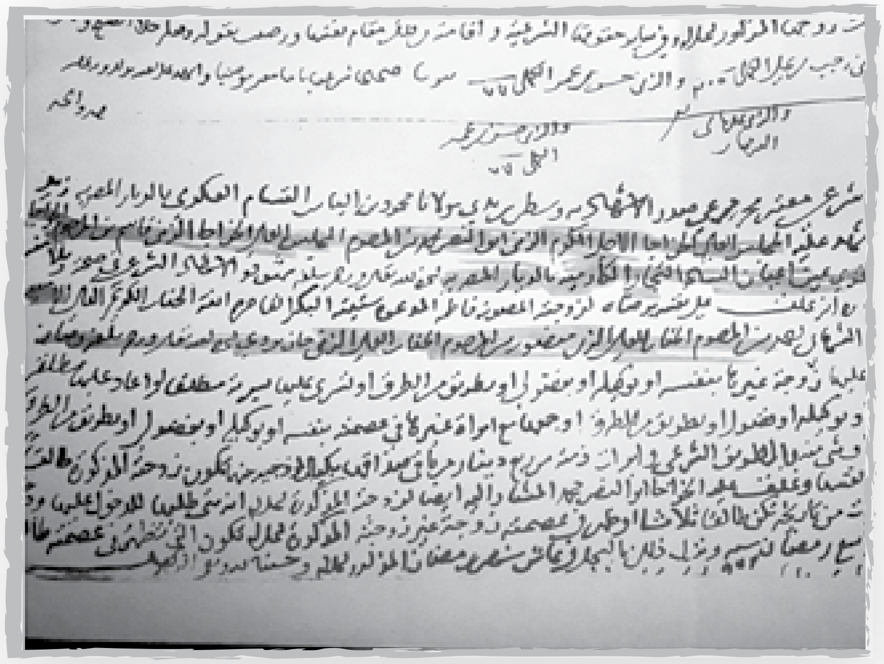

وثيقة تحث تجار التكرور على الوصول للقاهرة دون أي خوف من المظالم ومصادرة تركاتهم حال وفاتهم.
المصدر سجلات الدشت، س142، ص265

تصادق تجاري بين الخواجا عثمان بن شحاذة القسطنيني عين أعيان التجار الكارمية مع المعلم جرجس بقطر القبطي في صفقة من التوابل المصدر: محكمة الإسكندرية الشرعية ، س36، ص105، م282

حجة تصادق بين الخواجكي شحادة القسطنطيني عين أعيان التجار الكارمية بالإسكندرية وقنصل الفرنسيين بالثغر المعلم غبريال ولد جوان. المصدر محكمة الإسكندرية الشرعية س36، ص105، م282

مخلفات الخواجا أحمد بن أحمد الرويعي من أعيان التجار بمصر: المصدر/ الدشت، س131، ص577، م875

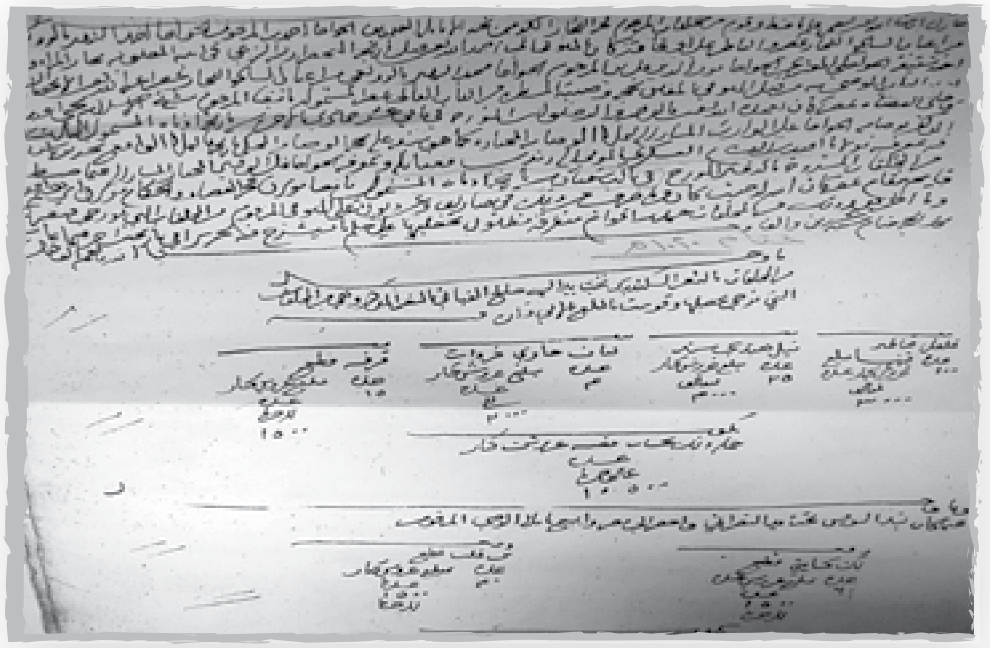

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أباظة، فاروق عثمان. **دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1994.
- أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة: سجلات محكمة القسمة العسكرية؛ سجلات محكمة الباب العالي؛ سجلات محكمة الصالحية النجمية؛ سجلات محكمة الإسكندرية؛ سجلات محكمة القسمة العربية؛ سجلات محكمة بولاق؛ محافظ الدشت.
- أشتور. **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى**، عبد الهادي عبلة(مترجم)، أحمد غسان سبانو(مراجع)، دمشق: دار قتيبة، 1985.
- إبراهيم، ناصر أحمد. **الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر**، القاهرة: دار الآفاق العربية، 1988.
- الإسحاقي، محمد عبد المعطي. **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، ط1، القاهرة: المطبعة العثمانية، 1304هـ.
- بروديل، فرناند. **الحضارة المادية والاقتصادية والرأسمالية**، مصطفى ماهر(مترجم)، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1994.
- ـــــــ. **بحوث في التاريخ الاقتصادي**، توفيق إسكندر(مترجم)، القاهرة: مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961.
- بيرين، جاكلين. **اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم**، قدري قلعجي(مترجم)، بيروت: دار الكاتب العربي، 1963.
- تشرير، مشيل. "مرسوم تجديد امتيازات طائفة الفرنج الفرانسة والكتيلان في الإسكندرية سنة 935هـ/1528م"، **مجلة الروزنامة**، العدد 10، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة: 2013.
- الجزيري، عبد القادر بن محمد. **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، محمد حسن محمد حسن إسماعيل(محقق)، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.
- جيرار. **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، زهير الشايب(مترجم)، ط1، القاهرة: الخانجي، 1984.
- حسين، سليمان محمد. **تجار القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003.
- حنا، نللي. **تجار القاهرة في العصر العثماني سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار**، رؤوف عباس(مترجم)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997.
- ـــــــ. **حرفيون مستثمرون بواكير تطور الرأسمالية في مصر**، كمال السيد(مترجم)، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011.
- دوماني، بشارة. **إعادة اكتشاف فلسطين أهالي جبل نابلس 1700 ـ 1900**، حسني زينة(مترجم)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002.
- ذهني، إلهام محمد علي. **مصر في كتابات الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1991.
- رفعت موسى، محمد. **الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية**، ط1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1993.
- ريمون، آندريه. "مصر وقهوة اليمن"، **مجلة العهد الفرنسي للدراسات القانونية والاجتماعية "سيداج"**، مجلد 12، القاهرة، 1995.

- ______. **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**، ناصر أحمد إبراهيم وباتسي جمال الدين(مترجم)، رؤوف عباس(مراجع ومشرف)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
- سليمان، أحمد السعيد. **تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل**، القاهرة: دار المعارف، 1960.
- سليمان، عبد الحميد. **تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.
- الشاوي، عبير كريم عبد الرضا. "تجار الكارم، أثرهم الاقتصادي والحضاري من القرن الرابع وحتى القرن التاسع الهجري"، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة بغداد، بغداد، 2005.
- الشربيني، البيومي إسماعيل. **مصادرات الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.
- شومان، محسن علي. **اليهود في مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
- عامر، عبد السلام. **طوائف الحرف في مصر 1805 - 1914**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
- عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
- عبد اللطيف أحمد، ليلى. **دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام في العصر العثماني**، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980.
- عبد المعطي، حسام محمد. **العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008.
- ______. **جدل الموضوعية والذاتية في كتابة تاريخ مصر**، ناصر أحمد إبراهيم(محرر)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.
- عثمان، شوقي عبد القوي. **التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك**، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000.
- ______. **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية 41 - 904هـ/661 - 1498م**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990.
- عثمان، محمد نصر الدين محمد إبراهيم. "السياسة العثمانية في جنوب البحر الأحمر وساحل الصومال(1538 - 1578)، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1994.
- الغزي، نجم الدين. **الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة**، جبرائيل سليمان جبور(محقق)، بيروت: المطبعة الأميركانية، 1945.
- الفاسي، الحسن بن محمد الوزان. **وصف أفريقيا**، عبد الرحمن حميدة(مترجم)، القاهرة: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.
- فرانك، أندريه جوندر. **الشرق يصعد ثانية الاقتصاد الكوكبي في العصر الآسيوي**، شوقي جلال(مترجم)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

- لبيب، صبحي. "التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى"، **مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية**، القاهرة، المجلد الرابع، العدد الثاني، أيار/مايو 1952.
- لهيطه، محمد فهمي. **تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة**، القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، 1944.
- متولي، أحمد فؤاد. **دراسات في الأدب والتاريخ التركي المصري**، القاهرة: دار الفكر العربي، 1989.
- محمد عطا. عثمان علي، **الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي 648 - 923هـ/1250 - 1517م**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.
- مكرو، إريك. **اليمن والغرب(1571-1962)**، حسين عبد الله الغمري(مترجم)، دمشق: دار الفكر، 1978.
- المليباري، أحمد زين الدين المعبري. **تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين**، محمد سعيد الطريحي(محقق ومعلق)، بيروت: مؤسسة الوفاء، 1985.
- موسنييه، رولان. **تاريخ الحضارات العام القرنان 16،17**، يوسف أسعد داغر(مترجم)، بيروت: منشورات دار عويدات، 1987.
- ميلاد، سلوى علي. **الوثائق العثمانية دراسة أرشيفية وثائقية لسجلات محكمة الباب العالي**، الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، 2001.
- نيبور، كارستين. **رحلة إلى بلاد العرب وما حولها (1761/1767)**، مصطفى ماهر(مترجم)، القاهرة: المطبعة العالمية، 1977.
- هايد. **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، أحمد رضا محمد(مترجم)، عز الدين فوده(مراجع)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
- الوقاد، محاسن محمد. **اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة 648 - 923هـ/1250 - 1517م**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- يانج، روبر. **أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب**، أحمد محمود(مترجم)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003.

المراجع الأجنبية

- Braudel, Fernand. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris: Armand Colin, 1966.
- Lane, Fredrik G. "Notes and suggestions, The Mediterranean spice trade", *American historical review*, vol. Xl, April, 1973.

عمر فروخ

العرب واليونان وأوروبا:

قراءة في الفلسفة

يتكـوّن الكتاب الأول العرب والفلسـفة اليونانيـة من مقدمة وسـتة فصول، وقد وصفـه المؤلف على أنه دراسـة موجزة تتناول الفلسـفة اليونانيـة في الدرجـة الأولى، وتؤكد منها ناحيتـين اثنتـين: أولاهما رسـم صـورة واضحة لهـذه الحركة العظيمـة في تاريخ الإنسـانية، وثانيتهما إبـراز أثر تلك الآراء التي كان لها فيما بعد تأثير ظاهر في الفلسـفة الإسـلامية. وفي صفحـات الكتـاب يقـوم المؤلـف بتعريـف الفلسـفة، والفلسـفة اليونانية خصوصًا، مبرزًا ومعرّفًا بأشهر مدارسها وأهمّها، من قبيل الأيونية والفيثاغورية والإيلية والطبيعية. ومن ثمّ يتحدث عن أسـباب ازدهار الفلسفة في اليونان دون سـواها، وكذلـك عن أسـباب انحدارها لاحقًا، موضّحًـا أثر هذه الفلسـفة في الفكـر العالمي، مـبرزًا الطرائـق التي وصلت عبرهـا إلى الـشرق. ويختتم الكتـاب بالحديث عـن بواعث نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية، وعن أبرز من قاموا بنقلها.

أمّـا الكتـاب الثـاني أثـر الفلسـفة الإسـلامية في الفلسـفة الأوروبيـة فيتكوّن من ثلاثة فصول رئيسـة، يسـتهلها الكاتب بطرح سـؤال: لا شـك أنّ للعرب فضلًا على العلوم والفلسفة، ولكـن ما درجة هذا الفضـل في التاريخ البشري؟ ويبدأ الكتاب بعـرض حـال أوروبـا في القـرون الوسـطى، وأبـرز الميادين التـي التقى فيهـا الشرق بالغـرب، وهي الأندلـس وصقلية والساحل السوري المصري؛ وفي الفصل الثاني يوضح فضل العرب على الفلسفة، وأثر العرب في مجموع الفلسفة الأوروبية الوسـيطة؛ ليختم الكتاب في الفصل الثالث بالحديث عن ثلاثة من المفكرين الغربيين في العصور الوسـطى تأثّروا بالفلسـفة الأوروبية وهم: موسى بن ميمون، وألبرت الكبير، وتوما الأكويني، ويستعرض المؤلف حياة كل منهم، مبرزًا أهم مصنفاتهم وأبرز آرائهم، وكيف كان لقاؤهم بالفلسفة العربية.

أحمد أبو شوك | *Ahmed Abu Shouk

الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السُّودان (1881 - 1885)

المرتكزات والمتغيرات

The Military Strategy of the Mahdi in Sudan (1881 - 1885)

يهدف هذا البحث إلى تقديم عرضٍ تحليلي للإستراتيجية العسكرية لمحمد أحمد المهدي (1881 - 1885) ضد الحكم التركي - المصري (1821 - 1885) في السُّودان، وذلك ابتداءً من تاريخ إعلان الدعوة المهدية في "الجزيرة أبا" على النيل الأبيض عام 1881، وانتهاءً بتحرير الخرطوم وقتل الجنرال البريطاني غردون باشا عام 1885. وتستند الدراسة في سردها التاريخي ومناقشاتها إلى المنهج التاريخي التحليلي الذي يستأنس بمناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، ويستمد مادته من الوثائق التاريخية التي صدرت من أنصار المهدية وخصومهم السياسيين آنذاك، مع اصطحاب الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تشكلت فيه أحداث الثورة المهدية، والمادة الوثائقية التي تعكس جوانب مختلفة من تاريخها النضالي. وترتكز مناقشة الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في بُعدها النظري على الأطروحات التي قدَّمها الإستراتيجي العسكري الصيني صن تزو في كتابه المعنون: فن الحرب، الذي يمثل أحد الأدبيات المهمة في علم الإستراتيجية العسكرية المعاصر، وكذلك على مفهوم الشخصية الكاريزمية عند عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، والذي يُساهم في تحليل شخصية محمد أحمد المهدي القيادية وعلاقتها بالإستراتيجية العسكرية التي نُفذت على أرض الواقع.

Abu Shouk offers an analytical review of the military strategy of Muhammed Ahmed al-Mahdi in the 1881 - 1885 against Ottoman-Egyptian rule in Sudan (1821 - 1885). The period begins with the declaration of the "Mahdiyya" from Aba Island on the White Nile in 1881, and ends with the liberation of Khartoum and the killing of British General Gordon in 1885. The study's historical narrative and discussion is based on the analytical method and further integrates methodologies from other social sciences. Its material derives from the historical documents available from both the political supporters and opponents of the "Mahdiyya" at the time, touching on the political, social, and economic reality that formed the events of the Mahdi Rebellion, as well as documentary material that reflects different aspects of its history of struggle. In its theoretical dimension, the discussion of the military strategy of the Mahdi focuses on the suggestions made by the Chinese military strategist Sun Tzu in The Art of War, which is a key work for modern military strategy. It also considers the concept of the charismatic personality in the work of the German sociologist Max Weber, which helps analyse the personality of Mohammed Ahmed al-Mahdi as a leader and its relationship with the military strategy he implemented on the ground.

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قطر.

مقدمة

يُعدُّ مصطلح إستراتيجية من المصطلحات القديمة المشتقة من الكلمة الإغريقية Strategos، والتي تعني الجيش، أو الحشود العسكرية، أو توصيف فن الحرب وإدارتها. وتطوَّر المصطلح إلى علمٍ يُقصد به التخطيط المستقبلي الراشد الذي يهدف إلى تحقيق غايات عليا وفق وسائل وأدوات إجرائية وعملية مُحدّدة. وظهرت معالم الإستراتيجية العسكرية في أول تجلياتها في كتاب صن تزو Sun Tzu المعنون: **فن الحرب**[1]، الذي ألَّفه في القرن السادس قبل الميلاد، ثم تُرْجِمَ الكتاب إلى اللغة الفرنسية عام 1782م، وظهرت أول ترجمة إنكليزية له عام 1905، وبعد ذلك أضحى الكتاب يمثل مرجعيةً عسكريةً في فن الحرب وإدارتها، وكان من ضمن الأدبيات العسكرية التي استأنست بها الإدارة الأميركية في عملية "عاصفة الصحراء" ضد الجيش العراقي الغاصب لدولة الكويت في العقد الأخير من القرن العشرين[2]. ويهدف هذا البحث إلى دراسة الإستراتيجية العسكرية للإمام محمد أحمد المهدي (1844 - 1885م) في السُّودان وتحليلها، وسيكون إطاره النظري مستندًا إلى بعض الإشارات الإستراتيجية الواردة في كتاب صن تزو، والتي تربط فن الحرب بخمسة عوامل ثابتة، هي: النظام العام، والقيادة العسكرية، والقانون الأخلاقي للجُند، وتضاريس الأرض، وطبيعة المناخ[3]. ومن جانب آخر، يستند هذا الإطار النظري إلى مفهوم الشخصية الكاريزمية عند ماكس فيبر Max Weber[4]، ومدى تطابق مواصفاتها مع شخصية المهدي الذي استطاع أن يوظف حزمة من الخطط العسكرية في حربه ضد الحكم التركي في السُّودان. وهنا تبرز جملة من الأسئلة الموضوعية التي تُساعدنا في استيعاب العلاقة الجدلية التي نشأت بين الإمام المهدي والمجتمع السُّوداني الذي عاش فيه آنذاك، وفي قياس مدى كفاءة الإمام المهدي القيادية في توظيف الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية لخدمة إستراتيجيته العسكرية وتطبيقها على أرض الواقع. وتطرح الدراسة أسئلة من قبيل: ما مرتكزات تلك الإستراتيجية التي استخدمها ضد الأتراك وأعوانهم من السُّودانيين والمصريين لتحقيق أهدافه الرامية لتغيير نظام الحكم التركي - المصري (1821 - 1885)؟ وهل كان موقعه القيادي موقعًا محوريًا بالنسبة إلى تلك المرتكزات وتفعيلها في سبيل تحقيق أهدافه الإستراتيجية العليا؟ وإلى أي مدى تبيّن تلك المرتكزات الفكرية والعسكرية قدرة الإمام المهدي على تطويع الظروف البيئية والمجتمعية المحيطة لإنجاز المتطلبات الإجرائية والعملية اللازمة لتنفيذ مشروعه الثوري - الإصلاحي في السُّودان؟ وهل كانت إستراتيجيته العسكرية رصيدًا لبناء الدولة المهدية (1885 - 1898) وعلاقاتها الخارجية، أم كانت خصمًا من مرحلة البناء والتأسيس التي أعقبت انتصارات الثورة في الخرطوم عام 1885؟

الإطار النظري لإستراتيجية المهدي العسكرية

تعد الإستراتيجية العسكرية جزءًا من الإستراتيجية العليا التي تتبناها أي حكومة أو كينونة سياسية معارضة لها؛ وذلك لتحقيق هدفٍ معينٍ على المدى البعيد في ضوء الإمكانات العسكرية المتاحة، والوسائل الحربية المستخدمة. وبهذه الكيفية تجري عملية عسكرة

1 Sun Tzu, *The Art of War*, Translated by Lionel Giles (London: The Puppet Press Classic, 1910).

2 صن تزو، **فن الحرب**، تقديم وتعليق أحمد ناصيف (حلب: دار الكتاب العربي، 2010)، ص 5.

3 Tzu, p. 35.

4 Max Weber, *Economy and Society*, Translated by Gunther Roth and Claus Wittich (New York: Bedminister, 1968), p. 241.

يقصد بمصطلح كاريزما Charisma المواهب الجاذبة الساحرة التي يتفرّد بها القادة والزعماء التاريخيون، وقد تُوهَب أيضًا لأفراد يتحلون بسمات تجذب الأفراد إليهم وتجعلهم قريبين إلى قلوب الناس. وقد تطوَّر هذا المصطلح من التُراث المسيحي الديني إلى الإطار السياسي بفضل إسهامات عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، والذي وصف المصطلح بأنه "موهبة-ساحرة" يحظى بها أفراد غير عاديين من القادة والزعماء، والذين يُحدث خطابهم العام فعل السحر في قلوب الجماهير المؤيدة لهم. وقد وضع خمسة شروط للقيادة الكاريزمية، تتمثل في: الاستقامة الأخلاقية والمناقب السلوكية الجاذبة للقائد الكاريزمي مع وجود أزمة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية في المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يكون لذلك القائد رسالة طموحة بشأن حلّ الأزمة الماثلة، والتخطيط لمستقبل أفضل يلامس تطلعات مناصريه، وأن يفلح في تجييش المجتمع خلف رسالته الإصلاحية، ويرافق ذلك التجييش سلسلة من النجاحات المشهودة والمنسوبة لصاحب الرسالة في مجال الإصلاح لتجاوز تحديات الأزمة القائمة، أيًا كان شكلها. وبذلك يخلص ماكس فيبر إلى أنّ القائد الكاريزمي ابن بيئته ومجتمعه، لكنه يختلف عن الآخرين بسلوكه الجاذب والمتفرّد، واستيعابه الشامل لقضايا المجتمع وحاجاته، وقدرته التنظيمية على تفعيل تلك الاستجابة المجتمعية في شكل برنامج إصلاحي، يتحدى الوضع القائم، ويطرح البدائل التي ترسم الطريق لتحقيق غايات منشودة ومحفوفة بالمخاطر والابتلاءات.

الصراع السياسي والفكري وفق خيارات تتدرج بين الهجوم العنيف المباشر أو غير المباشر ضد الخصم، أو الموقف الدفاعي الذي يرمي للحفاظ على الوضع القائم في الساحة السياسية والعسكرية. ولتحقيق أي من هذه الخيارات تُستخدم المناورة العسكرية، موظفةً الأدوات والوسائل الحربية المتاحة لحسم الصراع لمصلحة الأهداف الإستراتيجية العليا. ويُساهم فن المناورة بهذه الطريقة في استيعاب الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية للعدو حسب ظروف الزمان والمكان.

بدأت معالم هذه النظرة الإستراتيجية العسكرية تتشكّل في القرن السادس قبل الميلاد، عندما ألّف الإستراتيجي العسكري الصيني صن تزو كتابه **فن الحرب**، مشيرًا إلى خمسة عناصر رئيسة لإدارة الحرب، وتوظيفها صوب الهدف السياسي الذي لا يتحقق من دونها. ويأتي في مقدمة هذه العناصر القائد العسكري المؤهل الذي يتحلّى بفضائل الحكمة والإخلاص والتفاني في العمل والشجاعة والحزم؛ وذلك في إطار قانونٍ أخلاقي ينظِّم علاقته بالجُند، ويجعلهم منصاعين لتنفيذ أوامره، وفق نظام عام لتوزيع الرتب العسكرية، وتقسيم الجيش إلى وحدات صغيرة، بما فيها وحدة صيانة الطرق والإمدادات التي تصل إلى الجيش، والتحكم في الإنفاق العسكري. ويوصي أيضًا بالمعرفة التامة بتضاريس الأرض التي يتحرك عليها الجُند، وملائمة المناخ مع تلك التحركات العسكرية والإجراءات الحربية المصاحبة لها. ولا ينسى أهمية المناورة العسكرية بوصفها عاملًا مساعدًا ومهمًا في استخدام الإمكانات والوسائل العسكرية المتاحة من طرفٍ، وتحقّق الهدف السياسي العام من طرفٍ آخر. ولذلك يصف تزو الحرب بأنها خدعة؛ أي أنّ الجُند عندما يكونوا قادرين على الهجوم يجب أن يظهروا العكس، وعندما يكونوا قريبين من العدو يجب أن يشعروه ببُعدهم، وعندما يكونوا بعيدين يجب أن يظهروا له أنهم على مقربة منه. وكذلك يجب عليهم أن يُقلقوا مضجعه عندما يخلد للراحة، ويفرّقوا بين عناصره عندما يكون متحدًا، ويهجموا عليه عندما يكون غير مستعدٍ للهجوم[5]. وإلى جانب الخدعة، يرى تزو ضرورة استخدام الجواسيس لجلب المعلومات الاستخباراتية عن العدو، لكنّه يحذّر من الاعتماد المفرط على معلومات الجواسيس التي يجب أن تخضع لمعايير المفاضلة والترجيح بمقارنتها مع المعلومات الاستخباراتية المتوافرة من مصادر أخرى[6].

وإذا أمعنا النظر في هذه العناصر الخمسة التي رصدها صن تزو، وحلل مفرداتها في إطار العوامل المساعدة الأخرى، نصل إلى أنّ معظم العمليات العسكرية التي نُفذت على صعيد الواقع في العالمين القديم والوسيط لم تخرج عن هذا الإطار، بما في ذلك الإستراتيجيات العسكرية التي نُفذت في عهد الرسول ﷺ والفتوحات الإسلامية اللاحقة[7]. أما منظّرو عصر النهضة الأوروبية والعصور التالية، فقد ارتبط مفهوم الإستراتيجية عندهم بالجانب العسكري الذي استند إلى النشاطات الحربية التي قادتها بعض الدول الأوروبية لتسوية نزاعاتها الداخلية، وبسط نفوذها السياسي والاقتصادي خارجيًا، علمًا بأنّ ذلك النفوذ كان مدفوعًا بمخرجات الاقتصاد الرأسمالي الذي يهدف إلى السيطرة على المواد الخام - المتوافرة خارج حدود الدول الأوروبية - والأيدي العاملة الرخيصة، والسوق التجارية الرائجة لتصريف المنتجات الصناعية لتلك الدول الرأسمالية، واستثمار رؤوس أموالها. وبناءً على ذلك، يُعرِّف عبد القادر محمد فهمي الإستراتيجية العسكرية بأنها "الاستخدام الفعلي للقوات المسلحة بمختلف صنوفها القتالية عند التلاحم ميدانيًا مع قوات العدو، وأنها تهتم بعملية التحضير والإعداد والتخطيط لكيفية استخدام القوات المسلحة في حرب تخوضها الدولة"[8]. ويفرِّق فهمي بين الإستراتيجية العسكرية والعقيدة العسكرية، موضحًا أنّ الأخيرة تقوم بتوجيه النشاط العسكري "في ضوء الأفكار والتعاليم التي تخص العلم العسكري، وفنون

---

5 Tzu, pp. 38 - 40.

6 Ibid., pp. 152 - 153.

7 أشار إلى ذلك عبد الغني بن عبد العزيز في أطروحته المقدمة لنيل درجة الماجستير في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. لمزيد من التفاصيل، انظر:
Abdul Ghani bin Abdul Aziz, The Underlying Factor for the Ascendancy of Muslim Army over its Persian and Byzantine Counterparts (663 - 644 ACE): An Analysis Based on Sun Zi's Art of War, M.A. Thesis, International Islamic University Malaysia, 2006.

8 عبد القادر محمد فهمي، **المدخل إلى دراسة الإستراتيجية** (عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010)، ص 41.

الحرب التي تطبّقها القُوات المسلحة بعد تأمين مستوى متقدم في مجال إعدادها وتدريبها، مما يجعلها قادرة على مجابهة الظروف والأخطار كافة، بهدف تحقيق النصر العسكري عند اشتراكها بأي صراع مسلح"[9]. فعملية التمييز بين العقيدة العسكرية والإستراتيجية العسكرية تُعدُّ إضافة مهمة؛ لأنها تفسّر ما أجمله صن تزو عندما تحدث عن دور الحاكم ودور القائد العسكري، مبينًا أنّ الأول يكون مسؤولًا عن رسم معالم الهدف السياسي العام، والثاني يقوم باستخدام الآلة الحربية تخطيطًا وتنفيذًا لبلوغ ذلك الهدف. ومن أهم الدراسات الإستراتيجية العسكرية التي صدرت في هذا الشأن، دراسة نيقولا ميكافيللي Niccolo Machiavelli (ت. 1527م)[10]، وهنري لويد Henry Lloyd (ت. 1783م)[11]، وكارل كلاوزفيتز Carl Clausewitz (ت. 1871م)[12]، وجميعها تحركت داخل الإطار الذي وضعه صن تزو، مع مراعاة الاختلافات المرتبطة بالزمان والمكان، والاعتبارات المعنوية، والمعطيات المادية لكل دراسة حالة على حدة.

تقودنا هذه التوطئة إلى طرح سؤالين منهجيين هما: ما علاقة هذا الإطار النظري للإستراتيجية العسكرية بالشخصية الكاريزمية عند ماكس فيبر؟ وكيف يمكن توظيف طرفي هذه المعادلة النظرية لمناقشة الإستراتيجية العسكرية للإمام محمد أحمد المهدي في السُّودان؟ تتمثل العلاقة بين طرفي المعادلة النظرية في أنَّ صن تزو قد جعل القيادي العسكري في وضع محوري بالنسبة إلى العناصر الأربعة الأخرى الرئيسة المرتبطة بعملية فن الحرب وإدارتها. ووصف القائد العسكري ببعض الصفات التي تقاطعت مع المواصفات التي وضعها ماكس فيبر للشخصية الكاريزمية. فالإطار النظري في شقه الأول نستخدمه لتوطين الإستراتيجية المهدية وتقييمها في إطاريها العقدي والعسكري، وشقة الثاني يعيننا في الإجابة عن سؤالين محوريين آخرين هما: هل كان محمد أحمد المهدي شخصية كاريزمية[13]؟ وإلى أي مدى استطاعت شخصيته الكاريزمية أن تؤسس لإستراتيجية عسكرية كان لها الدور الرئيس في نجاح حروب المهدية ضد الحكم التركي في السُّودان؟

لا شك أنّ هذا الإطار النظري يُساعدنا في تحليل مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي التي تمثلت في القضاء على الحكم التركي في السودان وإقامة حكم إسلامي بديل، مستندًا في ذلك إلى القرآن والسنة والمنشورات التي أصدرها المهدي حسب مقتضيات الحال. وكذلك يعيننا في مناقشة إستراتيجية المهدية العسكرية التي ارتبطت بفكرة المهدي المنتظر كإطار عقدي - معنوي، واستمدت فاعليتها العسكرية من الهجرة، والبيعة، والدعوة للجهاد، والإدارة التنظيمية للجند، واستغلال الظروف المناخية وتضاريس الأرض.

العقيدة العسكرية للإستراتيجية المهدية

تبين مجلدات كتاب **الآثار الكاملة للإمام المهدي**[14] أنّ العقيدة العسكرية للإستراتيجية المهدية كانت مُستَمدةً من فكرة المهدي المنتظر الشيعية، والتي تستند إلى بعض الأحاديث المرويَّة عن الرسول ﷺ، والآيات القرآنية التي أُوِّلت في شأن المهدي المنتظر، وظهوره آخر الزمان، ليملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا. والفكرة في جوهرها ذات مدلول اجتماعي - سياسي معارض للسلطة الحاكمة، التي يعدها المهديون سلطةً فاسدةً وجائرةً. ولذلك وصف محمد إبراهيم أبو سليم فكرة المهدي المنتظر بأنها "شعار المضطهدين والمغلوبين

9 المرجع نفسه.

10 Niccolo Machiavelli, *The Art of War*, revised edition (Da Capo Press, 2001).

11 Patrick J. Speelman, *War, Society and Enlightenment: The Works of General Lloyd* (Leiden: 2005).

12 Carl von Clausewitz, *The Principles of War*, translated by Hans Wilhelm Gatzke (New York: Courier Dover Publications, 2003).

13 Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski, "Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan," *Comparative Studies in Society and History* 14, no. 2 (March 1972), pp. 193–214.

14 محمد إبراهيم أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، 7 مجلدات (الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990 - 1994).

على أمرهم، وجنة موعودة ترضي خيالهم، وتشبع رغباتهم المكبوتة، وطموحاتهم المثالية ... في العدل [المطلق]، والقضاء المبرم على العدو"[15]. إلا أنَّ المشايعين لهذه الفكرة اختلفوا في تحديد ماهيتها الوظيفية، وتاريخ حدوثها زمانًا ومكانًا، والصفات الواجب توافرها في صاحب الدعوة وحامل الرسالة؛ أي المهدي المنتظر. فالمتصوفة جعلوا من شخصه قطبًا صوفيًا، وخاتم دولة مثالية، قوامها الأولياء والصالحون. وأهل السنة آثروا تصويره في شخص مصلحٍ ديني، يعيد للإسلام مجده ونقاءه الأول، وفق منهاج السلف الصالح وسيرتهم. أما الشيعة الإمامية (الأثنا عشرية) فقد حصروا الفكرة في آل بيت رسول الله ﷺ، ورهنوا ظهورها بالإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري، والذي اختفى بعد وفاة والده سنة 874 ميلادية[16].

راجت هذه الفكرة في سودان القرن التاسع عشر للميلاد نتيجةً لتصاعد ظلم الحكم التركي (1821 - 1885م) الذي خلق بيئة سياسية واجتماعية صالحةً لانتشارها، وكذلك لتداول كتب التُراث الإسلامي التي كانت تلمح بتشابه الظروف المواتية لظهور المهدي المنتظر، فضلًا عن قوافل حجاج غرب أفريقيا العابرة للحدود السُودانية صوب الأراضي المقدسة، والتي كانت تبشِّر بظهور المهدي المنتظر في الشروق (أي الشرق). هكذا بدأت الفكرة تتشكّل في مخيلة الإنسان السُوداني، الذي ظلّ رافضًا للحكم التركي، وكانت معارضته تنطلق من مسوغات ومصالح شتى، لكنها جميعًا تتفق في معارضة النظام الحاكم، والبحث عن بديل آخر. وفي تلك الأثناء، برز اسم الشيخ محمد أحمد بن عبد الله الذي توافرت له صفات متميزة أهلَّته لقيادة المجتمع السُوداني آنذاك، وتلك الصفات ارتبطت بسلوكه الصوفي الزاهد الذي أكسبه تقدير قطاع عريض من الناس، كما ارتبطت بعلمه الشرعي المالك لناصية الفقه والإفتاء في أمور الحكم والجهاد. وطفت على السطح شخصيته الكاريزمية التي منحتها فكرة المهدي المنتظر بُعدًا أيديولوجيًا قويًا وفاعلًا؛ لأنّ الفكرة في حد ذاتها كانت شاخصة في مخيلة العقل الصوفي السُوداني. لذلك كان الإعلان عن فكرة المهدية من رجل عُرف بالزهد والصلاح، ومعارضته للحكم التركي، إعلانًا سياسيًا وأيديولوجيًا قوي الأثر؛ لأنه خاطب أحلام المظلومين بعدل يرعى تحت سمائه "الذئب مع الغنم"؛ وشحذ أشواق أهل البادية والريف إلى الخلاص من الضرائب التركية الباهظة، وفظاعة جباتها "الباشبوزق"[17]، وغازل أيضًا تطلعات أولئك الذين فقدوا نفوذهم السياسي، أو الديني، أو التجاري في عهد الحكومة التركية[18]. وفي تلك الأثناء، بدأ إعلان الدعوة المهدية في الجزيرة أبا على النيل الأبيض؛ إذ شرع محمد أحمد (المهدي لاحقًا) بالتحرك سرًا وسط الأعيان ورجال الطرق الصوفية بمنطقة النيل الأبيض والمناطق المجاورة لها ملتمسًا رغباتهم وواضعًا الأساس لدعوته الإصلاحية القادمة. ومن أصدق الشواهد على تلك التحركات السرية، توصيف يوسف ميخائيل القبطي لزيارة محمد أحمد (المهدي) الأولى للأبيض عام 1879، ومخرجاتها السياسية، قائلًا:

الرجل عالم، صاحب علم، زادت محبته في قلوبهم [أي أعيان الأبيض]، وفرحوا به فرحًا شديدًا، من شدة تواضعه وحلاوة مقاله، كأنه يسقي في أرض عطشانة حتى غرس محبته في قلوبهم، وجذبهم بمذاكرته، وسحرهم بحسن مقاله. ما ترك أي بيت كبير، ومن له اسم مشهور إلا زاره، كمثل حاج خالد العمرابي، وأولاد ولد العريق، وأولاد عربي، والفكي مكاوي الركابي، وأهل ولد أبو صفية، وخصوصًا

15 محمد إبراهيم أبو سليم، **الحركة الفكرية في المهدي** (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1970)، ص 1.

16 لمزيد من التفاصيل، انظر:
Ahmed Ibrahim Abushouk, "The Ideology of the Expected Mahdi in Muslim History: The Case of the Sudanese Mahdiyya, 1881 - 1898," *Pakistan Journal of History and Culture*, vol. xxxi (2009), pp. 43 - 60.

17 "الباشبوزق" أو "باشي بوزوق" كلمة تركية معناها الجامح أو الشاذ، وكانت تُطلق في بادئها على العيَّارين الذين لا مأوى لهم، ثم على فصائل من الجند غير النظاميين الذين يعيّنون لمساعدة القوات النظامية في بعض المهمات العسكرية والإدارية. وفي السُودان يُطلق المصطلح على الجنود غير النظاميين الذين عيّنتهم الحكومة التركية لمساعدتها في بعض الأعمال الضبطية والإدارية.

18 لمزيد من التفاصيل، انظر: نعوم شقير، **جغرافية وتاريخ السُودان** (بيروت: دار الثقافة، 1967)، ص 315 - 320؛ وب. م. هولت، **المهدية في السُودان**، ترجمة جميل عبيد (بيروت: دار الفكر العربي، 1978)، ص 34 - 49؛ ومحمد سعيد القدال، **الإمام المهدي محمد أحمد بن عبد الله (1844 - 1885): لوحة لثائر سوداني** (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1985)، ص 3 - 21.

إلياس باشا أم برير، وبان النقا الرازقي ... ويلقي عليهم المذاكرة بالدين، ورغب فيهم الرفيع والوضيع، كبير وصغير، وحفر الأساس في كوردفان، وتوجه لمحل إقامته، وعندما يعود يرمي البناء على الأساس[19].

وبذلك عرض يوسف ميخائيل بعض الصفات الكاريزمية للإمام المهدي، وقدَّم صورة ذهنية حيَّة لمجتمع الأبيض الذي كان مهيَّأً لقبول الدعوة المهدية، ثم أبرز طرفًا من ملامح الدعوة السريَّة للمهدية التي كانت "مشوبة بالحذر والإشارات الباطنية"[20]، مثل "إقامة الدين، والدخول في العهد المعلوم". ويتجلى ذلك في الرسالة الخطية التي بعثها محمد أحمد (المهدي لاحقًا) إلى الشيخ محمد الطيب البصير، قائلًا:

لا يخفى عزيز علمكم، أنَّ الأمر الذي نحن عليه لا بد من دخول جميع المؤمنين فيه؛ إلا مَنْ هو خالٍ من الإيمان، وذلك مما ورد في حقائق غيبية، وأوامر نبوية، أوجبت لنا مهمات صرنا مشغولين بها ... الأمر قد دهمنا من الله ورسوله، عاهدني على القيام به نحو عشرين ألفًا. والبشارة من الله، ومنه ﷺ، أنّ أصحابنا في تقويم الدين مئتان وأربعون ألفًا، وستون ألفًا من الأولياء الميتين، وملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فسبحان من يظهر قدرته في أضعف خلقه. وهذا الأمر مكتوم لا يظهر إلا بحلف وعهود على كتمه حتى يظهره الله تعالى[21].

وبهذا المدخل الصوفي وإشاراته الضمنية بشَّر الشيخ محمد أحمد بمعالم دعوته المهدية، وشجَّع الأعيان على الالتحاق به في الجزيرة أبا قبل إعلان الدعوة. ولذلك يقول للشيخ محمد الطيب البصير: "فالسعيد من بادر إلى اغتنام أوائله بأهله وأولاده وأمواله، ومن لم ينفذ هذا الأمر فهو المعزول الذي حكم الله ورسوله عليه بالحدّ المنقول ... وكل ذلك تلويحات الأسرار لا تباح، وهذا مما يكتم وجوبًا، ولا يطلع عليه إلا أنت، حتى يظهر الله الأمر"[22].

وفي رسالة لاحقةٍ يصرّح الشيخ محمد أحمد بأمر مهديته للشيخ محمد الطيب البصير، مستندًا إلى حضرة نبوية دار فيها حوار بين الفقيه عيسى والرسول ﷺ، فقد قال السلف للخلف: "شيخك هو المهدي"، فردّ عليه الفقيه عيسى قائلًا: "إني مؤمن بذلك". فيقول الرسول ﷺ: "من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله". ثم يسأله الفقيه عيسى: "يا سيدي يا رسول الله الناس من العلماء يستهزؤون بنا، والخشية أيضًا من التُرك، فيقول ﷺ: والله والله والله إنْ قوي يقينكم، إنْ أشرتم بأدنى قشّة تنقضي حاجتكم". ثم يبتدر الشيخ عبد الله (ربما يكون الخليفة عبد الله لاحقًا) الحوار مع الشيخ الطيب قائلًا: "نحن مصدقون بمهدية شيخنا، والناس ليسوا مصدقين"، فيقول الشيخ الطيب: "إنَّ شيخك حين ولادته عرَّفوه أهل الباطن والحقيقة أنه المهدي، فما تمَّ الأربعين يومًا عرفته النباتات والجمادات بأنه المهدي"، ثم يقول الشيخ الطيب: الطريقة فيها الذل، والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات، فتلك ستة؛ والمهدية أيضًا فيها ستة: الحرب، والحزم، والعزم، والتوكل، والاعتماد على الله تعالى، واتفاق القول. فهذه الأثنتا عشرة لم تجتمع لأحد إلا لك"[23]. والإشارة هنا إلى محمد أحمد المهدي.

تشكّل هذه النصوص المختارة الأبعاد الأساسية لعقيدة محمد أحمد المهدي العسكرية؛ إذ تمَّ بموجبها تصنيف كل مَنْ لم يؤمن بالمهدية بأنَّه كافر، بذلك يستباح دمه، وعِرْضَه، وماله؛ وعلى النسق ذاته صُنِّفَ الحُكام والمحكومون في السُّودان إلى معسكرين: معسكر

19 يوسف ميخائيل، **مذكرات يوسف ميخائيل عن أواخر العهد التركي والمهدية في السُّودان**، تحقيق أحمد إبراهيم أبو شوك (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2004)، ص 43 - 44.

20 القدال، ص 65.

21 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، ذو القعدة 1297هـ/ 5 تشرين الأول/ أكتوبر- 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1880م، أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ص 71.

22 المرجع نفسه، ص 72.

23 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، غرة شعبان 1298هـ - 30 حزيران/ يونيو 1881م، أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج 1، ص 78.

المهدية ومعسكر المعارضين لها، أو عالم المهدية وعالم التركية، كما يرى القدال[24]. وبناءً على هذا التصنيف الإقصائي في الصراع، استندت عقيدة المهدية العسكرية إلى مبدأين رئيسين؛ أحدهما صوفي النزعة يقوم على الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات، والآخر عسكري التوجه يرتكز على الحرب ولوازمها المعنوية والنفسية المتمثلة في الحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفاق القول. ويضاف إلى ذلك أنّ عقيدة المهدية العسكرية، حسب زعم صاحبها، كانت مسنودة من الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ، وأعداد غير معلومة من الأولياء والصالحين والملائكة. ويعني ذلك أنَّ انتصار المهدي على أعدائه ليس محل شكٍ أو تضليل، بل يجب على العقلاء الالتحاق بالمهدية، والتخلُّص من ثلاث خصال ذميمة، هي "الحسد، والكذب، وترك الصلاة"[25]. وبهذه النظرة الشاحذة لهمم الأنصار، استطاع المهدي أن يصنع نظامًا عسكريًا وسلوكيًا مُحكمًا بينه وبين أنصاره لتحقيق مستلزمات الحرب، المتمثلة حسب رؤية صن تزو، في "النظام العام"، و"القانون الأخلاقي للجُند"، و"القيادة العسكرية" المؤهلة. وتأسيسًا على ذلك، يبقى هناك سؤال جوهري هو: ما المرتكزات الإستراتيجية التي أُسست عليها عقيدة محمد أحمد ا لمهدي العسكرية؟

الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي: المرتكزات والمتغيرات

تقوم مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي ومتغيراتها على حزمة من القواعد التنظيمية المستقاة من سيرة الرسول ﷺ وأدبيات المتصوفة، والملامسة في كلياتها لمتطلبات فنون الحرب وإدارتها حسب رؤية صن تزو. فالمتغير في الإستراتيجية العسكرية المهدية كان يتمتع بحرية حركة سابقة ولاحقة للمرتكز الثابت، والذي يهدف إلى تحقيق الهدف السياسي العام للحركة المهدية. وكانت المرتكزات والمتغيرات مجتمعة تمثل الضوابط التنظيمية الناظمة لطبيعة العلاقة التي نشأت بين الإمام المهدي وجماهير الأنصار التي كانت مسحورة بقيادته الكاريزمية. ونعرض في الفقرات الآتية تلك المرتكزات والمتغيرات المصاحبة لها بالتفصيل، ثم نناقش طبيعة الوشائج التنظيمية التي جمعت بينها، وفعَّلت حركتها في إطار الغايات التي تنشدها الثورة المهدية.

الهجرة

تأتي الهجرة في مقدمة المتغيرات التي استندت إليها إستراتيجية المهدي العسكرية، وكما نعلم أنّ مصطلح الهجرة مستعار من سيرة الرسول ﷺ، مع العلم أنّ هناك أحاديث تشير إلى منع الهجرة بعد الفتح (أي فتح مكة). لكن الخلاف الفقهي في هذه القضية لم يكن محل اهتمامنا، بل الشيء المهم هو أنَّ المهدي استخدم الهجرة كمتغيرٍ حيويٍ في إستراتيجيته العسكرية لجمع الأنصار وتحصينهم ضد الحكم التركي في السُّودان. ولذلك يصفها القدال بأنها "تكتيك نضالي متقدم، تلجأ إليه الحركات عندما يعزُّ عليها البقاء في مكان انبعاثها لشراسة المعارضة"[26]. ولذلك لم تكن الهجرة إلى الجزيرة أبا، ومن بعدها إلى قدير في جنوب كردفان، قرارًا عشوائيًا، بل تكتيكًا عسكريًا مدروسًا من حيث المكان والزمان اللذين اختارهما الإمام المهدي، حيث بدأت المناداة للهجرة في مرحلة مبكرة من عمر الدعوة السريَّة للمهدية، عندما خاطب المهدي بعض زعماء القبائل ومشايخ الطرق الصوفية، طالبًا منهم الانضمام إليه في الجزيرة أبا. وفي 12 رجب 1297هـ/ 21 حزيران/ يونيو 1880، أرسل خطابًا إلى الحاجة آمنة بنت الفقيه محمد نور، وعثمان الحاج صالح وأولاده وأهل بيته، مبشِّرًا إياهم بالبشارات التي وردت إليه بشأن المهدية، وحاثًّا إياهم على الهجرة إلى الجزيرة أبا: "فلازم، يا أحبابي، أن تجيبوا الأمر، وتأتوا إلينا سريعًا برمضان، فإن أمر النبي ﷺ بالاجتماع في شوال. فيكن الاهتمام في هذا الأمر، فإنه أمر من الله ورسوله، وما بعد أمر الله ورسوله

24 القدال، ص 77.

25 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، غرة شعبان 1298هـ - 30 حزيران/ يونيو 1881م، أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج 1، ص 79.

26 القدال، ص 93.

إلا الضلال وسوء الحال المضر ... في الدارين. فهذه نصيحتي لكم، فالحذر الحذر، والسلام"[27]. وفي خطاب لاحقٍ يوضح المهدي إلى عبد الفتاح بن الفقيه عبد الله المسوغات الداعية لإحياء الدين، ثم يحثه على الهجرة إلى الجزيرة أبا، قائلًا:

وإنه، سيدي، وردت في ذلك واردات وأسرار لا يجوز بثها إلا بالحضرة [أي الحضور إليه]، لكن سيدي إن هذا الأمر لا يتخلَّف منه مَنْ هو صحيح الإيمان. فإذا أتاك هذا الجواب، فهيا بأهلك، وإخوانك، وأصحابك، وأتباعك، ولا تعاين لفوات شيء. فمعلوم أن مَنْ ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه، والأخبار في ذلك كثيرة، كترك سليمان عليه السلام خيله لله، فعوضه الله عنه الريح، وترك نبينا عليه الصلاة والسلام وطنه وجميع المآرب، فأخلفه الله ما لا يخفى، وترك الصحابة أموالهم وأهلهم إلا من تبعهم[28].

ويؤكد الإمام المهدي وجوب الهجرة شرعًا في خطابه إلى دفع الله بقوي، قائلًا: "ومما أوجبه علينا ﷺ الهجرة، وهي واجبة كتابًا وسنةً، ومتحتمة لا يتخلَّف عنها إلا أهل الأعذار الصحيحة. وإجابة الدين واجبة، وإجابة داعي الله واجبة كتابًا وسنةً. ومن استنفره الإمام وجب عليه النفور"[29].

بهذه المختارات من خطابات المهدي التي بعثها إلى الأعيان ورجال الطرق الصوفية، يتضح أنّ الهجرة كانت متغيرًا (أو تكتيكًا) بالغ الأهمية من الناحية العسكرية؛ لأنها شكَّلت خط دفاع للدعوة المهدية الوليدة ضد أعدائها، وساهمت في قيام معسكرين متمايزين؛ أحدهما معسكر المهدي لإحياء الكتاب والسنة، كما يرى صاحب الدعوة، والثاني معسكر الترك الذين "سمَّاهم النبي ﷺ كُفَّارًا! قال بل هم أشد الناس كُفْرًا؛ لأنهم ساعون في إطفاء نور الله ورسوله"[30]. وبهذه النداءات استوفى المهدي شرطًا من الشروط التي وضعها ماكس فيبر؛ لنجاح رسالة الشخصية الكاريزمية، ويتمثل ذلك الشرط في ترسيخ قيم "نحن"، و"هم"، التي تجعل الرسول ﷺ يقف في صف المهدي وأنصاره، والشيطان في صف الأتراك الذين وصفهم الرسول ﷺ، حسب منشورات المهدية، بأنهم أشد الناس كفرًا. ولا شك أنّ هذا التقسيم العقدي شحذ همم الأنصار للوقوف بصلابة في وجه أعدائهم. وتتبلور صدقية ذلك في الحوار الذي جرى بين المهدي وأبي السعود بك العقاد[31] في الجزيرة أبا قبل الصدام العسكري، عندما قال أبو السعود للمهدي: "ارجع عن هذه الدعوى، فإنك لا تطيق حرب الحكومة، ولا نرى معك من يقاتلها؟ فأجابه محمد أحمد وهو يبتسم: أنا أقاتلكم بهؤلاء، وأشار إلى أصحابه، ثم التفت إليهم، وقال: أأنتم راضون بالموت في سبيل الله؟ فقالوا كلهم: نعم راضون بالموت في سبيل الله، وباذلون أرواحنا في رضى الله، ورسوله، ومهديه"[32]. يؤكد هذا المشهد أنّ الذين التحقوا بمعسكر المهدي في الجزيرة أبا قد آمنوا بالدعوة المهدية وقيادتها الكاريزمية، وأظهروا استعدادًا كاملًا لمواجهة أي عدو يقف في طريقهم. وأنَّ الهجرة إلى الجزيرة أبا، ومن بعدها إلى قدير، كانت رصيدًا عسكريًا مهمًا للثورة المهدية؛ لأنها أفسحت المجال لشحن الأنصار عقديًا، وإعدادهم عسكريًا لمواجهة "أعداء الدين" و"علماء السوء".

---

27 خطاب من المهدي إلى الحاجة آمنة بنت الفقيه محمد نور وحبيبنا وابننا عثمان الحاج صالح وأولاده وأهل بيته، 12 رجب 1297هـ - 21 حزيران/ يونيو 1880م، في: أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج1، ص 63 - 64.

28 خطاب من المهدي إلى عبد الفتاح بن الفقيه عبد الله، 3 ذو القعدة 1297هـ - 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1880م، في: المرجع نفسه، ص 69 - 70.

29 خطاب من المهدي إلى دفع الله بقوي، شوال 1298هـ/ 28 آب/ أغسطس- 25 أيلول/ سبتمبر 1881م، في: المرجع نفسه، ص 99.

30 خطاب من المهدي إلى كافة جبال الفونج عربها وهمجها إلى حدث منهى بني شنقول وجبل قبا، 7 محرم 1299هـ/ 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1881م، في: المرجع نفسه، ص 103.

31 هو محمد أبو السعود بله العقاد، مصري الأصل، قدم إلى السُّودان تاجرًا مع قريبه محمد أحمد العقاد، صاحب شركة العقاد التي كانت لها أعمال واسعة في الاستوائية بجنوب السُّودان، ثم أصبح مديرًا للشركة بعد وفاة صاحبها عام 1870م. دخل أبو السعود في صدام مع صموئيل بيكر وغردون بسبب سياساتهما الرامية إلى محاربة تجارة الرقيق، وبعد أن تضررت أعماله التجارية في الجنوب، انتقل إلى الخرطوم وصار معاونًا للحكمدار في الشؤون المالية. وبعد إعلان المهدية في الجزيرة أبا، أوكلت إليه مهمة مقابلة المهدي، وإقناعه بالعدول عن رأيه بشأن المهدية، إلا أنه فشل في تلك المهمة، ولجأ لاستخدام القوة، ولكنه خسر الرهان بعد أن مني جنوده بهزيمة نكراء على أيدي الأنصار. توفي عام 1881م، ويقال إنه مات مسمومًا. انظر:
Richard Hill, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan* (London: Frank Cass, 3rd ed., 1967), pp. 274 - 275.

32 نعوم شقير، **تاريخ السُّودان**، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم (بيروت: دار الجيل، 1981)، ص 337.

وبذلك كانت الجزيرة أبا تمثل المحطة الأولى للهجرة التي بلغت ذروتها في "ماسة" في أقصى الغرب، والملاصقة لجبل يُقال له "قدير"، بناءً على الأمر الوارد للمهدي من الرسول ﷺ - كما يزعم - بأنّ جميع الناس مأمورون بالهجرة إلى منطقة ماسة في جنوب كردفان[33]. ولا شك أنّ هذا الخيار كان له بُعد عقدي، وآخر إستراتيجي. ويتمثل البُعد العقدي في أدبيات التُراث الإسلامي التي أشارت إلى ظهور المهدي المنتظر في جبل ماسة، والبُعد الإستراتيجي يرتبط بطبيعة تضاريس المنطقة التي اختارها المهدي معسكرًا لجُنده، بحجة أنها تبعد عن مركز السُّلطة التركية الحاكمة في الأبيض والخرطوم، وأنها تتمتع بحماية الملك آدم أم دبالو، ملك جبال تقلي[34]. وبهذا الاختيار حقق الإمام المهدي شرطًا أساسيًا من الشروط التي وضعها صن تزو لإدارة الحرب الناجحة؛ أي طبيعة تضاريس الأرض التي أدار المهدي منها معاركه العسكرية الحاسمة ضد راشد بك أيمن[35] والشلالي باشا[36].

البيعة

البيعة عبارة عن عقد سياسي -أخلاقي ينشأ بين صاحب البيعة والمبايعين له لتحقيق هدف معين. فالإمام المهدي قد بايع نفرًا من السُّودانيين قبل أن يعلن بأنه المهدي المنتظر، ولكنه بايعهم على نصرة الدين وإحياء القيم الإسلامية، وطلب منهم أن يكتموا تلك البيعة إلى أن يظهر أمره للناس جليًا[37]. وبذلك برزت أهمية البيعة بصفتها مرتكزًا من مرتكزات إستراتيجية المهدي العسكرية بعد اللقاء العاصف الذي حدث بين أبي السعود والمهدي في الجزيرة أبا. وبعد ذلك اللقاء حذَّر المهدي أنصاره، قائلًا: "أيها الناس إنَّ الترك رجعوا لطلب المدد، وسيعودون إلى حربنا، فمن كان منكم خائفًا على أولاده، وأمواله، ليخرج منا، فنحن سامحون له، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج، فإن سَلِمْنَا فعودوا إلينا؛ وإلا فقد أحرزتم أبناءكم وأموالكم"[38]. فجاء رد أنصاره بلسان واحد: "يا سيدي نحن بايعناك على الموت، ورضينا بذلك، ولا نرغب بنفسنا عن نفسك، بل نحن معك حيثما توجهت، فمر بما شئت، فنحن لك سامعون، ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله"[39]. وبذلك شكلت البيعة رباطًا إستراتيجيًا وأخلاقيًا بين المهدي وأنصاره، يمكن أن يُصنّف في خانة

---

33 خطاب من المهدي إلى كافة الأحباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 615. النص الكامل لهذه الفقرة يقرأ هكذا: "أيها الأحباب إني محمد بن عبد الله، وأبي حسني من جهة أبية وأمه، وأمي عباسية من جهة أبيه وأمها، حينئذ لا شك أني من نسل المصطفى ﷺ، وإني وُلدت في بحر النيل، وهاجرت إلى ماسة في أقصى الغرب، بلصق جبل يقال له قدير؛ لأني موعد به فلا تلبسوا على أنفسكم بقول ظهورنا في المشرق، المعني أننا نظهر بالمشرق، ويملأ الله لنا البلدان عدلًا كما ملئت جورًا، ويدر الله لنا الأرزاق درًا، ويفيض الماء غيظًا، وتتآنس الذياب، يعني بها السباع الضارية في الأنعام، ويؤمن كل مؤمن من سم الحيَّة. وهذا كله بعد وصولنا لبيت الله الحرام، والبيعة الثانية هي الكبرى، وتسمى بيعة الفوز والرضوان".

34 يعلّق القدال على اختيار جبال النوبة قائلًا: "ولعل الموقع الإستراتيجي لجبال النوبة، والاستقلال النسبي الذي يتمتع به سلاطينها، جعلها أكثر استعدادًا للخروج على الحكم المركزي المنظم، وجعلها بوتقة للتمرد على الحكومة واستقبال الخارجين على طاعتها. ولم تفت تلك الأمور على محمد أحمد، فزارها وأمن موقعه هناك بالاتصالات التي أجراها". انظر: القدال، ص 67.

35 هو راشد بك أيمن، جندي مصري، شغل منصب حاكم فشودة على النيل الأبيض. أخذ زمام المبادرة لمهاجمة المهدي في جبل قدير من دون موافقة الحكومة في الخرطوم، فكان مصيره القتل في واقعة جبل قدير في 9 ديسمبر 1881. شقير، **تاريخ السُّودان**، ص 341 - 342.

36 هو يوسف حسن الشلالي، أصله كنزي، من مواليد مدينة الخرطوم. لمع اسمه عندما كان يعمل مع حسين باشا في بحر الغزال. وبعد دحره لقوات سليمان الزبير باشا، رُقي الشلالي إلى رتبة لواء، تقديرًا لخدماته العسكرية. قاد الحملة الثانية على المهدي بهدف القضاء على المهدية في كردفان واستئصالها من القواعد. وصحب جيشه الكثيف نفر من أعيان السُّودان، إلا أنه هُزم وقُتل، وشتت شمل قواته على أيدي أنصار المهدي. انظر:
Hill, p. 386.

37 نص البيعة: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم. أما بعد، فقد بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على توحيد الله، وألا نشرك به أحدًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نأتي ببهتان، ولا نعصيك في معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضى بما عند الله، ورغبة ما عند الله والدار الآخرة، وعلى أن لا نفر من الجهاد." وحسب رواية شقير أن المبايعة كانت على وجهين: يتمُّ الوجه الأول مصافحةً ومشافهةً، أي بأن يضع المبايع يده على يد المهدي، جاعلًا إبهامه على إبهامه، ثم يقرأ المهدي نصّ البيعة، ويردد المبايع من بعده. والوجه الثاني يتمُّ مشافهة فقط، أي أن يتلو المهدي نصّ البيعة، ويردد الحضور من بعده. انظر، شقير، **تاريخ السُّودان**، ص 349. ويبدو أنَّ هذا الإجراء الثنائي كان في أيام المهدية الأولى، وإلى جانب هاتين الطريقتين، كان المهدي يفوض الخلفاء والأمراء والزعماء لأخذ البيعة نيابة عنه في الأماكن البعيدة عن معسكره. ومن جانب آخر، نلحظ أن نصّ البيعة قد تأثرت ببعض المصطلحات الواردة في بيعتي العقبة الأولى والثانية بين الرسول ﷺ وأهل يثرب.

38 المرجع نفسه، ص 337.

39 المرجع نفسه.

"القانون الأخلاقي للجُند"، الذي عدَّه صن تزو من ثوابت فن الحرب، ومستلزمات النصر فيها. وفي إطار أطروحة ماكس فيبر المرتبطة بالشخصية الكاريزمية، يمكن أن نُصنّف الرباط الأخلاقي الذي أُسس بين المهدي وأنصاره سببًا ضمن أسباب نجاح الثورة المهدية؛ لأنه أحدث تمايزًا سياسيًا وفكريًا بين أنصار الثورة وأعدائهم، ثم دفع الأولين تجاه تحقيق هدفهم الأسمى، المتجسّد في إزالة الحكم التركي.

أما من الناحية الإجرائية، فلم يجعل المهدي أداء البيعة مركزيًا مرتبطًا بشخصه؛ بل فوَّض الأمراء وأصحاب الرايات بأخذ البيعة نيابة عنه، ووصف أي شخص لم يأخذ البيعة عنهم بأنه "منافق ملعون،"[40] وأنَّ "الشخص الذي أخذ البيعة وعاد إلى فعله الخبيث فهو كالمرتد"[41]. وبهذا الحكم القيمي استطاع الإمام المهدي أن يضع معيارًا أخلاقيًا معينًا لالتزام بيعته والولاء له، لدرجة تضع المتمرد في مرتبة المرتد الذي يجب إقامة الحد عليه (وحد المرتد القتل). وبهذا التوجه السياسي للمهدي، شكّلت البيعة نوعًا من الالتزام الأخلاقي الصارم بقيم المهدية وتعاليمها، والانصياع التام لأوامر مؤسسها، وتنفيذها على أرض الواقع، فضلًا عن أنها أضحت تمثل رباطًا حصينًا بين المهدي وأنصاره، ومرتكزًا إستراتيجيًا تستند إليه المهدية عسكريًا وسياسيًا في مواجهة تحديات أعدائها.

الجهاد

يمثل الجهاد أحد مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي؛ لأنه يهدف إلى إزاحة التُرك الذين ضلوا عن طريق الرشاد، حسب منشورات المهدي، ويفسح المجال لتحقيق أهداف المهدية العليا القائمة على إقرار العدل والمساواة بين الناس، وتحكيم الكتاب والسنة في أمور المسلمين العامة والخاصة. وقد ربط المهدي هذا التكليف بحضرة نبوية، أجلسه فيها الرسول ﷺ على كرسي المهدية، وأمره بجهاد التُرك، وذلك حسب ما جاء في أحد منشوراته:

إنّ النبي ﷺ لمّا أجلسني على كرسي المهدية، قد أمرني بجهاد التُرك، وقال لي: إنَّ التُرك كافرون، بل أشد الناس كفرًا ونفاقًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وإنهم يسعون في إطفاء نور الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بإهانة السنة النبوية واستعطاف الإسلام. وقد أظهروا كُتبًا يريدون بها طفي نور الله تعالى، يسمونها كُتب القانون، مع شتم الإسلام وقهره. أما ترونهم يسحبونكم في الحديد والسلاسل لأجل أخذ أموالكم، لا يوقرون كبيركم، ولا يحترمون صغيركم، ويحملونكم المشاق القوية. لا تتركوهم حتى يسلموكم الأسلحة والأموال، فإن فعلوا ذلك فلا تسترقوا أولادهم ونساءهم، بل أقروهم على حالهم، وهم إخوانكم في الدين، وأحسنوا إليهم. إنَّ العمل كله للنيّة في الجهاد في سبيل الله ... قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، عوضًا عنها إذ قتلوا أو قاتلوا، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. وقال لي سيد الوجود ﷺ: من أنكر مهديتك فقد كفر. وإن أرواح التُرك اشتكت إليَّ، وقالوا يا إلهنا ويا خالقنا إنَّ الإمام المهدي قتلنا من غير إنذار، فقلتُ يا إلهي أنذرتهم وخالفوني، وصالوا عليَّ، وسيد الوجود شاهد علينا. وقال سيد الوجود ﷺ: ذنبكم عليكم، وإنكم خالفتم، وصُلتُم، فقُتلتُم. وإني عبد مأمور بإظهار الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما. وقد أمرني سيد الوجود ﷺ أنّ كل من خالفني عُدَّ كافرًا، وإنّ الله غفر ذنب من اتبعني وقواني[42].

واستنادًا إلى هذا النصّ، يصف المهدي الجهاد في سبيل الله بأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الغاية السياسية الهادفة لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، ولا تتحقق هذه الغاية، من وجهة نظره، إلا بإعلان الجهاد على الأعداء الذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم. وهنا يتفق المهدي مع ميكافيللي الذي يؤكد على "الوحدة الوظيفية بين السياسة والحرب"؛ بمعنى أنّ الحرب "نشاط عسكري

40 خطاب من المهدي إلى كافة الأحباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 613.

41 المرجع نفسه، ص 614.

42 خطاب من المهدي إلى كافة الأحباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 612.

ميداني غايته تحقيق الهدف السياسي للدولة"، أو الأهداف السياسية للحُكَّام[43]. ولا يتمُّ إنجاز ذلك إلا عن طريق كسب الحرب والانتصار فيها. وكسب الحرب يحتاج إلى قيادة عسكرية مؤهلة، وجيش مدرب، وتعبئة روحية ونفسية عالية. وتؤكد هذه المتطلبات الفنية التي وضعها علماء الإستراتيجية العسكرية، أهمية العلاقة الجدلية التي استندت إليها مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي ومتغيراتها، كما أشرنا إليها أعلاه. بدليل أنّ الهجرة إلى "ماسة" في جنوب كردفان كانت تشكل فضاءً عسكريًا لإعداد جيوش المهدية، وأنّ البيعة خلقت رباطًا أخلاقيًا - سياسيًا بين المهدي والأنصار، وأنَّ الجهاد مثل أعلى درجات العمل الثوري الهادف إلى تأسيس دولة المهدية وتطلعاتها السياسية العريضة.

القيادة والتنظيم

كانت فكرة المهدي المنتظر، كما أشرنا من قبل، تمثل ذروة سنام إستراتيجية محمد أحمد المهدي العسكرية؛ لأنها رسمت بُعدها العقدي، وأوثقت رباطها الأخلاقي التنظيمي، وشكلت معالم برنامجها السياسي القائم على حزمة من التطلعات التأملية والتوجهات الغيبية للمهدية. وبناءً على ذلك أجلس محمد أحمد المهدي نفسه على قمة الجهاز التنفيذي والتشريعي والقضائي للحركة، مُعطيًا بعض أحكامه التشريعية وقراراته السياسية سلطة مطلقة؛ لأنها مستمدة من سيد الوجود ﷺ، ولا تخضع لأي محاججةٍ بشريةٍ، حتى لو كانت مستندة إلى تراث السلف الصالح[44]. وتحت مظلة هذه السيادة شبه المطلقة، أُسست معالم الشكل التنظيمي لقوات المهدية في الجزيرة أبا، عندما قسَّم المهدي أنصاره إلى خمس رايات، كاتبًا على الراية السيادية التي كان يتولى زمام قيادتها، "محمد المهدي خليفة رسول الله"، وعلى الرايات الأربع الباقية أسماء كبار الأولياء المشهورين في التُراث الصوفي: الجيلاني، والرفاعي، والدسوقي، والبدوي، وجعل لكل راية مقدمًا[45]. ويرى زلفو أنَّ هذا التنظيم العسكري كان مستأنسًا من مصدرين؛ يتمثل أحدهما في تعاليم الخلوات والطرق الصوفية التي درج مريدوها على تنظيم مواكب شبه عسكرية للاحتفال بمناسباتهم الدينية، مُقسِّمين أنفسهم إلى رايات ومقدمين، تصحبهم الطبول والأناشيد والأدعية والتكبيرات[46]. ويتجلى المصدر الثاني في تراث مغازي الرسول ﷺ، والحُروب التي خاضها المسلمون لتأسيس الدولة والمجتمع المسلم. وإلى جانب هذا التُراث الإسلامي اهتم المهدي بالتركيبة القبلية والاعتبارات الجهوية في السُودان، بدليل أنه عين خليفة الصديق عبد الله بن محمد (الخليفة عبد الله لاحقًا) نائبًا له، وقائدًا للراية الزرقاء التي كانت تضم قبائل غرب السُودان، وخليفة الفاروق علي محمد حلو قائدًا للراية الخضراء التي تضم قبائل دغيم وكنانة وبعض مناطق الجزيرة، وخليفة الكرار محمد شريف قائدًا للراية الحمراء التي كانت تضم القبائل النيلية في شمال السُودان، ثم عيَّن عثمان أبو بكر دقنة أميرًا على قبائل الشرق، بدرجة أقل من درجة الخلفاء. وبعد انتصاره على حملة راشد بك أيمن، أصدر المهدي منشورًا تنظيميًا لفصائل جيشه المحاربة كافة، جاء فيه:

ورأس ذلك الامتثال للأمير الذي هو مميز الحروب ... قال ﷺ: من اتبع أميري فقد اتبعني، ومن خالف أميري فقد خالفني، قد نبهت غير مرة في موافقة الإخوان لأمرائهم والأمراء لخلفائهم، والكل للخليفة عبد الله. في ذلك راحة بالنا وإقامة الدين، وقد وردت سابقًا حضرة، أن مقاديم أهل الراية الزرقاء ينقادون ليعقوب، وهم ويعقوب ينقادون للخليفة عبد الله، ودغيم من راية الخليفة علي ينقادون لموسى ودحلو، وكنانة للبشير، وعمارنة لأبي بكر عامر، والحسينات لعبد القادر ود مديح، وكلهم ينقادون بالمحبة للخليفة علي. وتكون

43 نقلًا عن: فهمي، ص 156.

44 لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "منهجية التشريع المهدوي في السودان (1881 - 1885)"، **كتابات سودانية**، العدد 7 (القاهرة: آذار/ مارس 1999)، ص 10 - 30.

45 القدال، ص 89؛ وعصمت حسن زلفو، **كرري** (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني، ط4، 2012)، ص 38.

46 زلفو، ص 37 - 38.

جميع هذه القبائل مع الخليفة علي كرجل واحد، وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله، وكذلك راية الخليفة شريف، جميع أمرائها ومقاديمها يتفقون، وينقادون لعبد الرحمن النجومي، وهم ينقادون للخليفة شريف المذكور، وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله[47].

كان هذا المنشور التنظيمي يشكل خطوة تجاه ترسيخ وعي قومي في السُّودان، إلا أنّ الصراعات التي شهدتها دولة المهدية بعد وفاة المهدي قد أفسدت هذا التوجه، وأفرغته من محتواه، وجعلت أنصار المهدية وخصومهم يستبدلون أفضلية الانتماء إلى الوطن بدونية الانتماء للقبيلة.

الخطط الحربية (التكتيكات العسكرية)

تمثل الخطط الحربية التي رسمها الإمام المهدي لساحات المعارك التي خاضها إحدى وسائل تنفيذ إستراتيجيته العسكرية، وتحقيق أهدافه السياسية العليا؛ علمًا بأنّ الإستراتيجية لا تهتم فقط بصوغ الأهداف العليا؛ ولكنها تواءم بين الأهداف وفن استخدام الخطط الحربية التي تُساعد في تحقيق النصر العسكري، المفضي لبلوغ الهدف. ونتناول في الفقرات الآتية نماذج من الخطط الحربية التي نفّذها الإمام المهدي على ساحات الحروب التي خاضها، ونتساءل إلى أي مدى كانت تلك الخطط شاهدًا على عبقريته العسكرية، وقدرته على توظيف الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية المتاحة لمصلحته الإستراتيجية على حساب السلطة القائمة آنذاك؟

طلائع الاستكشاف الحربي والعمل الاستخباراتي

عندما عَلِمَ المهدي بتقدم جيش راشد بك أيمن صوب قدير اختار نفرًا من الجُند، قسمهم إلى قسمين؛ يتكون القسم الأول من فارس واحد مهمته جمع الأخبار الأولية عن عدد الجيش، وعتاده، والطريق الذي يسلكه؛ ويتكون القسم الثاني من ثلاثة جنود، عليهم جمع المعلومات التفصيلية عن العدو، وملازمته خطوة بخطوة، ثم الانفصال عنه في اللحظة الأخيرة. ولا شك أنّ هذا العمل الاستخباراتي قد رفد الإمام المهدي بمعلومات بالغة الأهمية، أعانته في التخطيط لقتال أعدائه التُرك ومن شايعهم. فالمعرفة الدقيقة بتحركات العدو، وعدده، وعتاده، تعدُّ من المعلومات الاستخباراتية المهمة التي يصنفها صن تزو ضمن قائمة فنون الحرب الناجحة، ويعتبرها في أساسات الانتصار في المعركة.

وإلى جانب هذا الأسلوب الاستخباراتي استخدم المهدي أسلوبًا آخر، يتمثل في مناوشات الحملات العسكرية من دون الالتحام بها؛ لأضعاف الروح المعنوية في أوساط الجُند وإرهاقهم، كما فعل مع حملتي يوسف الشلالي باشا وهكس باشا William Hicks Pasha[48]. وعندما احتج عليه الشلالي بأنّ مثل تلك المناوشات تنافي تعاليم المهدية الحقَّة التي يجب أن يمتلك صاحبها ناصية الغيب، ردّ عليه مفندًا: "وقولكم إنّ الطليعة تنافي المهدية؛ لأنّ المهدي ضرورة يعلم الغيب، جهلًا منكم بسيرة الرسول، فإنّ النبي ﷺ كان يرسل الطلائع، كحذيفة بن اليمان، والزبير بن العوام وغيرهما، فلم يناف ذلك رسالته، فكيف يناف مهديتنا؟"[49] وإيمانًا منه بأهمية الطلائع والمناشاوت العسكرية في فنون الحرب ومكائدها، نبّه المهدي الشيخ أحمد جفون بتحرّك حملة هكس باشا صوب كردفان، مخاطبًا:

---

47 زلفو، ص 39 - 40.

48 هو وليم هكس باشا William Hicks Pasha ، جندي بريطاني عمل في الهند تحت خدمة التاج البريطاني، ثم عُيِّن عام 1883 برتبة فريق في الجيش المصري، وكُلِّف بمهمة القضاء على الثورة المهدية، وبناءً على هذا التكليف حضر إلى السُّودان على رأس جيش كبير من الجنود المصريين والسُّودانيين. هُزمت قواته في واقعة شيكان في تشرين الثاني/ نوفمبر 1883. وقتل الجنرال هكس في أرض المعركة مع عدد كبير من قادة جيشه وجنوده. انظر:
Hill, pp. 164 - 165.

49 خطاب من المهدي إلى يوسف حسن الشلال ومن معه من الجموع، 4 رجب 1299هـ - 22 أيار/ مايو 1882، أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج1، ص 121 - 128.

أما بعد، فالذي نعلمك به أنه بلغنا خروج الكفرة بنواحيكم، ولم ندر أي جهة يسلكونها. [...] وأعلموا أنَّ معكم نصر الله وعونه، فلا تخشوهم أبدًا، فأنتم حزب الله الغالبون بإذن الله تعالى، وهم حزب الشيطان الخاسرون الهالكون. [...] وإنه مجرد وصول جوابي هذا إليكم أنتم وجميع من معكم من الأنصار والأتباع انضموا مع بعضكم البعض في جهة من الجهات، وأخلوا لهم الطريق كي يجدوه سهلًا خاليًا، وأكمنوا لهم بالطلائع الشافية، وبعد تحققكم لذهابهم ومرورهم بنواحيكم، فأمسكوا قفاهم واتبعوهم من ورائهم، فيصيروا وسطنا، تحملوا عليهم مرة واحدة، فيهلكوا جميعًا، ويمح الله أثرهم. فهذه مكيدة للحرب[50].

الظروف البيئية (تضاريس الأرض والمناخ)

يُعدُّ استغلال الظروف البيئية إحدى الوسائل التي رصدها صن تزو وبعض الخبراء العسكريين لتحقيق النصر في أرض المعركة. ومن الشواهد التي تدل على قدرة المهدي العسكرية في هذا المجال وقائع انتصاره على حملة هكس باشا في وادي شيكان، خارج مدينة الأبيض، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1883. علمًا بأنّ المهدي قد رفض أن يكون في موقع دفاعي لا يتناسب مع قدراته العسكرية. ولذلك خرج من الأبيض، مؤثرًا المواجهة في غابات وادي شيكان. وفي موقع المعركة احتل مورد المياه الوحيد (منهل البركة)، مجبرًا جيش هكس على اتخاذ طريق المُلبس الذي يمر بغابة وادي شيكان. وليعطل حركة جيش هكس من عبور الغابة، أمر المهدي الخيالة بإحداث ضجة عظيمة؛ ليوهم هكس بأنّ الهجوم الرئيس على وشك الوقوع، فاضطر هكس للتوقف عن السير، وشيد معسكره المؤقت (الزريبة)، بينما كان جيش المهدي يبعُد عن شيكان ما لا يقل عن خمسة عشر ميلًا. وبعد أن توقف هكس، نفَّذت خيالة الأمير محمد عثمان أبو قرجة عملية نقل ضخمة للجهادية، بقيادة حمدان أبو عنجة من مشارف أرض المعركة، وحشدتهم في مداخل الغابة وأطرافها، حيث استخدموا الأشجار الكثيفة سواتر لصدِّ نيران العدو، ثم تسلقوا أعاليها، ووجهوا نيرانهم الكثيفة تجاه قوات هكس. وقد وصف الكابتن هيرلث ذلك المشهد في ليلة 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1884، قائلًا: "كان يومًا سيئًا، فمعنوياتنا هابطة، فنحن داخل الغابة. لقد أمر الجنرال الموسيقى بالعزف آملًا أن يخفف ذلك علينا قليلًا، ولكنّ الفرقة الموسيقية سرعان ما توقفت عن العزف، فقد انصبت النيران علينا من كل الجهات، بدأ الرجال والجمال والبغال يتساقطون بسرعة واحدًا بعد الآخر، فتجمعنا وانضمت صفوفنا، فأصبحت كل طلقة تصيب مقتلًا. لقد أصاب منا الإرهاق والتعب مدى بعيدًا، وأصبحنا لا ندري ما نفعله"[51]. وتجلت الخطوة الثانية في حفر خندق وسط الغابة، واختبأت مجموعة من الجنود بداخله، وبعد أن عبرت قوات هكس الخندق، هجمت عليها قوات الأنصار من الخلف، وشتّت شملها. وتمثلت الخطوة الثالثة والأخيرة في إطباق قوات المهدي من الجهات الثلاث على قوات هكس، وأبادتها في أقل من ساعة، ولم ينجوا من القتل إلا ثلاثمئة رجل اختفوا تحت جثث القتلى المكدّسة. ويحلّل زلفو مخطط المهدي العسكري في واقعة وادي شيكان في النصّ الآتي:

على مدار تاريخ الصراع البشري المسلح، وحتى يومنا هذا، لا زال الصدام الهائل الذي احتدم على سهول كردفان في ضحى يوم الاثنين من أواخر عام 1883، يبرز مثالًا رائعًا لإبداع الفن العسكري في مزج الخيال والتخطيط بواقع التنفيذ والتطبيق. فاختيار مسرح الالتحام المثالي الذي فجر فيه المهدي طاقات جيشه، والسرعة الخاطفة التي أزاح بها آلافًا من الجنود المسلحين والمدربين من حيز الوجود، وذلك الختام الخرافي الشبيه بأساطير الأولين حين تبتلع الأرض جيوشًا بأكملها. كل ذلك يدل دلالة لا شك فيها ولا جدال على

50 خطاب من المهدي إلى الشيخ أحمد جفون، 1300هـ، المرجع نفسه، ص 459 - 460.

51 زلفو، ص 47 - 48.

أنه كان نتاجًا لتخطيط دقيق محسوب، بلغ قمته في ساعة توهج عقلي في أصيل يوم الأحد، عقب مجلسه الحربي الأخير، فتمخض عنه ذلك المخطط الفذ[52].

يؤكد هذا النصّ أنَّ المهدي كان يهتم بدراسة الظروف المناخية، والتضاريس البيئية المحيطة بأي خطة عسكرية؛ لأنّ الانتصار الحربي على العدو كان يصبُّ في خدمة إستراتيجيته العسكرية، ويمهد الطريق لتحقيق أهدافه السياسية العليا. واستنادًا إلى ذلك، فإنّ هزيمة هكس باشا في شيكان كانت تعني القضاء على آخر جيش نظامي لأعداء المهدية في السُّودان، وإضعاف الروح المعنوية للحكومة في الخرطوم، وتشجيع زعماء العشائر المترددين على الانضمام إلى صفوف المهدية المنتصرة. وبناء عليه، أضحى معسكر المهدي متفوقًا عددًا، وعدةً، وعتادًا؛ لدرجة أهلّته للانتقال من وضعه الدِّفاعي في كردفان إلى وضع هجومي، يستهدف الخرطوم، حاضرة الحكم التركي في السودان.

إشعال الثورة في الأطراف

يبين عبد القادر فهمي أنّ الخطط التي تبناها نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte في تنفيذ إستراتيجيته العسكرية في الحروب كانت تتكون من خمسة عناصر مهمة، تتمثل في الكثافة العددية للقوات العسكرية وقوتها النارية، والانتشار الواسع على جبهة قتال طويلة تخرج عن سيطرة العدو، والمناورة وسرعة الحركة قبل الاشتباك لجر العدو إلى معارك جانبية تشتت قواته وتستنزف طاقاته وقدراته القتالية، وضرب العدو في اتجاهات متعددة لتشتيت جهده المركزي، ثم الانقضاض عليه في مواقع حيوية، وأخيرًا توجيه ضربات مؤثرة على مؤخرة العدو للإخلال بتوازنه وقطع خطوط إمداده[53]. فالقارئ المتمعن في صحائف المهدية العسكرية يلحظ أنَّ المهدي قد طبّق هذه العناصر الخمسة بعناية وجدارة، عندما أشعل الثورة في كل أطراف السُّودان، ولم يلتزم حصرها في كردفان؛ لأنّ الهجرة إلى قدير، من وجهة نظره، كانت متغيرًا إستراتيجيًا، ولا تمثل مرتكزًا ثابتًا في إستراتيجيته العسكرية؛ ولذلك جعل مسألة البيعة، وإشعال الثورة في كل أنحاء السُّودان أمرًا غير مركزي ليشتت جهد الحكومة التركية، ويشغلها في أكثر من موطن، وبذلك يضمن حرية الحركة والمناورة، وتوجيه ضربات موجعة لها في أماكن حيوية. وبناءً على ذلك، بعث الخطابات والمناشير للأعيان والزعماء، حاثًّا إياهم على إشعال الثورة في كل بقاع السُّودان. وبموجب ذلك، برزت أسماء بعض المهدويين في سجل العمل الجهادي ضد الحكم التركي في السُّودان، أمثال الأمير عثمان دقنة في الشرق، والفكي المنا إسماعيل في شرق كردفان، والشيخ عامر المكاشفي في الجزيرة، والشريف أحمد ولد طه في شرق النيل الأزرق، ومحمد الخير عبد الله خوجلي في بربر، والشيخ الهدي في دنقلا. ويعلِّق القدال على هذه الرؤية الإستراتيجية، قائلًا:

عندما نتابع أحداث الثورة في الجزيرة وكردفان نرى بعض الجوانب من منهج المهدي لتطوير الحركة الثورية. **أولها**: أنَّ الثورة المهدية لم تكن حركة قابعة في قدير، تنتظر حملات الحكومة لتصادمها، بل تحولت إلى ثورة امتدت إلى خلايا المجتمع بدرجات متفاوتة. **ثانيها**: أنَّ المهدي اعتمد على القيادات المحلية للتصدي للعمل الثوري. فأبناء المنطقة أو القبيلة هم أقدر الناس على فهم أحوال منطقتهم وأهلهم. كما أنّ الاعتماد على العناصر المحلية يكسب الثورة أصالة. لهذا جاء حرصه دومًا على تكليف أبناء المنطقة ذاتها. **ثالثها**: حرص المهدي على اجتذاب الشخصيات التي لها وزن ديني، أو قبلي، أو اجتماعي. فالانقياد لهؤلاء أسهل في مجتمع ما زالت الطريقة والقبيلة

52 نقلًا عن: القدال، ص 113.

53 فهمي، ص 158.

مؤسسات لها وجودها وثقلها [فيه]. ونلاحظ غلبة العنصر الصوفي في الجزيرة، وغلبة العنصر القبلي في كردفان، وهذا راجع للتطور التاريخي المختلف للمنطقتين[54].

الحصار

من الخطط العسكرية التي نفّذها المهدي بجدارة حصار المدن الرئيسة قبل السيطرة عليها، مثل حصاره للأبيض والخرطوم. وقد نفَّذ حصار الخرطوم على مراحل عديدة؛ تمثلت المرحلة الأولى في إشعال الثورة في منطقة الجزيرة والنيل الأبيض لتشتيت جهد الحكومة، والثانية في إرسال الأمير أبو قرجة لإحكام الحصار من جهة الجنوب، والشيخ العبيد ود بدر من جهة الشرق، والثالثة في قطع خطوط الإمداد الخارجي، بسيطرة الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي على بربر في الشمال، وإشعال الأمير عثمان دقنة للثورة في الشرق. وتوِّجت هذه الخطوات الثلاث بسيطرة حمدان أبو عنجة على أم درمان، وحضور عبد الرحمن النجومي جنوبًا من ناحية النيل الأبيض، وأخيرًا وصول قوات الإمام المهدي إلى معسكر أبي سعد بأم درمان. وعندما بلغت الاستعدادات العسكرية ذروتها، شرع المهدي في حرب المنشورات المتبادلة مع تشارلس غردون Charles Gordon[55]؛ إذ كتب منشورًا إلى أهالي الخرطوم، استنسخ الكُتَّاب نُسخًا منه، ثم أعطوها لأحد الجواسيس، فوضعها في أناء من صفيح على شكل إبريق وعبر به النيل الأبيض سباحة بالليل، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وألقى بالمنشورات في الأزقة والطرقات، وقذف بها في المنازل، ثم عاد أدراجه. ويعلق أبو سليم على هذا الإجراء، بأنه: "أول عهد الخرطوم بالمنشورات المحظورة التي توزع خفية"[56]. وقد أضعفت تلك المنشورات الروح المعنوية لسكان الخرطوم المحاصرين، وألّبت الرأي العام ضد غردون، وجعلت بعض علماء الخرطوم وأعيانها، أمثال الشيخ أحمد العوام المصري[57]، يقفون موقفًا معارضًا له، ممهدين الطريق لإنجاح سياسة الحصار والانهيار من الداخل[58].

وعندما بلغ الحصار غايته، ونفد المخزون الغذائي، وضعفت الروح المعنوية في أوساط الجنود والرعية، بدأ غردون يتشبث بوصول حملة الإنقاذ التي غادرت أبو طليح متجهة نحو الخرطوم، وكتب منشورًا في هذا الشأن، علَّقه في طرقات المدينة المحاصرة، جاء في بعض فقراته: "قد جاءت البشرى بأنّ الجيش الإنكليزي فَرّقَ جموعهم [أي الأنصار] في صحراء بيوضة، وقتل منهم أُلوفًا، ونزلت مقدمته المتمة، وهو مسرع لإنقاذنا، وبسبب هذه البشرى عفوتُ عن أحمد بك جلاب مدير الخرطوم، وعمن اشتركوا معه في مراسلة المهدي،

---

54 القدال، ص 106.

55 هو تشارلس جورج غردون Charles George Gordon ذو الأصول الاسكتلندية، الذي ترقى في الجيش المصري إلى رتبة فريق، وعُين عام 1874م مديرًا لخط الاستواء في جنوب السُّودان، حيث أسس عددًا من النقاط الإدارية، وساهم في توسيع دائرة نفوذ السُّلطة الخديوية. استقال من منصبه عام 1877م، لكن أُعيد تعيينه مرة أخرى حكمدارًا عامًا على السُّودان، وأوكلت إليه مهمة القضاء على تجارة الرقيق؛ إلا أنه واجه جملة من المشكلات الداخلية التي أفضت إلى استقالته عام 1879م. وبعد فشل الحكمدارية في القضاء على الثورة المهدية، أُعيد تعيينه حكمدارًا عامًا للسودان عام 1884م، وحُصرت مهمته في إخلاء الجيوش المصرية والعاملين الإداريين من السُّودان؛ إلا أنه دخل في صراع مكشوف مع الإمام المهدي وأنصاره، مُعرِّضًا مدينة الخرطوم وأهلها إلى حصار خانقٍ، أودى بحياته في 26 كانون الثاني/ يناير 1885م، وبموجب ذلك قضى الأنصار على أهم معاقل الحكومة التركية في السُّودان. انظر:

Hill, p. 30.

56 محمد إبراهيم أبو سليم، **تاريخ الخرطوم** (بيروت: دار الجيل، ط3، 1970)، ص 76.

57 هو أحمد العوام كاتب مصري، عُين في وزارة الحربية بالقاهرة. اشترك في ثورة أحمد عرابي، فحكم عليه بالنفي إلى السُّودان. شهد حصار الخرطوم، وكتب رسالة تُعرف بـ "نصيحة العوام"، أرّخ فيها لثورة أحمد عرابي في مصر، وأبدى فيها تعاطفًا مع الثورة المهدية في السُّودان. وعندما كُشف أمره اتهم بالخيانة، وحُكم عليه بالإعدام شنقًا في الخرطوم عام 1884م. انظر:

Hill, p. 30.

58 المرجع نفسه، ص 77. لمزيد من التفاصيل عن حصار الخرطوم انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "تحرير الخرطوم: أبعاده الأيديولوجية وتداعياته السياسية"، في: **السُّودان: السُّلطة والتُراث**، ج2 (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2009)، ص 77 - 86.

وأطلقتُ سراحهم من السجن"[59]. فكتب إليه المهدي في الشأن: "إن الجردة التي تعتمدونها ما لها وجه بوصولها لكم من سَدّ الأنصار الطرق، فإن أسلمت وسلمتَ فقد عفونا عنك، وأكرمناك، وسامحناك في ما جرَى، وإن أبيتَ فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله ... وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته إلينا أنك قلت إنّ الإنكليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه ... إن أردت أن تجتمع بالإنكليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم. والسلام"[60].

واضح من هذه الرسائل المتبادلة، أنَّ تعنُّت غردون وتهديده بقدوم حملة الإنقاذ من الشمال كان واحدًا من الأسباب الرئيسة التي دفعت الأنصار إلى الانتقال من سياسة الحصار إلى الهجوم العسكري، الذي نفَّذه المهدي وأنصاره في صبيحة السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1885م، معلنين تحرير الخرطوم عنوةً، وقتل الجنرال غردون، الذي تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنَّ المهدي كان يريده حيًّا ليفدي به أحمد عرابي[61]. وتبين سياسة حصار الخرطوم التي أشرنا إليها، وقصة فداء غردون بعرابي، أنَّ إستراتيجية المهدي العسكرية لم يكن هدفها الأوحد هو تدمير قوات العدو، والانتقام من الأعداء، بل كانت تسعى لفرض وضعٍ عسكري يُهيِّأ لها سُبل النصر، إما بهزيمة العدو حربًا، أو استسلامًا. ولذلك نلحظ أنَّ الخطط الحربية التي وضعها الإمام المهدي وأعوانه كانت تهدف لتنفيذ إستراتيجية المهدية العسكرية، الرامية لقيام حكومة إسلامية على مبادئ الكتاب والسنة ومنشورات الإمام المنتظر، وبذلك يتمُّ – حسب وجهة نظرهم - "إحياء نور الشريعة الذي أطفأه الأتراك بأفواههم"، ويطبَّق العدل المطلق الذي يرعى تحت ظلاله الوارفة "الذئب مع الغنم". هكذا كانت تطلعات صاحب الدعوة المهدية التي لم تكن في تناغم مع الواقع الذي أعقب النصر في الخرطوم عام 1885.

خاتمة

تقودنا مفردات هذا البحث إلى خاتمة مفادها أنّ عقيدة المهدية العسكرية القائمة على فكرة المهدي المنتظر قد شكَّلت إطارًا ثوريًا للدعوة المهدية، ساهم في تعزيز بُعدها السياسي الرامي إلى قيام دولة إسلامية راشدة؛ وبُعدها الإستراتيجي العسكري المستند إلى استخدام آلة الحرب أداةً لإنجاز المشروع السياسي. وفي حيز هذين البُعدين استطاع المهدي أن ينفّذ بجدارة معظم الخطط التي أشار إليها صن تزو في كتابه **فن الحرب**، من دون أن يكون له سابق علمٍ بذلك الكتاب، لكن كما أوضح زلفو، فإنَّ علم المهدي في المجال العسكري كان مستمدًا من تعاليم الطرق الصوفية التي لازمها فترة من الزمان، وأدبيات الحُروب الإسلامية التي قرأ عنها في المدونات القديمة. ويضاف إلى هذين المصدرين شخصية المهدي الكاريزمية التي حددت القيم المعيارية الفاصلة بين مفهومي "نحن" و"هم"، مؤسسةً لنفسها

59 مكي شبيكة، **السُّودان عبر القرون** (بيروت: دار الجيل، 1991)، ص 114.

60 المرجع نفسه، ص 350 - 351. و"خمسة فضة" وحدة نقدية صغيرة.

61 هو أحمد الحسيني عرابي (1841 - 1911م)، قائد عسكري وزعيم مصري. وُلِدَ في قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية، وبعد أن تعلم القرآن والعلوم الدينية التحق بالمدرسة الحربية، وارتقى في سلم الرتب العسكرية لمرتبة أميرلاي (عميد). اشترك في حروب الخديوي إسماعيل في الحبشة، وظهر في الساحة السياسية عندما تقدم مع مجموعة من الضباط المصريين مطالبين الخديوي توفيق بترقيتهم وتحسين أوضاعهم الوظيفية، وعزل رياض باشا رئيس مجلس النظار، وزيادة عدد الجيش المصري. لم يقبل الخديوي بهذه المطالب، وبدأ في التخطيط للقبض على عرابي وزملائه باعتبارهم خونة ومتآمرين. وبعد ذلك الاتهام قاد أحمد عرابي الثورة ضد الخديوي توفيق عام 1881، محتجًا على تغلغل النفوذ الأوروبي في شؤون مصر الداخلية، وضعف أداء حكومة رياض باشا. استجاب الخديوي لمطالب الثورة، فعين محمود سامي البارودي رئيسًا لمجلس النظار، وأحمد عرابي ناظرًا للجهادية. لكن بعد استقالة البارودي وتدخل القوات البريطانية في مصر عام 1882، احتجز أحمد عرابي في ثكنات العباسية مع نائبه طلبة باشا، حتى انعقدت محاكمته في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1882، وقضت المحكمة العسكرية بإعدامه؛ إلا أنّ حكم الإعدام خُفِّف إلى النفي مدى الحياة بجزيرة سرنديب (سيلان - سريلانكا حاليًا) في المحيط الهندي. ثم قام الأسطول البريطاني بنقله مع زملائه عبد الله النديم ومحمود سامي البارودي إلى جريزة سرنديب، حيث استقروا بمدينة كولومبو لمدة سبع سنوات. وبعدها نُقل مع محمود سامي البارودي إلى مدينة كاندي بذريعة خلافات دبت بين رفاق الثورة. وبعد أن اشتد عليه المرض في المنفى، عاد أحمد عرابي إلى مصر بعد أن قضى عشرين عامًا في سرنديب. توفي بمصر عام 1911م. وعن قصة فداء غردون بأحمد عرابي انظر سلاطين باشا:
R. Slatin Pasha, *Fire and Sword in the Sudan: The Personal Narratives of Fighting and Serving the Dervishes, 1879 - 1895*, Translated by F.R. Wingate (London: Edward Arnold, 1899), p. 210.

أرضية تصادمية صلبة لإدارة الصراع الإستراتيجي العسكري مع التُرك وأعوانهم؛ وذلك لتحقيق أهداف الثورة المرتبطة بإزاحة النظام القائم (الحكم التركي)، الذي وُصف بالكفر البواح وعدم الشرعية. لكن على المدى البعيد، يلحظ القارئ المتبصر في أدبيات المهدية وإرثها التاريخي، أنّ فكرة المهدي المنتظر وثنائياتها التقابلية التي صاغت إستراتيجيتها العسكرية في مرحلة الثورة قد شكّلت ارتباكًا سياسيًا وتحدٍ موضوعي، تعذر تجاوزه بعد موت صاحب الفكرة عقب تحرير الخرطوم. ومن جانب آخر، فإنَّ الادعاء بأنّ قضاء الخليفة عبد الله في الناس هو قضاء الرسول ﷺ، وأنّ "جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة، وفصل الخطاب"، ليُطهر المسلمين، وينقيهم من خبائث الدنيا[62]، قد وضع الخليفة عبد الله في موضعٍ مريحٍ من الناحية النظرية؛ ولكنه في واقع الحال حوَّله إلى حاكم ثيوقراطي، أدار الصراع مع خصومه السياسيين الذين ناصبوه العداء في إطار مفهومي "نحن" و"هم" الإقصائيين، وبذلك فتَّت فكرة البناء القومي للدولة المهدية التي وضع المهدي لبناتها في قدير. وإذا انتقلنا إلى الصعيد الخارجي، نلحظ أنّ عقيدة المهدية العسكرية قد وضعت الدولة الناشئة في صراع مع جيرانها، استنادًا إلى ادعاء المهدي بأنّ سيد الوجود ﷺ قد أخبره "بأن من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله"، وبذلك أضحى جهاد الجيران (مصر وإثيوبيا) الذين لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد بن عبد الله فرض عين على الدولة الناشئة. ولذلك أضحت السياسة الخارجية للدولة أكثر تعقيدًا عندما وعد المهدي أنصاره بأنه سيصلى في البيت الحرام، والمسجد النبوي، ومسجد القاهرة، وبيت المقدس، ومسجد العراق، ثم الكوفة[63]، مشيرًا إليهم ضمنًا أنّ المهدية ستوحّد السُنَة والشيعة، وتقضي على الخلافة العثمانية، ثم تقيم على أنقاضها نظام حكم جديد في العالم الإسلامي. كل هذه التوجهات العقدية المنطلقة من فكرة المهدي المنتظر ومثيلاتها، قد عقَّدت المشهد السياسي في السُودان، وعرقلت بناء الدولة المهدية مؤسّسيًا، وأخيرًا شكَّلت طرفًا من الأسباب التي ساهمت في القضاء عليها عام 1898.

---

62 لمزيد من التفاصيل انظر، خطاب من المهدي إلى كافة عباد الله، 17 ربيع أول 1300هـ - 72 كانون الثاني/ يناير 1883م، أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج 1، ص 237 - 241. يقرأ نص الخطاب هكذا: "... إنّ الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ فتأدبوا معه كتأدبكم معي، وسلموا إليه ظاهرًا وباطنًا كتسليمكم لي، وصدقوه في قوله ولا تتهموه في فعله. فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بأذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، ولا هو عن هوى، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ والقضاء بإشارته، فإن فعله بكم، وحكمه فيكم بحسب ذلك. وأعلموا يقينًا أّن قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله ﷺ. [...] وأعلموا أنّ جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، ولو حكمه على قتل نفس منكم، أو سلب أموالكم، فلا تتعرضوا عليه، فقد حكمه الله عليكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا إلى ربكم".

63 لمزيد من التفاصيل انظر، القول المنسوب للمهدي والذي يقرأ هكذا: "بشرني رسول الله ﷺ في الحضرة النبوية، وقال لي: كما صليت في الأبيض تصلي في الخرطوم، ثم تصلي في مسجد بربر، ثم تصلي ببيت الله الحرام، ثم تصلي في مسجد يثرب، ثم تصلي في مسجد مصر، ثم تصلي ببيت المقدس، ثم تصلي في مسجد العراق، ثم تصلي في مسجد الكوفة." أبو سليم (تحقيق)، **الآثار الكاملة**، ج 5، ص 458.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أبو سليم، محمد إبراهيم. **الحركة الفكرية في المهدي**. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1970.
- ـــــــــــــــ **تاريخ الخرطوم**. بيروت: دار الجيل، ط3، 1970.
- ـــــــــــــــ (تحقيق). **الآثار الكاملة للإمام المهدي**. 7 مجلدات. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990 - 1994.
- أبو شوك، أحمد إبراهيم. "تحرير الخرطوم: أبعاده الأيديولوجية وتداعياته السياسية". في: **السُّودان: السُّلطة والتُّراث**. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2009.
- ـــــــــــــــ "منهجية التشريع المهدوي في السودان (1881 - 1885)". **كتابات سودانية**. العدد 7. القاهرة: آذار/ مارس 1999.
- القدال، محمد سعيد. **الإمام المهدي محمد أحمد بن عبد الله (1844 - 1885): لوحة لثائر سوداني**. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1985.
- تزو، صن. **فن الحرب**. تقديم وتعليق أحمد ناصيف. حلب: دار الكتاب العربي، 2010.
- زلفو، عصمت حسن. **كرري**. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني، ط4، 2012.
- شبيكة، مكي. **السُّودان عبر القرون**. بيروت: دار الجيل، 1991.
- شقير، نعوم. **تاريخ السُّودان**. تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم. بيروت: دار الجيل، 1981.
- ـــــــــــــــ **جغرافية وتاريخ السُّودان**. بيروت: دار الثقافة، 1967.
- فهمي، عبد القادر محمد. **المدخل إلى دراسة الإستراتيجية**. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010.
- ميخائيل، يوسف. **مذكرات يوسف ميخائيل عن أواخر العهد التركي والمهدية في السُّودان**. تحقيق أحمد إبراهيم أبو شوك. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2004.
- هولت، ب. م. **المهدية في السُّودان**. ترجمة جميل عبيد. بيروت: دار الفكر العربي، 1978.

المراجع الأجنبية

- Abdul Aziz, Abdul Ghani. "The Underlying Factor for the Ascendancy of Muslim Army over its Persian and Byzantine Counterparts (663 - 644 ACE): An Analysis Based on Sun Zi's Art of War". M.A. Thesis, International Islamic University - Malaysia, 2006.
- Abushouk, Ahmed Ibrahim. "The Ideology of the Expected Mahdi in Muslim History: The Case of the Sudanese Mahdiyya, 1881 - 1898". *Pakistan Journal of History and Culture*, vol. xxxı, 2009.

- Clausewitz, Carl von. *The Principles of War*. translated by Hans Wilhelm Gatzke. New York: Courier Dover Publications, 2003.
- Dekmejian, Richard H. and Margaret J. Wyszomirski. "Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan." *Comparative Studies in Society and History* 14, no. 2, March 1972.
- Hill, Richard. *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan.* London: Frank Cass, 3rd ed., 1967.
- Machiavelli, Niccolo. *The Art of War.* revised edition. Da Capo Press, 2001.
- Speelman, Patrick J. *War, Society and Enlightenment: The Works of General Lloyd.* Leiden: 2005.
- Pasha, R. Slatin. *Fire and Sword in the Sudan: The Personal Narratives of Fighting and Serving the Dervishes, 1879 - 1895*. Translated by F.R. Wingate. London: Edward Arnold, 1899.
- Tzu, Sun. *The Art of War*. Translated by Lionel Giles. London: The Puppet Press Classic, 1910.
- Weber, Max. *Economy and Society*. Translated by Gunther Roth and Claus Wittich. 3 volumes. New York: Bedminister, 1968.

يحيى بولحية | *Yehya Boulehya

الصراع السياسي في المغرب قبيل الحماية الفرنسية

Political Conflict in Morocco Prior to the French Protectorate

يستقرئ البحث طبيعة الصراع السياسي الذي شهده المغرب في فترة ما قبل الحماية الفرنسية عام 1912م، وهي مرحلة مخاض وتحوّل سياسيين، مهّدت بطريقة أو بأخرى للسقوط السياسي للمخزن، بعد أن كشفت الانتفاضات والصراعات السياسية علله المزمنة وأزماته الحادة.

تتتبع الورقة محاور الصراع السياسي من خلال ثلاثة عناصر رئيسة؛ يتناول العنصر الأول التنافس السياسي بين أسرتين مخزنيتين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهما آل الجامعي وآل بن موسى، وما أسفر عنه من إنهاك مؤسسة المخزن، والحد من الكاريزما التي تمتعت بها، خاصة خلال فترة حكم الحسن الأول (1873 - 1894م).

فيما درس العنصر الثاني أبرز حركتين أسهمتا في استنزاف إمكانات المخزن المادية والرمزية، وهما حركة الجيلاني ابن إدريس الزرهوني الذي دخل في مواجهة مسلحة مع جيوش السلطان عبد العزيز؛ واختصت الحركة الثانية (حركة الريسولي) في اختطاف الأجانب، وفي توتر العلاقة بين المخزن والقوى الأجنبية، وما نتج عنها من إرهاق مالية المخزن وقيمه الرمزية والسياسية.

أما العنصر الثالث فخصص للكشف عن طبيعة الصراع بين الفاعلين السياسيين المباشرين (السلطان عبد العزيز، وأخيه عبد الحفيظ)، وما نتج عنه من حراك سياسي داخلي مشفوع ببروز المدونات الدستورية وأشكال التعاقد السياسي التي حاولت التأصيل للواقع الجديد.

كما أشرنا إلى أهمية استقراء مخبر التاريخ، لمساءلة الواقع الراهن على أساس أنّ صور التاريخ تظلّ متحركة ومساعدة على فهم الحاضر بكل تعقيداته ومظاهره المتباينة والمختلفة.

This paper discusses periods of political conflict that defined Morocco before the French protectorate in 1912 and focuses on three main areas of study. The first analyses the political rivalry between two ancient families –Al Alboukhari and Al Jamiai – during the second half of the 19th century, especially during the reign of Hassan I (1873 - 1894). The second examines two movements that contributed to the depletion of Moroccan state, the first one under Jilali Ben Idris Zerhouni and his armed confrontation with the armies of the Sultan Abdul Aziz; and the second under Rissouli, which was known for its abduction of foreigners that led to strained relations between Maghzen and the foreign powers. The third area of study unveils the conflict between the direct political actors Sultan Abdul Aziz and his brother Abdul Hafeez, and the resulting internal political dynamics accompanied by the emergence of constitutional writing and forms of political contracting. Through these events, the paper portrays the political mechanisms used during a critical period of Morocco marked by the then-impending fall of Morocco to the French protectorate in 1912.

* متخصص بالتاريخ، ويعمل إطارًا تربويًا في أكاديمية وجده للتربية والتكوين، المغرب.

مقدّمة

تبحث الدراسة في آليات تصريف التنافس السياسي داخل بنية الدولة المغربية في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كما أنّها تتوخّى رصد الثابت والمتحوّل في الممارسة السياسية لمكوّنات الفعل المخزني. وإذا كان السلطان الركيزة الأساس في ممارسة الفعل السياسي، فإنّ الحجّاب والوزراء والثوّار ساهموا بدور محوري في رسم العلاقة مع أطياف الممارسة السياسية في المغرب في القرن التاسع عشر.

ضمن هذا السياق، نرصد عناصر الموضوع من ثلاث زوايا متكاملة: تخص الزاوية الأولى التنافس السياسي بين أشهر أسرتين مخزنيتين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهما آل الجامعي وآل بن موسى. ونحن إذ نحلّل طبيعة التنافس السياسي الذي عرفه مخزن الحسن الأول بين الأسرتين، فإنّنا نروم لفت الانتباه إلى أننا نكشف في الحقيقة عن أحوالنا الراهنة، ونستحضر التاريخ الماضي لنفسر به حاضرنا الآني بكل تشعباته وتعقيداته السياسية والإدارية؛ أليست الحظوة محصورة حتى الوقت الراهن في فئات وأسر توارثت امتيازات الثروة والسلطة، وتراكم لديها نفوذ وكلمة مسموعة لدى صنّاع القرار في المغرب؟

وتخصّ الزاوية الثانية دراسة أبرز حركتين ساهمتا في استنزاف إمكانات المخزن المادية والرمزية، وهما حركة الجيلاني بن إدريس الزرهوني الذي دخل في مواجهة مسلحة مع جيوش السلطان عبد العزيز، والحركة التي اختصت باختطاف الأجانب وبتوتير العلاقة بين المخزن والقوى الأجنبية، وما نجم عن ذلك من إرهاق مالية المخزن وقيمه الرمزية والسياسية.

شهدت فترة ما قبل الحماية (1912) تجاذبات سياسية وأمنية استغلت هشاشة بناء الدولة، وتعددت من خلالها أوجهُ الخلل السياسي، وهو ما أوجد حالة من الفراغ استغلت عناصرَه القوى الاستعماريةُ التي كانت تبتغي تفتيت الوحدة الداخلية وإذكاء الصراعات، بغية توفير الإطار الملائم لتدخّلها السياسي والعسكري.

ونختم الحديث بالزاوية الثالثة الخاصة بالكشف عن طبيعة الصراع بين الفاعلين السياسيين المباشرين (السلطان عبد العزيز وأخيه عبد الحفيظ)، وما أسفر عنه الصراع من حراك سياسي داخلي مشفوع ببروز المدوّنات الدستورية وأشكال التعاقد السياسي التي حاولت التأصيل للواقع الجديد.

ونبيّن من ثنايا مجموع هذه الحوادث آليات تصريف الخلافات السياسية في فترة تاريخية حرجة، اتسمت بقرب سقوط المغرب في مخالب الحماية الفرنسية عام 1912.

فما هي خصوصيات التنافس السياسي الذي شهده المغرب قبيل الحماية الفرنسية؟ وما هي الثوابت التي تحكّمت في ذلك؟ وهل حقّق ذلك إضافة نوعية للممارسة السياسية؟ وكيف نوظّف تاريخنا الوطني لفهم الحاضر وتعقيداته وتشعّباته ومنعرجاته المختلفة والمتباينة؟

وفاة الحسن الأول وبروز التناقضات السياسية

لا يجادل أحد في أنّ وفاة الحسن الأول (1873 - 1894) بداية لمسلسل أخير من مراحل السقوط الذي حاول، من ثناياه، السلطان السالف تفادي وقوعه من طريق استغلال التناقضات الأوروبية لمصلحة بقاء الدولة واستمرار وظائفها. وبموته "المفاجئ"، انكشف ما كان مستورًا من العلل الباقية، وبرزت مأساة المغرب سلطة ومجتمعًا.

تدلّ هذه القضية على مسألة بالغة الأهمية، وهي أنّ تاريخنا الممتد والطويل لم ينطلق من قواعد مؤسساتية واضحة المعالم ووظيفية المقاصد؛ فبمجرد غياب السلطة الكاريزماتية (إدريس الثاني، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، والمنصور السعدي، والمولى إسماعيل،

ومحمد بن عبد الله، والحسن الأول)، تعود أوجه الخمول والجمود إلى دوائر الفعل السياسي والاجتماعي، وينتشر العبث، وتنتشر الأزمة، ويدبّ الخلل، وتعمّ الفوضى، وكأنّ ذلك دَيْدن هذه الأمّة التي افتقدت من يجدد لها أمر سياستها. ويلخص الحجوي صورة المغرب مع بداية القرن العشرين، قائلًا: " كان المغرب فيه مختلًا من كلّ الواجهات المالية والحربية والسياسية والأخلاقية، والفوضى ضاربة أطنابها، والجيش لا جيش، والمالية هي عين الفقر، وأطراف المغرب لا تعرف نظامًا ولا أحكامًا ولا تؤدي جباية"[1].

من جانب آخر، تتحدث المصادر التاريخية عن شخصية الحاجب أحمد بن موسى، مهندس عهد الوصاية، بنوع من الإعجاب والتقدير، ويصفه ابن زيدان بـ "داهية الحجّاب والوزراء"[2]، عندما أخفى نبأ وفاة السلطان الحسن الأول، خشية وقوع الاضطراب والفوضى، وأجّل ذلك إلى حين تمهيده أمور إجراءات البيعة للسلطان الجديد المولى عبد العزيز. وقال عنه المشرفي أنّه كان "ذكيًا، متأدبًا، ذا مكائد وحيل"[3].

لم ينس الحاجب أحمد بن موسى أنّ أسرة آل الجامعي تولّت الحظوة داخل المخزن الحسني إثر وفاة موسى بن أحمد، "فأصبح ابن العربي الجامعي[4] الصدرَ الأعظمَ، وعوّضه أخوه السيد محمد الصغير في وزارة الحرب، ومنذئذ تزايد تأثيرهم المتفوق داخل المخزن الحسني"[5]. ولا شكّ في أنّ ذلك كان على حساب أسرة آل بن موسى التي انتظرت اللحظة التاريخية الملائمة لرد الأمور إلى ما كانت عليه سالفًا.

خلف المولى الحسن الأول عددٌ كبير من الأبناء[6]، وانحاز الحاجب بن موسى إلى المولى عبد العزيز، وهو انحياز يستمدّ مشروعيته من إقدام الحسن الأول على عزل ابنه المولى محمد "لما ثبت لديه من أفعال صدرت منه غير مرضية وأحوال استبدادية [....] وقدّم نجله [...] المولى عبد العزيز لشغفه به وكثرة حنانته عليه وملازمته له حضرًا وسفرًا، فلذلك قدّمه مع صغر سنّه"[7]. وهي مواصفات لا تليق ولا تكفي، في نظرنا، إسناد أمر إمامة الأمّة وإدارة شؤونها، كما أنّ ملامح فشل هذا الاختيار تبيّنت عندما آلت السلطة إلى المخزن العزيزي من بعد.

وفاة الحسن الأول وشدة التنافس السياسي بين آل البخاري وآل الجامعي

ضمن هذا الإطار، أدرك الحاجب خصوصيات الغلبة في الحكم ومتطلباتها، فاستخدم ذكاءه ومكره وحيله لتثبيت مواقعه في السلطة ونيل امتيازاتها؛ فبذل "العطاءَ للوفود عليه في ذلك الوقت، وعم الناسَ معروفُه [....] فاستقام له الأمر بذلك أمر الملك، وطأطأت له الرؤوسُ ولم يبق له منازع فتمكن من الوزارة العظمى، بل وبأمر الملك كله"[8].

---

1 محمد الصغير الخلوفي، **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: مذكرة محمد بن الحسن الحجوي: نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين**، زكي مبارك (مقدّم) (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1996)، ص 10.

2 عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج 2 (الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ص 549.

3 محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ بعض مفاخرها غير المتناهية**، إدريس بوهليلة (دارس، ومحقق)، ج 2 (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1905)، ص 220.

4 تجب الإشارة إلى أنّ أخت محمد الجامعي كانت والدة المولى الحسن الأول، ولذا كان السلطان يحب مناداتهم بالأخوال.

5 Louis Arnaud, *Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912*, Institut des hautes études Marocaines (Casablanca: Editions Atlantides, 1952), p. 58.

6 ابن زيدان، ص 546 - 548.
ذكر ابن زيدان كلّ أبناء المولى الحسن الأول وبناته، إلّا أنه لم يفصّل سنوات الولادة.

7 المشرفي، ص 215.

8 المرجع نفسه، ص 220.

اعتُبِر آل بن موسى "من أشهر الأسر البخارية في القرن التاسع عشر [....] تولى أفرادها مناصب الوزارة والحجابة ورئاسة العسكر"[9]. ويبدو أنّ السلطة المخزنية كانت تبحث منذ عهد المولى إسماعيل عن عصبية عسكرية تصرّف شؤونها الأمنية والجبائية والعسكرية، وتتجنب بها ومن خلالها، أشكالَ المعارضة الداخلية في المدن والبوادي، وخاصة في مدينة فاس.

مع استمرار هذه الخدمات، تمكنت هذه الفئة، ومنها أسرة آل بن موسى، من تثبيت نفوذها ماديًا وسياسيًا. وتجلّى ذلك من خلال إزاحة الفئات المنافسة، وفي مقدمتها أولاد الجامعي؛ فقد اشتد "التنافس بين آل بن موسى وأولاد الجامعي حول استمالة السلطان القاصر واحتوائه ثمّ الحكم باسمه"[10].

في هذا السياق، "لم يزل في قلب الوزير المعطي الجامعي وفريقه شيء من أمر البيعة، لما كان بينه وبين الحاجب من الشحناء"[11]، وهذا ما سمح ببروز مواقف متشددة من باحماد، "وخاصة من قِبل السيد العربي الزبدي والسيد محمد الصغير اللذين حاولا المقاومة، بادعائهما أنّ المولى عبد العزيز كان صغير السن، وأنّ السلطان الحقيقي هو باحماد"[12]. ويبدو أنّ الغلبة حالفت من اتصف بالمكر والذكاء والحيل. وبدأ الوزير الأعظم أحمد بن موسى تعيين رجال عهده الجديد، فجعل "أخاه السعيد وزير الحرب مكان السيد محمد الصغير بن العربي الجامعي، وولّى أخاه الثاني رتبة الحجّاب مكانه - ويضيف المشرفي- وهو المتصرف على الكلّ في الحقيقة، لا تخرج عن أمره شاذة ولا فاذة، وإنّما جعلهما صورة"[13].

نتساءل هنا عن غاية الطموحات السياسية للحاجب أحمد بن موسى: هل كان الرجل يحمل مشروعًا سياسيًا ينبني على ممارسة السلطة المطلقة، المستندة إلى توظيف رمزية النسب الشريف للمولى عبد العزيز الذي جُرِّد من إرادة الفعل والممارسة السياسية؟ وهل كان المخزن المغربي حينئذ في وضع يؤهّله إنتاج نخبة سياسية جديدة ونمط حكم جديد، يشبه، في صورته الظاهرية، ما أقدم عليه حكام التوكوجاوا[14] في اليابان، عندما وثبوا على السلطة، وأقاموا نظامًا سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا صارمًا يقوم على أساس العلاقات الإقطاعية والتقاليد الكونفوشيوسية وسياسة العزلة الطوعية التي دامت 250 عامًا، وعندما أقاموا شرعية نظامهم السياسي على مبدأ الحكم باسم الإمبراطور الذي أضحت سلطاته رمزية وصورية؟

تبدو ملامح هذه التساؤلات فيما ذكره المشرفي، مستفهمًا أسباب استبداد الوزير أحمد بن موسى، ومستحضرًا الإفادة الخلدونية في فهم آليات تداول السلطة ودور العصبية في تحقيق الغلبة والانتصار؛ فبعد حديثه عن الانفراد بالحكم، واستغلال صغر سن السلطان، وعجزه عن القيام بمقتضيات الملك، أضاف قائلًا: "فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه، أو قبيله، ويورى بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه للاستبداد [......] وهذه كانت حالة هذا الوزير"[15]. إلّا أنّ صاحب **الحلل البهية** نقض مقدمات تفسيره للحوادث،

---

9 عبد الرزاق الصديقي،" آل بن موسى في سياق التاريخ: من الاسترقاق المنزلي إلى الوصاية على الحكم" في: **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**، عبد المجيد القدوري (منسق)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس في الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 27 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001)، ص 447 - 463، 449.

10 المرجع نفسه، ص 455.

11 محمد بن محمد بن الأعرج السليماني، "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ"، عبد الرزاق بنواحي (محقق)، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس- المغرب، 1997، ج 2، ص 397.

12 Arnaud, p. 87.

13 المشرفي، ص 220 - 221.

14 التوكوجاوا (في تعريف خاص من كاتب هذا البحث) هو اسم الأسرة التي حكمت اليابان منذ مطلع القرن السابع عشر حتى 1868، وقد نهجت سياسة العزلة الطوعية وساهمت في ترسيخ السلام الطويل الذي حقق الأمن الداخلي للبلاد. كما ساهمت في ترسيخ علاقات الإنتاج الإقطاعي. وتعرضت لتحديات خارجية صعبة عام 1853، عندما دخلت السفن الأميركية السواحل اليابانية، وفرضت عليها الخروج من دائرة العزلة.

15 المشرفي، ص 224.

مستأنفًا: "وكان البعض يسيءُ به الظن، لما ادّخره من الذخائر العظام مع آلة الحرب، بأنه إذا استحكمت له صبغة الرياسة والاستبداد، لا بدّ أن يحول المُلك إليه، ويؤْثر به عشيرته وأبناءه من بعده، كما وقع لبني بويه والترك وكافور الإخشيدي، وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر"[16]. لم يكن باحماد كذلك في نظر المشرفي، وينسب المسألة إلى أصحاب الظنون الفاسدة والنيات المبيتة. لكن، ألم يقُل الحجوي إنّ أحمد بن موسى مارس سياسة تقوم على مبدأ "إضعاف القبائل، وإطلاق يد العمال بالسلب والنهب لأجل أن يأتوه بأيديهم عامرة ليعمر خزينته"[17].

من جانب آخر، نتساءل، كما تساءل خالد بن الصغير، عن السر في بقاء السلطان في "مكناس مدة استغرقت ثمانية عشر يومًا قبل دخول فاس، وهي المدينة التي لا تكتمل بيعةُ سلطان جديد إلّا فيها وبها. وربما هناك سؤال سابق عن هذا وأكبر أهمية لا بدّ من إثارته، ويتعلق بهوية الأشخاص الذين مكنوا عبد العزيز من تولّي الحكم خلفًا لوالده ومكانتهم"[18]. نقلب الفرضيات، ونفحص الشهادات التي قدمها ابن الصغير، وفي أثناء البحث والتقصي، لا نجد أجوبة مقْنعة وكافية للأسئلة المُثارة، وكان يكفينا الاطلاع على ما دوّنه المشرفي لتتبيّن لنا الحجج المعقولة التي يسردها صاحب **الحلل البهية** لتفسير الإشكال؛ فقد تحدّث عن حرب خفية دارت بين أولاد الجامعي والحاجب ابن موسى إثر وفاة الحسن الأول، وتبدو مقدمات المؤامرة في قوله: "فلمّا نهض السلطان من الرباط يريد ما سواه من الأمصار، مال الوزير - الحاج المعطي - إلى التوجه إلى فاس، قائلًا إنها قاعدة المغرب وقطب رحاه، وباحتلالها يسهّل كلّ شيء.

ومال الحاجب إلى المرور بمكناسة الزيتون، قائلًا إنّ العادة قاضية بالمرور بها لا بدّ، لكونها مقرّ الجيوش، ودار مُلك مولانا إسماعيل، ووسيلة لزيارة مولانا إدريس بن عبد الله [....] لقربه منها، ولأنّ أهل فاس قد وصلت بيعتهم وتمّ أمرهم، وأنّ الأعيان منهم يردون علينا بها، ولا يفوتنا شيء من أغراضها. فجنح السلطانُ لكلام الحاجب وأمر المرور بها ليقضي الواجب، فلما حلّ بها وأقام، والوزير والحاجب كلّ منهما يريد بصاحبه الانتقام، إلى أن تمكّنت مكيدة الحاجب بعصبية جيش البخاري، وظهر صيته وانتشر أمره ونهيه في الأمصار والبراري"[19].

يمكن القول، من مجريات الأمور السالفة، إنّ الأحقاد التاريخية وحدّة التنافس بين أسرة أولاد الجامعي وآل ابن موسى أدّت دورًا محددًا في السرّية التامة التي أدار من خلالها الحاجب أمر وفاة المولى الحسن الأول[20]، والتمهيد لمبايعة المولى عبد العزيز. والأكيد أنّ سياسة القرب والحظوة التي نهجها المولى الحسن الأول تجاه أولاد الجامعي على حساب أمراء الحجابة، لم تكن لتمرّ من دون استثمار الحدث الجديد إلى أبعد مدى ممكن؛ فهي جعلت الوزير الحاج المعطي يضيق ذرعًا "لكونه الوزير الأعظم و[كون] أخيه السيد محمد الصغير وزير الحرب، فجعل يدعو خفية لبيعة مولاي محمد بن مولاي الحسن المعزول بمراكش"[21].

---

16 المرجع نفسه، ص 224.

17 محمد بن الحسن الحجوي، **دفتر تقاييد لحوادث تاريخية: أيام المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ** (الرباط، مخطوط رقم ح 128)، ص 47؛ مصطفى فنيتر، "المخزن وقواد البوادي"، في: إبراهيم بوطالب(منسق)، **البادية المغربية عبر التاريخ**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس في الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999)، ص 73 - 87.

18 خالد بن الصغير، **بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886 - 1904** (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2003)، ص 373.

19 المشرفي، ص 218.

20 كان البلاط المخزني والممثلون الدبلوماسيون الأوروبيون على علم تام بمرض المولى الحسن الأول، وبأنه كان يعاني ألمًا حادًا في القلب والكبد. وقد أشارت إلى ذلك مجموعة من المراسلات والتقارير، ومنها مجموعة الوثائق، ج 10، ص 204، 285. انظر كذلك:
Arnaud, p. 75.
ويشير وايزغربر (Weisgerber) إلى أنّ القائد ماكلين أرسل بريدًا إلى أخيه القنصل البريطاني في الدار البيضاء، ومن هناك وصل إلى طنجة الخبر الذي أبرقته المفوضية البريطانية إلى جبل طارق وإلى وزارة الخارجية. وهكذا، كانت لندن على علم بموت السلطان في الوقت الذي كان رعايا المغرب يجهلون ذلك.

21 المشرفي، ص 218.

حسم الانتماء العصبي والذكاء المتوقد المسألة، ونجح الحاجب في المكوث تلك المدة الكافية في مكناس، حيث تتمركز عصبيته، متجنّبًا دخول مدينة فاس، حيث عصبية أولاد الجامعي وجيش شراقة الموالين لهم.

تُفسر القضية إذًا، بتوظيف موازين القوى في حلبة الصراع بشأن السلطة، وتمكُّن الحاجب، بحيله ودسائسه، من إطاحة الصدر الأعظم ومناصريه. وقد دخل المخزن مرحلة جديدة لم يتحقّق لها النضج الكافي، ولم تستند إلى ركائز مجتمعية قوية تكفل لها عناصر الدوام والاستمرارية. بل يمكن القول إنّ القضية لم تتعد المغامرة الشخصية، وفاحت من خلالها عناصر الانتقام والحقد؛ "ولم يكتف باحماد بتوجيه سهامه إلى أولاد الجامعي، ومناصريهم بالحبس ليتأكّلوا في غياهب السجون، بل سلّط مبضعه كذلك على ثروتهم التي تراكمت على عهد عدة سلاطين من أجل تجفيف مناهل قوتهم المادية، فصادر كلّ ممتلكاتهم في المدن والبوادي، وافتعل لهم طابورًا من المداينين اعتمدت دعاويهم باطلًا ودون وجه حق"[22].

عهد الوصاية وطبيعة الاستقرار الداخلي

حقق عهد الوصاية للمغرب استقرارًا نسبيًا، وامتلك الحاجب موسى بن أحمد قدرات متميزة في ضبط إيقاع التوازن الداخلي، واتضح ذلك من خلال نجاحه في القضاء على الانتفاضات التي عرفها المغرب في بداية هذا العهد؛ إذ تُعَدّ انتفاضة الرحامنة أهم تحدٍّ واجهته السلطة الجديدة، وأبان باحماد من خلالها دراية كبيرة بمعالجة قضية الخارجين عن أوامر السلطان. ويفصّل لويس أرنو في مقدمات هذه الانتفاضة[23]، ويختمها بالغنائم التي حصل عليها المخزن جرّاء هذه "الملحمة"، والتي قُدرت بآلاف الأسرى، وفرضه على الرحامنة "أداء الضرائب المتأخرة لمدة سنتين، ومساهمة حربية ضخمة، تبلغ 200.000 دورو، بهدف منعهم من الانتفاضة مجددًا"[24]. وقد كشف باحماد "عن فهم سياسي لا يجادَل ومعرفة دقيقة بأوساط الأهالي مكّنته من إرساء الهدوء بالجنوب الغربي للمملكة"[25].

أثنى الأعرج السليماني على عهد الوصاية، وقال عن باحماد أنّه "قام بسياسة الجمهور، قيام رجل مضطلع بالأمور، وقبض على صولجان إدارة المملكة، وسار بسيرة حسنة محافظًا على ناموس الإمامة، سالكًا سبل الاستقامة، مقتفيًا آثار المولى حسن في سياسته الداخلية والخارجية"[26]. وإذا كنا نتفق معه بشأن استمرار معالم السياسة الداخلية نفسها خلال عهد الحسن الأول، فإنّ سياسته الخارجية لم تكن كذلك، بدليل إعراضه عن موضوع البعثات التعليمية إلى أوروبا ولا مبالاته بأفواج المتعلمين الذين عادوا في عهده إلى المغرب.

تبدو ملامح غياب النضج الكافي داخل التجربة السياسية الجديدة، وافتقاد هذه التجربة الشروط المجتمعية القمينة بضمان استمراريتها، في أفول نجمها مع غياب مهندسها الأبرز باحماد؛ ففي عام 1899 "تسارعت المنايا لأخذ أولاد السيد موسى بن أحمد، الذين هم وزراء الدولة، فكان أولهم موت السعيد بن موسى الذي هو حينئذ وزير الحرب [...] ثم مات عقبه أخوه إدريس الحاجب [...] وبعده مات الوزير الأعظم السيد أحمد بن موسى بن أحمد [...] في [أيار/ مايو 1900] [....] وبموته اختل النظام وانفصمت عرى الأحكام [....] لما كان عليه - بحسب المشرفي- من النصيحة وحسن التدبير واقتفاء أثر سياسة من قبله، وهو إذ ذاك بكلّ أحوالهم خبير"[27].

---

22 الصديقي، ص 55.

23 Arnaud, pp. 92 - 121.

24 Ibid., p. 120.

25 Bulletin du comité de l'Afrique Française, Février 1897, pp. 50 - 51.

26 السليماني، ص 397.

27 المشرفي، ص 240.

وإذا كان صاحب **الحلل البهية** يسند الخبرة وحسن التدبير والنصيحة، واقتفاء سياسة الحسن الأول، إلى الوزير الأعظم، فإنّ حكمه هذا يكتنفه الاضطراب مرة أخرى، حين يعقب على ذلك في الموضع نفسه قائلًا: "ومن الحكم قولهم: أربعة أشياء لا يدوم معها ملْك: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية"[28]، مثبتًا له، تلميحًا، إحدى هذه الصفات أو بعضها، وخاصة أنه أتبع ذلك بذكر تفاصيل الثروة المالية الضخمة التي تركها وراءه، وأجمل المشرفي مقدار ثروته قائلًا: "فيكون دخل السلطان أقل من عشر دخل الوزير بكثير في هذه المدة"[29].

ذكر الأعرج السليماني، من جهته، سمة الاستقرار الداخلي الذي عرفه المغرب في عهد الوصاية، "ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الحاجب أحمد بن موسى [....] وبموته ظهرت الأوابد، واختلفت العقائد، وتطلعت رؤوس الشياطين، وتغيّر نظام الحكومة بالمرة، ووقع الانقلاب الفجائي في هيأتها [.......] فعمّت الفوضى في البلاد وطغى حاضرها والباد"[30]. كما أسِف ابن زيدان على انقراض عهد الوصاية، فبموت مهندس الاستبداد "حدثت حوادث، وفظائع يشيب لها الرضيع، ووقع الدخيل في الدولة واختل النظام وفسدت الأحوال"[31].

كان من علامات ذلك امتداد يد الخائنين - كما يسمّيهم ابن زيدان - إلى التركة الضخمة التي خلّفها الوزير أحمد بن موسى، "ولم يصل المخزن من أمتعته المبيعة بأسواق المدن بعد سمسرتها إلّا النزر اليسير -وأضاف قائلًا - كما مدت أيدي النهب والاختلاس في أموال غيره وأمتعته ممن صدر الأمر بحيازة أموالهم لبيت المال كابن العلام قائد المشور [...] والفشار، ولم يقع الاقتصار على أخذ أموال من ذكر من المستخدمين وضمها إلى بيت المال، بل مدت اليد العادية في كلّ من له أدنى علقة أو اتصال بهما من الأقارب والأباعد"[32].

يمكننا القول إنّ تجربة عهد الوصاية لم تكن خيارًا مجتمعيًا، يؤسس الانتقال بالسلطة من طور الاستبداد إلى مرحلة تنفيذ سلطة وطنية راشدة؛ إنها إعادة إنتاج الصورة القديمة بأدوات جديدة ومشوّهة. لذا، لا عجب أن تموت التجربة بوفاة صاحبها، فهي لم تؤسس قواعد تداول سياسي حقيقي حين حُجّم دور المولى عبد العزيز، ولم تُترك له متنفسات حقيقية لاكتساب تجربة الحكم، وممارسة السياسة الداخلية والخارجية، ومواصلة خيار التحديث المتعثر الذي قطع فيه المولى الحسن الأول أشواطًا مهمة.

نهاية تجربة باحماد وبداية حكم عبد العزيز

لم تكن تجربة حكم باحماد حدثًا سياسيًا عاديًا، بل شكّلت استثناء فريدًا في تاريخ ممارسة السلطة السياسية في المغرب. لذا، لم يكن "مستغربًا أن نجد أعضاء الدائرة المخزنية، إثر وفاة أحمد بن موسى، يبايعون المولى عبد العزيز من جديد لأنّ ملْكه كان موقوف التنفيذ في ظل استبداد الوزير الصدر"[33]. وبموت الوزير الكبير في 13 أيار/ مايو 1900 بدأ، في نظر وايزغربر، نهاية المغرب العتيق[34].

دشنت فترة حكم المولى عبد العزيز نهاية ما يمكن نعته بمسير الإصلاح الذي دشنه والده مع إيفاده البعثات التعليمية نحو بلاد الغرب الأوروبي؛ فلم يتمكن السلطان الجديد من مواصلة المسيرة التنموية، فبقي الوضع على ما كان عليه زمن بداية عهد المولى الحسن الأول. عرف هذا العهد أخطر النكبات التي باتت تهدد كيان الدولة والمجتمع، ومنها احتلال وجدة والدار البيضاء، وقبلهما توات ومجموعة من التخوم الصحراوية في الجهة الجنوبية الشرقية للمغرب.

28 المرجع نفسه، ص 240.
29 المرجع نفسه، ص 241.
30 السليماني، ص 398.
31 ابن زيدان، ص 396.
32 المرجع نفسه، ص 395.
33 الصديقي، ص 463.
34 Frédéric-Guillaume Weisgerber, *Au seuil du Maroc moderne* (Rabat: Editions La Porte, 1947), p. 95.

ومن علامات الوهن السياسي، في نظر الأعرج السليماني، أن تصدر "لتسيير دفة السياسة من الوزراء من لم تتقدم تجربة وبلوا الأمور كما ينبغي ولا قرؤوها دراسة، ولا ارتقوا فيها بالتدريج والتجربة [....] كلّ واحد يترصّد غيره ليقتنصه ويستبدّ بالمغنم دونه"[35]. كما وصف السليماني المهدي المنبهي[36] قائلًا: "وإن كان هذا الخلق شهمًا شجاعًا كريمًا عربيًا، فإنّ معلوماته في العلم والسياسة قليلة أو معدومة، [وهو] غير متدرب على جلائل الأمور ولا له مقدرة بسياسة الجمهور"[37].

أصبحت السلطة في يد الوزراء الأربعة[38]، كما يسمّيهم المشرفي. وذكر أنّه "وقع الاتفاق بينهم لما هم عليه من المشاحنة في ما بينهم والعداوة الخفية وافتراق الكلمة، بسبب الحسد والمزاحمة على نفوذ الكلمة والرضى، على أنّه لا يختص واحد منهم بإبرام شيء أو نقضه، من كلّ ما يتعلق بالأمور السياسية والأحكام المخزنية والتنفيذات السلطانية، وغير ذلك [....] إلّا بعد اجتماعهم على ذلك ومشاركتهم فيه واتفاقهم على وقوعه أو عدمه"[39]. لكن أين موقع السلطان ممّا كان يحدث داخل دهاليز السياسة المغربية؟ يبدو أنّ الوزير المنبهي قد تفتقت "عبقريته" عن الحل الملائم.

إنّ ما كان يعني المنبهي - على ما اشتهر من ألسنة الناس - هو أن يُدخل السرور على السلطان "ويقويه على ذلك بأمور المخترعات الإنكليزية، من زخارف صوره وعجائب صنعته وكلّ ما أمكنه جلبه له ممّا يوافق طبعه وهواه"[40]. ويفصّل وايزغربر في أدوات التسلية المستوردة؛ ممثّلة في السيارات وآلات البيانو وأجهزة الطهو والساعات والراديو والحيوانات المفترسة والبدلات وفساتين النساء والقبعات والحلي والألعاب الميكانيكية وآلات التصوير، ومنها واحدة بالذهب الخالص[41].

لم يبتدع الوزير المنبهي هذه الوسيلة، بل كانت سياسة هداية ورشاد اتبعها الحاجب الوزير أحمد بن موسى، إذ كان يحجب "الصبي عن الناس ويعوذه اللذات التي يدعو إليها ترف أحواله [....] وينسيه النظر في الأمور السلطانية، حتى يستبد عليه"[42].

تتعلق المسألة بالاستغراق في اللهو بأموال بيت المال، وذلك في لحظة تاريخية كانت تتطلب المزيد من الحزم والجد للذود عن كيان الأمّة والدولة، خاصة إذا علمنا أنّ "كلّ الأدباء الذين تحدثوا عن "لهو الملوك" يتفقون على أنّ ممارسته بلا حدود، والإفراط فيه يؤديان إلى ضياع السياسة وخراب المملكة"[43]. وفي هذا الإطار قال الأعرج السليماني عن الحسن الأول إنّه "فطم نفسه عن رضاع الملاهي، فلم يعرف اللهو ما هو، ولا البطالة ما هي، لعلمه أنّ الملْك واللّهو ضدّان، وأن ليس لالتقائهما ندّان"[44].

من جانب آخر يمكن قراءة أزمة شرعية النظام السياسي، وحجم التدخلات الخارجية من خلال ثورة الجيلاني بن إدريس الزرهوني وانتفاضة الريسولي.

35 الخلوفي، ص 25.

36 المهدي المنبهي، بدأ مشواره المهني عسكريًا بسيطًا في فاس، واختاره باحماد كاتبًا خاصًا له، وعيّنه المولى عبد العزيز وزيرًا للحربية. صُنِّف في خانة المناصرين للاتجاهات التحديثية، وعدّ رجل البريطانيين في البلاط العزيزي. فشل في القضاء على انتفاضة الجيلاني بن إدريس الزرهوني، كما حيكت الدسائس السياسية ضده ما ساهم في ابتعاده عن الحياة السياسية وحصوله على الحماية الإنكليزية.

37 عبد القادر الشاوي، "التخلف والنهضة أو المغرب والغرب"، مجلة **بصمات** العدد 5 (منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، 1990)، ص 49.

38 الأربعة الكبار هم: وزير الحرب: المهدي بن العربي المنبهي، والوزير الأعظم محمد غريط، ووزير المالية محمد الشيخ التازي الفاسي، ووزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان.

39 المشرفي، ص 260.

40 المرجع نفسه، ص 244.

41 Weisgerber, p. 98.

42 المشرفي، ص 224.

43 عز الدين العلام، **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**، سلسلة عالم المعرفة العدد 324 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شباط/ فبراير 2006)، ص 128.

44 السليماني، ص 391.

حركة الجيلالي بن إدريس الزرهوني

وصفت الكتابات السلطانية الزرهوني بالفتّان، ونعتته بأقبح الألفاظ والألقاب. وعدّ نفسه، من الجهة المقابلة، وارثًا شرعيًا للحكم، بصفته المولى محمد بن السلطان الحسن الأول.

طاف الجيلالي "قبائل المغرب ومدنه، وبشّر من كان يلقاه بأنه سيكون له شأن وملْك، وربما دعا بعض الأشراف والعلماء إلى متابعته، فلم يجد منهم أذنًا صاغية، إلى أن ألقته المقادير بقبيلة غياثة، فصار يطوف مداشرها وقراها على 'حمارة'، ومعه كتب وأوراق يعظ الناس بها، ويحط من قدر السلطان ورجاله، ويرفع شأن نفسه، ويحرّض من يلقاه على إثارة الفتنة باسم الدين، وتغيير المنكر، متأوّهًا على الدين وضيعته، باكيًا على الإسلام وغربته، إلى أن قال له شخص في جماعة: لو وجدنا السبيل للشريف مولاي محمد ابن مولاي الحسن لبايعناه. ففي الحين رفع عقيرته بالبكاء وادّعى أنه هو مولاي محمد ابن مولاي الحسن الموتور في ملْكه، المستبد عليه في سلطانه الذي يستحقه بإرثه من أبيه"[45].

يستحق هذا النص منّا التأمل والتحليل، إذ تبدو من خلاله مقدمات التعبئة للفكرة والترويج لها. وقد حاول الزرهوني الحط من قيمة زعيم الحركة عندما نأى بالأشراف والعلماء عن مساندة دعوته، وهو ما يجعلنا نقول إنّ القاعدة المناصرة له من قبيلة غياثة وغيرها افتقدت عنصري العلم والشرف، وهما أساس البيعة ورباط الملْك. ونستنتج، من خلال الإخراج القصصي للنص، أنّ قبيلة غياثة وقبائل أخرى لم تكن بالمستوى الوضيع الذي ألمح إليه من قبل؛ فالسبيل الوحيد، من وجهة نظرها، إلى التغيير هو الانتماء إلى دائرة الأسرة المالكة. وليس من حق أحد أن يثور على النظام ما لم يحزْ الشرعية التاريخية والرمزية. وهنا سيلتقط الجيلالي بن إدريس هذه الإشارة التي يبدو أنها كانت مرتبة سابقًا، ليزعم أنّه هو نفسه المولى محمد ابن الحسن الأول.

حمل ابن زيدان على الزرهوني بشدة، فقد كانت للزرهوني "معرفة بفنون السحر، أضل بها كثيرًا من الغوغاء، وصار يدّعي أنه هو المولى محمد نجل السلطان [...] الحسن الأول وصنو السلطان المولى عبد العزيز"[46]. وأرجع أسباب استفحال أمر "الفتّان" إلى الغوغاء والرعاع الذين خدعتهم حيله وطلاسمه التي كان يمارسها في مناطق تجوله واستقراره. لكننا لا نجد إشارة تشكّك في مسؤولية النظام العزيزي، وفي دوره في الإضرار بالقضية الوطنية وعجزه عن مدافعة التكالب الاستعماري عن مجموعة من المناطق والتخوم، وعلاقة ذلك بإنتاج أمثال "الفتّان" وغيره.

وتحدّث الأعرج السليماني عنه قائلًا: "وكنت كثيرًا ما أراه يتظاهر بالزهد والعفاف وكثرة التلاوة والأذكار"[47]. كما تدخّلت الفتوى الرسمية لإضفاء المشروعية على النظام العزيزي، فصرّحت قائلة: "وأمّا ما صدر في هذا الزمان من الثائر الفتّان من الخروج عن الطاعة وفراق الجماعة ومحاربة جيش السلطان والتلبيس على الناس بالسفسطة والبهتان، فهو من الذنوب الكبائر المذمومة عند الأوائل والأواخر"[48].

اهتمت الفتوى بالموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة عن مسألة الخروج عن بيعة السلطان والدعوة إلى حركة سياسية بديلة، ورأت في ذلك إضعافًا لبقايا القوة الموجودة، وانحازت إلى أولوية درء المفاسد. وكانت انتفاضة "الفتّان"، بالنسبة إليها، سببًا للبلقنة السياسية، في زمن لم تتوان القوى الغربية في استغلال الثغرات الداخلية لتعميق الجروح والدفع بالأزمة إلى أبعد مدى ممكن.

---

45 أبو العباس أحمد الزرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، جعفر بن الحاج السلمي (محقق)، سلسلة تراث 6، ج 2، ط 2 (طنجة: منشورات جمعية تطاون أسمير، الطباعة: ألطوبريس، 2001)، ص 97.

46 ابن زيدان، ص 401 - 402.

47 السليماني، ص 401.

48 محمد الفلاح العلوي، **جامع القرويين والفكر السلفي 1873 - 1914**، منشورات مجلة **أمل** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1994)، ص 128.

دلت حركة الجيلاني بن إدريس الزرهوني على اهتزاز صدقية الدولة وهيبتها، وعبّرت عن رفض ممارسات النظام العزيزي، والتعلق بأي وسيلة ممكنة، وبأي زعامة تخاطب عواطف الناس وآمالهم، وخاصة عندما عدّت نفسها جزءًا من النسق الداخلي للسلطة الحاكمة؛ فقد "تسببت سياسة المولى عبد العزيز، من الناحية الاجتماعية والدينية، في تشكيل رأي عام، يصنِّف السلطانَ ضمن الصف المسيحي"[49]. ولا شك في أنّ الفوضى السياسية التي عرفها هذا العهد استمدت أسسها وتبريراتها من هذا التصنيف.

دلّ مجمل هذه الإشارات على أنّ محاولات التغيير كانت عاجزة عن الخروج على النسق العام الذي انبنت عليه آليات التداول السياسي في المغرب؛ فشكّلت استنساخًا وتجربة مكررة لما سبقها. وكانت تبحث عن مسوّغات شرعيتها من داخل نسق الحكم الداخلي، بصفته مؤشّرًا حقيقيًا لقياس درجة فعالية ممارسة السلطة السياسية. واستغلت هذه الحركة مظاهر التذمر المجتمعي من سياسة المولى عبد العزيز الذي قَبِل تطبيق نظام الترتيب، وانفتح على مؤسسات القرض الرأسمالي بما سمح بنشوء "معارضة – راديكالية - دينية - وسياسية وقبلية [....] استطاعت أن تخترق على المستوى نفسه، مواقع النظام نفسه"[50]. كما دلّت بالدرجة نفسها على تعلق المجتمع بمؤسسة السلطان عندما كانت تؤسس البدائل الممكنة للنهوض والتنمية.

تدلّ طبيعة هذه الرؤية، بقوة، على ضآلة دور القاعدة والنخبة في صوغ تجربة جديدة تؤسس سكة تنموية حديثة، ينخرط في السير عليها كلّ من الدولة والمجتمع، بصورة متناغمة ومتكاملة.

وما يمكن قوله بصفة نسبية في هذا المجال هو إنّه بانتهاء عهد الدولة العصبية مع كلّ من المرابطين والموحّدين، أصبحت حلبة الحكم السياسي فاقدة مبدأ القاعدة المجتمعية، ممثَّلة في العصبية والنِّحلة. وأضحى النسبُ الشريفُ المعيارَ الأساس الذي يؤطّر الحياة العامة مع كلّ من الدولة السعدية والعلوية. ووجدنا أنفسنا أمام قطيعة لم تسمح ببلورة مسير سياسي يعالج قضية التداول السياسي ويدفع في اتجاه مراكمة التجربة، وتأسيس منطق الدولة المستقرة والفاعلة على مرّ الدهور والفترات التاريخية المتعاقبة. لكن، ألم تقم الدول العصبية نفسها بنفي هذه الخاصية وربط منطق السلطة بذاتها ومصالحها الفئوية؟ ألم تتأسس التجربة الموحدية على نفي معظم ما أنتجته عصبية لمتونة؟ ألم يتنكر مؤرّخو مصمودة لإنجازات المرابطين ففرضوا نمطًا إخباريًا ينال من الخصم وينتصر للإنجازات التي دوّنها البيذق وصاحب **الحلل الموشية**، وعبد الواحد المراكشي وغيرهم؟

تغيب في تاريخنا المؤسسات الثابتة والمستقرة التي تستمر مع زوال الدول والعصبيات. ونفقد، من ثمّ، الخزّان الحقيقي للتراكمات السياسية والمجتمعية القمينة بتوفير الشروط الفاعلة لإنجاز الأدوار التاريخية الكبرى. ولقد أدى غياب هذه التقاليد إلى إنتاج انفصام جلي بين الدولة والمجتمع، وافتقدنا الحاضن الذي لا يمكن، من دونه، صناعة التغيير والتحول نحو الأفضل، تنمويًا وبشريًا واجتماعيًا وسياسيًا.

كان الفقيه الحجوي يعي فكرة التراكم والمرحلية في صناعة قرارات الدولة والمجتمع، فالنظام العصري في أوروبا القائم آنئذٍ على نظام المجالس الشورية الانتخابية، في نظره، "لم يتكوّن دفعيًا، بل كان نتيجة قرائح أمم أوجدته تدريجًا في أجيال متطاولة"[51].

لقد أدركت القوى الغربية، وخاصة الفرنسية منها، حجم الثقوب المتناثرة داخل مجالات السلطة والمجتمع، فأذكت الصراعات ووظفت، بأسلوب غير مباشر، حركة الجيلاني الزرهوني في مشروعها الاستعماري العام. وإذا تمكن الزرهوني من تحقيق انتصارات كثيرة على الجيش المخزني، فإنّه لم يقدّم بديلًا سياسيًا بالمستويات الدنيا لممارسة السلطة السياسية، بل حُددت له أدوار معينة نفذها، من دون وعي منه، لخدمة أهداف فرنسا الإستراتيجية في شمال أفريقيا، بغية إضعاف المؤسسة المخزنية وانتزاع مجموعة من الاتفاقات والمصالح الاستعمارية.

49 Charles-André Julien, *Le Maroc face aux impérialismes, 1415 - 1956* (Paris: Editions J. A., 1978), p. 42.

50 عبد القادر الشاوي، **السلفية والوطنية** (بيروت: مؤسسة الأبحاث الجامعية، 1958)، ص 16.

51 محمد بن الحسن الحجوي، **النظام في الإسلام** (الرباط: المطبعة الوطنية، 1982)، ص 20.

ولقد أشار الحجوي، من وجهة نظر مقارنة، إلى أنّ "النظام الذي تسير به الدول الإسلامية من أقدم عصرها قد هرم [....] فتشوّه وجهه بالأخلاق السافلة الفاشية وعدم التعلم، فيضطر السلطان لتولية الجاهلين، فلا يحسنون، إذ لا علم [....] والنظام الذي أسسته الدولة العصرية وجرى مفعوله في العالم [....] لا وجود له، ولم تتوافر في المغرب أسبابه ومعداته"[52].

كما امتلك الحجوي وعيًا تاريخيًا مكّنه من توظيف فكرة التراكم لفهم الحاضر وتفسير أسباب انحطاط العالم الإسلامي عامة، والمغرب خاصة، من طريق مقارنته بضده الأوروبي. لكننا لا نتفق معه عندما ينأى بالسلطان عن أسباب الفشل، ويصفه بالحالة المتقدمة، أو بالجزيرة المنعزلة التي فقدت المحيط المتناغم مع تصوراته الإصلاحية، وهو عين ما ذهب إليه ابن زيدان عندما حمّل بطانة السوء أسباب فشل البعثات التعليمية المغربية في عهد الحسن الأول.

ولا يمكننا إنكار دور بطانة السوء في تعطيل مسيرة التنمية داخل أي مجتمع يصبو إلى التغيير والإصلاح. لكن هذه البطانة هي، مع ذلك، منتج خالص للقادة السياسيين، وعندما تفشل هذه النخبة في الحد من فسادها وإفسادها، يكون فشلها دليلًا على عدم أهليتها للحكم وممارسة سلطة راشدة وفاعلة.

الريسوني والمواجهة مع الأجانب

من جانب آخر، مثّلت حركة الريسوني (أو الريسولي)[53] أخطر تحدٍّ للسلطة المخزنية، خاصة بعد اعتراضه الأجانب وخطفهم، "وامتداد نفوذه داخل المثلث الرابط بين طنجة وتطوان والعرائش"[54]. ونتجت خطورة حركة الريسولي من وجوده في منطقة قريبة من طنجة، مركز التمثيل الدبلوماسي الأجنبي. وقد كان، هو نفسه، واعيًا بهذه الخصوصيات، ما جعله يقدم على اختطاف الشخصيات الوازنة سياسيًا ودبلوماسيًا.

ويبدو أنّ طموحاته السياسية المتنامية ساهمت بدور أساسي في تكوين شخصيته، ويتضح ذلك من خلال نتائج المفاوضات التي كانت تعقب عمليات الاختطاف، فبعد أخذ الأميركي أيون بيرديكاريس Ion Perdicaris رهينة لديه، نجح الريسولي في انتزاع منصب قائد الفحص. ويبدو أنّ عمق الأزمة البنيوية للمخزن العزيزي، وعدم وجود كاريزماتية تستحق الخضوع والامتثال، ساهما في استمرار علاقاته المتوترة مع المخزن والقوى الأجنبية. وفي هذا الإطار كان خيار الفوضى والاختطاف الملاذ الحصين للريسولي.

توّج الريسولي مسيرته هذه بالاختطاف الشهير للقائد هاري ماكلين Harry MacLean (الإنكليزي) الذي كان في مهمة تفاوضية معه. وقد "ظل ماكلين أسيرًا من [كانون الأول] / دجنبر 1906 م إلى 6 [شباط] / فبراير 1908 م"[55]، وتدخّل الإنكليز لإطلاقه مقابل منح الريسولي الحماية الإنكليزية، و20000 جنيه، وإطلاق بعض أنصاره.

---

52 الخلوفي، ص 10.

53 الريسولي أو الريسوني، ولِد عام 1868 أو 1870. ينتمي إلى أسرة شريفة استقرت بين تطوان وطنجة. تلقى تعليمه الأولي في مدارس بني عروس. وفي الفترة (1890 - 1892)، شكّل جماعة صغيرة ركزت عملها على اعتراض المسافرين وسرقة الأموال، ففي عام 1903، خطف أحد المقربين من الريسولي مراسل صحيفة **التايمز** وُلتر برتون هاريس Harris Burton Walter ، وكانت قيمة المختطَف متأتية من كونه مرافقًا للسفير الإنكليزي كيربي غرين Kirby Green الذي كان في مهمة دبلوماسية لدى السلطان الحسن الأول. كما أن الريسولي اختطف الدبلوماسي الأميركي بيرديكاريس، وأنهى مغامراته تلك باختطاف القائد هاري ماكلين وحصوله على الحماية الإنكليزية، وانتهى به المطاف إلى السقوط في يدي محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكانت وفاته في منطقة أجدير عام 1926. بتصرف عن:

54 Leonhard Karow, *Neuf années au service du Maroc 1900 - 1908*, Monique Miége & Jean-Louis Miége (trans.), Collection mémoire du Maroc (Rabat: Editions La Porte, 1998), pp. 69 - 70.

55 Abdallah Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830 - 1912)* (Casablanca: Centre Culturel Arabe, 1993), p. 351.

دلّ مجموع هذه الحوادث على وجود خلل كبير في ممارسة الفعل السياسي وضبط إيقاع التوازن الداخلي. ويبدو أنّ السلطة العزيزية فقدت مقومات رؤية إصلاحية لمعالجة الإكراهات الداخلية والتحديات الخارجية.

وضمن هذا السياق ذكر الحجوي "أنّ مولاي عبد العزيز قد جالت في رأسه فكرةُ الشورى والديمقراطية وأتاه سفراؤُه بهذه الأفكار، ففعل بها، وكان أول ما فعله جعل مجلس شورى من الوزراء ينعقد كلّ يوم للتداول في الأمور المهمة تعرض عليهم [....]، لكن الأمّة جاهلة والوزراء معهم قصور وتنافس"[56]. وقد برزت الفكرة بعد السفارتين اللتين توجهتا إلى كلّ من إنكلترا بقيادة المنبهي، والأخرى التي يممت قِبلتها نحو فرنسا وروسيا.

نثير هنا سؤالين يتعلقان بمقدمات إصلاح من هذا النمط، في مجتمع غارق في الأمية، وتحت قيادة نخبة سياسية فاسدة ومفسدة، كما يصفها الحجوي: ما هو المطلوب إنجازه تاريخيًا وسياسيًا في مثل الوضعية التي كان يعيشها المغرب؛ أهو استيراد الأفكار والتصورات الإصلاحية، كما يوصي بها "الخبراء الأجانب"، أم إصلاح المجتمع ومنظومته الثقافية والتعليمية، وتأسيس قاعدة مجتمعية واعية بحجم التحديات التي تنتظرها داخليًا وخارجيًا؟

يفرض هذا المخرج الأخير الذي نعتقد أهميته، على السلطة الحاكمة التنازل عن كبريائها، وإشراك النخب والفئات الاجتماعية والدينية في هذا المشروع التاريخي. ويأتي، بناءً عليه، التفعيلُ السياسي ثمرةً ونتيجة لممارسة سلطة راشدة في علاقة الدولة بالمجتمع ومكوناته الأساسية.

يشكك هذا السؤال، إذًا، في حقيقة منظور السلطة للإصلاح، إذ يبدو فاقدًا مقدمات النجاح، كما أنه يوضح المسافة السحيقة التي كانت تفصل بين المخزن، الحالم بمشروع لن يتحقق، والمجتمع الغارق في معاني الفوضى والفاقد لأي تطلع تنموي حقيقي.

الصراع بين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ بشأن السلطة

يمكن القول إنّ المولى عبد العزيز "لمّا [....] رأى قصور مدارك الأمّة وأنها لم تظفر بدواء تشير به، عقد المؤتمر بالخزيرات، ولم يعد لاستشارة الأمّة، فوقع في غضبها وكان سببًا في ثورة أخيه المولى عبد الحفيظ"[57].

مثّل القَبول العزيزي ببنود مؤتمر الجزيرة الخضراء بدايةَ انقطاع الصلة بين المخزن ومجلس الأعيان، فلم "تقع استشارتُه إبان انعقاد المؤتمر ولا من بعده، وإنّما أذن لهؤلاء الممثلين بالانصراف، دون أن يقع جمعُهم وإعلامهم بنتيجة المؤتمر، ومن غير جبر خواطرهم بكلمة فضلًا عن الأخذ برأيهم"[58]. ويبدو أنّ حالة الطلاق السياسي كانت قدرًا محتومًا بين الطرفين. وتبيّن لأهل العقد والحل ضرورة تجاوز الوضع الجديد، والانطلاق نحو تأسيس عقد سياسي، سمّي بالبيعة الحفيظية، فبدأ يبرز اسم المرشح البارز - عبد الحفيظ - خليفةً محتملًا لتحقيق الانتقال السياسي العسير، وتطلّب ذلك مجموعة من المذكرات التوضيحية من هذا الجانب أو ذاك، وانتهت بوضع شروط البيعة السياسية المشهورة.

على مستوى آخر، أنتج الصراع بين الأخوين مقدمات تنظير سياسي حقيقي لحالة سياسية مأزومة، فقد حمل محمد بن عبد الكبير الكتاني (1873 - 1909) بشدة على الاقتراحات الفرنسية، ويبدو أنه امتلك مقدمات وعي سياسي أهلته إدراك طبيعة المقايضات

---

56 الحجوي، **النظام في الإسلام**، ص 29.

57 المرجع نفسه، ص 34.

58 محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ص 202.

الاستعمارية بين القوى الإمبريالية المتربصة بسيادة المغرب ووحدته السياسية. ولم يكتف الرجل بالتنبيه والإشارة إلى مواطن الخلل، بل انخرط أيضًا في حمأة السياسة ودهاليزها المظلمة التي أفضت به إلى الموت في عهد السلطان عبد الحفيظ.

يستمدّ الرجل قيمته من مكانة العلم، ومن الوعي بخطورة المرحلة التاريخية التي كانت تمرّ بها مؤسسات السلطة وممارساتها المخلة بعناصر السيادة والاستقلال، "وكانت تواليه فئات عريضة من الحرفيين والتجار الصغار"[59]، وبدا أثر ذلك في ما يسمّى ثورة المكس، عندما "رفضت ساكنة مدينة فاس أداء حقوق الأسواق، وضريبة التبغ"[60].

تمثّل ثورةُ المكس هذه مقدمات التغيير الأولى التي عجلت بإطاحة المولى عبد العزيز وتولية أخيه المولى عبد الحفيظ الذي أبدى استعداده لنقض السياسة السالفة وتأسيس سلطة وطنية راشدة، وهي ظاهرة تكررت أكثر من مرة في تاريخ المغرب السياسي، ومن ذلك ما حدث في عهد السلطان المولى سليمان.

بداية عهد المولى عبد الحفيظ والصراع السياسي مع المعارضين

تثار أمامنا في هذا المبحث علاقة المد والجزر بين المخزن ورموزه السياسية من جهة، والنخب المعارضة، من تيار الزوايا، أو القبائل وفئات الأعيان والعلماء من جهة أخرى. فإذا كانت فترة السلاطين الكبار قد حجّمت دور هذه النخب وأدمجتها، نسبيًا، ضمن نسق السياسة المرسومة، فإنّ أزمة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وتراجع الكاريزماتية السلطانية، سمحا ببلورة مقدمات مشروع سياسي يروم النيل من امتيازات السلطة المطلقة، وتأسيس ما يمكن نعته ببوادر حكم ملكي دستوري؛ فقد شهدت الفترة الكثير من المشاريع الدستورية التي تلازمت مع عودة مجموعة من وفود البعثات التعليمية، واستقرار بعض النخب الفكرية المشرقية في المغرب.

لهذا يمكن القول إنّنا أمام بوادر يقظة حقيقية على مستوى التنظيرات السياسية والدستورية التي يمكن عدّها امتدادًا لفكرة الاستعداد التي نظّرت لها نخب النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كالكردودي والتسولي واللجائي [....] وخاصة بعد هزيمتي إيسلي (1844) وتطوان (1860).

حصل عبد الحفيظ على "مساندة سياسية ومعنوية من زعماء المناطق الجنوبية، وفي مقدمتهم الجلاوي، والمتوكي، الكندافي"[61]، كما سانده مجموعُ الفئات الفاعلة في المشهد السياسي الداخلي، من أعيان وعلماء وغيرهم. ويمكن القول إنّ الجلاوي منحه القوة المادية اللازمة لإبرام هذا العقد التوافقي، بل إنّ وايزغربر تحدّث عن عملية الضغط والتهديد بالتصفية الجسدية ضد كلّ من حاول الامتناع عن توقيع صك البيعة المشروطة[62]. وقد حمل "الجلاوي معه 500 فارس، وجنّدت الرحامنة العدد نفسه، وجنّد الكندافي 200، وقد شكّل مجموع العدد نواة الجيش الحفيظي"[63].

كانت البيعة الحفيظية مشروطة بمطلب الجهاد، ومثقلة بمجموعات من الالتزامات الداخلية والخارجية. ولم تكن بصمات محمد بن عبد الكبير الكتاني غائبة عن الصوغ النهائي لصك هذه البيعة. ولمّا كان الرجل يدرك حجم المكابدة والمشاق الملقاة على كاهل السلطة السياسية والمجتمع، فإنّه بحث عن مخرج ظنّه ناجعًا، وهو تكليف المجمع الأهلي بمهمة المشاركة في تحمل تبعات البيعة المشروطة.

---

59 Laroui, p. 393.

60 Ibid., p. 393.

61 Ibid., p. 391.

62 Weisgerber, p. 127.

63 Ibid., p.127.

لم يعتد المخزن المغربي هذا النوع من الخطاب من عالم عرف قواعد السياسة ومنعرجاتها، وأدرك أهمية الإيمان والسياسة في حلبة النزال الدبلوماسي، وانتقل من مجرد التنبيه والتنظير إلى مبدأ الاقتراح العملي والحلول الواقعية والصعبة. ولم يستسغ أحد مثقفينا امتلاك رجل الفقه والعقيدة زمام النضال السياسي، وقد أورد إحدى رسائل الكتاني التي جاء فيها: "وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفوذ في العالم، فإنّما وصلوا إلى ذلك بأمور، منها الحرية التي عبّر عنها الشرع الكريم بالقسطاس والعدل والنصيحة وعدم المحاباة، والقيام في كلّ موطن وما يقتضيه، ومعرفة كلّ منصب وما يطلبه، وعدم إهمال بعضهم بعضًا، ومعرفتهم بحق من ظهر فيه أدنى نبوغ وتيقّظ"[64]. ويعقّب على ذلك قائلًا: "وهذا إقرار علني بتقدم الآخر، وتأخّر الذات، لكن وسيلة التجاوز التي يقرّها الشيخ الكتاني، في نظره، لا تخرج عن نطاق دعوة الجهاد التي تبقى مجرد دعوة طوباوية بل وانتحارية، نظرًا لميزان القوى المختل. وهنا لا يتداخل فحسب الدين مع السياسة، ولكن يتداخل العقل مع اللاعقل والواقع مع المخيال (أو الأسطورة)"[65].

التقط عثمان أشقرا هذه الإشارات وخرج بهذا الاستنتاج، وحكم على هذا الفكر الإصلاحي بالانتحار والطوباوية واللاعقلانية والأسطورية، مستدلًا على ذلك بإكراهات الواقع واختلال ميزان القوى لمصلحة القوى الإمبريالية، واستحالة فكرة الجهاد التي بويع على أساسها المولى عبد الحفيظ.

كما تُفصح المراسلات بين السلطان الجديد وزعيم الزاوية الكتانية عن عدم اكتفاء الثاني بالتنبيه إلى مواطن الخلل، بل إنّه قد وضع حلولًا عدّها ملائمة، جسّدتها توجيهاته الواردة في الوثيقة السالفة الذكر. واقترح على السلطان اقتسام تبعات مواجهة الردود الدولية المعارضة، بمنح المجمع الأهلي صلاحية الموافقة على بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء أو رفضها، ووضع مطالب القوى الأجنبية أمام الأمر الواقع. كما كُتب كثير من المقالات في صحيفة لسان المغرب[66]، وقيّمها صاحبنا بأنها مقالات إصلاحية مهمّة[67].

تتطلب الإجابة عن هذا الحكم ذكرَ الوقائع وتحليها، والتقاط عناصر الخلل لدى صاحب كتاب **العطب المغربي**، من خلال منحى المقارنة بين المغرب واليابان، انسجامًا مع الأطروحة التي تبنّاها بحثه، وخاصة أنه ضمَّن كتابه المذكور محورًا في موضوع التحديث بين اليابان والمغرب (1853 - 1906).

لا ينكر أي باحث في تاريخ اليابان الحديث الدور المحوري الذي أدته شخصية سايغو تاكاموري Saigō Takamori [68] في إطاحة النظام الشوجوني الصارم، القائم على قواعد علاقات الولاء الإقطاعية، وما نتج منها من التزامات متبادلة وصارمة. وقد شكّل تاكاموري مع رفيقيه أوكوبو توشيميتشيokubo toshimichi[69] وkido takayoshiكيدو تاكايوشي[70] ثالوثًا أسس ميلاد عهد الميجي. واختلف

---

64 عثمان أشقرا، **العطب المغربي (بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب)** (مراكش: منشورات الملتقى، 2003)، ص 63 - 64.

65 المرجع نفسه، ص 64.

66 صحيفة **لسان المغرب** أسسها في مدينة طنجة في 28 شباط/ فبراير 1907 الأخوان ذوا الأصول الفلسطينية فرج الله، مدير النشر، وآرتور نمور، مسؤول التحرير. وقد سبق لهما أن أسسا في تونس صحيفة **البصيرة** التي منعت صدورها سلطات الحماية الفرنسية. كما انهما أمضيا بعض الوقت في كلّ من باريس ولندن، حيث طورا معرفتهما بالممارسة الصحافية. وعند استقرارهما في المغرب، قاما بتجهيز مقرهما بالتقنيات المطبعية، واتجهت مواقف صحيفة **لسان المغرب** نحو الدفاع عن مطالب الحركة الحفيظية، متأثرة بالحركة الإصلاحية في المشرق العربي. وقد نشرت مشروع الدستور في عددها الصادر في 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1908. وتوقف صدورها عند العدد 84 بتدخل من المخزن الحفيظي.

67 أشقرا، ص 63.

68 سايغو تاكاموري (1828 - 1877): تعرض للنفي في عهد التوكوجاوا وساهم مع كيدو تاكايوشي في عقد تحالف بين قبيلتي ساتسوما وتشو شو، وهو ما كان له دور في إطاحة النظام الشوجوني. اختلف مع الحكم الجديد الذي حلّ طبقة الساموراي، ودخل في مواجهة عسكرية مع الجيش الإمبراطوري. توفي بعد ممارسته شعيرة السيبوكو في ساحة الوغى. ينعته بعض الدارسين بالساموراي الأخير.

69 أوكوبو توشيميتشي (1830 - 1878): كان ينتمي إلى قبيلة ساتسوما. ساهم في إقامة أركان النظام الإمبراطوري. التحق ببعثة إيواكارا سنة 1871، واغتاله عام 1878 أحد أفراد طبقة الساموراي

70 كيدو تاكايوشي (1833 - 1877): رجل قانون ياباني، نشأ داخل بيئة تعليمية، وتلقى التعليم العسكري الغربي بإيدو - طوكيو- كان عضوًا بارزًا في بعثة إيواكارا. ساهم مع رفيقيه السابقي الذكر في إطاحة نظام التوكوجاوا الإقطاعي، وإرجاع السلطة إلى الإمبراطور.

تاكاموري مع الأوليغارشية الحاكمة وتكتلات الزايباتسو[71] الاحتكارية في درجة الانفتاح على الحضارة الغربية، وبقي متشبثًا بتقاليد الساموراي، وبالقيم الثقافية اليابانية القديمة، والتجأ إلى المدرسة وعاءً حاضنًا لمعتقداته الفكرية والسياسية، ومارس شعيرة السيبوكو[72]، وبقي متمسكًا بثقافة الساموراي التي يمكن تصنيفها، في مقاييس بعض الباحثين، بالمحافِظة والانتحارية واللاعقلانية.

لم يتنكر اليابانيون لزعيم قبيلة ساتسوما، ولم توصف حركته، داخل اليابان، بالطوباوية والأسطورية والانتحارية، وبإشارة رمزية ومعبّرة، عفا عنه الإمبراطور الميجي بعد وفاته، وأقيمت له النصب التذكارية، واكتشف اليابانيون، بعد مرحلة الانفتاح، أهمية التزود بالقيم التي دعا تاكاموري إلى التشبث بها، ولم يُنعت يومًا بكونه مثاليًا، أو بحالة أسطورية لا تؤمن بموازين القوى.

لقد تلقى المخزن الحفيظي وقبله العزيزي الكثير من الاقتراحات الدستورية، لكن نصائح زعيم الزاوية الكتانية اتخذت منحى خطِرًا في مآل العلاقة بين السلطة والمجتمع. وقد اتسمت هذه النصائح بطابع الإلزام من خلال الشروط التي تضمنتها البيعة الحفيظية التي جاءت تتويجًا لما سمّاه المنوني الثورة الشعبية "التي اقترحها محمد بن عبد الكبير الكتاني، وتبنّاها – بالموافقة عليها - كافة الممثلين للرأي العام الفاسي الموقعين البيعة"[73]. وممّا جاء فيها:

- "أن يسعى جهده في رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة في الخزيرات [....]، وأن يعمل وسعه في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية.
- وأن يباشر إخراج الجنس المحتل من المدينتين اللتين احتل بهما
- وأن يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات.
- والتنزيه من اتباع إشارة الأجانب في أمور الدولة
- وإن دعت الضرورة إلى اتحاد أو تعاضد، فليكن مع إخواننا المسلمين: كآل عثمان
- وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية أو تجارية: فلا يبرم أمر منها إلّا بعد الصدع به للأمة
- وأن يوجه - أيده الله - وجهته الشريفة لاتخاذ وسائل الاستعداد، لمدافعة عن البلاد والعباد
- وأن يقر [....] برفع ضرر المكوس"[74].

يطول بنا سرد جميع الشروط الواردة في البيعة الحفيظية، إلّا أنّ ما سبق ذكره يبيّن لنا حجم التحديات التي واجهت السلطان الجديد. ونتساءل عن حقيقة الوعاء المجتمعي والسياسي وحجمه الذي كان لزامًا عليه الارتقاء إلى المستويات الدنيا من هذا الخطاب/ الإصلاح الدستوري.

---

71 الزايباتسو: تعني مجموعة كبيرة من المقاولات، ومنها: Mitsubishi, Mitsui, Sumitomo, Itochu. وتعني اليوم ما يسمّى الاحتكارات الاقتصادية الكبرى، على شاكلة جنرال موتورز الأميركية المتخصصة في صناعة السيارات.

72 السيبوكو: شعيرة الانتحار الياباني الذي يوصف بالنبل والشهامة، وتقام أساسًا داخل المعبد، بشق البطن بسيف قصير من الأعلى إلى الأسفل، وبشكل عرضي. وقريبًا منها مصطلح هارا كيري، وترجمته الحرفية هي قطع الأحشاء. وقد كان هذا الفعل معروفًا لدى مقاتلي الساموراي الذين كانوا يلجأون إليه لتفادي الوقوع في أيدي العدو أو لمسح عار الهزيمة، والتكفير عن الخطأ، كما كان يدلّ على النبل والطاعة. في كثير من الأحيان كان الساموراي يعين أحد المقربين له ليقطع رأسه بضربة سيف بعد أن يقوم ببقر بطنه بنفسه، وهو ما قام به سايغو تاكاموري.

73 المنوني، ص 343.

74 المرجع نفسه، ص 352 - 353.

فهل كانت بنية المخزن، بتراكماتها التاريخية وطبيعة المجتمع التي حكَمَتْه مبادئ الحماية القنصلية والنزعة الفوضوية لقادة الشمال والجنوب، كفيلة بتحقيق فرص النجاح أمام مشروع تبنّى حلولًا جذرية لعلاقات الداخل والخارج، واستهدف إنجاح عملية التوافق السياسي الجديد؟

كانت تجربة البيعة الحفيظية "مشروعًا لثورة إصلاحية ذات أهداف وطنية واضحة"[75]، وهو ما أكده عبد القادر الشاوي، لكن التحالف الذي بايع المخزن الحفيظي حمل في أحشائه ألغامًا كثيرة؛ فقد تأكد من مجريات الأمور اللاحقة أنّ المولى عبد الحفيظ توسل بالمناورة والدسائس للالتفاف حول شروط البيعة. وتسابق القواد الكبار في استغلال الوضع الجديد للتقرب من القادة العسكريين الفرنسيين، والحصول على الإقطاعات والامتيازات المادية؛ فقد سارع المدني الجلاوي في عام 1911 إلى تسليم العقيد الفرنسي مانجان "مفاتيح مدينة مراكش، وأمضى في الفترة نفسها اتفاقًا منفردًا مع بنك كبير للشؤون الفرنسية لأجل ضمان الرساميل والتقنيين لعصرنة نظام السقاية في أملاكه"[76]. ويمكن القول إنّنا أمام لحظة ملغومة في تاريخنا الوطني، افتقدنا فيها مقومات النجاح. وما كان لهذا النجاح أن يتحقق في ظل التحالف البراغماتي الهش الذي شكّل فيه القواد الكبار محوره الأساس. وبقيت فكرة البيعة المشروطة في حاجة إلى من يرتقي إلى معانيها ودلالتها، ويؤسس مرحلة جديدة في تاريخ الممارسة السياسية في المغرب.

يمكن القول إنّ المقاومة المسلحة في الريف مع محمد بن عبد الكريم الخطابي وفي الأطلس والصحراء، منحت المعنى الإجرائي لشروط البيعة الحفيظية، ونجحت، نجاحًا كبيرًا، في تأسيس بدائل ممكنة لاسترجاع الكرامة الوطنية.

وعلى وجه الإجمال، يمكن تلخيص ما ورد في هذا المبحث بما أورده الحجوي:

"بدأ انقلاب الحوادث بالمغرب بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية المغرب والسلف الأوروبي، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب وأبطاله في الحروب الداخلية. وقد اختل وضاع الأمن، وفسدت الأخلاق، وتكالبت الناس على الرياسات الوهمية وجمع الحطام. وتسلّط على مناصب الدولة كلّ دخيل جاهل، فجرّ ذلك إلى تلاشي الدولة العزيزية، وتتابعت المحن وأظلم جو المغرب. وفي أثناء ذلك وقعت معاهدة 8 [نيسان] / أبريل 1904 م، بين فرنسا والإنكليز، ثمّ مؤتمر الجزيرة الخضراء [...] وإثر المؤتمر بيسير سقطت الدولة العزيزية، وقامت الدولة الحفيظية. ثمّ وقع إثر ذلك الاحتلال، ثمّ إعلان الحماية [....] هذه إحدى عشرة سنة رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع وتندك له الجبال"[77].

لكن من جانب آخر، لم يكن سقوط مشروع البيعة الدستورية نهاية المسعى، بل يمكن عدّه لحظة رمزية أسست بداية المقاومة المسلحة التي تمثّل تجسيدًا لمطلب الجهاد الذي بويع على أساسه المولى عبد الحفيظ. وفي هذا الإطار، نتساءل: ألم تنطلق مقاومة أسرة ماء العينين ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وموحى أوحمو الزياني، وأحمد الحنصالي، والشريف أمزيان وغيرهم كثير، من قاعدة الجهاد واسترداد ما ضاع من سيادة الدولة والمجتمع وكرامتهما؟ ألم يتنكر كلّ هؤلاء لإكراهات الواقع السياسي ومتطلباته البراغماتية، واختاروا، بدل ذلك، خيار المقاومة، لبعثرة عناصر الإستراتيجية الاستعمارية في أفق إزاحتها من المشهد السياسي الداخلي؟

فالإصلاح يتحقق ضمن شروط سياسية وفكرية تمنح الغاية والمعنى لنخب التغيير التي تحتاج لتنزيل تصوراتها إلى قاعدة مجتمعية، تعي طبيعة التحديات الداخلية والخارجية، ويتكاثف بذلك جهدها لصناعة الحوادث التاريخية الكبرى.

75 الشاوي، "التخلف والنهضة... "، ص 23.

76 المرجع نفسه، ص 25.

77 محمد بن الحسن الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي** (فاس: المطبعة الجديدة، [د. ت.])، ص 205 - 206.

وتعدّ الحماية القنصلية أحد الأوجه والمؤشّرات التي تمكننا من قياس درجة انخراط المجتمع المغربي، خلال القرن التاسع عشر، في مسيرة الفعل الإصلاحي ومشاركته الطوعية والإيجابية في صناعة التنمية.

خاتمة

هل حقق التنافس بين آل الجامعي وآل بن موسى قيمة مضافة للممارسة السياسية داخل المغرب في آخر عهدي المولى الحسن والسلطان عبد العزيز؟ وكيف تمّ تدبير الاختلاف بين الجناحين الأساسين في مخزن الحسن الأول؟ وأي دور أداه السلطان في الموازنة بينهما في أفق الاتجاه بالدولة نحو الفعالية التنموية؟

يمكن القول إنّ كاريزما الحسن الأول لم تسمح للتناقضات السياسية بالبروز والنيل من سيادة الدولة وهيبتها. فقد استطاع السلطان، عبر مجمل الحركات التي قام بها في جميع نواحي المغرب شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ضبطَ إيقاع التوازن السياسي والحد من نفوذ الأسر المتنافسة حول السلطة وامتيازاتها المادية والرمزية.

ولكن، بتولّي المولى عبد العزيز، تزايد نفوذ هذه الأسر التي أبانت عن جشع سياسي مكشوف، خاصة بعد سيطرة باحماد على السلطة مستغلًا حداثة سن السلطان، الأمر الذي أفقد المغرب فرصة تاريخية لمواصلة سياسة الإصلاحات التي بلغت أوجها في عهد الحسن الأول.

نجح باحماد، بشهادة ابن زيدان والمشرفي والسليماني، في إخماد الاحتجاجات الداخلية، إلّا أنّ ذلك كان إلى حين، ولم تتأسس تجربته في سياسة الوصاية على قواعد سياسية سليمة تؤسس منطق التراكم وتنتصر لاختيارات المواطنة الفاعلة والناجعة. لم يفسح التنافس السياسي المجال أمام ممارسة ناجعة لترتيب أمور الداخل، وبدل ذلك استغرق آل بن موسى في الحفاظ على الامتيازات المتوارثة.

من جانب آخر، لم يمتلك عهد الوصاية نظرة ثاقبة في العلاقات الخارجية وفي استثمار الكفاءات التعليمية التي درست في بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وجبل طارق، بل أُهمل أفرادها كما تشهد على ذلك الوثائق والمراسلات المختلفة. ويمكن اتخاذ ذلك مؤشّرًا على القيمة السلبية التي أفرزها التنافس السياسي الذي جنّب المغرب بناء ذاته وإصلاح ثغراته الإدارية والاقتصادية والجبائية والاجتماعية في فترة تاريخية حرجة من ذاكرتنا الوطنية.

أمّا الانتفاضات الداخلية (حركة الجيلاني بن إدريس الزرهوني نموذجًا)، واختطاف الأجانب، وتأزيم العلاقة بين المخزن والدول الغربية (الريسولي نموذجًا)، فذلك كلّه يمثّل مؤشّرًا يدلّ على عمق الثغرات الداخلية التي منحت الآخر الفرصة كي يفرض شروطه السياسية والأمنية ويعمّق الجروح المالية والاقتصادية للدولة المغربية، بغية الانقضاض عليها والنيل من سيادتها.

لكن برزت ضمن سياق المعارضة الداخلية بوادر نهضة سياسية ودستورية، كان جديرًا بها أن تحقّق تراكمات إيجابية على مستوى بناء الدولة وتقعيد أسسها الدستورية، إلّا أنّ فرض الحماية الفرنسية عام 1912، أحدث قطيعة جلية في نسق التنافس السياسي الداخلي الذي عاد إلى الظهور بعد إصدار الظهير البربري عام1930، وتأسيس كتلة العمل الوطني، وبروز التيارات السياسية التي ستغْني الحقل السياسي المغربي بمدوناتها الفكرية والسياسية وبممارستها الفعل النضالي عبر المقاومة السياسية والعسكرية.

تمثّل الزوايا الثلاث التي حلّلنا عناصرها حالة مشتركة، أبانت عن عمق الأزمة السياسية التي شهدها المغرب قبيل الحماية الفرنسية (1912)، وهي أزمة لم تستفد منها سوى القوى الأوروبية التي دخلت في سباق محموم للانفراد باحتلال البلاد؛ فلم تضفِ

الأسر المتنافسة على السلطة أي قيمة سياسية وإدارية، بل لم تتعد نظرتها حدود الانتقام والاستفادة من امتيازات السلطة، ولم تمتلك أدنى مستويات المواطنة الفاعلة والإيجابية.

بالمستوى نفسه، لم تقدّم حركات التمرّد الداخلي سوى المزيد من حالات الفوضى والاضطراب التي عجلت بالتدخل العسكري الفرنسي وفرض معاهدة الحماية.

أمّا مؤسسة العلماء، فقد تمتعت باستقلالية متميزة أهّلتها المساهمة في إطاحة السلطان عبد العزيز، وتولية أخيه عبد الحفيظ ببيعة مشروطة. ولا شك في أنها استفادت من سعة الاطلاع على المدونات الدستورية التي وردت على المغرب مع بداية القرن العشرين. إلّا أنّ ذلك لم يكن كافيًا - في نظرنا - للنهوض وتأسيس البدائل المتقدمة، إذ إنّه احتاج وعاءً مجتمعيًا مكافئًا لها وقادرًا على احتضانها والدفاع عنها، وهو عنصر لم تتوافر مقتضياته في المغرب خلال الفترة موضوع الدراسة.

تتشابه صور الماضي والحاضر، ونقرأ عللَنا الآنية من ثنايا صور التاريخ ومضامينه المتحركة، وتظل أسئلة التنمية والثورة والإصلاح متجددة دومًا، وبحاجة إلى وعي تاريخي متقدم يشخّص الحوادث، وينقّب عن الأعطاب، ويتجنّب الألغام التي تكشفها دروس التاريخ وعِبره.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- ابن زيدان، عبد الرحمن. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**. الرباط: المطبعة الوطنية، 1990.
- ابن الصغير، خالد. **بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886 - 1904**. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2003.
- أشقرا، عثمان. **العطب المغربي (بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب)**، مراكش: منشورات الملتقى، 2003.
- **البادية المغربية عبر التاريخ**. تنسيق إبراهيم بوطالب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس في الرباط. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999.
- الحجوي، محمد بن الحسن. **دفتر تقاييد لحوادث تاريخية: أيام المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ**. الرباط، رقم ح 128.
- ______. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**. فاس: المطبعة الجديدة. [د. ت.].
- ______. **النظام في الإسلام**. الرباط: المطبعة الوطنية، 1982.
- الخلوفي، محمد الصغير. **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: مذكرة الفقيه محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري (1874 - 1956): نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين**. زكي مبارك (مقدم). الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1994.
- الزرهوني، أبو العباس أحمد. **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**. جعفر بن الحاج السلمي (محقق). ط 2. طنجة: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2001.
- السليماني، محمد بن محمد بن الأعرج. "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ". عبد الرزاق بنواحي (محقق). رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس - المغرب، 1997.
- الشاوي، عبد القادر. "التخلف والنهضة أو المغرب والغرب". مجلة **بصمات** العدد 5. منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، 1990.
- الشاوي، عبد القادر. **السلفية والوطنية**. بيروت: مؤسسة الأبحاث الجامعية، 1958.
- العلام، عز الدين. **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**، سلسلة عالم المعرفة 324. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006.
- العلوي، محمد الفلاح. **جامع القرويين والفكر السلفي 1873 - 1914**. منشورات مجلة أمل. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1994.
- المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى. **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**. إدريس بوهليلة (دارس ومحقق). الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1905.
- المنوني، محمد. **مظاهر يقظة المغرب الحديث**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

- **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. عبد المجيد القدوري (منسق). منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس في الرباط. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001.

المراجع الأجنبية

- Arnaud, Louis. *Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912*. Casablanca: Editions Atlantides, 1952.
- Julien, Charles-André. *Le Maroc face aux impérialismes, 1415 - 1956*. Paris: Editions J. A., 1978.
- Karow, Léonard. *Neuf années au service du Maroc 1900 - 1908*, Monique Miége & Jean-Louis Miége, (trans.), Collection mémoire du Maroc. Rabat: Editions La Porte, 1998.
- Laroui, Abdallah. *Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830 - 1912)*. Casablanca: Centre Culturel Arabe, 1993.
- Weisgerber, Frédéric-Guillaume. *Au seuil du Maroc moderne*. Rabat: Editions La Porte, 1974.

قاسم الحادك | Kacem El hadeg*

جوانب من الفعل الدبلوماسي لزعيم ثورة الريف التحررية محمد بن عبد الكريم الخطابي

Diplomacy Aspects of the Rif Liberation Movement Leader *Muḥammad ibn ʿAbd al-Karīm al-Khaṭṭābī*

تتناول هذه الدراسة مساهمة الجوانب الدبلوماسية في نجاح المشروع التحرري لزعيم ثورة الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، وتفسير انتصاراته وتفاعلاته مع الرأي العامّ العالمي، على نحوٍ جعله رمزًا تحرريًا عالميًا؛ فهو لم يكن زعيمًا قبَليًا على غرار سائر زعماء حركات المقاومة المغربية، بل كان رجل دولة يتميز بخبرة ودربة دبلوماسيتين تقتضيان وجوب سير الفعل الدبلوماسي في خطٍّ موازٍ للعمل العسكري.

وقد حظيَ كلّ من عمل الخطابي الدبلوماسي وعلاقاته الخارجية بأهمية بالغة في مشروعه التحرّري، انطلاقًا من إيمانه الكبير بأهمية الدبلوماسية في التعريف بالقضية الريفية ونجاح مشروعه التحرري. فقد عمل على تكثيف الاتصالات مع عدة شخصيات عالمية وأطراف دولية؛ لكسب الدعم والتأييد، وإثارة القضية الريفية في مختلف العواصم الأوروبية.

إضافةً إلى ذلك، تفطّن الزعيم الريفي إلى الدور الكبير الذي يضطلع به الإعلام في العملية الدبلوماسية، وإلى قدرته على تحقيق تواصل آنيٍّ ولحظيٍّ مع جمهور عريض، وإيصال الرسالة الدبلوماسية إلى أكبر عدد من المتلقين؛ ومن ثمّة المساهمة في توجيه الرأي العامّ وتكوين المواقف المؤيدة. وترجع هذه النظرة العصرية للنضال التي اعتمدها الزعيم الريفي إلى مؤهلات وقدرات جعلته يمتلك كاريزما حقيقيةً. فقد اقتحم العمل السياسي وهو في ريعان شبابه، واحتكّ مباشرةً بحقائق الحياة السياسية في بيئته، فضلًا عن تكوينه المتنوع، وممارسته وظائف تعليميةً وقضائيةً، واشتغاله بالصحافة، واحتكاكه بوسائل الإعلام.

This paper looks at the diplomatic practices of *Muḥammad ibn ʿAbd al-Karīm al-Khaṭṭābī*, leader of the Rif Liberation movement, and how they contributed to the success of his liberation movement. It does so by examining his victory accounts and his ability to connect with global public opinion, which turned him into an international liberation symbol. *Al-Khaṭṭābī* wasn't like any other tribal leader engaged in Moroccan resistance movements, and was primarily a statesman with experience and an understanding that diplomacy needs to run in parallel with military action. *Al-Khaṭṭābī* increased communication with many international figures, and was known to have contacted governmental and non-governmental organizations, as well as European political parties, especially leftist ones, informing them of the war on the ground in an attempt to gain their sympathy and support. Fully aware of the major role played by media in the diplomatic process and its ability to reach wider audiences, *Al-Khaṭṭābī* exerted major efforts in befriending Western media circles to clarify the fight waged by the the people of the Moroccan Rif, and to show that it was principally a liberation movement against colonization. To a large degree, *Al-Khaṭṭābī* succeeded in rectifying the image portrayed by Spanish and French colonial authorities and their propaganda machine.

* باحث في تاريخ المغرب المعاصر، متخصص بتاريخ المقاومة المغربية وجيش التحرير، المغرب.

مقدمة

لم يكن زعيم ثورة الريف التحررية محمد بن عبد الكريم الخطابي زعيمًا قبليًّا على شاكلة معاصريه من زعماء حركات المقاومة المغربية التقليديين فحسب، بل كان رجل دولة يتميز بفكر دبلوماسي جيّدٍ قادر على الإقناع والتأثير، قائم على فهمٍ واضحٍ للأوضاع الداخلية والسياسة الدولية، وقراءة تحليلية وتمحيصية دقيقة لمجمل الأوضاع القائمة، وإدراكٍ لمختلف المتغيرات الجيوستراتيجية، والسياسية، والعسكرية. فضلًا عن ذلك، كان يحظى بخبرة ودربة دبلوماسية تؤمن بأنّ الفعل الدبلوماسي يجب أن يسير في خطٍّ موازٍ للعمل العسكري. إنه فكرٌ دبلوماسي نشيط استعمل كلّ الوسائل، ووظف كلّ الأساليب (استجوابات، وبلاغات، ورسائل، ووفود دبلوماسية.. إلخ)، واشتغل في حركية دائمة مع مختلف المنظمات الحكومية وغير الحكومية (عصبة الأمم، والسفراء، والقناصل، والأحزاب.. إلخ).

علاوةً عل ذلك، كان الخطابي يتحرك في عديد البرلمانات الدولية، ويستند إلى الدور الكبير الذي يضطلع به الإعلام في العملية الدبلوماسية، وإلى قدرته على تحقيق تواصل آنيٍّ ولحظيٍّ مع جمهور عريض، وإيصال الرسالة الدبلوماسية إلى أكبر عدد من المتلقين، ومن ثمة المساهمة في توجيه الرأي العامّ وتكوين المواقف المؤيّدة. وبذلك يمكننا القول إنّ الخطابي كان سبّاقًا إلى اعتماد فكر دبلوماسي جديد أصبح يُصطلح عليه بـ "الدبلوماسية العامة"، عوضًا من الدبلوماسية التقليدية التي كانت سائدةً آنذاك، والتي كانت تتوجه إلى جمهور صغير من صنّاع القرار. فما هي أبرز سمات هذا الفكر الدبلوماسي الذي اعتمده الخطابي وملامحه ومظاهره وقوّته؟

العمل الدبلوماسي والعلاقات الخارجية في مشروع الخطابي التحرري

أولى الخطابي السياسة الخارجية أهميةً بالغةً، بالنظر إلى المكاسب الكبيرة التي كان بإمكان القضية الريفية أن تجنيَها من خلال التوجه إلى الرأي العامّ العالمي، ومخاطبة القوى الحية في العالم من شعوب وأحزاب ومنظمات حقوقية. فقد كان يدرك أنّ الحرب ليست غايةً في حدّ ذاتها، بل هي وسيلة من أجل التفاوض وتحقيق المكاسب. يقول الزعيم الريفي في هذا الشأن: "نحن إنما نطلب حقنا في الدفاع عن وطننا، وما نعمله من البارود مع عدونا إنما هو بمنزلة ندائنا على رؤوس الأشهاد باستغاثتنا بأنّ جميع الأحرار من كلّ جنس يمكنهم أن ينتصروا لنا، ويكفُّوا اليد العادية علينا، لكوننا لا نطالب إلا بالحق"[1].

لقد تفطن الخطابي إلى أنّ التضحية بالدماء لا تكفي وحدها للتفوق على القوى الاستعمارية؛ إذ يجب أيضًا استخدام العقل، وتجنيد المنطق، واستجماع أنفاس لكفاحٍ لن يتمّ النصر فيه من خلال معركة واحدة[2]. وقد حظيت الدبلوماسية، وخاصة العلاقات الخارجية، باهتمام بالغ في هذا المشروع التحرري؛ سواء من خلال تأكيد الميثاق الوطني الريفي (دستور الجمهورية الريفية) توطيدَ علاقات الصداقة والتعاون بين الدول، وعقد اتفاقيات معها على أساس المساواة من دون تمييز، وعدم الاعتراف بأيّ اتفاقية تنتهك حقوق المغرب، أو من خلال إشراف الزعيم الريفي شخصيًّا إلى جانب أخيه امحمد وصهره محمد أزرقان (وزير الخارجية في الجمهورية الريفية) بمهمة مراقبة ملفّ السياسة الخارجية والمفاوضات وتدبيره، ومقابلة الصحافيّين والسياسيين الأجانب[3].

1 أحمد بن العياشي سكيرج، **الظل الوريف في محاربة الريف**، رشيد يشوتي (محقق)، (الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2010)، ص 180.

2 بوشتى بوعسرية، "علاقة محمد بن عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف قائد بني رزين نموذجًا 1922 - 1925"، مجلة **أمل**، العدد 8 (1996)، ص 32.

3 قام عدّة صحافيين ورجال سياسة أجانب، وخصوصًا منهم الإنكليز والأميركيين بزيارات للريف وأجروا لقاءات مع المسؤولين الريفيين، ومع الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي على نحوٍ خاصّ، وأنجزوا تقارير عديدةً، ومن ثمّة عملوا على إثارة الرأي العامّ العالمي لهذه الثورة، ويتعلق الأمر على الخصوص بفنسون شين Vincent Shean وبول سكوت ماور Paul Scott Mawer اللذين نجحَا في إقناع الأوساط السياسية الأميركية بالتعاطف مع القضية الريفية؛ مثل السيناتور بيات أندرو

وترجع هذه النظرة العصرية النضالية التي اعتمدها الزعيم الريفي[4] إلى مؤهلات وقدرات جعلته يمتلك كاريزما حقيقيةً[5]. فقد اقتحم العمل السياسي وهو في ريعان شبابه، واحتك مباشرةً بحقائق الحياة السياسية في بيئته، ذلك أنّه أنجز مهمّات عديدةً بتوجيه من والده؛ مثل ذهابه إلى مليلية لتقصّي أخبار علاقة الجيلالي الزرهوني الملقب ببو حمارة بالإسبان، وذهابه إلى فاس للاطلاع، عن كثبٍ، على موقف المخزن، ومن أجل وضع حدٍّ للسيبة التي كانت تسود البلاد، وتمثيل أبيه في مفاوضاته مع الإسبان[6].

إضافةً إلى ذلك، يتميز الرجل بتكوين متنوع فقهي مستمد من دراسته في القرويين[7]، وآخر عصري من خلال ممارسته للوظائف التعليمية والقضائية في مليلية. كما أنّ اشتغاله بالصحافة واحتكاكه بوسائل الإعلام جعلاه ذا شخصية تواصلية تُجيد التعامل مع الصحافيِّين، وساعداه على الاطلاع على كلّ ما يحدث في أوروبا والعالم من جهة، والتغلغل في أعماق العقلية الإسبانية منذ وقت مبكر وإدراك أبعاد السياسة الدولية من جهة أخرى[8]. وفي هذا الإطار يقول الزعيم الريفي: "إني قد خالطت الإسبان زمنًا طويلًا، وأعرف مقاصدهم"[9].

وللدلالة على الأهمية البالغة التي حظيَ بها ملف الدبلوماسية والعلاقات الخارجية بالنسبة إلى الزعيم الريفي، تكفي الإشارة إلى أنّ هذا الزعيم أوكل مهمّة تدبير هذا الملف والتعامل مع القضايا الدبلوماسية التي تهمُّ الريف إلى أطراف متعدّدة؛ من أبرزها محمد أزرقان وزير الخارجية في حكومة الجمهورية الريفية الذي عهد إليه بمهمة تدبير العلاقات بالسلطات الإسبانية والإشراف على المفاوضات معها[10].

ويرجع سبب عَدِّ الزعيم الريفي أزرقان الرجل الكفء والملائم لتقلُّد منصب الشؤون الخارجية في الحكومة الريفية، وتكليفه بهذا الملف الحساس والمعقد، إلى معرفته الجيدة باللغة الإسبانية وعلاقته الودية بالأوساط الإسبانية لطول اتصاله بهم وتعامله معهم. وفي هذا الإطار كلَّفه الخطابي في أيار/ مايو 1921 بمهمة مقابلة العقيد موراليس Morales بمليلية؛ بهدف بحث إمكان إجرائيّ لمفاوضات قد تفضي إلى إبرام اتفاقية ما. كما أنه توجه إلى باريس في كانون الثاني/ يناير 1922 ضمن وفْد من أجل التعريف بالقضية الريفية في فرنسا، وشارك مشاركةً حيويةً في مفاوضات السلام مع إسبانيا في نيسان/ أبريل 1923.

Piat Andrew عن ولاية مساشوسيت، ورئيس لجنة الشؤون الخارجية السيناتور بوراش Borah الذي طالب الحكومة الأميركية ببذل المساعي الحميدة لدى الفرنسيين لإيجاد حلٍّ للقضية الريفية، انظر:
Charles - Robert Ageron, "La presse parisienne devant la guerre du Rif (avril 1925 - mai 1926)," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 24, no. 24 (1977), p. 9.

4 جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق (مترجمين)، (الدر البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1992)، ص 12؛ ميكل مارتين، **الاستعمار الإسباني في المغرب (1860 - 1956)**، عبد العزيز الوديي (مترجم)، (الرباط: التل، 1988)، ص 57.

5 ولد محمد بن عبد الكريم ببلدة أجدير عام 1888، أرسله والده إلى فاس العاصمة العلمية للمغرب ليستكمل دراسته بجامعة القرويين. وبعد رجوعه من فاس، عمل في التعليم، وفي الإدارة بمدينة مليلية، ثم قاضيًا بها. واستطاع أن يكسب حظوة إسبانيا ومكانةً متميزةً لديها؛ لِما عُرف عنه من رجاحة العقل، وسداد الرأي، والحكمة في الحل والعقد، وهو ما ساعده على تكوين وعي متكامل أغنى تجربته الفذة في بناء حركة تحريرية قائمة على أسس متينة، تستحضر في أبعادها التجارب السابقة بسلبياتها وإيجابياتها، إلى جانب تشبُّعه بمكتسبات الحضارة الأوربية، بخاصة قيم الديمقراطية والحداثة والانفتاح، انظر: عبد الله كنون، "محمد بن عبد الكريم الخطابي"، مجلة **أمل**، العدد 12 (1997)، ص 18.

6 محمد العربي المساري، **محمد عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 26.

7 Pouillon François et al., "pour une insurrection paysanne au Maroc," in *Cahiers d'études africaines*, vol. 16 ,no. 63 - 64 (1976), p. 636.

8 François et al., p. 635.

9 سكيرج، ص 179.

10 سكيرج، ص 147 - 187.

في العام نفسه أيضًا أُسندت إليه مهمات عديدة ومهمة أخرى؛ كرئاسة اللجنة الريفية التي باشرت في مدينة وجدة خلال الفترة الممتدة من نيسان/ أبريل إلى أيار/ مايو 1926 مفاوضات السلام مع اللجنتين الفرنسية والإسبانية[11]. وفي هذا السياق أيضًا، نذكر أخا الزعيم الريفي امحمد بن عبد الكريم الذي كُلّف بالسفر إلى أوروبا والاتصال بالعالم الخارجي، وإثارة القضية الريفية في مختلف العواصم الأوروبية، والاتصال بالمنظمات والأحزاب وإطْلاعها على حقائق الحرب الريفية لمحاولة كسب تعاطفها وتأييدها. كما نذكر حدو بن حمو الذي قام بنشاط دبلوماسي مكثَّف لفائدة القضية الريفية، خصوصًا تجاه الفرنسيين؛ وذلك من أجل إقناعهم بالاعتراف بالدولة الريفية من خلال الاستفادة من معرفته باللغة الفرنسية، واتصالاته بالأوساط الفرنسية في الجزائر والمغرب، وحُسن حديثه ومهارته[12]، إضافةً إلى نشاطه المتعدّد في إبرام صفقات تجارية من أجل اقتناء المواد المتعلقة بالاتصال الهاتفي والسيارات وبالخصوص شراء الطائرات. يقول عنه أحد الفرنسيين: "لقد كان دبلوماسيًّا بالفطرة (...) سخَّر كلّ طاقاته في خدمة القضية الريفية"[13].

الشخصية المهمّة الأخرى في الطاقم الدبلوماسي للحكومة الريفية هي محمد بوجيبار الصهر الثاني لعبد الكريم الذي كان موضع ثقة تامة لدى الزعيم الريفي. وعلى الرغم من عدم تقلده مناصب مُهمَّة في حكومة الجمهورية الريفية على غرار مقربين آخرين من عبد الكريم، فقد أسندت إليه مرارًا مهمات دقيقة ومعقَّدة؛ إذ كان ضمن الوفد الذي سافر إلى إنكلترا في تموز/ يوليو 1922، بهدف الدفاع عن القضية الريفية لدى الحكومة البريطانية، ثمّ سافر في العام الموالي إلى باريس من أجل المهمة نفسها[14].

لقد اعتمد الخطابي منهجيةً خاصةً في المحافل الدولية، انطلاقًا من أنّه يؤمن إيمانًا كبيرًا بأهمية الجانب الدبلوماسي في التعريف بالقضية الريفية ونجاح مشروعه التحرري. وتتمثّل تلك المنهجية بتكثيف الاتصالات مع عدّة شخصيات عالية وأطراف دولية لكسب الدعم والتأييد[15]، بهدف جعل المسألة الريفية قضيةً دوليةً تُناقش في المحافل الدولية، وخصوصًا أنّ الإنكليز أعلنوا عن مواقف مؤيّدة واضحة لمصلحة الريفيين. ومن بين هذه الشخصيات الإنكليزية التي ربط معها المسؤولون الريفيون اتصالاتهم، والتي تدخلت لفائدة القضية الريفية في المحافل الدولية، جون أرنال John Arnal[16]، وكردون Gordon[17]، وكاردينر Gardiner[18]، وغيرها. وقد ساهمت هذه الشخصيات في التعريف بالقضية الريفية وعملت على جلْب الدعم والتأييد للريفيين داخل الأوساط الحكومية البريطانية وخارجها، ودافعت عن مطلب الاعتراف بالجمهورية الريفية.

---

11 ماريا روسا ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال**، محمد أونيا وآخرون (مترجمون)، (الرباط: تيفراز، 2013)، ص 416.

12 المرجع نفسه، ص 480.

13 المرجع نفسه، ص 460.

14 المرجع نفسه، ص 419.

15 Ageron, p. 9.

16 دافع جون أرنال عن حقوق الريفيين، وطالب بالاعتراف بهم بوصفهم جماعةً من المحاربين، لا بوصفهم إرهابيين. كما أنّه تدخل لدى القنصل العامّ البريطاني بطنجة كي تدعم لندن القضية الريفية، واقترح أن يتوجّه وفْد ريفي إلى إنكلترا من أجل إقناع الحكومة البريطانية بدعم القضية الريفية. وفي 6 أيلول/ سبتمبر، وجّه نداءً إلى عصبة الأمم للمطالبة بالاعتراف بالجمهورية الريفية، ثم جعل يبعث رسالةً تلو أخرى إلى السلطات البريطانية، وليس إلى عصبة الأمم فقط. فقد راسل، في 19 أيلول/ سبتمبر 1921، نائب وزير الخارجية البريطاني للاحتجاج على احتمال تجنيد الإنكليز في صفوف اللفيف الأجنبي بالجيش الإسباني، انظر: ذي مادارياغا، ص 482.

17 ظهر النقيب كوردون على مسرح الأحداث الريفية عام 1925، وحاول إحياء التنافس الاستعماري القديم بين فرنسا وبريطانيا، ومن ثمّة التوصل إلى جعْل حكومة صاحبة الجلالة مستعدةً للتدخل في النزاع الريفي؛ إذ حذَّر من الخطر الذي يمثله احتلال الفرنسيين أيّ جزء من الريف بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية. كما أنّه أسَّس اللجنة الريفية في 4 تموز/ يوليو 1925، وأنشأ لها مقرًّا في لندن، انظر: ذي مادارياغا، ص 497.

18 عين النقيب السابق والكاردينال الزعيم الريفي سفيرًا ومستشارًا للجمهورية الريفية، وخوّله التفاوض بشأن الاتفاقيات المالية لفائدة الحكومة الريفية، إضافةً إلى القيام بكل ما ترغب فيه الحكومة من وجهة النظر الدبلوماسية. فقد جرى تكليفه بإيصال الوثيقة المحررة باللغة الإنكليزية التي تتضمن الإعلان الرسمي للجمهورية الريفية في الأول من تموز/ يوليو 1923 إلى عصبة الأمم، انظر: ذي مادارياغا، ص 495.

جودة التسويق الدبلوماسي للقضية الريفية

نجح الخطابي بامتياز في التسويق الدبلوماسي الجيد للقضية الريفية وتقديم نفسه للرأي العامّ العالمي بوصفه محاربًا ورجل سلام يدافع عن حقّ شعب أعزل ينشد الحرية والعدالة والمساواة، ونجح كذلك متابعًا لكلّ المستجدات والمتغيرات الدولية. وقد كانت له رؤية واضحة بشأن النموذج المثالي للتعاون، من دون احتلال عسكري، تتمثّل بأنّ التفاهم هو السبيل الوحيد للرقي والتعاون بين الشعوب، وبضرورة فتح حوار بنَّاء لإرساء قواعد للتعاون والتعايش السلمي تجنُّبًا لإراقة الدماء. واستطاع مواجهة التضليل الإعلامي وتفنيد المزاعم والادعاءات الاستعمارية، سواء من خلال دفاعه المستميت عن القيم والمبادئ الإنسانية النبيلة وارتكاز خطابه الدبلوماسي على توظيف جهاز مفاهيمي شبيه بذلك الجهاز الذي تستعمله الدول والجمعيات والمنظمات الحقوقية (حق تقرير المصير، والجمهورية، والحرية، والعدالة، والمساواة.. إلخ)، أو من خلال تقديمه مقترحات للسلام تبرز روحه التصالحية وميله إلى الحوار وتشجيعه على المفاوضات. وقد كان من نتائج هذه الدبلوماسية النشيطة والفعالة أنْ أصبحت القضية الريفية تحظى باهتمام كبير من كلّ الطبقة السياسية والمناضلين الاشتراكين في فرنسا، وإسبانيا، وسائر القوى الحرَّة في العالم. ومن أبرز الملفات والقضايا التي ركزت فيها الدبلوماسية الريفية، ما يلي:

السعي لتحقيق الاعتراف الدولي بالدولة الريفية الجديدة

أدرك الخطابي أهمية التوجه إلى الرأي العامّ العالمي والحصول على الاعتراف بجمهورية الريف دولةً ذات سيادة. ولتحقيق هذه الغاية، كثَّفت الدبلوماسية الريفية تحركاتها تجاه مختلف العواصم الأوروبية ومراكز صنع القرار الدولي. وفي هذا الإطار أرسل الزعيم الريفي الوفود إلى لندن وباريس ومدريد؛ إذ كان مبعوثوه إلى المجتمع الدولي يعلنون أنهم يمثّلون كيانًا مستقلًّا ومتميزًا من المغرب الذي فُرضت عليه الحماية[19]، وكانوا يحاولون الحصول على المساندة المعنوية من بعض الحكومات مثل الحكومة البريطانية، كما أنهم أقاموا صلات مع الحركات التقدمية في أوروبا الغربية على نحوٍ خاصٍّ[20].

وقد كان الاتصال الأول في اتجاه مسألة الاعتراف بالحكومة الريفية على المستوى الدولي هو الذي باشره جون أرنال عندما وجه مراسلةً من لندن إلى منظمة عصبة الأمم يوم 5 أيلول/ سبتمبر 1921. وفي هذه الرسالة، طلب أمرًا صريحًا باسم الحكومة الريفية متمثّل بعَدِّ الريفيين محاربين، لا متمردين، وبأنهم سيفتحون أبواب بلدهم للتجارة الخارجية، وسيحافظون على علاقات سلمية مع جميع الشعوب، في حال الاعتراف بهم شعبًا حرًّا[21].

وفي إطار الحملة الدبلوماسية لدى عصبة الأمم التي باشرها جون أرنال، سيقوم أرنال نفسه بخطوة أخرى هي إرساله وثيقةً أخرى يوم 6 أيلول/ سبتمبر 1922 إلى المجلس العامّ لعصبة الأمم يتحدث فيها الدبلوماسيون الريفيون عن وجود حكومة ريفية منتخبة من زعماء القبائل، ويعلنون استعدادهم لفتح أبواب التجارة أمام جميع الدول، وضمان الحقوق والحماية للمواطنين الأجانب، ويلتمسون الاعتراف الدولي بحكومتهم[22].

---

19 المساري، ص 139.

20 ماريا روسا ذي مادارياغا، "الحزب الاشتراكي الإسباني والحزب الشيوعي الإسباني في مواجهة حرب الريف"، مجلة **أمل**، العدد 12، (1997)، ص 147.

21 ذي مادارياغا، محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 447.

22 المرجع نفسه، ص 449.

التحرك الدبلوماسي المكثف لكسب تأييد الرأي العامّ العالمي للقضية الريفية

وجّه الزعيم الريفي رسالةً إلى مختلف سفراء الدول الأجنبية في طنجة، وإلى عصبة الأمم بجنيف، في أيلول/ سبتمبر 1922، جاء فيها: "لقد آن الأوان أن تعمل أوروبا التي تزعم أنّها ترفع لواء الحضارة (...) بنقل هذا المبدأ النبيل من القول إلى الفعل (...) لقد تحوَّل الريف في الوقت الراهن إلى ساحة حرب لا مبرر لها (...) ستتسبب في هلاك العديد من الإسبان والريفيين من دون جدوى (...) إنّ الريف لا يعترض على الحضارة العصرية، ولا ينفر من مشاريع الإصلاح، كما لن يقف ضدّ إقامة علاقات تجارية مشتركة مع أوروبا (...) فكل ما يطمح إليه الريف هو التخلص من الاضطهاد ومن العدوان العسكري الإسباني، والتمكن من إقامة حكومته المحلية، حيث يتولى إدارتها بنفسه"[23].

لقد وجّه عدّة رسائل وخطابات لشعوب العالم من أجل التعريف بقضية الريف والحرب العادلة التي يخوضها رفقة شعبه، ومن بينها مخاطبته الشعبَ الأميركي قائلًا: "أحييك أيها الشعب الأمريكي المحترم باسم الشعب الريفي الفتيّ الذي يعاني دائمًا من أهوال الحرب نتيجة إيمانه مثلكم بالحرية. إنّ الشعب الريفي يتمنى أن ينال يومًا مكانةً مماثلةً لمكانتكم التي أحرزتموها نتيجة الجهد والتضحيات في فترة كنتم خلالها في كامل إيمانكم بها كما كلّ الريفيين الآن"[24].

وكانت للزعيم الريفي اتصالات كثيفة بشعوب العالم، وبمنظمات عديدة ساهمت بفعالية في التعريف بكفاح الريفيين[25]. ويمكن الإشارة في هذا الصدد لجهد اليساريين الفرنسيين والإسبان. فقد انطلقت حملة الحزب الشيوعي الفرنسي ضدّ حرب الريف منذ النصف الثاني من عام 1924، وتعممت، وأصبحت في أيار/ مايو 1925 أكثر كثافةً، واستمرت إلى غاية استسلام الزعيم الريفي[26]، وقد طالب خلالها الشيوعيون وغيرهم من تنظيمات اليسار الأخرى باستقلال الريف وربط السّلم بالجلاء العسكري عن المغرب، ووضع حدّ للمعارك ضدّ الريفيين؛ وذلك بالاعتراف باستقلالهم[27].

وقد اعتمد الشيوعيون الفرنسيون في حملتهم المساندة للريفيين على وسائل دعائية متنوعة تمثّلت بالكراسات، والملصقات، والمناشير، والإعلانات، وترويج عرائض تطالب بوقف الحرب في الريف. غير أنّ التجمعات والمهرجانات بقيت هي الشكل المفضل في هذه الحملة. كما ساهمت النقابات العمالية مساهمةً كبيرةً في هذه التعبئة، إضافةً إلى الدور الكبير الذي قامت به المنابر الإعلامية اليسارية في التعريف بنضال الريفيين، وفي هذا السياق نذكر جريدتي **لومانيتي** و**الثورة البروليتارية**[28].

زيادةً على ذلك، بعث الحزب الشيوعي الفرنسي رسالة تهنئة إلى الزعيم الريفي عام 1924 جاء فيها: "إنّ المجموعة البرلمانية واللجنة القيادية للحزب الشيوعي واللجنة الوطنية للشبيبات الشيوعية تُحيِّي الانتصار الرائع للشعب المغربي على الإمبرياليين الإسبان، تهنِّئ

23 المرجع نفسه، ص 13.

24 Paul Scot Mowrer, *The house of Europe* (Boston: Houghton Mifflin, 1945), p.76.

25 Ageron, p. 9.

26 واجهت التحريض الشيوعي ضد حرب الريف صعوبات كبيرة تمثلت بالتضليل الإعلامي الرسمي الذي جعل جلّ الفرنسيين يتقبلون النظام الاستعماري، ولا يعدُّونه مناقضًا لمصالحهم. كما ساد اعتقاد مفاده أنّ هذا النظام لا يستخدم سوى عدد قليل من الجنود، وأنّ السلطان هو الذي يدفع الثمن، في حين تجني فرنسا الفوائد الاقتصادية للغزو، انظر:
زكية داود، **عبد الكريم ملحمة الذهب والدم**، محمد الشركي (مترجم)، (الرباط: وزارة الثقافة، 2007)، ص 263.

27 مارتين، 64.
جورج أوفيد، **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية بالمغرب (1905 - 1955)**، محمد الشركي ومحمد بنيس (مترجمان)، (الرباط: دار توبقال للنشر، 1987)، ص 111.

28 Ageron, p. 15.

زعيمه المقدام عبد الكريم، تتمنى له، بعد الانتصار النهائي على الإمبريالية الإسبانية، أن يواصل رفقة البروليتاريا الفرنسية والأوروبية، الكفاح ضدّ جميع الإمبرياليين [بمن فيهم الفرنسيون] حتى التحرير الكامل للأرض المغربية"[29].

وبالنسبة إلى الحكومة الفرنسية، فإنّ الكفاح الذي يخوضه الزعيم الريفي ليس كفاحًا تحرريًّا، بل هو صراع لا يختلف عن الصراعات التقليدية التي يخوضها في المغرب مطالبون بالعرش (روكيات)[30] ضدّ الحكم المخزني المركزي الذي أوكل إلى فرنسا عبر معاهدة الحماية قيادة بلاده في طريق التقدم، كما أنّ الخطابي ليس سوى متمرد ومغامر يستهدف العرش الشريفي بعد السيطرة على الريف[31].

وقد فنَّد السكرتير العامّ للحزب الشيوعي الفرنسي بيار سيمار Pierre Semard هذه الاتهامات الصادرة عن الحكومة الفرنسية، وعمل رفقة سائر الشيوعيين الفرنسيين على تصحيح الصورة التي روجتها وسائل الدعاية الرسمية الفرنسية عن الريفيين، بوصفهم رجال عصابات يحترفون أعمال النهب وقطع الطريق[32]؛ إذ رأى أنّ الريف لا يقلُّ تنظيمًا عن سائر الدول الأوروبية الديمقراطية، واستقلال لا يعني انكفاء الريفيين على أنفسهم، بل يتيح لهم إمكان الوصول إلى منافع الحضارة الغربية، وعقْد اتفاقيات مع الشركات الأجنبية لتسهيل استغلال ثروات بلادهم[33].

كما أكسبت صحيفة لومانيتي تصريحات رئيس جمهورية الريف صدًى واسعًا[34]؛ ذلك أنّها أعادت نشر المقابلات الصحافية التي خَصَّ بها الصحافيِّين الأجانب، وعرَّفت بشروطه السلم المبلغة عبر وسطاء من جهته، ونشرت الرسالة التي وجهها إلى البرلمان الفرنسي. كما نشرت جريدة "الكوتيديان" Le Quotidien وثيقةً بعنوان "خطاطة شروط السّلم الموضوعة من جهة عبد الكريم"[35].

وقد أرجع الحزب الشيوعي الفرنسي حرب الريف إلى أخطاء الإدارة العسكرية الإسبانية، ورأى أنّه كان من الممكن تجنّب الحرب الريفية الفرنسية لو أنّ فرنسا اعتمدت في المغرب سياسةً أقلَّ نزوعًا إلى الروح العسكرية[36].

نقاط قوة الدبلوماسية الريفية

قدرة الدبلوماسية الريفية على التكيف مع الأوضاع الخارجية

تميزت الدبلوماسية الريفية بحيويتها وقوّتها، وبقدرتها على التكيّف مع الأوضاع الخارجية. ويتجلى ذلك بوضوح في سمة المرونة التي طبعت مواقف الزعيم الريفي تجاه مجموعة من القضايا؛ إذ كانت مواقفه تتغير وتتبدل بحسب تغير الأوضاع والمعطيات. فبعدما كان يُثني على الإسبان ويهاجم السياسة الفرنسية، زمنَ اشتغاله صحافيًّا في مليلية، ويتهم هذه السياسة بالسعي لإخضاع المغرب لسيطرتها الاستعمارية[37]، اتسمت مواقفه بشأن تدبير العلاقة مع الفرنسيين بالحذر وكثرة التروي، بل إنّه أبدى رغبته في مهادنتهم

29 أوفيد، ص 88.

30 مفردها "روكي"، وقد دخلت هذه اللفظة إلى القاموس المغربي في زمن السلطان محمد الرابع، وهي في الأصل اسم لأحد الثوار الذين خرجوا على السلطة المركزية، لكنها صارت منذ ذلك الوقت تُطلق على كلّ المتمردين، والساعين للسلطة، أو الخارجين على سلطة المخزن.

31 François et al., p. 634.

32 Ageron, p. 7.

33 أوفيد، ص 92.

34 Ageron, p. 14.

35 أوفيد، ص 108.

36 المرجع نفسه، ص 85.

37 ذي مادارياغا، ص 261.

وضمان التزام فرنسا الحياد وطمأنة المسؤولين الفرنسيين إلى أنّ أنشطته موجهة ضدّ إسبانيا فقط، وهذا ما ألحَّ عليه الزعيم الريفي في خطاب مبايعته بقوله: "غير أننا نعمل مجهودنا مع الدول التي تريد الانتصار لإسبانيا، خصوصًا فرنسا فلا نحاربها ولا نعاديها ما أمكننا من جميع الوجوه، ونستعمل الوسائل التي تضمن السلم التامّ معها"[38]؛ لسبب بديهي هو الرغبة في التزام الفرنسيين الحياد وتفادي الاصطدام معهم، والانشغال بتوطيد المكاسب المُحصَّلة، وعزل الخصم الرئيس واستهدافه بدلًا من تشتيت الجهد في واجهتين[39].

فبعد انتصار القوات الريفية في معركة أنوال في تموز/ يوليو 1921، اضطر الإسبان إلى الانسحاب والتراجع وإخلاء جلّ مواقعهم، فانكشفت الجبهة الفرنسية انكشافًا كاملًا وأصبحت في مواجهة مباشرة مع الريفيين[40]، وهو ما أقلق السلطات الفرنسية وتسبّب بزيادة مخاوفها[41]. وبذلك عرفت العلاقات الإسبانية – الفرنسية، إلى حدود عام 1924، تدهورًا خطِرًا تبلور على نحوٍ جليّ باستفحال المشكلات بين الطرفين، وتبادل الاتهامات في ما يتعلق بمسؤولية الهزائم التي مُنيت بها إسبانيا في الحرب ضدّ الريفيين[42]. وفي ضوء هذه المستجدات بادر الزعيم الريفي إلى الاتصال بالجانب الفرنسي لجسّ نبض الفرنسيين ومعرفة موقفهم، ومن ثمة تحديد طبيعة تصرُّف الريفيين بناءً على ذلك الموقف[43]. وفي هذا الإطار أوفد وزير خارجيته أزرقان للتباحث مع المسؤولين الفرنسيين في المناطق المجاورة للريف بما يقضي "تحسين العلائق مع فرنسا التي نودُّ أن تعاملنا ونعاملها بحسن المجاورة، على الوجه الذي يفضي إلى الراحة التامة بين الجميع"[44]. ولتحقيق المهمّة نفسها، بعث شقيقه امحمد إلى فرنسا[45].

يدخل ذلك السلوك السياسيّ أيضًا في إطار استغلال التنافس الاستعماري بين القوى الاستعمارية، خصوصًا بين إسبانيا وفرنسا، استغلالًا ذكيًّا. فقد اعتمد الزعيم الريفي دبلوماسيةً تتكيّف مع المتغيرات التي كانت تعرفها العلاقات بين الدول الاستعمارية، وحاول استثمار التناقضات الموجودة بينها، بخاصة بين كلّ من فرنسا وإسبانيا وبريطانيا[46]. وكان على بيّنة تامة بالتنافس القائم بين إسبانيا وفرنسا في سعيهما لفرض الحماية على المغرب[47]، وعمل في الآن نفسه على استغلال ذلك التنافس لتفادي مواجهة القوتين الاستعماريتين، كما راهن الخطابي رهانًا كبيرًا على الدور الذي يمكن أن تضطلع به دول مثل إنكلترا، والولايات المتحدة الأميركية لفائدة القضية الريفية.

---

38 سكيرج، ص 180.

39 المساري، ص 103.

40 *Exposition coloniale internationale de Paris, 1931. Les Armées françaises d'outre - mer. Les Opérations militaires au Maroc* (Paris: Imprimerie Nationale, 1931), p. 122.

41 أحمد البوعياشي، حرب الريف التحررية ومراحل النضال، ج 2 (طنجة: سوشبريس، 1974)، ص 355.

42 على الرغم من أنّ الاتفاقية الفرنسية الإسبانية الموقَّعة في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912 جعلت مرتفعات الضفة الشمالية لوادي ورغة حدودًا فاصلةً بين منطقتي النفوذ الفرنسية والإسبانية، فإنها في المقابل أبقت على هذه الحدود غامضةً، وفتحت باب النزاع بين القوتين الاستعماريتين في منطقة بني زروال. فقد كانت السلطات الفرنسية ترى أنّ هذه القبيلة تدخل ضمن منطقة نفوذها؛ بسبب انتمائها إلى حوض ورغة. في حين كان الإسبان يطالبون بأحقيتهم في جلّ أجزاء القبيلة، انظر:
Germain Ayache, *La Guerre du Rif* (Paris/ Montreal: L'Harmattan, 1996), p. 162 ; *Exposition coloniale internationales*, p. 118.

43 أوفد محمد بن عبد الكريم، في أيار/ مايو 1922، كلًّا من سيدي محمد بن الحاج المكي الوزاني وسيدي إبراهيم بن عبد الله الوزاني، في إطار مهمة لمباشرة محادثات مع سلطات الحماية الفرنسية. وتتلخص المهمة الأساسية لهذين المبعوثين الريفيين في التوصل إلى إبرام اتفاقية تجارية فرنسية - ريفية يتمّ بموجبها تقديم تسهيلات من الجانبين للقوافل التي ستمارس التجارة في مختلف الأسواق الموجودة في المناطق الحدودية، واتخاذ تدابير وقائية كفيلة تضمن الأمن لهذه القوافل. ولئن كانت لهذه المحادثات طبيعة تجارية، فيمكن أن تتمخض عنها، من دون شكّ، انعكاسات سياسية مهمّة. فكل اتفاقية ممكنة في هذا الشأن ستعني الاعتراف بحكومة ريفية مستقلة من جهة فرنسا، انظر:
ذي مادارياغا، ص 267.

44 سكيرج، ص 180.

45 المساري، ص 123.

46 ماريا روسا، "الحزب الاشتراكي الإسباني.."، ص 147.

47 Jean - Louis Miege, "L'arrière plan diplomatique de la guerre du Rif," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, no. 15 - 16 (1973), p. 225.

لكنّ السياسة البريطانية تجاه الريفيين تميزت بالتغير والتبدل[48]، فبعد أن استمر تأييدها لهم حتى أواخر عام 1924، غيرت موقفها، ودعمت التنسيق العسكري المشترك الفرنسي - الإسباني. وبخصوص الموقف البريطاني، ينبغي ألّا نخلط الموقف الرسمي بالموقف الشعبي الذي عبّرت عنه مجموعة من الشخصيات الإنكليزية من رجال أعمال، وصحافيين، وحقوقيين. وقد كان الزعيم الريفي يدرك إدراكًا عميقًا أنّ المعركة ضدّ إسبانيا هي معركة ضدّ الغرب كلِّه؛ إذ يقول في هذا الشأن: "على أنّي أتوقّع إذا نصرنا الله عليه [أي الإسبان]، فإنّ غير هذا الجنس ربما لا يدعنا نتمتع في أرضنا في راحة وسكون فإنّ الكفر ملّة واحدة لا بدَّ من تدخلهم في شؤوننا وإنْ لم يصدر منهم ما يوجب تراميهم علينا"[49].

أمّا السلطات الفرنسية، فقد اكتفت في ردّها على المساعي الريفية بالتذكير بأنها لن تكون ملزمةً بالتدخل، وبأنّها لن تتدخل في المغرب إلا طبقًا للاتفاقيات المبرمة مع السلطان من جهة، ومع الدول الموقعة لعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء من جهة أخرى[50]. ومن ثمة رفضت رفضًا باتًّا مسألة التفاوض مع الزعيم الريفي لأسباب متعدّدة. ففي البداية عدّته متمردًا يُشكِّل مشروعه تهديدًا للوجود الفرنسي في أفريقيا الشمالية، ثمّ أكّدت أنها لا يمكنها أن تتصرف بمفردها؛ لأنّ مصالحها متداخلة مع المصالح الإسبانية. إضافةً إلى ذلك رأى الفرنسيون أنّ التفاوض مع الزعيم الريفي سيكون مظهرَ ضعفٍ يُؤدِّي إلى تقوية نفوذه وزعزعة القبائل الخاضعة[51].

لكنّ الزعيم الريفي الذي كان يعي جيدًا المكاسب الكبيرة التي ستجنيها القضية الريفية (من صداقةٍ لفرنسا وكسبٍ لثقتها)، لم يُثنِه ردٌّ سلبيٌّ للفرنسيين، بل سعى جاهدًا لضمان حيادهم وإقامة علاقات حُسن جوار معهم. وفي هذا الإطار بادر إلى إبداء موقف للتقارب مع فرنسا مرَّةً أخرى عندما بعث برسالة إلى المقيم العامّ الفرنسي بالمغرب المارشال ليوطي Louis Lyautey في 4 نيسان/ أبريل 1923 تتضمن الكثير من عبارات الإطراء وتعلن استعداد الريفيين لإقامة علاقة صداقة مع الفرنسيين. وقد جاء في إحدى فقراتها التي تعبِّر عن روح تصالحية واضحة: "أبلغ امتنان الشعب الريفي الصادق لفرنسا التي كانت الوحيدة بين القوى الأوروبية التي قدمت في العديد من المناسبات أدلة على تعاطفها مع العالم الإسلامي، وسارعت إلى دعمه في لحظات حرجة معينة"[52].

وبعد إقدام السلطات الفرنسية على تطبيق مخططها التوسعي في منطقة ورغة الواقعة على الحدود الجنوبية للريف، تدهورت الأوضاع في المنطقة واندلعت مواجهات حادَّة بين القبائل المحاذية للمراكز العسكرية الفرنسية مدعومة بقوات ريفية أُرسلت إلى المكان عينه[53]. غير أنّ قيادة حركة المقاومة تعاملت في بداية الأمر مع مسألة التوسع الفرنسي في حوض ورغة تعاملًا دبلوماسيًّا؛ إذ كاتب الزعيمُ الريفي المقيمَ العامّ الفرنسي المارشال ليوطي مرات عديدةً، وأوفد مبعوثيه إلى فاس لتأكيد رغبته في إرساء علاقات حسنة مع الفرنسيين مبنية على حسن الجوار والاحترام المتبادل[54]، وإبلاغ السلطات الفرنسية بضرورة إيقاف تنفيذ مخططاتها التوسعية في المنطقة، وسحب قواتها من المرتفعات الإستراتيجية شمال ورغة، والدخول في مفاوضات لإيجاد تسوية لهذه القضية ترضي جميع الأطراف[55]. لكنّ المقيم العامّ الفرنسي الجنرال ليوطي رفض المقترح الريفي القاضي بتشكيل لجنة فرنسية ريفية مشتركة تعمل على إيجاد حلول متَّفق عليها

48 Ibid., p. 224.

49 سكيرج، ص 180.

50 ذي مادارياغا، ص 267.

51 أوفيد، ص 105.

52 ذي مادارياغا، ص 269.

53 محمد خرشيش، "الأهمية الإستراتيجية لمنطقة بني زروال إبان المقاومة الريفية 1921م 1926م"، **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بإقليم تاونات 1912 1956** (الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2000)، ص 163.

54 Ayache, p. 169.

55 René Thierry, "L'agression des Rifains contre le Maroc Français," *Bulletin du Comité de l'Afrique Française* (mai 1925), p. 252 ; *Exposition coloniale internationale de Paris*, p. 121.

بين الجانبين تجاه ما أصبح يسمى "قضية بني زروال"[56]، وأكّد أنّ المعاهدات المُوقَّعة مع السلطان والإسبان تُلزمه عدم الدخول في مفاوضات مع الريفيين[57].

بعد هذا الرفض الفرنسي لمطالب القيادة الريفية التي تأكدت من عزْم السلطات الفرنسية وإصرارها على المضيِّ قُدمًا في توسيع سيطرتها على مختلف أرجاء قبيلة بني زروال[58]، تغيَّر خطاب الزعيم الريفي وأخذت لهجته تتصاعد يومًا بعد يوم، وأصبحت تهديداته جديةً مع نهاية عام 1924[59]. فقد أكَّد أنه "لن يُسمح للقوات الفرنسية بالسيطرة على قبائل شمال ورغة، وإنْ لم تُحمل تهديداته محمل الجد، فإنه سيكون مضطرًا إلى اللجوء إلى السلاح"[60].

وفي وقتٍ كانت فيه السلطات الإسبانية تضاعف اتصالاتها مع المسؤولين الريفيين بغية التوصُّل إلى اتفاق[61]، بادرت الحكومة الفرنسية إلى الدخول في مفاوضات دبلوماسية مع نظيرتها الإسبانية[62]؛ لأنها كانت تدرك جيدًا المخاطر المترتِّبة على نجاح الريفيين في مسعاهم للحصول على اعتراف دولي باستقلالهم، سواء كانت هذه المخاطر متعلّقةً بمصالحها الحيوية بالمغرب خاصةً، أو بأفريقيا الشمالية عامةً[63].

تفنيد ادعاءات السلطات العسكرية الفرنسية والإسبانية ومزاعمها

قام الزعيم الريفي بجهد تفسيري وإعلامي كبير في الأوساط الإعلامية الغربية لتوضيح حقيقية الصراع الذي يخوضه الشعب الريفي، وتأكيد طابعه التحرري المعادي للاستعمار. وقد نجح إلى حدٍّ كبير في تصحيح الصورة التي أرادت السلطات الاستعمارية الإسبانية والفرنسية تقديمها للرأي العامّ الدولي عبْر آليتها الإعلامية والدعائية التي تحطُّ فيها من الحركة الريفية وتعدُّها حركةً همجيةً[64]، وتُصوِّر زعيمها قائدًا محليًّا مغامرًا طامعًا في السُلطة، خارجًا عن الشرعية مثل أيِّ "روكي" في زمن السيبة[65]، كما أنّها حاولت إزالة الطابع الوطني عن حركته التحررية وأصدرت أحكامًا وفقًا للمقاييس الاستعمارية[66].

ففي استجواب أجراه معه مراسل جريدة *Il Popolo d'Italia* في 16 حزيران/ يونيو 1925، سخر الزعيم الريفي عندما أبلغه المراسل أنّ الصحافة الفرنسية تتهمه بمحاولة الاستيلاء على فاس وتنصيب نفسه سلطانًا على المغرب؛ إذ قال: "لديّ ما يكفي من الهموم في الريف، ولا أريد أن أبحث عنها في مناطق أخرى. لم تكن لديّ أيّ نيَّة للاستيلاء على فاس، ولا أن أعلن نفسي سلطانًا أو خليفةً (...)

56 من أبرز قبائل منطقة ورغة، انظر: خرشيش، ص 53.

57 *Exposition coloniale internationale de Paris*, p. 120.

58 خرشيش، ص 53.

59 Ibid., p. 121.

60 Ibid., p. 122.

61 Miege, p. 225.

62 بادرت الحكومة الفرنسية إلى الاتصال دبلوماسيًّا بنظيرتها الإسبانية قصد التوصل إلى أوضاع ملائمة يكون هدفها التصدّي الثنائيّ لحركة المقاومة الريفية. وقد أسفر هذا التحرك السياسي المكثف في أعلى مستوًى بين الحكومتين الإسبانية والفرنسية على الاتفاق على تنسيق جهدهما وتكثيف عملياتهما في أفق القيام بعمل عسكري مشترك للقضاء على التهديد الريفي. واتفق الجانبان أيضًا على تركيز جهدهما في منطقة بني ورياغل التي تُعدُّ مركز نفوذ للزعيم الريفي، انظر:
Les opérations militaires au Maroc, p. 173;
Exposition coloniale internationale de Paris, p. 173.

63 محمد خرشيش، "الوفاق الفرنسي ضد المقاومة الريفية (1925 - 1926)"، مجلة **أمل**، العدد 12 (1997)، ص 164.

64 Ageron, p. 7.

65 المساري، ص 138.

66 عبد الرحمن اليوسفي، "مؤسسات جمهورية الريف"، مجلة **أمل**، العدد 8 (1996)، ص 93.

أهدافي واضحة جدًّا، لقد حاربنا الإسبان أوّلًا لأننا لا نعترف بالطريقة التي قسّم بها المغرب. لقد جعل الريف تحت الحماية الإسبانية، وألغى استقلالنا الذي كان العالم بأسره معترفًا به"[67].

وعام 1925، حينما تجددت الحملة على الخطابي في الغرب بدعوى أنه جزء من حركة إسلامية مناهضة للغرب، أدلى بحديث إلى الصحافي الأميركي شين Schean مراسل جريدتي *Near* و*Midlle East Association*، إثر انتقاله إلى أجدير عاصمة الريف[68]، استنكر فيه الربط بين حركته والحركة الإسلامية في العالم، مبينًا أنّ حركة الجامعة الإسلامية ليست لها أيّ ارتباطات بالريف، وأنّ الصراع ليس إلّا ضدّ العدو المحتل، وأنه على استعداد لوضع حدٍّ له إن تراجعت الحكومة الإسبانية عن مواقفها العدائية[69]، ورأى أنّ الغاية من ترديد مثل هذه المغالطات هي تخويف الرأي العامّ العالمي، والأوروبي على الخصوص، للحؤول دون مساندته ودعمه للريفيين في كفاحهم من أجل الاستقلال. كما أعلن رسميًّا أنه ليس تحت أيّ تأثير ألماني، وأضاف: "لا معنى لتضحية الريفيّين وقتالهم من أجل الحرية إن كانت هذه التضحية من أجل قوّة أخرى"[70].

اعتماد الخطابي مفاهيم متداولةً في أوروبا

عندما أسّس الخطابي دولةً عصريةً، انتهج سُبل الابتكار والتجديد حتى تكون الدبلوماسية الريفية أكثر فاعليةً وقادرةً على الإقناع والنجاح في كسب التأييد والتعاطف من الأوساط الحكومية والشعبية في أوروبا وغيرها من الدول، وظهر رئيسَ جمهوريةٍ تحرص على تقديم نفسها في شكل حكومة تمثيلية منتخبة منبثقة من الإرادة الشعبية، تتوافق مع المبادئ العامة للديمقراطية الأوروبية وتُجسّد النموذج الغربي للديمقراطية[71]، فقد كان يستعمل مصطلحات ومفاهيم متداولةً في الأمم الأوروبية لترويج خطابهم[72]. وبما أنّ التبرير النظري لإقامة الحماية الأوروبية هو عجز المغاربة عن حكم أنفسهم بأنفسهم[73]، فإنّ تأسيس الخطابي لجمهورية الريف بما يحمله مصطلح الجمهورية من شحنة رمزية قوية، قد مرّغ في الوحل هذه الحجج الاستعمارية. وفي رسالة موجهة إلى الحكومة الإسبانية، في 24 تموز/ يوليو 1923، يقول محمد أزرقان وزير الشؤون الخارجية للجمهورية الريفية: "إنّ الحكومة الريفية التي أُسِّست على قواعد عصرية وقوانين مدنية، تعتبر نفسها مستقلةً سياسيًّا واقتصاديًّا؛ آملةً أن تعيش حرّةً كما عاشت قرونًا وكما تعيش جميع الشعوب (...) والحالة [هي] أنّ الريف يلتزم أن يحكم نفسه بنفسه ويسعى في نوال حقوقه الشرعية التي لا نزاع فيها"[74].

إضافةً إلى ذلك، اعتمد الزعيم الريفي الجمهورية إطارًا سياسيًّا تنظيميًّا كي يختلف عن كلّ الثائرين الذين كانوا يرغبون في تولّي منصب السلطان، وقد كان آخرهم الزرهوني الجيلالي الملقب بـ "بو حمارة". إنها إستراتيجية حكيمة وواقعية كي يبعد الخطابي عن نفسه صورة المتمرد، أو "الروكي"، الطامع في السُلطة التي حاولت الأدبيات الاستعمارية إلصاقها به.

---

67 Thierry, p. 363.

68 Ageron Charles - Robert, p. 9.

69 Thierry, p. 362.

70 بخصوص المزاعم الفرنسية المتعلّقة بعلاقات الخطابي بالجامعة الإسلامية، يقول الخطابي نفسه في أحد لقاءاته الصحافية: "لقد عرفنا كيف نتأقلم مع الحرب من دون حاجة إلى هؤلاء الضباط الذين تزعم إسبانيا أنهم أتراك، وفرنسا أنهم ألمان. إننا لسنا في حاجة إلى مدربين عسكريين أو جنود، لكن بالتأكيد إذا كانوا مثلنا يخوضون حربًا مزدوجة أو على واجهتين، فإنه سيكون من السذاجة الاعتقاد أننا سنرفض مساعدتهم. إننا نستطيع تحمل الحرب بإمكاناتنا الذاتية ثلاث سنوات أخرى. إنّ الفرنسيين والإسبان واهمون إن اعتقدوا أنهم سيرغموننا على الاستعباد بمنعهم عنّا المؤونة والذخيرة"، انظر:
Thierry, p. 363.

71 ماريا روسا، ص 452.

72 François et al., p. 634.

73 مارتين، ص 64.

74 المرجع نفسه.

واعتمد الخطابي في كفاحه من أجل الاستقلال جملةً من المبادئ أصبح ينادي بها المجتمع الدولي في وقتنا الحاضر؛ مثل "الحوار"، والطرق السلمية" أساسًا لحلّ الخلافات، و"عدم اللجوء إلى الحروب"، إضافةً إلى مبادئ أخرى مثل "التعاون السلمي بين الدول" و"احترام حقوق الإنسان". ولم يتخلَّ عن هذه العقيدة طَوال مراحل نضاله[75]. وبذلك نجح الزعيم الريفي إلى حدٍّ كبير في تقديم نفسه للرأي العامّ العالمي بوصفه رجل سلام. وكان على قناعة تامة بإمكان التفاهم والتعاون وتفادي أيّ مواجهات عسكرية. فقد حاول إقناع السلطات الإسبانية بأهمية قيام تعاون سلمي معهم للاستفادة من تقدُّمهم الحضاري والتكنولوجي منذ فترة اشتغاله في مليلية. وأبدى استعداده للتعاون معهم ومنْحهم حقّ الدولة الأكثر رعايةً إذا اقتنعوا بنيّاته الطيبة التي تتمثّل بالحفاظ على الريف واستقلاله. وقد كرر هذه الرسالة مرات عديدةً. وبدلًا من تفهُّم المسؤولين الإسبان منطقه الداعي إلى السلام والتعاون، حاولوا استمالته إلى جانبهم وإلى منطقهم الإمبريالي من خلال إغرائه ببعض المناصب[76].

أمّا بخصوص العلاقات بين الريف وفرنسا، فقد حمل الخطابي الفرنسيين مسؤولية اندلاع الحرب الريفية - الفرنسية، مبرزًا أنّ أهدافه كانت دفاعيةً خالصةً، وأنّها كانت من أجل حماية حقوق الريفيين. وأوضح كذلك الأسباب التي أرغمته على خوض هذه الحرب؛ إذ يقول:

"حتى وقت قريب، كانت تربطنا بالفرنسيين علاقات ودية جدًّا. لكن منذ سنتين أرجع الفرنسيون المبعوثين الريفيين، وتمَّ إيقاف رُسُلي، وضرْبهم، ومصادرة السلع التي تعبر حدودنا. منذ اليوم الأول للصراع مع الإسبان طالبتُ الفرنسيين بتحديد الحدود، لكنّ كلّ طلباتي قوبلت بالرفض. وعام 1923 طلب مني ليوطي أن أرسل مبعوثًا إلى الرباط وهو ما فعلته، لكن تمّ تجاهل وجوده، وأبلغني الجنرال دي شمبورن De Chambrun أنّ الفرنسيين سيدفعون بمراكزهم إلى ما وراء ورغة، وطلب من قواتي الجلاء عن هذه المنطقة حيث تعقد القبائل أسواقها وتشتري حاجاتها (...) ومع بداية عام 1925 تلقيت أمرًا جديدًا من المارشال ليوطي أبلغني من خلاله أنّ قواتي التي توجد في منطقة بني زروال، وهي منطقة كانت دائمًا تابعةً للريف، يجب أن تنسحب من هذه المنطقة. وحتى لو كنت أريد تنفيذ الأمر، فإنّ الطائرات الفرنسية لن تترك لي الوقت الكافي لفعل ذلك بعد أن بادرت إلى إلقاء قنابلها وقذائفها على رجالي"[77].

ومن جهة أخرى رأى الزعيم الريفي أنّ في عدم دخوله مدينة فاس دليلًا واضحًا على حسن نيّاته تجاه الفرنسيين ورغبةً حقيقيةً في تفادي أيّ مواجهات عسكرية معهم. وفي الإطار نفسه يضيف الزعيم الريفي في لقاء أجراه مع ميركو أردماني Mirko Ardemagni مراسل الجريدة الإيطالية *Il Popolo d'Italia* في 16 حزيران/ يونيو 1925، إثر انتقاله من مليلية إلى أجدير: "لم تكن لديّ نيّة للدخول في حرب ضدّ عدوّ جديد، والأمر على العكس من ذلك. فبعد الانتصار الذي حقّقته على الإسبان، وبعد اقتناع الإسبان للمرة الأولى بعدم جدوى الاستمرار في الحرب ضدّ الريف، سعيت حينئذ لعقد اتفاق مع مدريد، وبالتأكيد جرى خلال هذه الفترة الدخول في مفاوضات إسبانية - ريفية من أجل السلم والشراكة، لكن فرنسا مارست ضغوطًا قويةً على الحكومة الإسبانية وقدمت لها وعودًا لثنيها عن الاتفاق معي بوصفي ممثلًا للشعب الريفي"[78].

وفي ما يتعلّق باستعداد الخطابي لعقد صُلح مع فرنسا وتحقيق السلام معها على قاعدة الحدود المقرَّرة في مؤتمر عقد الجزيرة، أجاب بقوله إنّ السلاح حاليًّا هو الذي يحدِّد الحدود. لكنه أضاف "إنني دائمًا على استعداد للتفاوض مع الفرنسيين. وإن كانت فرنسا ترغب

75 سعيد عبد الكريم الخطابي، "الأمير المجاهد عبد الكريم والسلام في البحر الأبيض المتوسط"، مجلة **أمل**، العدد 12 (1997)، ص 31.

76 الخطابي، ص 31.

77 Thierry René, p. 364.

78 Thierry, p. 363.

في السلام، فإنني لن أضع أيّ عقبة في وجه الصلح. وإنْ فضلت الحرب، فإننا على استعداد لخوضها. لقد هاجمتنا فرنسا، وأرغمتنا على خوض الحرب. ونحن على استعداد لمواصلة الحرب حتى الموت"[79].

خاتمة

أدرك الخطابي، زعيم ثورة الريف، أهمية التوجه إلى الرأي العامّ العالمي والتسويق الدبلوماسي الجيد للقضية الريفية، لذلك أولى العمل الدبلوماسي والعلاقات الخارجية في مشروعه التحرري أهميةً كبرى. وقد كان من نتائج هذه الدبلوماسية النشيطة والفعالة التي اعتمدها أنْ أصبحت المسألة الريفية قضيةً دوليةً تُناقش في المحافل الدولية، وتحظى باهتمام كبير من كلّ الطبقة السياسية والمناضلين الاشتراكيين في فرنسا، وإسبانيا، وسائر القوى الحرَّة في العالم. وقد تجلّت فاعلية الدبلوماسية الريفية ونجاعتها في مستويين، هما:

أولًا، التحرك الدبلوماسي: كثّف الخطابي تحركه تجاه مختلف العواصم الأوروبية ومراكز صُنع القرار الدولي، واتصالاته مع عدّة شخصيات عالمية وأطراف دولية، ومختلف المنظمات الحكومية وغير الحكومية التي ساهمت بفعالية في التعريف بكفاح الريفيين. ومن ثمة كسب تأييد الرأي العامّ العالمي للقضية الريفية ودعمه لها. كما أنّه وظّف في مفاوضاته ومراسلاته مع مختلف القوى الأجنبية لغةً سياسيةً قريبةً من المصطلحات والمفاهيم المتداولة في الدول الأوروبية؛ ما جعل خطابه أكثر فاعليةً وقدرةً على الإقناع، إضافةً إلى اعتماده دبلوماسيةً تتكيَّف مع المتغيرات التي كانت تعرفها العلاقات بين الدول الاستعمارية. يُضاف إلى ذلك أنّه حاول استثمار التناقضات الموجودة بين هذه الدول، خصوصًا بين فرنسا، وإسبانيا، وبريطانيا.

ثانيًا، تعامل الخطابي مع الصحافة: اتَّسم الزعيم الريفي بتعامل ذكيّ تجاه الصحافة الدولية. وقد تجلَّى ذلك في قدرته التواصلية، وفي الجهد الإعلامي الكبير الذي قام به في الأوساط الإعلامية الغربية لتوضيح حقيقة الصراع الذي يخوضه الشعب الريفي، وتأكيد طابعه التحرري المعادي للاستعمار. وبدا ذلك جليًّا من خلال مختلف الحوارات التي أجراها في منابر إعلامية دولية عديدة؛ إذ كانت لتصريحاته ولقاءاته الصحافية التي كانت تُنشر على نطاق واسع في مختلف الصحف العالمية أصداء مختلفة في مختلف جهات العالم، ولاقت أفكاره من الرأي العام الدولي تعاطفا كبيرًا.

---

79 Ibid., p. 365.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أوفيد، جورج. **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية بالمغرب (1905 - 1955)**. محمد الشركي ومحمد بنيس (مترجمان)، الرباط: دار توبقال للنشر، 1987.
- بوعسرية، بوشتى. "علاقة محمد بن عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف قائد بني رزين نموذجًا 1922 - 1925"، مجلة **أمل**، العدد 8، 1996.
- البوعياشي، أحمد. **حرب الريف التحررية ومراحل النضال**، ج 2، طنجة: سوشبريس، 1974.
- خرشيش، محمد. "الوفاق الفرنسي ضد المقاومة الريفية (1925 - 1926)"، مجلة **أمل**، العدد 12، 1997.
- داود، زكية. **عبد الكريم ملحمة الذهب والدم**. محمد الشركي (مترجم)، الرباط: وزارة الثقافة، 2007.
- ذي مادارياغا، ماريا روسا. "الحزب الاشتراكي الإسباني والحزب الشيوعي الإسباني في مواجهة حرب الريف"، مجلة **أمل**، العدد 12، 1997.
- ــــــــــــ **محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال**. محمد أونيا وآخرون (مترجمون)، الرباط: تيفراز، 2013.
- سكيرج، أحمد بن العياشي. **الظل الوريف في محاربة الريف**، رشيد يشوتي (محقق). الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2010.
- عبد الكريم الخطابي، سعيد. "الأمير المجاهد عبد الكريم والسلام في البحر الأبيض المتوسط"، مجلة **أمل**، العدد 12، 1997.
- عياش، جرمان. **أصول حرب الريف**. محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق (مترجمان)، الدر البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1992.
- كنون، عبد الله. "محمد بن عبد الكريم الخطابي"، مجلة **أمل**، العدد 12، 1997.
- مارتين، ميكل. **الاستعمار الإسباني في المغرب (1860 - 1956)**. عبد العزيز الوديي (مترجم)، الرباط: التل، 1988.
- المساري، محمد العربي. محمد عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012.
- **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بإقليم تاونات 1912 - 1956**. الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2000.
- اليوسفي، عبد الرحمن. "مؤسسات جمهورية الريف"، مجلة **أمل**، العدد 8، 1996.

المراجع الأجنبية

- Ageron, Charles - Robert. "La presse parisienne devant la guerre du Rif (avril 1925 - mai 1926)," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 24, no. 24, 1977.
- Ayache, Germain. *La Guerre du Rif.* Paris/ Montreal: L'Harmattan, 1996.
- *Exposition coloniale internationale de Paris, 1931. Les Armées françaises d'outre - mer. Les Opérations militaires au Maroc.* Paris: Imprimerie Nationale, 1931.

- François, Pouillon et al. "pour une insurrection paysanne au Maroc," in "*Cahiers d'études africaines*, vol. 16, no. 63 - 64, 1976.
- Miege, Jean - Louis. "L'arrière plan diplomatique de la guerre du Rif," *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, no. 15 - 16, 1973.
- Mowrer, Paul Scot. *The house of Europe* .Boston: Houghton Mifflin, 1945.
- Thierry, René. "L'agression des Rifains contre le Maroc Français," *Bulletin du Comité de l'Afrique Française*, may 1925.

مراجعات كتب

عمار السمر | *Ammar al-Samar

مراجعة كتاب "المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى"

Historical Topography of Ancient and Medieval Syria by René Dussaud

يصنّف هذا الكتاب ضمن كتب الجغرافية التاريخية وكتب الموسوعات، أو كما وصفه مؤلفه بأنه "مدخل إلى الطبوغرافيا التاريخية السورية". ومازال هذا العمل يحتفظ بأهميته على الرغم من صدوره باللغة الفرنسية قبل نحو مئة عام للمستشرق وعالم الآثار الفرنسي الموسوعي رينيه دوسو René Dussaud (1868 - 1958). ولا تقلُّ ترجمته إلى اللغة العربية أهميةً عنه؛ لأنها أوصلته إلى شريحةٍ واسعةٍ من القرّاء العرب. وهو يمثّل وجهة نظر استشراقيه أوروبية نحو تاريخ المنطقة وإشكاليته. وقد ساهمت وجهة النظر هذه وأمثالها بوضع سياسات وحدود، وخلق كيانات ما زالت المنطقة تعاني آثارها حتى اليوم. ولا بد من تأكيد أنّ فترة ظهوره مهمة؛ إذ جاءت بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار آخر خلافة إسلامية والسيطرة الأوروبية الفعلية على المنطقة، وهي بهذا تُعد منعطفًا مهمًا في تاريخ بلاد الشام والعالم العربي، وهي الفترة أيضًا التي شهدت خلق الكيانات (الدول) الحديثة في المنطقة بأيدي غربية بالدرجة الأولى.

يتتبع الكاتب الطرق والمسالك القديمة، ومن خلالها يتتبع تاريخ المنطقة والحملات العسكرية والدروب التي سلكتها والمواقع والبلدات التي مرت منها والمعارك التي خاضتها؛ وذلك من خلال الآثار وما كتبه المؤرخون والرحالة وما حفظته الوثائق. ونستطيع القول إنه كتابٌ موسوعي بامتياز، ويمكن تشبيهه في كثيرٍ من الوجوه بمعجم البلدان لياقوت الحموي.

Despite being nearly a century old, the book *Historical Topography of Ancient and Medieval Syria*, by the French archeologist and orientalist Rene Dussaud, continues to be a seminal work in its field. Its Arabic translation will be no less important since it brings Dussaud's writings to a wider Arab readership. Dussaud's work represents a European Orientalist perspective on the history of the region and its problematics. It is this perspective and similar ones that helped draw up policies and borders, and helped create entities the impacts of which continue to plague the region. Published just after the First World War, the book marks an important rupture in the history of the Levant and the Arab world, with the collapse of the last Islamic Caliphate, and European dominance of the region. The book explores the geography, history, and archeology of sites, towns, castles, and villages, and the peoples who lived or passed through the region, from the most ancient periods of the Assyrians, Akkadians, Arameans, Greeks, and Romans, continuing through the appearance of Islam and the region becoming Muslim, up to the Crusades. By means of archeology, the accounts of historians and travelers, and documentary records, the French archeologist follows ancient routes and uses them to trace the military campaigns and the routes they followed, the sites and towns they passed through and the battles fought.

* أستاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (IFPO) بدمشق وبيروت.
أستاذ التاريخ في جامعة دمشق (سابقًا).

المؤلف: رينيه دوسو René Dussaud.

عنوان الكتاب: المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى.

العنوان الأصلي : *Topographie historique de la Syrie antique et médiéval* (Paris: René Dussaud, 1927).

ترجمة وتعليق: عصام الشحادات.

الناشر: منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (ifpo)، بيروت - دمشق.

سنة النشر: 2013.

عدد الصفحات: 744 صفحة.

تمهيد

يصنّف هذا الكتاب ضمن كتب الجغرافية التاريخية والموسوعات أو كما وصفه مؤلفه "مدخل إلى الطبوغرافيا التاريخية السورية". ويمكن القول إننا أمام كتابٍ مختلفٍ وجهدٍ يستحق الإشادة؛ فمن النظرة الأولى، ومع تصفّح الكتاب، يمكن أن تعرف أنك أمام جهدٍ علمي كبيرٍ سواء في التأليف أو الترجمة.

ويشكّل الكتاب أهمية خاصة للمتخصصين في جغرافية بلاد الشام وتاريخها وآثارها، وحتى للناس العاديين الذين يودون معرفة تاريخ سورية ولبنان. وهو يشكل إضافة متميزة للمكتبة العربية.

وما زال هذا العمل يحتفظ بأهميته على الرغم من صدوره باللغة الفرنسية قبل نحو مئة عام. كما أنّ ترجمته إلى اللغة العربية مهمةٌ لأنها أوصلته إلى شريحة واسعة من القراء العرب، ولأنّ المتخصصين عادةً يطلعون على هذه الكتب التي تقع في صلب عملهم وإن كانت بلغة أخرى.

وعلى الرغم من الأهمية العلمية لهذا الكتاب، فإنه يمثل وجهة نظر استشراقيه أوروبية نحو تاريخ المنطقة وإشكاليته. وقد ساهمت وجهة النظر هذه ومثيلتها بوضع سياسات وحدود وخلق كيانات ما زالت المنطقة تعاني آثارها حتى اليوم. ولا بد من التأكيد على أهمية فترة ظهوره، وهي منعطف مهم في تاريخ بلاد الشام والعالم العربي، بعد الحرب العالمية الأولى، وانهيار آخر خلافة إسلامية والسيطرة الأوروبية الفعلية على المنطقة. وهي الفترة التي شهدت خلق الكيانات (الدول) الحديثة في المنطقة بأيدي غربية بالدرجة الأولى. وفي الوقت الراهن، تموج المنطقة في بحر متلاطم من الاضطراب والدماء قد يضع تلك الكيانات في مهب الريح على الرغم من مسارعة القوى الغربية التي ساهمت في صنعها إلى التدخل لإبقاء الوضع على ما هو عليه.

كتاب **المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى** هو كتابٌ في طبوغرافية بلاد الشام (سورية ولبنان) في العصور القديمة والوسطى بشكل خاص، ويصل ببعض تعليقاته إلى فترة تأليفه في بداية الربع الثاني من القرن العشرين. يتحدث عن جغرافية المواقع والبلدان والقلاع والقرى وتاريخها وآثارها في ظل الدول والأقوام التي عاشت في المنطقة أو مرت منها من أقدم العصور أيام الآشوريين والكلدانيين والآراميين واليونان والرومان وحتى ظهور الإسلام ودخول المنطقة فيه، ووصولًا إلى الحروب الصليبية على بلاد الشام.

يتتبع الكاتب الطرق والمسالك القديمة، ومن خلالها يتتبع تاريخ المنطقة والحملات العسكرية والدروب التي سلكتها والمواقع والبلدات التي مرت منها والمعارك التي خاضتها. ويقوم بذلك من خلال الآثار وما كتبه المؤرخون والرحالة وما حفظته الوثائق. ونستطيع القول إنه كتابٌ موسوعي بامتياز، ويمكن تشبيهه في كثيرٍ من الوجوه بمعجم البلدان لياقوت الحموي.

وقد مدح كثير من المتخصصين الكتاب، ومنهم عالم الآثار السوري عدنان البني (1924 - 2008) الذي قال بأنه يمثل قمة الإنجاز الفكري الغربي حول التراث السوري القديم "لأنه عمل رائع، أنجزه عالمٌ كبير بالأرض السورية في وقت كان علم الآثار يعيش أبهى فتراته".

الكاتب رينيه دوسو René Dussaud (1868 - 1958) مستشرق وعالم آثار فرنسي موسوعي، زار المنطقة عدة مرات، كان أولها عام 1895، كما كان فيها بداية الاحتلال الفرنسي. وقد عاين كثيرًا من المواقع التي كتب عنها. وله كتب ودراسات أخرى تتعلق بالمنطقة غير الكتاب الذي بين أيدينا منها كتاب **العرب في سورية قبل الإسلام** الذي تُرجِمَ إلى العربية، وغيره لم يترجم.

أما مترجم الكتاب عصام الشحادات، فيعمل أمينًا لمكتبة المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بدمشق، ومترجمًا في الوقت نفسه، ومن أهم ترجماته كتاب **المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية**. وقد قضى نحو ثماني سنوات في ترجمة الكتاب، ولم يكتف بالترجمة فحسب، بل قام أيضًا بضبط المواقع الجغرافية وأسماء البلدات والقرى والوديان وربط الأسماء القديمة بالمسميات الراهنة.

وصدرت الترجمة العربية للكتاب عام 2013 بطبعة أنيقة عن المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، وبمساعدة من وزارة الخارجية الفرنسية والمركز الوطني للأبحاث العلمية في فرنسا. والجدير ذكره أنّ المعهد الفرنسي قد قدم خدمات جليلة للثقافة العربية من خلال نشر كثيرٍ من كتب التراث العربي والإسلامي وتحقيقها وطباعتها.

وجاءت الترجمة العربية في 744 صفحة بالإضافة إلى ملحق مستقل بالخرائط، حاول من خلالها المؤلف تتبع المسالك والطرق والبلدان والمواقع التي كانت تقع عليها في العصور القديمة والوسطى.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب وترجمته، كان أحد الكتب المرشحة للمسابقة العربية للترجمة لعام 2014.

أولًا: إشكالية العنوان والمضمون

هناك قضيتان تتعلقان بالعنوان:

القضية الأولى: تتعلق بعنوان الكتاب الأصلي ومضمونه، وترجمته "الطبوغرافيا التاريخية لسورية في العصور القديمة والوسطى"، بحيث يُخيَّل للقارئ أنه يقصد سورية الطبيعية، وقد عزّز هذا الاعتقاد استخدام المترجم مصطلح "بلاد الشام" كمرادفٍ لسورية الذي استخدمه المؤلف. ولكن عند الولوج في الكتاب نجد أنه لا يشمل إلا المناطق الواقعة ضمن الحدود السياسية الحديثة لسورية ولبنان، التي رُسمت عقب الحرب العالمية الأولى بعد أن أصبحت البلاد تحت الاحتلال (الانتداب) الفرنسي - نُشِرَ عام 1927 - أي لا يشمل سوى مناطق الانتداب الفرنسي قافزًا فوق الجغرافيا الطبيعية والتاريخية. حتى إنه يدافع عن تلك الحدود ضد الادعاءات الإسرائيلية، ويخصّص في الفصل الأول لذلك عنوانًا يدحض فيه تلك الادعاءات التي استندت إلى التوراة حول مناطق في لبنان الكيان الحديث.

ولكن يبدو أنّ المؤلف كان واعيًا إلى الالتباس الذي سيحدثه عنوان الكتاب بالمقارنة مع مضمونه، لذا نراه يضع تصديرًا في بداية الكتاب يخصصه لـ "حدود سورية" يقول فيه "لم يحدث لسورية الممتدة من حدود مصر حتى سفوح جبال طوروس، أن توحّدت في كتلة سياسية واحدة على الرغم من أنها تقع بين حدود طبيعية واضحة نسبيًا وجلية بين البحر المتوسط غربًا والصحراء ونهر الفرات شرقًا. هناك إجماعٌ عندما يتعلق الأمر بإعطاء تعريفٍ مجملٍ للأراضي التي تشملها كتلة سورية أو بلاد الشام بالمعنى الواسع للكلمة، أما إذا

حاولنا تسمية تقسيمات هذا الكل، فسيدب الخلاف لأنه من الصعب ألا نأخذ في الاعتبار إلا المعطيات الجغرافية". وفي النهاية يقول إنه سيوقف بحثه جنوبًا عند الحدود التي رسمتها التقسيمات الانتدابية بين سورية وفلسطين.

ويقول في الصفحة 31، بما لا يدع مجالًا للشك إنّ المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا حول تثبيت الحدود بين مناطق الانتداب الفرنسي في سورية والانتداب البريطاني في فلسطين والاتفاق النهائي الذي توصلت إليه الدولتان قد أولى اهتمامًا كبيرًا للادعاءات الإسرائيلية القديمة. وينقل إلينا في حواشي ص 32 شهادة أحد المفاوضين الفرنسيين الذي قال "إنه كانت لدى المفاوضين الإنكليز أوامر باللجوء إلى التحكيم التاريخي في تعيين حدود فلسطين وفق ما جاء في الكتاب المقدس".

القضية الثانية: تتعلق بعنوان الترجمة العربية التي بين أيدينا **المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى**، بينما ترجمة العنوان الأصلي **الطبوغرافيا التاريخية لسورية في العصور القديمة والوسطى**، ونلاحظ عدم التقيّد بالترجمة الحرفية للعنوان الأصلي، وعدم إشارة المترجم إلى مبرراته أو وجهة نظره في هذا التغيير. وكان من الأفضل الاحتفاظ بالعنوان الأصلي لأنه واضح وذو دلالة على الرغم من كون كلمة طبوغرافيا غير عربية. وقد يكون المترجم قد أخذ العنوان من مادة الكتاب التي ركزت على ذكر الطرق والمسالك والبلدان الواقعة عليها ومن خلالها تم سرد تاريخها في العصور القديمة والوسطى، وهو بذلك يحاكي عناوين بعض الكتب العربية التراثية الشهيرة، ككتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي" وكتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري، وكتاب "مسالك الممالك" للاصطخري.

ثانيًا: محتويات الكتاب

جاء الكتاب بثلاث مقدمات، وسبعة فصول، وثبت بأسماء مصادر الكتاب ومراجعه وآخر خاص بالمترجم، وفهارس متنوعة منها من وضع المؤلف وأخرى للمترجم. وهناك ملحق خاص خارج الكتاب ضمن مغلف كرتوني يحوي 15 خريطة. وليس هناك خاتمة للمؤلف أو للمترجم.

كتب المقدمة الأولى عالم الآثار السوري ميشيل المقدسي وتحدّث فيها عن أهمية الكتاب، والثانية للمترجم وتحدّث فيها عن عمله ومنهاجه، ومن الضروري الاطلاع عليها لفهم الكثير من الإشارات والأعمال التي قام بها في النص. والمقدمة الثالثة للمؤلف الذي يعطي فيها "نظرة عامة على سورية ورسم الخرائط" ويتحدث فيها عن تطور علم الجغرافيا والخرائط منذ اليونان ووصولًا إلى وقته مرورًا بالجغرافيين المسلمين الذين ثَمَّنَ عاليًا جهدهم وخاصة ياقوت الحموي والشريف الإدريسي. ثم يركز على تاريخ رسم الخرائط لسورية منذ القديم إلى القرن التاسع عشر الذي شهد نشاطًا طبوغرافيًا أوروبيًا وفرنسيًا كبيرًا فيها.

وأشار دوسو إلى قلة اهتمام الجغرافيين والرحالة الأوروبيين بداخل سورية، والتركيز على السواحل السورية وفلسطين حيث الأراضي المقدسة. وقال إنّ كثيرًا من الرحالة الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها في العصور الوسطى لم تكن أهدافهم علمية، بل كانت بتكليف من ملوك أوروبا وأمرائها بهدف الاستكشاف وجمع المعلومات لشنّ حملات صليبية ضد المسلمين.

كما أشار في مقدمته إلى أعمال من سبقه وخاصة الرحالة حول المنطقة والخرائط، وما أسماه اكتشافات الأوروبيين للمنطقة. وعَرَّفَ القارئ بفضل من سبقه وهم كثر كالمهندس الفرنسي كالبية الذي نعته بـ "الرائد في الجغرافية السورية" والذي تجول في المنطقة ورسم

خريطة لها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وهناك مسوحات وخرائط قام بوضعها ضباط فرنسيون وغيرهم من خلال جولات طويلة في المنطقة، وكأنها كانت بلاد سائبة على الرغم من كونها جزءًا من الدولة العثمانية.

وقد وضع في آخر مقدمته قائمة بالمصطلحات الجغرافية السائدة في زمانه مع ما يقابلها باللغة العربية وهو أمر لا بد منه لأي قارئ لفهم هذا النوع الخاص من الكتب.

وقبل الحديث عن المحاور الرئيسة التي تناولتها فصول الكتاب، أجدني مضطرًا إلى سرد فصوله سردًا كما وردت، وبشكل قد يكون غير جذّاب، وذلك نظرًا لاستخدام المؤلف مصطلحات وتسميات وتقسيمات جغرافية وسياسية قديمة تتعلق بالمناطق الجغرافية التاريخية السورية من الأفضل أن يطّلع القارئ عليها لوضعه في السياق العام للكتاب.

جاء **الفصل الأول** بعنوان: "فينيقيا الجنوبية"، وورد تحته العناوين الفرعية: الادعاءات الإسرائيلية حول فينيقيا الجنوبية، وصُور ونواحيها، وصيدا ونواحيها، من بيروت إلى البترون. وجاء **الفصل الثاني** بعنوان: "من طرابلس إلى القُرنة Carné - منطقة حمص lEméséne" وجاء تحته العناوين الفرعية: طرابلس وما جاورها، وادي الأَلُثير، منطقة ماريام ورفنية، منطقة حمص. وعنوان **الفصل الثالث** "فينيقيا الشمالية" وتحته العناوين الفرعية: من نهر الأبرش إلى كارنة، من كارنة إلى بالتوس، من بالتوس إلى لاوديقية، أرض شيخ الجبل، الطريق من اللاذقية إلى أنطاكية عبر جسر الشغور. أما **الفصل الرابع** "منطقة أفاميا وحماة" فعناوينه الفرعية التالية: روسا وحصن الروج، كفر طاب والكَفْر، دور كفر طاب ومَعَرَّة النُّعمان زمن الصليبيين، مواقع أخرى مجاورة لأفاميا، من ريحا إلى منطقة عِفرين، حماة وأعمالها حتى الغزو الآشوري. وعنوان **الفصل الخامس** "تدمر ومنطقة دمشق" ويتضمن: طرق الصحراء، المنطقة التدمرية بحسب بطليمُوس والنقاط العسكرية الواردة في كتابه، جبال لبنان الشرقية: (السفح الشرقي لجبال لبنان الشرقية، وادي حَلبون ومنطقةُ الكاليبونيتيد، وادي بَرَدَى الأعلى، الغُوطَة والمَرْج، وادي العَجَم. **والفصل السادس** عنوانه "حوران، جبل الشيخ، البقاع" ويضم: البَثنيَة، حوران (الأورانيتيد)، اللجا والصفا، الجولان والحرمون (جبل الشيخ) - الجولان والحرمون ومنطقة بانياس، البقاع. أما **الفصل السابع** والأخير فعنوان: "سورية العليا" وعناوينه الفرعية: من لاوديقية إلى مصب نهر العاصي، ضواحي أنطاكية، من سلوقية إلى الأبواب السورية، المدن التي يسقيها نهرُ الفرات الأوسط (مدن الضفة اليمنى - مدن الضفة اليسرى)، المدن والطرق في منطقة السيرستيك، حوض الخابور.

أما فهارس الكتاب فهي غنية ومتنوعة، وجاءت في 118 صفحة من الكتاب، بعضها من وضع المؤلف والآخر من وضع المترجم، وتتضمن: فهرس الأماكن الواردة في النص عربي/ لاتيني، وهناك فهرس للأماكن الواردة في الخرائط، وفهرس أعلام عربي وآخر لاتيني، وهناك فهرس للأقوام، وأخيرًا فهرس للآيات القرآنية والأشعار والأقوال، وهذه الفهارس مهمة لتسهيل الاستفادة من الكتاب.

ويحتوي ملحق الخرائط على 15 خريطة، كل واحدة منها لمنطقة من بلاد الشام طبعت على الوجهين، الأول يحوي الخريطة الأصلية بالفرنسية والثاني الخريطة نفسها مع التسميات بالعربية. وقد شرح المترجم ما قام به بخصوص الخرائط. ومن أهم تلك الخرائط تلك المخصصة للطرق القديمة والقروسطية في سورية ولبنان، وهي مأخوذة من المصادر اليونانية واللاتينية ومستكملة من المصادر العربية.

واللافت أنّ كثيرًا من القرى والبلدات السورية التي ورد ذكرها في هذه الخرائط على الرغم من قدمها واستمرار سكناها منذ آلاف السنين هي الآن مهجورة بسبب الحرب والقصف.

ثالثًا: محتويات الكتاب وقضايا حديثة تبحث عن حلٍ أو مبررٍ في التاريخ

يتعرّض الكاتب خلال حديثه عن الطبوغرافيا التاريخية لبلاد الشام للكثير من القضايا التاريخية الخلافية، ولكثرتها قال المقدسي في تقديمه للكتاب "حاول دوسو إيجاد حلٍ لألف مشكلة تاريخية وجغرافية صغيرة"، وهو ما يظهر في أغلب صفحات الكتاب، من خلال عرض المؤلف للآراء المختلفة حول قضية تاريخية واحدة.

ويبدو أنّ تناول دوسو للقضايا الخلافية قد تأثّر باللحظة التاريخية التي كان يعيشها، فبدأ في **الفصل الأول** "فينيقيا الجنوبية" بمسألة كانت موضع نقاش في عصره، وهي تقسيم المنطقة بين القوى الاستعمارية آنذاك (فرنسا وبريطانيا)، واعتماد بريطانيا الملتزمة وعد بلفور على التاريخ التوراتي لوضع الحدود بين فلسطين وسورية. فجاء العنوان الفرعي الأول في هذا الفصل "الادعاءات الإسرائيلية حول فينيقيا الجنوبية" التي كانت تضم صُور ونواحيها، وصيدا ونواحيها، وبيروت؛ أي بمعنى آخر لبنان الدولة الحديثة التي ظهرت برعاية فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى.

ويفنّد الكاتب الادعاءات الإسرائيلية المستندة إلى أسفار الكتاب المقدس. ويدحض بالاستناد إلى المصدر ذاته ومصادر أخرى وصول الإسرائيليين إلى جنوب لبنان، فيقول في صفحة 31 "تكفي التسميات المكرّسة لإظهار الخرافة التي يحاول من خلالها سِفرُ يشوع لأن يضمَّ إلى أرض إسرائيل القسم الفينيقي الواقع جنوب نهر الليطاني (نهر القاسمية)". كما يقول في صفحة 44 وبالاعتماد على سفر العدد في الكتاب المقدس فإنّ حدود فلسطين الشمالية واضحة، إذ تنطلق قريبًا من رأس الناقورة وتمشي على أعالي الجبال وفي خط مستقيم بحسب سفر حزقيال نحو الشرق لتتعدل لتضم إليها بحيرة الحولة وتتبع السفح الجنوبي لجبل الحرمون لتصل إلى بلدة حضر حيث تصبح على تماس مع منطقة حوران. وبرأيه فإنّ تلك "الحدود لشمال فلسطين تقارب على نحو ظاهر تلك الحدود القديمة المثالية". وهكذا يثبت دوسو وجودهم في فلسطين كأنه حقيقة مفروغ منها أو خارج الموضوع، وبرأيه أنّ الحدود التي وضعت بالاتفاق بين فرنسا وبريطانيا تتوافق مع ما ورد في الكتاب المقدس، وهكذا يكون قد حقّق غايته بعدم الاقتراب من مناطق الانتداب الفرنسي.

وهناك مواضيع أخرى في الكتاب تأتي في السياق ذاته، فعلى الرغم من تناول الكتاب تاريخ المنطقة في العصور القديمة والوسطى؛ فهو لا يخلو من أحداث ومعلومات من التاريخ الحديث، ولكن مناسبة ذكرها وموضعها في السياق تهدف إلى ربطها بأصول مفترضة ربما تكون غير مؤكدة في التاريخ القديم. ومنها على سبيل المثال ما ورد في الفصل السادس "حَوران وجبل الشيخ والبقاع" في صفحة 395 حول قرى في حوران؛ إذ يقول: "كَوكَب Kaukab الواقعة غرب الشيخ سعد مثالٌ لاستيطان حديث لجاليةٍ يهوديةٍ في موقع أثري قديم مثل سَحم الجولان وجلِّين وتل عميدون التحتاني وبيت عكّار وجُبلَة Djoubla" ويعلق في الحاشية رقم 3 من الصفحة نفسها "بلدة كوكَبة Kokabé التي سكنها الأبيونيون - طائفة يهودية عاشت ما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين - وقد ذكرها إيبفانوس الذي يقول إنّ اليهود يلفظونها: شوشّبة Chochabé". والصحيح والمؤكد في هذا الكلام هو قيام يهود في أواخر القرن التاسع بشراء أراضٍ في حوران، ولكنهم لم يسكنوها بسبب رفض مصلحة الطابو العثماني في دمشق تسجيلها باسمهم. ولكن ما هو غير مؤكد، ما قاله الكاتب حول استيطان اليهود في تلك المناطق منذ العصور القديمة خاصة مع وجود جماعات وأقوام أخرى تقدم روايات تاريخية مناقضة لما يقولون. كما يجب التفريق بين استيطان قوم في منطقة ما وبين مهاجمتهم لها أو اللجوء إليها أو المرور منها، وهو ما يظهر في الصفحات اللاحقة (397 - 400) من الفصل نفسه عندما يسرد الكاتب معلومات مأخوذة من التوراة تتحدث عن حملة يهوذا وانتصاراته في هذه المنطقة وبلداتها، وكيف اصطحب معه كل يهود المنطقة إلى فلسطين خشية الانتقام منهم بسبب كثرة الدماء التي سفكها. مما يدفع للاستنتاج أنهم لو كانوا من الكثرة في تلك المنطقة وبلداتها لما خافوا البقاء فيها وغادروها.

وحول هذا الموضوع لا بد من لفت الانتباه إلى أنّ الحركة الصهيونية ومؤسسات يهودية حاولت في أواخر العهد العثماني وخلال فترة الانتداب الفرنسي شراء أراضٍ في سورية خاصةً في الجولان وحوران، ووصلت محاولتهم حتى أقصى شمال شرق سورية في منطقة الجزيرة.

ويتابع في **الفصل الثاني** دراسة المسالك والبلدان في منطقة حمص وما حولها. فقد كانت حمص أحد المراكز المهمة والعامرة بالكثير من المواقع والقرى التي شهدت أحداثًا تاريخية مهمة طوال العصور القديمة والوسطى، ومنها جاء بعض أباطرة روما، وكانت تتبع لها مناطق تمتد حتى الساحل ومنها مدينة طرابلس. ويقول دوسو إنه كان للمناطق الساحلية والقريبة منها أهمية كبيرة للصليبيين الذين لم يتوغلوا كثيرًا في عمق بلاد الشام الذي نرى اليوم فيه كثيرًا من آثارهم.

ويشرح **الفصل الثالث** المناطق الساحلية فيتناول "فينيقيا الشمالية" التي كانت تمتد من طرابلس نحو الشمال حتى أنطاكية لتضم ما يعرف حاليًا بمنطقة الساحل السوري. ويظهر عبر العصور المختلفة الغنى الحضاري واستمرار السكن من دون انقطاع في هذه المناطق؛ لذلك تكثر فيها القرى والمواقع الأثرية والأحداث التاريخية التي تناولها دوسو بالتفصيل. كما يتناول الكاتب في هذا الفصل قضايا مطروحة في زمانه ويجد لها مبررًا في التاريخ، والمقصود هنا إقامة الفرنسيين للدولة العلوية عند تقسيم سورية بعد احتلالها إلى أربع دويلات (دمشق، حلب، جبل الدروز، العلويون) فيقول الكاتب: "جبال النصيرية المعروفة عند العامة باسم جبال الأنصارية قد حافظ سكانها على مر العصور على استقلالية نسبية. برزت هذه الخصوصية والتي تأكدت في أيامنا هذه إلى درجة إنشاء دولة العلويين المستقلة". كما يتناول تاريخ هذه المنطقة وخاصة خلال فترة الحروب الصليبية ومنذ الحملة الأولى والصراع عليها مع المسلمين، واستقرار الإسماعيليين فيها وبناء قلاعهم، ويخصص لذلك عنوان "أرض شيخ الجبل" والمقصود سنان مُقَدّم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم المعروف بشيخ الجبل (ت. 588هـ) والذي انتقل من حصن أَلموت في إيران إلى مصياف في الشام في أيام السلطان نور الدين محمود.

وفي الفصلين **الرابع والخامس** يتناول الكاتب الداخل السوري الذي يتضمن مناطق أفاميا وحماة وما حولها، ومنطقة دمشق وتدمر. ويرى دوسو أنّ هذه المناطق لم تأخذ حقها في كتابات الرحالة والجغرافيين الأوروبيين، ويعلق مستغربًا في صفحة 4 "إنّ المفاجئ في الأمر أنّ أيًا من هؤلاء الجغرافيين الأعلام لم يُولِ أدنى اهتمام بداخل البلاد رغم دخول الصليبيين إليها وإقامتهم فيها فترات طالت أو قَصُرت". ويبدأ كلامه في الفصل الرابع للتعريف بالمناطق من خلال الحملة الصليبية الأولى وأسماء المواقع والبلدان التي استولت عليها والتي ورد ذكرها في كتاب "مؤرخو الحروب الصليبية"، ونرى الكاتب في هذا الفصل يركز على تاريخ بلدان هذه المنطقة ودورها أثناء الحروب الصليبية كبلدات "كفر طاب ومعرة النعمان" والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الفرنجة. وقد يكون لتركيز دوسو على تاريخ هذه المنطقة زمن الحروب الصليبية علاقة بملاحظته السابقة التي أشار فيها إلى عدم اهتمام الجغرافيين الأوروبيين بها. وبعد بدايته بالعصور الوسطى، يعود ليتابع الحديث عن تاريخ المنطقة في العصور القديمة، فيتناول الطرق القديمة في الصحراء التي كانت مدينة تدمر مركزيةً فيها؛ إذ تنطلق منها ثلاث طرق نحو دمشق وحمص وأفاميا والمحطات على هذه الطرق.

ومن اللافت أنّ الطرق البرية الحالية تساير بشكل كبير تلك التي كانت مستخدمة قديمًا كطريق الرقة – الرصافة – أثريا – القسطل – سلمية – حمص – شمسين – قارة – النبك – القطيفة - دمشق، والتي ورد ذكرها في صفحة 308، وهذه الطريق مثال على كثير من الطرق الحديثة في هذه البلاد التي ما زالت تساير تلك المسالك والطرق القديمة؛ فالسالك لتلك الطريق البرية اليوم يلاحظ مروره بكل تلك المناطق كما يرى الآثار والخرائب المنتشرة على جانبيه.

كما أنّ بعض المناطق احتفظت بالكثير من مهماتها منذ القدم وحتى اليوم بفضل طبيعتها الجغرافية، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما جاء في صفحة 235 عن منطقة جبل الزاوية التي كانت المعقل المفضل للمقاومة عبر العصور منذ أيام اليونان والرومان وصولًا إلى عام

1921 عندما كانت معقلًا للمقاومة ضد الفرنسيين، والمقصود هنا ثورة الشمال بقيادة إبراهيم هنانو آنذاك. وهذا الوصف لجبل الزاوية دقيق تمامًا وهذا ما يجري فيه منذ عام 2011 وحتى الآن. كما ينطبق الوصف ذاته على منطقة "اللجاة" الوعرة التي ذكرها الكاتب في الفصل السادس الذي تناول فيه جنوب سورية (حوران وجبل الشيخ والبقاع)؛ إذ كانت هذه المنطقة وما زالت ملجأً لكل ثائر أو مضطهد بسبب وعورتها.

رابعًا: منهجية الكتاب

1. منهج المؤلف

خلال التتبع التاريخي الطويل، وعبر فصول الكتاب السبعة ذات الحجم الكبير، يؤصّل المؤلف، لمقارنات مهمة على المستويات كافة بين تطور الطرق والمواقع والبلدان والمدن في بلاد الشام خلال العصور القديمة والوسطى مع إعطاء فكرة عنها زمن تأليف الكتاب بداية القرن العشرين. ويقدِّم مقارنات دقيقة بين مصادره ويتناول معلوماتها بقراءة ناقدة للروايات المتضاربة ويغلب واحدة على أخرى في بعض الأحيان، ويترك أحيانًا أخرى أسئلة وقضايا من دون أجوبة آملًا أن يجد المختصون جوابًا عنها في المستقبل. ويحاول أن يقدم أجوبة علمية عن قضايا تاريخية وسياسية كانت مطروحة في زمانه وما زال بعضها مفتوحًا للنقاش حتى الوقت الحاضر، ويقدِّم الحجج والبراهين التي تدعم رأيه.

وفي هذا السياق، لا بد من ذكر أنّ المترجم قام أحيانًا بما أراده الكاتب، فقام بتصحيح المعلومات القديمة في الكتاب في ضوء المكتشفات الحديثة كما فعل مع نقش النمارة الذي كان يعتقد خطأً حتى عام 2009 بأنه شاهد قبر ملك العرب "امرؤ القيس".

ومما قاله ميشيل المقدسي في تقديمه للكتاب "إنّ سر نجاح دوسو كان منهجه الصارم في العمل". فقد اتبع كل من المؤلف والمترجم المنهج العلمي في عملهم، وكان لكلٍ منهما بعض الخصوصية التي اقتضتها طبيعة العمل في هذا الكتاب. وقد أشار إلى ذلك المؤلف في تصديره ومقدمته، وقد حاول الاطّلاع على كل ما كتب حول الموضوع قبله واستخدم منهج المقارنة بشكل مكثّف للوصول إلى المعلومة الصحيحة، وهي لم تكن عملية سهلة كون من سبقه قد كتبوا بلغات عدة، وفي فترات زمنية ممتدة عبر التاريخ.

كما يعترف دوسو أنه كان يرغب في إضافة كلمة "مدخل" إلى عنوان الكتاب لأنّ ما يقدمه يعد مدخلًا إلى الطبوغرافيا التاريخية، كما أشار إلى معرفته المنقوصة حول الموضوع مما لم يسمح له بتقديم طرحٍ منهجي. كما أشار إلى أنه لم يكن بوسعه اعتماد منهجٍ واحدٍ في كل فصول الكتاب بسبب تحكّم توافر المادة العلمية بين يديه حول موقع من المواقع.

وعلى الرغم من إشارة الكاتب إلى عدم تمكنه من اعتماد منهجٍ واحدٍ في جميع فصول الكتاب، فإنه يمكن ملاحظة وجود منهج عام في الكتاب خلال تناول تاريخ المناطق؛ إذ يذكر الطرق التي سلكها الرحالة والمؤرخون والملوك، والطرق التي سلكتها الجيوش المختلفة كالحملات الصليبية في بلاد الشام والمناطق والبلدات والقرى التي مرت بها.

وغالبًا ما يبدأ بذكر منطقة كبرى يجعلها عنوانًا لفصل من فصول الكتاب أو عنوانًا ضمن فصل، ويتحدث عن تاريخها القديم والوسيط وآثارها ومن مر عليها، ثم ينتقل إلى المناطق المجاورة أو التابعة لها، ويسلك في الانتقال بين منطقة وأخرى الطرق والمسالك في العصور القديمة والوسطى والقرى الموجودة على هذه الطرق، ويذكر الكتابات القديمة والوسيطة والحديثة حول الموقع ويتناول الروايات المختلفة حوله ويقارن بينها.

فعلى سبيل المثال: عنوان الفصل الثاني "من طرابلس إلى القُرنة- منطقة حمص" يبدأ فيه بتناول "طرابلس وما جاورها" ويتكلم عن تأسيس طرابلس الحالية على يد المسلمين أيام السلطان قلاوون، ويعود إلى سرد تاريخها من العصور القديمة إلى الوسطى ويتناول المناطق المجاورة لها وتاريخ كل منها القديم والوسيط مثل منطقة الكورة وقراها وبلداتها ثم يتوجه إلى مناطق أخرى كعكار وغيرها وهكذا يتابع.

ويجب التنويه إلى أنّ دوسو ترك بعض المناطق المهمة التي تقع ضمن سورية ولبنان من دون دراسة، وبرّر ذلك بأنه لم يكن لديه جديد يضيفه إلى الدراسات التي تناولت تلك المناطق أو وثائقها في العصور الوسطى مثل الأقضية اللبنانية (المتن وكسروان والبترون) والبلدات التابعة لها. وفي ما يخص وصف بيروت في العصور الوسطى، فيحيل المؤلف القراء والباحثين إلى دراسة "كونت مونسيل دوبويسون Mesnil du Buisson" بعد كلامه المختصر عن المدينة في العصور القديمة.

ولا بد من القول إنّ دوسو كان مدركًا لإمكانية تغيّر كثيرٍ من النظريات التاريخية بسبب المكتشفات الأثرية الجديدة والدراسات، لذلك كثيرًا ما استخدم كلمات مثل (يمكن، يحتمل، ربما).

2. مدى حيادية المؤلف

على الرغم من كل ما تقدم حول منهجية دوسو العلمية، فإنّنا نستطيع القول إنّه لم يكن حياديًا في ما كتب كعالمٍ ومستشرق، ويكفي أن نورد مثالًا واحدًا، وهو ما جاء في الصفحة 452 فهي تختصر جزءًا من القصة؛ إذ يقول عند ذكر معركة حطين "عهد معركة حطين المشؤومة سنة 1187م"! فهذا الوصف يعبِّر عن المخزون النفسي للكاتب وخلفيته التي نجد تأثيرها في غير مكان من الكتاب.

كما توجد ملاحظة عامة، فالكتاب الذي يتناول فترات طويلة من تاريخ بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى، تعني له العصور القديمة تاريخ المنطقة تحت حكم اليونان والرومان بشكل خاص، وتعني العصور الوسطى تاريخ المنطقة في فترة الحروب الصليبية. وما جاء ذكره حول التاريخ الإسلامي ودوله وممالكه كان غالبًا من خلال علاقته مع الحملات والممالك الصليبية التي قامت في المنطقة. فأين ما جرى خلال الفتوحات الإسلامية؟ وأين العصر الأموي والعصر العباسي والطرق والمسالك والبلدان فيهما التي لا يتناسب ذكرها في الكتاب مع مدتها الزمنية وحضورها في التاريخ؟ ألا تعتبر هذه الفترات من العصور الوسطى؟!

3. منهج المترجم

نظرًا لصعوبة ترجمة هذا النوع من الكتب، فقد اتبع المترجم منهجًا خاصًا في ترجمته. فبعد ترجمة النص إلى العربية عمل على التحقّق من تسميات القرى والبلدان وضبطها وتحديد مواقعها واكتشف الأخطاء التي وقع فيها دوسو أو المصادر التي نقل عنها وخاصة الترجمات الفرنسية للكتب العربية، كذلك تعدّد لغات مصادر الأصل ومراجعه (عربية ويونانية ولاتينية وألمانية وإنكليزية وفرنسية وعثمانية وروسية) ونقل تسميات الأماكن منها إلى اللغة الفرنسية، ومن ثم نقل هذه التسميات مرة أخرى للعربية مما أدى إلى تشويه كثيرٍ منها. وهو ما تطلب جهدًا كبيرًا من المترجم لإعادة ضبطها عبر المصادر والتسميات الراهنة. ولكن الصعوبة الكبرى كانت مع الأماكن المندثرة، وبخاصة أنّ الرسم اللاتيني للتسميات يحتمل أكثر من صوغ باللغة العربية. ولتجنّب تشويه النص الأصلي، حافظ المترجم بجانب كل تسمية عربية على الرسم اللاتيني لها كما ورد في الأصل.

وقد عاد المترجم إلى المصادر العربية التي استقى منها دوسو مادته وضبط التسميات كما في الأصل العربي، خاصةً أنّ دوسو يشير في صفحة 22 من الكتاب إلى ملاحظته أنه على الرغم من تغيّر لفظ تسميات الأماكن عبر التاريخ، فإنّ اللغة العربية قد احتفظت باللفظة الأولى تمامًا كما هي، بعد أن أصبحت هي السائدة في المنطقة بعد اللغتين اليونانية والسريانية.

وهناك مأخذ منهجي على المترجم الذي قام بالتعريف بكثيرٍ من المواقع والبلدات والشخصيات والمصطلحات في حواشي الكتاب، ولكن في أغلب الحالات لم يشر إلى مصدر المعلومة كما تقتضي الدقة والأمانة العلمية، بل كتب (المترجم) وكأنه يرجع المعلومة إلى نفسه، وهذا خطأ منهجي مع أنّ المترجم قد وضع في آخر الكتاب قائمة خاصة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية التي عاد إليها في شروحاته. وربما أراد المترجم تمييز الحواشي التي وضعها عن حواشي المؤلف، ومع ذلك كان يجب إرجاع المعلومة لمصدرها المسؤول عنها. كما أنّ المترجم اعتمد بشكل واسع على "المعجم الجغرافي السوري" وهو مع شموليته، فإنه غير دقيق وفيه الكثير من الأخطاء.

ويعترف المترجم أنه على الرغم من كل هذا الاجتهاد في الوصول إلى أفضل ما يمكن، ربما أخطأ في نقل بعض التسميات، وأنه كان يمكن للترجمة أن تكون أفضل لو تمكّن من مقابلة مواد الكتاب مع معجم البلدان لياقوت الحموي. ولكنّ مشقة العمل الفردي وضغط الوقت منعته من ذلك.

خامسًا: مصادر الكتاب

ذكر المترجم في مقدمته أنّ مواد أصل الكتاب استُقيت من أكثر من 300 مصدر ومرجع منها الكتاب المقدس، وأكثر من 30 مصدرًا من أمهات الكتب الجغرافية والمعجمية العربية الإسلامية، كما اعتمد على المسكوكات والآثار المعمارية الباقية، واستخدم كثيرًا من المعاجم والموسوعات.

واعتمد المترجم على 132 مصدرًا ومرجعًا عربيًا وأجنبيًا، و17 موقعًا إلكترونيًا لتحقيق التسميات والمعلومات وضبطها عدا التواصل المباشر مع كثير من المتخصصين والباحثين وسكان المناطق المذكورة في الكتاب.

كُتِبت مصادر الكتاب ومراجعه بلغاتٍ عدة، منها مصادر أصلية للعصور القديمة والوسطى كالعهد القديم الذي اعتمد عليه كثيرًا وكانت رواياته التاريخية أساسية أثناء سرد تاريخ بعض المناطق كما في الفصل السادس من الكتاب. ولكن الكاتب يفنّد روايات التوراة بنسخها المختلفة ويقارنها مع مصادر أخرى. وأشار في بعض المواضع إلى عهد قديم من دون الزيادات التي وضعها الكُتّاب في العهود اللاحقة، كما أشار إلى وجود مغالاة لغوية في الأدبيات العبرية كما في صفحة 382. وهذا الاعتماد الكثيف على الكتاب المقدس قد يدفع القارئ إلى الاعتقاد بعدم استطاعة المؤلف الهروب من التفسير الديني للتاريخ.

كما اعتمد الكاتب على المسكوكات القديمة التي تعتبر من أهم مصادر المعلومات التاريخية. وكانت المواقع الأثرية مصدرًا رئيسًا للمعلومات خاصةً أنّ الكاتب قام بجولات على العديد منها وسجل بنفسه الملاحظات، كما استفاد من نتائج البعثات الأثرية الأولى في المنطقة التي عملت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وعاد إلى كتابات رحالة العصور القديمة والوسطى ومؤرخيها مثل بطليموس واسطربون وغيرهما مرورًا بالرحالة والجغرافيين المسلمين كالشريف الإدريسي وياقوت الحموي وأبي الفداء وغيرهم؛ أي عاد إلى أمهات الكتب الجغرافية والمعجمية العربية الإسلامية.

ويجب لفت الانتباه إلى أنّ المصادر العربية التي اعتمد عليها دوسو كانت كلها مترجمة إلى اللغة الفرنسية غالبًا، وهذا ما تسبب بوقوع أخطاء في كتابة أسماء المواقع والبلدان، فتَبِعَ فيها دوسو من سبقه في الخطأ، وقام أحيانًا بتصحيح تلك الأخطاء وشرحها.

كما عاد إلى الوثائق التاريخية الرسمية مثل السالنامة العثمانية، ونصوص المعاهدات القديمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر المعاهدة المبرمة عام 1285م بين سلطان دولة المماليك المنصور قلاوون والأميرة الصليبية مارغريت أميرة مدينة صور التي ورد فيها أسماء مواقع عديدة، وقد قام باحثون بنشر هذه المعاهدة ودراسة أسماء المواقع الواردة فيها منذ عام 1896.

خاتمة

على الرغم من تغيّر كثيرٍ من المعطيات والمعلومات الواردة في هذا الكتاب بعد نحو مئة عام من الدراسات والاكتشافات الأثرية، فإنه يمكن اعتبار كتاب دوسو من أهم ما كتب عن بلاد الشام وآثارها في العصور القديمة والوسطى، فهو يسلط الضوء على قضايا ما زالت مستمرة حتى اليوم في هذه المنطقة، والتي ما زال التاريخ فيها موضع نقاش واختلاف بين مكوناتها الدينية والعرقية والطائفية؛ حتى إننا نستطيع الحديث عن وجود تواريخ لا تاريخ واحد للمنطقة. ولو اقتصر الأمر على التاريخ كعلم في بطون الكتب لكان الأمر هينًا، ولكنه عامل أساسي في تشكّل الهوية وفي تمزيقها في الوقت نفسه، وهو دعامة أساسية لأصحاب النظريات السياسية والطائفية الذين يفسرون التاريخ بشكل انتقائي بما يخدم نظرياتهم ومصالحهم.

وفي الختام، لا بد من الإشارة إلى وجود كتابات أخرى لدوسو تستحق الترجمة، وبخاصة أنّ بعضها يساهم في فهم بعض ما يجري في منطقتنا في الوقت الراهن.

وعلى الرغم مما تقدم من ملاحظات حول الكتاب وترجمته، فإنّ ذلك لا يقلل من أهميته العلمية من حيث التأليف والترجمة.

نظام العباسي | *Nizam Al-Abbasi

عرض كتاب "نحو دولة دستورية - مشروع المثقفين العثمانيين الشباب في صحيفة حرية (1868 – 1870)"

Towards a Constitutional State: The Project of the Young Turks Intellectuals in Hurriyet Newspaper (1868 - 1870)

هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه للباحثة كرستيانه تشيغان Christiane Czygan، وهو يتتبع الجذور والمكونات الأولى لحركة "الشباب العثماني" في خضمّ التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الأوروبية التي أفرزتها الثورة الصناعية، وما تبعها من حركة اسـتعمارية أوروبية - نفذت أيضًا إلى الدولة العثمانية عبر صيغ مختلفة، منها ما هو فكري وقومي، وأسست لدول قومية التعصب، ظهرت بطابعها الفاشي والنازي بصورة جليّة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

Towards a Constitutional State: The Project of the Young Turks Intellectuals in Hurriyet Newspaper was originally the doctoral dissertation of author Christiane Czygan. This book follows the roots and origins of the Young Turks movement, and is set around the political, economic, and social transformations thrown up by the industrial revolution in Europe, the colonial movement that followed, and its different effects on the Ottoman state such as the rise of the intellectual and the nationalist.

* أستاذ في قسم العلوم الإنسانية، جامعة قطر.

المؤلف: كريستيانة تشيغان Christiane Czygan.

عنوان الكتاب: نحو دولة دستورية- مشروع المثقفين العثمانيين الشباب في صحيفة حرية (1868 – 1870).

العنوان الأصلي (بالألمانية):

Zur Ordnungdes Staates – Jung Osmanische Intellektuell und ihre :onzepte in der Zeitung Hürriyet (1868 – 1870)

الناشر: مطبعة كارل شفارتس، برلين.

سنة النشر: 2012.

عدد الصفحات: 315 صفحة من القطع المتوسط.

يقع الكتاب في ستة فصول، إضافةً إلى مقدمة وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع، وعدد من الملاحق. قُدّمت مادة هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه للباحثة كريستيانة تشيغان.

تحاول المؤلفة في **الفصل الأوّل** الذي عدّته مدخلًا ودليلًا مرشدًا لما سيتبع من فصولٍ ومعلومات، عرْض مجمل الدراسات والأبحاث الجادة التي تناولت موضوع "الشباب العثماني" باللغات الألمانية والتركية والإنكليزية والفرنسية. وتذكر في هذا المقام أنّ "الشباب العثماني لفتوا الانتباه بأفكارهم منذ ما يربو على 140 سنة، بل شغلوا أيضًا ذوي الاختصاص والاهتمام بهم. وكانت صحيفة **حرية** Hürriyet أهمّ منبر لنقل أفكارهم خلال الفترة 1868 – 1870" (ص 10). وتلفت المؤلفة النظر في هذا الفصل إلى أنّ الكثير من الدارسين والباحثين قد أشكل عليهم الأمر ولم يميزوا بين حركة "الشباب العثماني" هذه وغيرها من الحركات الإصلاحية التي لها أسماء مشابهة، أبرزها: جمعية الشباب العثماني، وتركيا الفتاة، والشباب التركي. وتوضح في هذا المقام، وبصورة متسلسلة، تاريخ هذه التسميات المختلفة وسبب ظهورها (ص 23 – 28). وتختم الفصل بعرضٍ موجز لأبرز ما ستتناوله الفصول اللاحقة.

أمّا **الفصل الثاني**، فيعرض أبرز التطورات التاريخية التي جرت في الدولة العثمانية، وبخاصة في إسطنبول، حيث ظهرت أصوات التغيير المكوّنة لمجموعات "العثمانيين الشباب" وأفكارهم خلال فترة 1868 – 1871. وترسم المؤلفة في هذا الفصل من الكتاب صورةً واضحة المعالم لبدايات تأسيس الحلقة الأولى لمجموعة "العثمانيين الشباب" في المهجر، ولأبرز الأسماء القيادية بينهم، إضافةً إلى مصادر تمويلهم. وفي هذا الإطار ترى أنّ مصطفى فوزي باشا الذي رافق السلطان العثماني عبد العزيز في رحلته الأوروبية في صيف 1868، هو مموّلهم الرئيس، وهو الذي حاول، من دون جدوى، إقناع السلطان بالعفو عنهم. من هنا، تأخّر في بودابست بعد عودة السلطان إلى إسطنبول مع انتهاء جولته الأوروبية، وأجرى اتصالاته بـ "العثمانيين الشباب"، وساهم جذريًا في تمويل أنشطتهم ونشر أفكارهم (ص 64 - 68).

تتناول المؤلفة في هذا الفصل أيضًا برنامج "العثمانيين الشباب"، موضحةً أنّه وُضع في مدينة بادن بادن الألمانية، خلال إقامة مصطفى فوزي باشا فيها منذ وصوله إليها في 17 آب / أغسطس1867. وصيغ البرنامج في 12 بندًا (أو 13 بحسب رأي الباحث التركي حسين جليك)، شملت أهداف حركة "الشباب العثماني" وإستراتيجيتها.

أمّا أعضاء التنظيم، فهُم إضافةً إلى مصطفى فوزي باشا، ضياء بك ونامق كمال وأغا أفندي، وشخصيتان أخريان لم يرد ذكرهما (ص 68 - 69).

ومثّلت صحيفة **المخبر** Korrespondent الوسيط الأول الذي حمل أفكار هؤلاء الشبان؛ فقد صدر العدد الأوّل منها في لندن بتاريخ 31 آب / أغسطس 1867، وكان علي السبعاوي رئيس تحريرها. وكان يوزّعها رجل يوناني ثبت أنّه كان يبيع نصف أعدادها (50 نسخة فقط) من مدير الشرطة التركي. ودبّ خلاف بين السبعاوي من جهة وأبي ضياء توفيق ونامق كمال من جهة أخرى، فضلًا عن تدخّل مصطفى باشا. وهو ما قاد، مع أسباب أخرى، إلى إنشاء صحيفة تنطق باسمهم في أيار / مايو 1868هي صحيفة **حرية** التي جعلتها المؤلفة موضوع **الفصل الثالث؛** إذ عدّتها المنبر والوسيط والمخزن والمعبّرة عن أفكار "العثمانيين الشباب" وتوجّهاتهم وتطلعاتهم، ولا سيّما من حيث العوامل التي أثّرت في مسيرتها، سواء أكانت فكرية أم مالية (ص 78 - 87). ومن اللافت للنظر أنّ المؤلفة استخدمت الوسائل الحديثة لعرض محتوى الصحيفة ومقالاتها التي بلغ عددها 388 مقالة، منها 103 مقالات عدّتها "رسائل قرّاء"، جاء 77 في المئة منها من إسطنبول و10 في المئة من كريت و4 في المئة من إزمير، والنسبة الباقية من مناطق مختلفة في البلقان والبلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية آنذاك.

كان في تلك الرسائل أخبار سياسية دولية وأخرى محلية. وقد عززت المؤلفة حديثها عن رسائل الصحيفة بنماذج من الأخبار السياسية الدولية والمحلية (ص 88 - 94)، ونظرًا لـ"اتساع تأثير صحيفة حرية وشموليته داخل الدولة العثمانية وخارجها، كانت صوتًا قويًا للمعارضة في الداخل والخارج" (ص 94).

وكما سبقت الإشارة، قامت المؤلفة بإخضاع جميع المقالات التي أوردتها الصحيفة لـ **قاعدة بيانات حاسوبية.** وهو ما أضفى على عملها بُعدًا معرفيًا جديدًا يتميز بالتحليل الدقيق لمعطياتٍ ربما تبدو عادية جدًا.

إنّ منهجها المعتمَد يمكّننا من الوقوف على أهمية عدد من النقاط في المجتمع التركي العثماني، وحساسيته؛ إذ قدّمت إحصاءات مدققة بشأن عدد المرات التي أوردت فيها المقالات المنشورة على أعمدة الصحيفة كلمات كالفقر والجوع والديمقراطية...، مرتّبة في جداول بحسب نسبة تكرارها، لتصل في النهاية إلى النتائج المترتبة عن ذلك. والحال عينها في ما يتعلق بحجم المقالات، موضحةً مثلًا أنّ 388 مقالة، هي مقالات الصحيفة كافة (منها 247 مقالة طويلة، و41 مقالة قصيرة)، صُنّفت بحسب جاء فيها من: اقتباسات (من صحف، ومجلات...)؛ وإعلانات (بيع، وشراء...)؛ وأخبار دولية (نقلًا عن صحف مختلفة، إخبارية واجتماعية...).

وقامت المؤلفة أيضًا بقياس مدى تأثير محتوى الصحيفة في القرّاء، وردّات أفعالهم على ما جاء فيها، مبيّنةً أنّه كان كبيرًا وفعالًا. وقد برزت الأفكار الواردة على أعمدة هذه الصحيفة في الدستور العثماني لسنة 1876، أي بعد توقّفها عن الصدور، حيث ساهم محرراها نامق كمال وضياء بك في صوغ هذا الدستور، وأثّرا بأفكارهما في مراد الخامس.

وفي **الفصل الرابع**، تناولت المؤلفة منهجية صوغ الخبر في صحيفة **حرية**، بدءًا بالمشكلات التي واجهت كتّاب المقالات، وأوغلت في معادلة فهم النصوص من خلال عددٍ من المصطلحات والمفاهيم المستخدمة، انطلاقًا من مفاهيم تحليل الخطاب الأوروبي؛ ذلك الخطاب الذي يمايز بين لغة شتّى العلوم ومصطلحاتها، كعلم الأجرام، وعلم اللغة... إلخ، ضاربةً الأمثلة على ذلك، مع مقاربات تحليلية لبعض الصحف الأوروبية، مثل صحيفة **التايمز** البريطانية، ومطبّقةً ذلك على صحيفة **حرية** (ص 105 - 134).

أمّا **الفصل الخامس**، فيعرض بصورة تفصيلية أسلوب صوغ المقالات في صحيفة **حرية**، مبيّنًا الفوارق حتى في المنهجية والأفكار والمصطلحات المستخدمة عند محرريها ضياء بك ونامق كمال، من حيث **المعيار الكمّي** الذي يشمل علم الإملاء (ص 136 - 140)، والقواعد (ص 140 - 142)، وبناء النص الهيكلي (ص 142 - 144)، ثم تحليل النص (ص 144 - 148)، و**المعيار النوعي**، من تحليل مستفيض يشمل بدايات المقالات الواردة فيها ونهاياتها، وهندسة بنيان جمَلِها.

وقامت المؤلفة بعقد مقارنة تحليلية لمحتوى الخطاب عند المحرريْن ضياء بك ونامق كمال، مستخدمةً منهجية التحليل الإحصائي الحاسوبي، من حيث استخدام كلٍّ منهما عددًا من المصطلحات/المفردات، مثل الحرية، والعدالة، والترقّي، ومبدأ الشورى، والأمة... إلخ، وعدد مرات تكرارها في مقالات كلٍّ منهما، لتصل إلى عددٍ من النتائج في هذا الصدد، لعلّ أبرزها "أنّ هناك فوارق رئيسة بينهما" بيّنتها المؤلفة في الصفحات 209 - 220 من الكتاب.

أمّا في ما يتعلق بالمقالات المتباينة في محتواها والتي نشرتها الصحيفة، فترى المؤلفة أنّ كاتبيها هما أيضًا المحرران ضياء بك ونامق كمال؛ وذلك من خلال تحديدها الحجم الكمّي والنوعي للألفاظ والمصطلحات الواردة فيها، مثل: حب الوطن، وحب الوطن من الإيمان، ووزارة الخارجية، معلّقة على المميزات الخاصة لكلٍّ من المحررَين في تعبيراتهما، مثل: رأي الشباب العثماني، ومديح السلطان عبد العزيز، ويحيا الباب العالي... (ص 220 – 250).

في **الفصل السادس**، وهو آخر فصول الكتاب، تُعنى المؤلفة بتحليل مفهوم مصطلح "وطن" ومناقشته كما جاء في صحيفة **حرية**، ومقارنته بمصطلحات ومفاهيمَ مرادفة استُخدمت في أوروبا آنذاك، مثل ناشينالزموس Nationalismus، ومدى استخدامها، والقصد من ذلك، إضافةً إلى مفهوم/مفاهيم الانتماء والولاء، وحب الوطن، وحب الوطن من الإيمان (ص 250 - 281).

وتُجمل المؤلفة في نهاية كتابها (ص282 - 286) عددًا من الملاحظات الختامية. ومنها، على سبيل المثال، غياب مضمون محلي لمعنى "وطن" في صحيفة **حرية**. وترى أنّ فكرة الوطنية وردت في الصحيفة، من حيث الصوغ "مبكرة معبِّرة عن قومية تركية لم تكن آنذاك قد برزت بعد" (ص 282).

وتقوم المؤلفة في الفقرة الأخيرة من ملاحظاتها الختامية بإجراء مقاربة/مقارنة لافتة للنظر بين توجهات العثمانيين الشباب وتوجهات شباب حركة الوحدة الإيطالية بزعامة ماتزيني. فترى أنّ "حركة ماتزيني قادت إلى ثورة، بينما استخدم "الشباب العثماني" الكتابة والنشر واسطة تواصل. وفي هذا الإطار كان لصحيفة حرية أهمية خاصة؛ فقد مثّلت المنتدى المركزي الناقد للسياسة العثمانية خلال السنوات (التي صدرت فيها)" (ص286).

لا شكّ في أنّ هذا الكتاب يكتسي أهمية بالغة بالنسبة إلى الباحثين في التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر؛ فهو يتتبع الجذور والمكونات الأولى لحركة "الشباب العثماني" في خضمّ التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الأوروبية التي أفرزتها الثورة الصناعية، وما تبعها من حركة استعمارية أوروبية - نفذت أيضًا إلى الدولة العثمانية عبر صيغ مختلفة، منها ما هو فكري وقومي، وأسست لدول قومية التعصب، ظهرت بطابعها الفاشي والنازي بصورة جليّة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

على الرغم من انحياز المؤلفة الجذري إلى الموضوعية والمنهجية العلمية الصارمة، موظفةً قواعد البيانات الحاسوبية في دراستها، فإنّ بيئة النمط الأوروبي في عرض بحثها واضحة المعالم؛ ففي فهمها مصطلح القومية مثلًا وتحليلها له، كان الأساس هو مدرسة الفهم الأوروبي الناجم عن مجمل التطورات التاريخية في البيئة الأوروبية، بينما نرى أنّ "قومية" العثمانيين الشباب هي وليدة بيئتهم العثمانية الضامنة "قوميات" مختلفة عاشت في كنف الإمبراطورية العثمانية قرونًا عدة، وإن عاش أصحاب أفكار صحيفة **حرية** في لندن وباريس فترة من الوقت، وتمكّنوا خلالها من الاطّلاع على بيئتها الفكرية والسياسية.

أمّا المؤلفة تشيغان، فعلى الرغم من تفهّمها بيئة المخيال العثماني/الشرقي ومنطلقاتها خلال الفترة موضوع البحث، فإنّها بقيت حبيسة نمط التحليل والتفكير الأوروبيّين، على مستوى التأطير المنهجي وعلى مستوى النتائج التي توصلت إليها في دراستها المتميزة والمهمة بالنسبة إلى كلّ مهتمٍّ بدراسة تلك الفترة التاريخية ومتخصص بها.

عزيز العرباوي | Aziz al-Arabawi*

عـرض كتـاب "نهضـة اليابـان في عهـد الميجـي مـن منظــور عربي - إســلامي"

The Revival of Japan in the Meiji Period from an Arab-Islamic Perspective: A Reading

تتنـاول هـذه المراجعة عصر النهضة اليابانية المعروفة باسـم نهضة ميجي، والتي سـاهمت مسـاهمة كبيرة في صوغ اليابـان الحديث، وتأسـيس دولـة حديثة على جميع المسـتويات، من خلال مراجعـة كتاب أحمد المـكاوي الذي عمل على تغطية العديد من الوقائع والحوادث والقضايا التي كانت مثار نقاش واهتمام العديد من الباحثين المنتمين إلى المنظومة الحضارية العربية والإسـلامية، والذين تعاطوا مع نهضة اليابان الاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية، من خلال تنبههم إلى الصعـود القـوي لليابـان في مضمار الرقي قبل انتصارها على روسـيا بسـنوات طويلة، ومن هـؤلاء نجد محمد بيرم الخامس الذي يعدّ أول مؤلّف عربي تطرّق بنوع من التفصيل إلى اليابان بصفتها قطرًا يخطو خطوات نحو التقدم والقوة. فقـد تناول محمد بيرم الخامس، ومحمد رشـيد رضـا انطلاقًا من مجلته "المنـار" التي حاولت التنويـه بالإمبراطور الياباني والثناء على دوره في النهضة اليابانية والوقوف بندية إزاء القوى الغربية.

كما تطرقت المراجعة إلى موضوع إسلام اليابان الذي يراه المؤلف مجرد وهم ارتبط الاعتقاد به بالانتماء المشترك للعالم الإسـلامي واليابان إلى الشرق، وما يمكن أن يترتب عليه من امتيازات في العلاقات بين الجانبين، سـواء من خلال رحلة علي بن أحمد الجرجاوي التي لم تكن موفقة في تحقيق أهدافها التي رسـمت لها ومن بينها نشر الدعوة الإسـلامية باليابان، أو مع المصلح والمجدد التتاري عبد الرشيد إبراهيم الذي قام برحلته الأولى إلى هذا البلد بين عامي 1908 و1910.

Al- Arabawi offers a reading of Ahmed Al-Makkawi's book on the Meiji Restoration, an era which paved the way for the formation of the modern Japanese state. *The Revival of Japan in the Meiji Period* covers critical events and issues of interest to many researchers from an Arab-Islamic civilizational perspective, which deal with Japan's economic, social, and even cultural revival. This interest generated among scholars who were alert to the rise of Japanese power, years before its 1905 victory over Russia, and among whom were Mohammed Bayram Al-Khamis, the first Arab writer to examine Japan as a rising power, and Mohammed Rashid Rida, who, in his magazine *Al Manar* praised the Japanese Emperor for his role in Japanese revival, and his quest to be an equal with Western powers. This reading considers the subject of Islam in Japan and makes reference to the travels of Ali bin Ahmed al-Jarjawi, who failed in his mission of Islamic proselytization in Japan, and to the Tartar reformist and innovator Abdel Rashid Ibrahim, who made his first visit to Japan between 1908 and 1910. From an academic perspective, the author recognizes the existence of a time gap between the Arab Near East and the Maghreb in their approaches to the Japanese revival. He notes the precedence and superiority in the academic studies from the Near East, and finds the Maghreb a latecomer to interest in the Japanese experience.

* أستاذ، وزارة التربية الوطنية، المغرب.

المؤلف: أحمد المكاوي.

عنوان الكتاب: نهضة اليابان في عهد الميجي من منظور عربي - إسلامي.

الناشر: دار مفاتيح العلوم، المغرب.

سنة النشر: 2013.

عدد الصفحات: 186 صفحة من القطع المتوسط.

لقد كانت نهضة اليابان المرتبطة بعهد الاستنارة والتنوير محط إعجاب عربي – إسلامي، دعا الكثير من المفكرين والمثقفين العرب إلى احتذائها وجعلها قدوة حديثة لمواجهة الغرب القوي والمتقدم على العديد من الأصعدة. وقد مثّلت قدرة اليابان على تحقيق النصر على روسيا القيصرية في حرب 1904 - 1905، منطلقًا لحوادث تطور واضح ومتميز في المنطقة التي تنتمي إليها وفي تاريخها الحديث. كما أنّ ذلك كان سببًا في خروج العديد من التفسيرات والتحليلات وتجليها بخصوص تقدم هذه الدولة في سرعة مذهلة، فاستمر الانبهار بها خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة عندما ينظر المرء إلى الإرادة التي تميّز شعب اليابان في النهوض من هزيمة ساحقة وتدمير عظيم، تعرضت لهما اليابان خلال الحرب العالمية الثانية، وإلى القدرة على تجاوز الأزمة والخطر وتحقيق الاستقرار والازدهار والنهضة في زمن قصير. وفي هذا الإطار يتنزل كتاب أحمد المكاوي **نهضة اليابان في عهد الميجي من منظور عربي إسلامي** الصادر في 2013، والذي يحاول من خلاله الإجابة عن استفهامات كثيرة من أهمها: ما هي تجليات الإعجاب باليابان قبل انتصارها على روسيا؟ وكيف تفاعلت الأدبيات العربية الإسلامية المجايلة لعهد ميجي مع الانتصار الياباني؟ وهل تمكن الكتّاب والمفكرون العرب والمسلمون المجايلون لنهضة ميجي من استيعاب شروطها؟

التفاعل مع نهضة ميجي

يستحضر أحمد المكاوي في هذا المجال بعض الكتّاب والصحفيين المنتمين إلى المنظومة الحضارية العربية - الإسلامية، والذين تنبهوا إلى الصعود القوي لليابان في مضمار الرقي قبل انتصارها على روسيا بسنوات طويلة، ومن هؤلاء نجد محمد بيرم الخامس الذي يعدّ أول مؤلّف عربي تطرق بنوع من التفصيل إلى اليابان بصفته قطرًا يخطو خطوات نحو التقدم والقوة. فقد تناول محمد بيرم الخامس نهضة اليابان عند تعريفه بعدة أقطار من مختلف القارات ضمن مؤلّفه الجغرافي - التاريخي "**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**"، في الفصل التاسع عشر من المجلد الأول من هذا المؤلَّف.

ويشدد محمد بيرم الخامس على أنّ التغير الحاصل في اليابان، قد جاء من داخل الأسرة الحاكمة ولم يذكر ثورة ميجي، فهو يرى أنّ هناك عاملين وراء الاقتداء بالغرب الذي دعا إليه الحاكم الياباني، وهما الوعي بواقع اليابان المتسم بالضعف والتخلف من جهة، والإعجاب بأوروبا ومنجزاتها من جهة ثانية. فقد كان الإجراء الأول الذي قام به الحاكم هو "اختبار مدى تفاعل اليابانيين إيجابيًا مع التغيير، هو الزي، إذ أوعز إلى الموظفين ورجال السلطة بارتداء اللباس على النمط الأوروبي، وبما أنه لم يحصل اعتراض على ذلك بل استحسان، فإنّ الميكادو بدل زيه كذلك، دليلًا على النجاح في أول اختبار، وهذا ما يمكن نعته بالتغيير المتواتر حاليًا، تكسير الحاجز النفسي" (ص 10).

يذكر المؤلّف أنّ الحاكم الياباني بعد أن نجح في أول خطوة أقدم عليها رغم بساطتها، فقد كانت مقدمة لسلسلة من الإجراءات التي همّت قطاعات مختلفة من الحياة كالتعليم،

والتجنيد، والاقتصاد، والتجهيزات والبنى التحتية، واستقدام الأطر الأجنبية، وإيفاد البعثات الدبلوماسية .. إلخ، إذ إنّ محمد بيرم الخامس لم "يقمْ بإخضاع هذه الإجراءات لتراتبية معيّنة، لأنها تمّت دفعة واحدة وبكيفية تكاملية، بمعنى أنّ أي عملية إصلاح أو تحديث قطاع معيّن كانت تسند بإجراء مماثل في قطاع آخر" (ص 11).

يرى أحمد المكاوي أنّ محمد بيرم الخامس قد أسس رؤية سادت في الكتابات العربية الإسلامية بشأن نهضة اليابان، وهي النظرة العجائبية - الانبهارية التي تجد ما يماثلها في سائر الأدبيات العربية بل والدراسات الأكاديمية إلى الوقت الراهن. فقد أسس هذا الخطاب ثلاثة ثوابت ظلت مهيمنة في الأدبيات العربية الإسلامية، وهي التعجب والانبهار، والطفرة والتقدم السريع، والتغيير من أعلى أي التغيير الفوقي. لكنّ الكاتب يردّ على محمد بيرم الخامس بملاحظات حول ما أورده هذا الأخير في مؤلفه، بأنّ اليابان كانت غنية بالمعادن، بينما هي كانت تعاني دومًا من نقص فظيع في المواد الطاقية والأولية، أو حديثه عن ملك اليابان، والصحيح هو الإمبراطور أو الميكادو، موضحًا أنّ محمد بيرم قد استعان بمصطلحات من الحقل المعرفي العربي الإسلامي. كما أنه إبّان تغطيته التدخل الأجنبي في اليابان لم يشرْ إلى الولايات المتحدة الأميركية، علمًا أنها هي التي فتحت اليابان قسرًا.

يذكر المؤلّف أيضًا بعض الصحف والمجلّات التي واكبت أخبار اليابان ونهضته منذ التأسيس، مثل مجلة **المنار** لمحمد رشيد رضا، إذ عملت على التنويه بالإمبراطور الياباني والثناء على دوره في النهضة اليابانية والوقوف بندية إزاء القوى الغربية.

لقد ترك هزمُ اليابان روسيا في حرب 1904 - 1905 صدىً في الأدبيات العربية - الإسلامية المجايلة، ويرى المكاوي أنه يمكن تفسير هذا الاحتفاء والصدى بالنصر الياباني على روسيا القيصرية بمجموعة من العوامل، أهمها أنه أول هزيمة تلحقها أمّة شرقية بأمّة غربية قوية، واتخاذ هذا النصر أداة للتعبئة والتحفيز على الاقتداء باليابان في مواجهة الغرب، وأنه يعبّر عن التشفي في روسيا القيصرية بما أنّها العدو اللدود لأكبر دولة إسلامية وهي الخلافة العثمانية.

لقد كانت رحلة الأمير محمد علي باشا عام 1909 التي ألفَ فيها كتابًا مليئًا بالمشاهدات والانطباعات والآراء والمواقف عن التقدم الياباني، رحلة يهدف من خلالها تمرير رسالة معيّنة، خدمة للإنسانية وللعرب والمسلمين. ويرى المؤلّف أنّ هذه الرحلة تحفل بتفاصيل متنوعة عن اليابان، بدءًا بتقديم نُبَذٍ تاريخية عن مدن اليابان، مرورًا بكل المعلومات التي تتعلق بالحياة اليومية للفرد الياباني، انتهاءً عند الأمور الاقتصادية والسياسية والثقافية في الدولة. ومن هنا يخلص الأمير إلى تحديد العوامل المفسرة للنهضة اليابانية ومنها النظام، والتشبث بالوطنية وخدمة الوطن، والدقة والسرعة في إنجاز الأعمال، والحب الشديد للعمل والتعود عليه منذ الصغر، وامتهان جل اليابانيين الحرف والصنائع، والقابلية للأخذ عن الآخر وعدم النفور منه، والقدرة على تحويل الضغط إلى حافز، والدور المركزي للحاكم في التغيير.

وهْم إسلام اليابان

يؤكد المكاوي أنّ إسلام اليابان لم يكنْ الهمّ الوحيد المسيطر على الأذهان، بل ارتبط به وهم جديد تجلّى في الاعتقاد بالانتماء المشترك للعالم الإسلامي واليابان إلى الشرق، وما يمكن أن يترتّب عليه من امتيازات في العلاقات بين الجانبين.

وفي هذا الصدد، يذكر المؤلّف، رحلة علي بن أحمد الجرجاوي التي كانت عبارة عن مشاركة في مؤتمر الأديان الذي انعقد باليابان عام 1906، إذ عمل الجرجاوي في مداخلته على القدح في معتقدات اليابانيين ونزع صفة العقلانية عنها، عادًّا الدين الثغرة الأكبر في تمدن اليابان. كما رفع من مستوى الذمّ في خطابه في أشغال المؤتمر بأسلوب انفعالي واستعلائي يسفّه معتقداتهم، ويصنّفهم في خانة الزيف والضلال، مع دعوتهم إلى نبذ معتقداتهم واعتناق الإسلام. فكتب الجرجاوي صاحب الرحلة بأسلوب احتفالي مغالٍ فيه "عن

نجاحه في إدخال اليابانيين إلى الإسلام في فترة محدودة مقارنًا بإخفاقاته غيره من الدعاة المسلمين، مستحضرًا كذلك فشل المبشرين بالعقائد الأخرى، راسمًا صورة لمستقبل الإسلام في هذا القطر الأسيوي" (ص 60).

يرى المؤلف أنّ الأمير محمد علي باشا كان ممّن توهّموا الحصول على مكسب، ولو بروتوكولي، من تقاسم الانتماء الشرقي مع اليابان، لكنه وقف على ما بدد وهمه، إذ ظنَّ الأمير كونه من مصر وهو بلد شرقي يخوله مقابلة الإمبراطور الياباني من دون عوائق، لكنه سرعان ما تبين له زيف هذا الاعتقاد. ففي رحلته التي ألفها بعد 1909، لم يشرْ إلى الحضور الإسلامي كيفما كان حجمه على الخارطة الدينية باليابان، خلافًا للجرجاوي الذي ردد إسلام بضعة آلاف من اليابانيين على يده قبل ثلاثة أعوام فقط من رحلة الأمير محمد علي.

وفي إطار تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في الأوساط اليابانية، يذكر المكاوي المصلح والمجدد التتاري عبد الرشيد إبراهيم الذي قام برحلته الأولى إلى هذا البلد بين عامي 1908 و1910، ثم استقر نهائيًا من 1933 إلى حين وفاته 1944. إذ قام بترجمة القرآن إلى اللغة اليابانية، ونشر مقالات على أعمدة الصحف اليابانية للتعريف بالإسلام، إضافة إلى خطب ألقاها في مناسبات ومحافل متنوعة كانت الغاية منها إبراز عناصر التقارب الياباني - الإسلامي.

وكان عبد الرشيد إبراهيم مدركًا أهمية المسألة الدينية في اليابان، ويؤكد المكاوي ذلك بوجود أسباب موضوعية منها "تنافس الإرساليات التبشيرية لاستقطاب اليابانيين، في خضم انفتاح بلادهم على الأفكار والمعارف إبان عهد ميجي، وحزَّ في نفس عبد الرشيد عدم توافر مؤلفات باللغة العربية لشرح العقيدة الإسلامية، بينما تنشط البعثات التبشيرية في رسم صورة قاتمة وغير سليمة عن الإسلام وتقديمها، ولذلك حثَّ الحكام في البلاد الإسلامية على بعث الإرساليات إلى اليابان" (ص 67).

وتعدّ مجلة **المنار** أول مؤسسة إعلامية عربية وإسلامية تهتم بإسلام اليابان، بالنظر إلى التوجه العام لهذه المجلة المرتكز على الدعوة إلى الإصلاح من منظور سلفي نهضوي. فقد تمنت إسلام اليابان، وعقدت على ذلك آمالًا وتمنيات كثيرة كعدد من المسلمين بكل تجلياتهم الفكرية والسياسية. وقد تنبهت "**المنار**" إلى أنّ الدافع للخوض في إسلام اليابان في المجمل دافع سياسي وليس لباعث ديني محض"، وفي ذلك جاء كتاب لويس شيخو **الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين**، يشرح هذا الأمر، أي أنّ الدافع وراء الخوض في مسألة إسلام اليابان مرجعه الدافع السياسي لا غير، إذ يقول المؤلّف: "إنّ ما تطلبونه بدعوة هذه الأمّة (اليابان) إلى الإسلام هو الاعتزاز السياسي بهم والتمتّع العاجل بحمايتهم"[1] (ص 74).

المنظور الأكاديمي لنهضة ميجي

إنّ الأساس الثابت في كل مقاربات الدارسين والمفكرين العرب لنهضة اليابان في عهد ميجي، هو الاستحضار الواعي وغير الواعي لحقيقة العالم العربي - الإسلامي، وبذلك كان حضور المقارنة الصريحة أو المضمرة هي القاسم المشترك والهاجس الحقيقي عندهم. ويرى المؤلّف أنّ الانطباعية ظلت حاضرة في العديد من المقاربات والدراسات الأكاديمية لنهضة ميجي، وهذا يعني أنه لم تظهر قطيعة تامة في شأن الرؤية الفكرية العربية الإسلامية لهذه النهضة.

يؤكد أحمد المكاوي وجود تفاوت زمني وتراكمي، بين المشرق والمغرب في مقاربة النهضة اليابانية، بحيث يلاحظ وجود سبق وامتياز بين الدراسات الأكاديمية بين المشرق والمغرب، فهو يجد أنّ المغرب متأخّر في الاهتمام بالتجربة اليابانية، ما عدا استثناءات قليلة جدًا، إذ لم ينخرط الأكاديميون والمفكرون والكتاب المغاربة في مناقشة إشكالية النهضة اليابانية إلّا في وقت متأخّر وبنسق متقطع أو عرضي.

1 لويس شيخو، **الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين** (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1926)، ص 94.

وفي هذا الإطار، يذكر المؤلّف، الكاتب المصري رؤوف عباس (ت. 2008) الذي يُعدّ من أبرز الدارسين المعاصرين الذين قاربوا النهضة اليابانية من منظور تاريخي محض. فقد خصّص لنهضة ميجي العديد من الأبحاث والدراسات، إذ أنتج في أواسط السبعينيات دراستين نشرهما في المجلة التاريخية المصرية، كانتا منطلقًا لتأليف كتابه **المجتمع الياباني في عصر ميجي 1868 - 1912**، فقد درس فيه "بنفس تحليلي عميق، آليات التحديث في اليابان، والحركات السياسية والتيارات الفكرية المحددة لمسار التاريخ الياباني الحديث والمعاصر، وما استتبعها من تغيرات في البناء الاجتماعي والعادات والتقاليد والقيم، وبصفة إجمالية، كل ما أسهم أو ساعد على خلق مناخ التغيير الملائم الذي عرفه المجتمع الياباني، إنها دراسة تاريخية دقيقة" (ص 93).

بينما كان المفكر الفلسطيني هشام شرابي (ت. 2005) من بين المفكرين الذين لم يألّفوا كتبًا في التجربة اليابانية، ولكنه استحضرها في العديد من أعماله سواء في كتبه أم في مقالاته أم في حواراته، ذلك أنّ هشام شرابي قد استدعى اليابان ومثقفيها للمقارنة الصريحة في كتابه **المثقفون العرب والغرب**، حيث يؤكد على وجود أوجه تماثل بين اليابان والعرب في مواقف وأوضاع، منها العداء المشترك للمفكرين إزاء الغرب في مرحلة من المراحل، كما أبرز ردود الفعل الإيجابية جدًا لدى العرب في شأن انتصار اليابان على روسيا.

وعالج الدارس المصري الباحث في العلوم السياسية عبد الغفار رشاد في كتابه **التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية**، كما يعبّر عن ذلك المؤلف في الصفحة 104 وما يليها، إشكالية التقليدي والحداثي أو الأصالة والمعاصرة في النموذج الياباني. إذ أكد تنوع عناصر الحداثة في اليابان واختلاف كيفية نقلها إلى هذا المجتمع، ومنها المحدد الجغرافي وعزلتها وتحصينها من الغزو الأجنبي، والاندفاع إلى الإنجاز الاقتصادي وإلى مزيد من الحداثة تحت تأثير سيكولوجية الحرمان، والنأي عن التبعية المالية للغرب، وتأسيس قاعدة تعليمية صلبة.

ويذكر المكاوي أيضًا، المفكر التونسي هشام جعيط الذي خصّص ضمن مؤلّفه **أزمة الثقافة الإسلامية** فصلًا عن تقدم اليابان وتعثر العرب، إذ أجرى من خلاله مقارنة بين فشل المشروع النهضوي العربي، ونجاح اليابان في الترقي ودخول المدنية والقوة. كما أكد الطابع الفريد الاستثنائي للنهضة اليابانية، وعقد مقارنات كثيرة بين اليابان والعالم العربي من جهة، وبين اليابان وأقطار أوروبية من جهة أخرى، همت العديد من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ويُعدّ أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية، مسعود ضاهر، من الباحثين العرب المتخصصين في الشؤون اليابانية، من خلال إقامته في اليابان لمدة عشرة أشهر، فقد شارك في العديد من الأبحاث والندوات والرحلات العلمية في هذا البلد، وقد أصدر كتابه **العرب واليابان: أضواء على تجربة التحديث اليابانية** ويورد المؤلف العديد من الإشارات والأفكار المتعلقة برؤيته لثورة ميجي وعقيدة الشنتو من خلال حديثه عن موضوع له من الأهمية الكثير، وهو "إشكالية الدين والدولة في نهضة ميجي"، فيركز على تجربة التحديث في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، محاولًا إبراز سماتها الكبيرة، كما قارب التحولات المهمة في علاقة الدين بالدولة منذ عام 1600 إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويستحضر المؤلف المفكر المصري أنور عبد الملك الذي قارب النهضة اليابانية بدقة وشمولية بحكم عمله أستاذًا زائرًا في الجامعات اليابانية، فقد درس تجربة التحديث اليابانية في كتابه **ريح الشرق**، عادًّا ميجي حركة ثورية قوّت دينامية المجتمع، وشجعت على إطلاق الطاقة القومية، مصنفًا هذه الحركة الثورية في نطاق الثورة الثقافية من أجل إنشاء دولة عصرية. ولقد حاول أنور عبد الملك أن يدرس "في التراكم الخاص بالدراسات العربية عن النهضة اليابانية كمًّا ونوعًا، وأهم ما يمكن استحضاره في إسهامه النوعي، تشديده على محدودية الدين في النهضة اليابانية، وربما هذا ما يجعلها على مسافة مهمة من التجارب النهضوية العربية، إذ طغى عليها بقوة الهاجس الديني. يضاف إلى هذا قدرة الباحث [...]، على توظيف واحد من أكثر المفاهيم تداولًا ولبسًا في الآن ذاته، وهو مفهوم الخصوصية المتعددة الأبعاد" (ص 127).

المغرب ونهضة ميجي

يرى أحمد المكاوي أنّ المقاربة بين اليابان والمغرب ظلت في شأن الاستفادة من الإرساليات التعليمية إلى أوروبا، مهيمنة بطريقة تكاد تكون كلية على ما تمَّ إنتاجه في المغرب عن نهضة اليابان سواء لدى المعاصرين لها أو من الجيل الحالي وخاصة الأكاديمي منه. ويعتقد أيضًا أنه لا يمكن إنكار محدودية المساهمة المغربية في التراكم العربي الإسلامي حول النهضة اليابانية في عهد ميجي، قياسًا بما راكمه مفكرون وباحثون من أقطار عربية أخرى.

وفي هذا الصدد، يستحضر مشروع علي زنيبر السلوي الذي يُعدّ أول من استحضر من النخبة المغربية التجربة النهضوية اليابانية في محاولة لإقناع المخزن المغربي بضرورة إدخال إصلاحات سياسية ودستورية على منظومته السياسية. ثم مشروع عبد الكريم الطرابلسي الذي قام على تهيئة الأذهان لتقبل الاحتذاء بدولة وثنية (اليابان) كما كان رائجًا آنذاك، فقد استحضر كل العناصر المختلفة التي مكنت اليابان من الترقي السريع، كالانفتاح على أوروبا في الأمور الإيجابية.

ويذكر المؤلف أيضًا، صحيفة **لسان المغرب** التي دعت إلى تبني الدستور والحياة النيابية في المغرب والاستناد في ذلك إلى النموذج الياباني. ثم محمد السليماني الملقب بابن الأعرج، والمؤرخ عبد الرحمان بن زيدان، وعبد الهادي بوطالب، والدكتور المهدي المنجرة الذي دعا إلى الترجمة والقضاء على الأمية والاقتداء باليابان في ذلك الأمر. إضافة إلى المفكرين الأكاديميين من أمثال جرمان عياش، ومحمد عابد الجابري، وعبد السلام المودن.

لقد تمكن المكاوي في هذا الكتاب القيم من إبراز مختلف التفسيرات في مسألة ترقي اليابان وتقدمها الملحوظ، في محاولة للإقناع بضرورة تبني النهج الياباني، إذ يخلص إلى أنّ أغلب هذه التفسيرات لم تخلُ من الانطباعية والانفعالية، فقد ساد أغلب الأدبيات والدراسات العربية والإسلامية حول نهضة ميجي حضور هاجس المقارنة بين اليابان والعالم العربي والإسلامي. وبصرف النظر عن تفاوت المقارنات فيما بينها، فإنّ المؤلف يستنتج في النهاية عناصر متعددة تقود إلى تفسير نهضة ميجي بصفتها التوليفة الناجحة بين المحلي والوافد، والتماسك الإثني، والانصهار القومي للشعب الياباني. كما أنّ تعميم التعليم وإجباريته قد ساهم كثيرًا في محو كلي للأمية، في حين كان التخلص الفوري من الديون الأجنبية والسيطرة عليها، والانزواء الجغرافي لليابان ودخوله متأخرًا المجابهة مع الغرب طريقًا سالكًا نحو تحقيق الذات اليابانية، وتقوية الوجود الياباني عالميًا. بينما كان لوجود طبقة أو أكثر لها مصلحة في تغيير الأوضاع، وغياب البعد الديني أو محدوديته في الأخذ عن الغرب والتعامل معه، وردم الهوة الصناعية والتكنولوجية التي كانت تفصل اليابان عن الغرب في مدة يسيرة، عناصر أساسية في تحريك العجلة الثقافية والاقتصادية في اليابان، وبناء الدولة الحديثة. أما أهمية الحاكم الميكادو وحاشيته في تبنّي الإصلاح والتحديث والدفع بهما إلى الأمام، وأهمية الإصلاح السياسي وإقرار الدستور في إنضاج النهضة، فقد كانا أساسي البناء الديمقراطي في اليابان وتأسيس نظام سياسي جديد قادر على منافسة الأنظمة الديمقراطية القوية في العالم.

وفي الختام، نخلص إلى أنّ نهضة ميجي قد مثّلت بالنسبة إلى اليابان دولة ومجتمعًا الطريق السالكة نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي صارت اليابان تنافس به العديد من البلدان الديمقراطية القوية اقتصاديًا على مستوى العالم كله. ولا يمكننا أن ننكر الدور الكبير لهذه النهضة في تأسيس فهم جديد للسلطة السياسية والاجتماعية التي استمرت لمدة طويلة كانت كافية لجعل الشعب الياباني من الشعوب المحترمة عالميًا، والتي تمثل النموذج الأفضل لباقي شعوب العالم، وبالخصوص للشعوب العربية التي هي في حاجة إلى ثورة ثقافية واجتماعية، تقطع مع كل أنماط السلوك الثقافية المرتبطة بالفكر المتخلف والأمية والتموقع في ذيل المراتب على كافة المستويات.

محمود محارب | Mahmoud Muhareb*

مراجعة كتاب تاريخ النهب والحفظ والتملك في المكتبة الوطنية الإسرائيلية في القدس

Ex-Libris: Chronicles of Theft, Preservation, and Appropriating at the Jewish National Library

يعد كتاب **تاريخ النهب والحفظ والتملك في المكتبة الوطنية في القدس**، مساهمة في الكشف عن جانب آخر من جوانب جرائم إسرائيل في حقّ الشعب العربي الفلسطيني في حرب 1948، وقيامها بسلْب الكتب العربية ونهْبها، سواء كان ذلك من بيوت أصحابها الفلسطينيين، أو من المكتبات والمؤسسات الفلسطينية، بعد احتلال المدن والقرى الفلسطينية في تلك الحرب وطرد الفلسطينيين منها. ويتكون هذا الكتاب الذي صدر بالعبرية عام 2014 عن معهد فان لير في القدس الغربية، من مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وردت جميعها في 229 صفحةً. والكتاب في الأصل هو رسالة دكتوراه حصل عليها المؤلف من جامعة بن غوريون في النقب، وقد استند في بحثه إلى مصادر أوَّلية محفوظة في أرشيف المكتبة الوطنية الإسرائيلية التابعة للجامعة العبرية في القدس، وإلى مقابلات، وإلى مصادر ثانوية ذات صلة بموضوع البحث.

Ex-Libris: Chronicles of Theft, Preservation, and Appropriating at the Jewish National Library exposes another aspect of Israel's crimes against the Palestinians during the 1948 war, when it plundered Arab books – from the homes of their Palestinian owners or from Palestinian institutions and libraries – following the occupation of Palestinian towns and villages and the expulsion of their residents. The 229 page book was published in Hebrew in 2014 by the Van Leer Institute in West Jerusalem and comprises an introduction, three chapters, and a conclusion. Originally the author's doctoral dissertation at Ben Gurion University in the Negev, the book's research relies on primary sources preserved in the archive of the Jewish National Library – which is part of the Hebrew University in Jerusalem – interviews, and secondary sources with relevance to the subject.

* باحث غير مقيم في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وأستاذ العلوم السياسية والدراسات الإسرائيلية في جامعة القدس، فلسطين.

المؤلف: جيش عميت Gish Amit.

عنوان الكتاب: تاريخ النهب والحفظ والتملك في المكتبة الوطنية الإسرائيلية في القدس

الناشر: معهد فان لير Van Leer، القدس الغربية.

سنة النشر: 2014.

عدد الصفحات: 229 صفحةً من القطع المتوسط.

لغة الكتاب: العبرية.

هيمنت الرواية التاريخية الإسرائيلية الرسمية للصراع العربي - الإسرائيلي ولحرب 1948 على الأبحاث والدراسات ومناهج التعليم والأكاديميا ووسائل الإعلام الإسرائيلية. ومجدت هذه الرواية التاريخية الحركة الصهيونية وأهدافها ووسائل تحقيقها، وحاكت الأساطير والأكاذيب في تاريخ اليهود، ونسبت إلى الديانة اليهودية ما ليس فيها؛ بادعائها أنّ اليهودية قومية وأمَّة وعِرق، وليست ديانةً فحسب، وبذلت جهدا كبيرًا في إعادة كتابة تاريخ اليهود من أجل الربط بين ماضٍ قديم لأتباع الديانة اليهودية والوطن الذي سعت الحركة الصهيونية لاحتلاله وإقامة دولة يهودية فيه على حساب أصحابه الأصليين. ونفَت الرواية التاريخية الإسرائيلية قيام الحركة الصهيونية بوضع المخططات لطرد الفلسطينيين من فلسطين، وتنكرت لقيامها في حرب 1948 بطرد الفلسطينيين طردًا منهجيًّا منظَّمًا، ومدروسًا، ومعدًّا سلفًا، وتنكرت أيضًا لارتكابها المجازر في حقهم.

وبعد مرور عدّة عقود على النكبة، ظهرت في إسرائيل بعض الكتب والأبحاث التي خرجت عن الرواية الإسرائيلية الرسمية، واشتملت على تحليلات ومعلومات لحرب 1948 والصراع العربي – الإسرائيلي مناقضة للرواية الإسرائيلية الرسمية. وكشفت كتب عديدة من هذه الكتب والأبحاث التي استندت إلى الوثائق والأرشيفات الإسرائيلية خططَ الطرد التي وضعتها الحركة الصهيونية، وكيفية تنفيذ هذه الخطط بطريقة منهجيَّة ومنظَّمة في حرب 1948، والمجازر المنهجية التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي في حرب 1948 في حقّ العرب الفلسطينيين، وقد زادت على مئة وعشر مجازر.

يعالج المؤلف في هذا الكتاب ثلاث قضايا جرت في المكتبة الوطنية الإسرائيلية في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين. ففي الفصل الأول من الكتاب، يُعنى بقضية جلب المكتبة الوطنية الإسرائيلية مئات آلاف من الكتب كان النازيون قد نهبوها من اليهود في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي الفصل الثاني، يعالج - بوجهٍ عامّ - قضية نهْب إسرائيل للكتب العربية الفلسطينية أثناء حرب 1948، ويُعنى- بوجهٍ خاصٍّ - بنهب المكتبة الوطنية الإسرائيلية التابعة للجامعة العبرية في القدس أكثرَ من ثلاثين ألف كتاب من أصحابها الفلسطينيين خلال تلك الحرب بوجهٍ خاصٍّ. أمّا الفصل الثالث، فيعالج فيه المؤلف قضية وضع المكتبة الوطنية الإسرائيلية يدها على كتب ومخطوطات تابعة ليهود من اليمن هاجروا إلى إسرائيل في أواخر أربعينيات القرن العشرين وبداية خمسينياته. ويؤكِّد المؤلف أنه توجد، إلى جانب تزامن حدوث هذه القضايا الثلاث في الفترة نفسها في المكتبة الوطنية الإسرائيلية، أرضية مشتركة تربطها؛ هي دأْب الحركة الصهيونية في الفصل بين البشر الذين انتُزعت منهم هذه الكتب وثقافتهم. فقد عملت الحركة الصهيونية في سياق سعيها لتحقيق مشروعها الكولونيالي في فلسطين على محو ثقافة "اليهودي المهجري" من ناحية، والقضاء على ثقافة ضحاياها الفلسطينيين من ناحية أخرى.

يعالج المؤلف في مقدمة الكتاب أهمية الكتب والمكتبات في الحضارة الإنسانية، فيشير إلى تأكيد باحثين كثيرين أنّ الكتب هي التي تحمل الحضارة الإنسانية، ومن دونها يتكلّس الفكر ويُمسي التاريخ أخرس. لذا، عادةً ما تستهدف الكتب والمكتبات في الحروب بسبب أهميتها الفائقة. والتاريخ يعجُّ بحوادث سلْب الكتب والمكتبات ونهبها وحرقها.

ويذكر المؤلف أنه يجري في بعض الأحيان التشديد على نهب الكتب وحرقها إلى حدٍّ ينسى فيه المرء أنّ هذا الأمر ليس إلَّا من فائض الجرائم التي تُرتكب في حقّ الشعب الذي يُهزم ويقع تحت الاحتلال. ولعل إدراك المؤلف لهذه المسألة هو الذي قاده إلى عدم الاكتفاء بالتشديد على سلْب الاحتلال الإسرائيلي للكتب الفلسطينية ونهبها في حرب 1948؛ ذلك أنّه حرص في الوقت نفسه على وضعها في سياق مُجمل الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في حقّ الفلسطينيين وفي صدارتها طردهم من وطنهم فلسطين. ولم يُغفل المؤلف الإشارة إلى عمليات السلب والنهب التي قامت بها مؤسسات الدولة الإسرائيلية المختلفة والمجتمع الإسرائيلي بمجمله في حقّ مختلف الممتلكات العربية الفلسطينية؛ من مدنٍ، وقرًى، وبيوتٍ، وأراضٍ، وحقولٍ، وبساتين. فقد جرى سلبٌ ونهبٌ لوطن بأكمله، ولكلّ ما هو موجود فيه.

الاحتلال والطرد ونهب الكتب

أكَّد المؤلف أنّ دافيد بن غوريون David Ben-Gurion، مؤسس دولة إسرائيل ومهندس طرد الفلسطينيين من فلسطين، أولى أهميةً قصوى لاحتلال القدس في حرب 1948. فما إن أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم، في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، حتى هاجمت القوات العسكرية الصهيونية الأحياء العربية الواقعة في ما أصبح يُعرف بالقدس الغربية؛ مثل أحياء الطالبية، والقطمون، والبقعة، والمصرارة، وأبو طور. وكانت هذه الأحياء العربية، ولا سيما حيّ القطمون والطالبية، تحظى بمستوى معيشة راقٍ، وكانت تسكنها أعدادٌ كبيرة من الشريحة العليا للمجتمع العربي المقدسي.

لقد قامت القوات العسكرية الصهيونية باحتلال هذه الأحياء العربية، وبطرد سكانها منها؛ وذلك في سياق سياسة "التطهير العرقي" التي اتبعتها القيادة الصهيونية في حرب 1948. وأشار المؤلف إلى أنه ما إن احتلت القوات الصهيونية هذه الأحياء العربية، حتى سارعت القيادة الصهيونية إلى توطين المستوطنين اليهود في جميع بيوت الفلسطينيين في هذه الأحياء. وقد كتب دافيد بن غوريون في مذكراته في 20 كانون الثاني/ يناير 1948 "إنّ حي الطالبية تحوَّل إلى حيّ يهودي" (ص 80).

وفي السابع من شباط/ فبراير لخَّص دافيد بن غوريون عملية التطهير العرقي التي قامت بها القوات العسكرية الصهيونية في القدس، في اجتماع قيادة حزب مباي بقوله: "عند الوصول إلى القدس عن طريق لفتا - روميما، وطريق محنيه يهودا، وشارع الملك جورج، ومئه شعاريم - لم يكن يوجد غرباء (...) فالجميع يهود مئة في المئة. منذ خراب القدس في عهد الرومان لم تكن القدس يهوديةً كما هي الآن. لا يوجد أيّ عربي في الأحياء العربية التي تحت سيطرتنا في القدس الغربية. وهذا الوضع لن يتغير" (ص 82).

عالج الكتاب بطريقة تفصيلية كيفية قيام المكتبة الوطنية الإسرائيلية التابعة للجامعة العبرية في القدس بنهب نحو 30 ألف كتاب من الأحياء العربية في القدس الغربية التي احتلتها القوات العسكرية الصهيونية في حرب 1948. وتابع كذلك نهب سلطات الاحتلال الإسرائيلية وموظفي "القيم على أملاك الغائبين" نحو 40 ألف كتاب من المدن الفلسطينية الأخرى؛ مثل يافا، وحيفا، واللد، والرملة، وعكا، وطبريا، وصفد، والمجدل، وبئر السبع.

ووضَّح المؤلف، استنادًا إلى وثائق المكتبة الوطنية الإسرائيلية التابعة للجامعة العبرية، أنّ هذه المكتبة خصصت عددًا من موظفيها للقيام بعمليَّات سلبٍ ونهبٍ للكتب العربية من بيوت العرب الفلسطينيين، ومن المكتبات العامة ومن المدارس، في إثر احتلال القوات

العسكرية الصهيونية الأحياءَ العربية وطرد سكانها منها. ففي كثير من الأحيان سار موظفو المكتبة الوطنية الإسرائيلية خلف القوات العسكرية الصهيونية ونهبوا الكتب من البيوت والمكتبات العامة، على غرار ما كانت تقوم به عامّةُ الجمهور اليهودي من سلْبٍ ونهبٍ للممتلكات الفلسطينية في تلك الأحياء العربية.

وعلى منوال اللص الذي لا يعترف بلصوصيته، والمجرم الذي لا يعترف بفعله الإجرامي، حاول مسؤولو المكتبة الوطنية الإسرائيلية تجميل السطو على الكتب العربية ونهبها؛ بادعائهم أنّ الدافع من وراء أفعالهم تلك هو حمايتها من النهب والسرقة على أيدي الجمهور الإسرائيلي، والحفاظ عليها من التّلف الذي قد يصيبها في حال بقائها في أماكنها. بيد أنّ المؤلف فنّد هذا الادعاء، ووضَّح أنّ هدف سرقة المكتبة الوطنية لتلك الكتب كان تملّكها، وأظهر أنّ المكتبة الوطنية الإسرائيلية اتخذت مختلف الإجراءات والتدابير الرسمية لتملّك تلك الكتب العربية، وأنّها رفضت طلب إعادتها إلى أصحابها الفلسطينيين عندما طالب بعضهم بها بعد حرب 1967. وفضلًا عن ذلك، أكّد المؤلف أنّ نهب المكتبة الوطنية الإسرائيلية للكتب العربية كان مخالفًا للمواثيق والقوانين الدولية مخالفةً صريحةً وواضحةً (ص 103).

وأكّد المؤلف أنّ ما ارتكبه الجمهور اليهودي والجيش الإسرائيلي من عمليّات سطوٍ على الممتلكات الفلسطينية ونهبٍ لها قد اقترن دومًا بطرد الفلسطينيين من المدن والقرى الفلسطينية، وأنّ تلك العمليّات قد انتشرت انتشارًا لم يكن يُمكن أن تتجاهله وسائل الإعلام العبرية في تلك الفترة. وعلى الرغم من ذلك، سرعان ما توقفت عن التطرق إليه في إطار محاولةٍ لطمس هذا الموضوع.

واقتبس المؤلف كتابات شهود عيان عديدة لعمليات سلْب الممتلكات الفلسطينية؛ فقد كتب يتسحاك ليفي Isaac Levi الذي شاهد عمليات النهب ما نصُّه: "عندما كانت عمليات تطهير حي القطمون مستمرةً، بدأت أعمال سلبٍ ونهبٍ شارك فيها جنود ومواطنون اقتحموا البيوت الخالية من سكانها وحملوا منها الأثاث، والملابس، والأدوات الكهربائية، والأغذية. لقد كان ذلك منظرًا مخجلًا" (ص 83).

كما اقتبس المؤلف من الكاتب موشيه سميلانسكي Moshe Smilansky في صحيفة **هآرتس**، في الأول من أيلول/ سبتمبر 1949 - وقد وصف فيها سلب المجتمع الإسرائيلي ونهبه للممتلكات الفلسطينية - قوله: "كانت هناك 440 مدينةً وقريةً فلسطينيةً و2.5 مليون دونمٍ مزروعٍ بمختلف أنواع المزروعات، ومئات آلاف الدونمات من أشجار الزيتون، والحمضيات، والكروم، ومن أشجار أخرى مثمرة. وقد انقضّ كلّ الإسرائيليين على هذه الغنيمة. الرجال والنساء والأطفال، الجميع شارك في السلب والنهب. جرى سلْب كلّ شيء؛ الأبواب وإطاراتها، والشبابيك، والحجارة، والبلاط، والسيارات وقطع غيارها (...) ولم يسلم من النهب أيّ شيء" (ص 84).

وقف المؤلف على الفرق بين موقف النُخب الإسرائيلية الرسمي من سلْب المجتمع الإسرائيلي ونهبه للممتلكات الفلسطينية وموقفها من السلب والنهب الرسميَّين اللذين قامت بهما الدولة الإسرائيلية ومؤسساتها المختلفة تجاه الممتلكات الفلسطينية. فلئن دان قادةٌ في الدولة، على نحوٍ ظاهري، عمليات نهْب المجتمع الإسرائيلي "التلقائي" للممتلكات الفلسطينية، فإنهم عدُّوا سلب الدولة الإسرائيلية ومؤسساتها المختلفة لتلك الممتلكات ونهبها لها عملًا شرعيًّا وأخلاقيًّا (ص 84). فمعارضة عدّة نُخب وقادة صهيونيين، كما أشار المؤلف، لم تكن بسبب عمليّات سلْب الممتلكات الفلسطينية ونهْبها في حد ذاتها، بل كانت بسبب أنّ السلب والنهب قد كانَا من فئات واسعة من المجتمع الإسرائيلي بطريقة تلقائية، ولم يكونَا من الدولة الإسرائيلية ومؤسساتها المختلفة بطريقة رسمية، ومنهجية، ومنظمة.

وذكر المؤلف أنّ القيادة الإسرائيلية دأبت مبكرًا في وضع الخطط وإقامة المؤسسات لمصادرة أملاك الفلسطينيين المنقولة وغير المنقولة. ففي آذار/ مارس 1948، أقامت الهاجاناه (المنظمة العسكرية الصهيونية) "لجنة الأملاك العربية"؛ بهدف مصادرتها عند وقوعها

تحت الاحتلال. وما إن احتلت الهاجاناه القرى والمدن الفلسطينية حتى باشرت مصادرة أملاك الفلسطينيين. وفي تموز/ يوليو 1948، أقامت الحكومة الإسرائيلية لجنةً وزاريةً لتكون مسؤولةً عن "الأملاك المتروكة" التي يملكها الفلسطينيون الذين طردتهم إسرائيل من وطنهم وقيّمةً عليها.

وتابع المؤلف الخطوات القانونية والرسمية التي قامت بها إسرائيل بعد حرب 1948، وقد هدفت إلى مصادرة الأملاك الفلسطينية بطريقة منهجية و"قانونية" من ناحية، وإلى منْع الفلسطينيين من العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم من ناحية أخرى. فبعد فترة وجيزة من طرد الفلسطينيين من مدنهم وقراهم، وضعت إسرائيل ممتلكاتهم تحت يد "القيّم على أملاك الغائبين" الذي مُنح صلاحيات لبيع أراضي الفلسطينيين "الغائبين"، وبيوتهم، ومختلف أملاكهم لـ "سُلطة التطوير" التابعة للحكومة الإسرائيلية. ثمّ إنّ هذه السُلطة باعت للكيرن كاييمت (الصندوق القومي) الأراضي العربية، ومن ثمّة قام بدوره في تأجيرها للمؤسسات والأفراد من اليهود فقط.

أصحاب الكتب

تقصَّى المؤلف أسماء أصحاب الكتب الفلسطينيين الذين نهبت المكتبة الوطنية التابعة للجامعة العبرية كتبهم من الأحياء العربية في القدس التي احتلتها القوات العسكرية الإسرائيلية، فوجد في أرشيف المكتبة الوطنية تقريرًا كتبه أحد موظفي المكتبة، في بداية عام 1949، وردت فيه أسماء عديدة لأصحاب الكتب الفلسطينيين الذين نهبت الجامعة العبرية كتبهم، وأسماء المدارس والمؤسسات الفلسطينية التي نُهبت منها الكتب أيضًا. وتضمَّن هذا التقرير خمسين اسمًا فلسطينيًّا نهبت الجامعة العبرية كتبهم من مكتباتهم الخاصة. وتبيَّن من التعرّف إلى أصحاب هذه الكتب التي وردت في ذلك التقرير أنهم كانوا يُشكِّلون نخبةً من المثقفين العرب المقدسيين. وكان من بينهم خليل السكاكيني، ومحمد إسعاف النشاشيبي، ويعقوب فراح، وهنري كتان، وخليل بيدس، وفؤاد أبو رحمة، وفرنسيس خياط، وحلمي عبد الباقي، ويوسف هيكل، وتوفيق كنعان.

لقد وضعت المكتبة الوطنية التابعة للجامعة العبرية هذه الكتب بعد أن جعلتها ضمن دليل استعمال في متناول أساتذة الجامعة العبرية وطلّابها، ولا سيما أساتذة قسم دراسات الشرق الأوسط وطلّابه. وكان من بين المسؤولين عن تصنيف هذه الكتب المؤرخ المستشرق إلياهو أشتور Eliyahu Ashtor، أحد أساتذة التاريخ في الجامعة العبرية، وهو متَّصف بأفكاره العنصرية المعادية للحضارة العربية. ويذكر المؤلف أنّ المؤرخ إلياهو أشتور عبَّر عن رأيه في نهب الجامعة العبرية للكتب الفلسطينية وتملّكها بقوله: "إنّ الجامعة العبرية أنقذت هذه الكتب، وليس ذلك لأنها 'جمعتها' من بيوت أصحابها وحافظت عليها من التلف، بل لأنها 'أخرجتها' من ملكية أصحابها الفلسطينيين الذين لم يكن في وسعهم استيعاب مضامينها، ونقلتها إلى الذين يعرفون الاستفادة منها لمصلحة العلم والإنسانية". ومجَّد إلياهو أشتور نهْب الجامعة العبرية لهذه الكتب وأعطاه، كما يذكر المؤلف، بعدًا دينيًّا يهوديًّا باستعماله مصطلحات ومفاهيم دينيةً يهوديةً. فالجامعة العبرية وفق إلياهو أشتور "خلَّصت" تلك الكتب وحررتها من أصحابها الفلسطينيين (ص 94).

وأشار المؤلف، مقابل نقده اللاذع لأقوال إلياهو أشتور العنصرية، إلى علاقة الفلسطينيين المتينة بالحضارة والكتب، وخصوصًا أولئك الذين نهبت الجامعة العبرية كتبهم، ونوَّه بحنينهم إلى كتبهم المنهوبة ولا سيما حنين الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني إلى مكتبته التي عجَّت قبل نهبها بكتب كثيرة.

ويجدر التنويه بأنّ خليل السكاكيني، بعد مرور نحو نصف عام من سقوط حي القطمون ونهب مكتبته، وصَف في مذكراته الوضع في حيّ القطمون قبل سقوطه وكيفية مقاومته للاعتداءات العسكرية الصهيونية عليه. كما وصف السكاكيني بيته قبل وقوعه تحت الاحتلال الإسرائيلي، ثمّ عبَّر عن حنينه إلى بيته، وإلى مكتبته فكتب ضمن عنوان "لئلا ننسى":

"الوداع يا مكتبتي! يا دار الحكمة، يا رواق الفلسفة، يا معهد العلم، يا ندوة الأدب! كم أحييت فيك الليالي الطوال أقرأ وأكتب... الوداع يا كتبي النفيسة القيمة المختارة... من يصدِّق أنّ بعض الأطباء كانوا يستعيرون مني بعض الكتب الطبية لأنّ هذه الكتب لا توجد إلا في مكتبتي... لم تعرض مشكلة في اللغة في إحدى دوائر الحكومة إلا وسألوني عنها لأنهم يعرفون أنّ مظانّ هذه المشكلة لا توجد إلا في مكتبتي... الوداع يا كتبي! لست أدري ما حلّ بك بعد رحيلنا... الوداع يا كتبي! يعزّ عليّ أن أُحرم منك وأنا على أهبة الرحيل من هذه الدنيا... يعزّ عليّ أن أُحرم منك وقد كنتِ غذائي الروحي، وكنتُ - ولا أزال - شَرِهًا إلى هذا الغذاء. لقد كنتُ ألازمك في ليلي ونهاري ولم يزرني أحد في الليل أو النهار إلا وجدني منكبًّا على كتبي"[1].

استعرض المؤلف إستراتيجية إسرائيل المعادية للعرب الفلسطينيين الذين بقُوا في حدود الدولة التي قامت على أنقاض شعبهم، وحلَّل الوسائل التي اتبعتها ،والمؤسسات التي أقامتها بهدف محو ثقافتهم وهويتهم العربية الفلسطينية وإحلال الولاء للدولة اليهودية وثقافتها محلّها. فقد أنشأت إسرائيل عام 1949 قِسمًا خاصًّا للعرب في وزارة التربية التعليم الإسرائيلية، ووضَع يهود صهيونيون منهاجًا تعليميًّا تربويًّا للعرب في إسرائيل، وفرضوا عليهم كتبًا تعليميةً كتبها صهيونيون؛ لتحلّ محلّ الكتب العربية الفلسطينية التي كانت في المنهاج التربوي الفلسطيني قبل النكبة. وفي الوقت نفسه قامت إسرائيل بإتلاف عشرات آلاف الكتب التعليمية الفلسطينية التي نهبتها من المدارس والمكتبات العربية أثناء الحرب.

وفي خاتمة الكتاب، يربط المؤلف بين القضايا الثلاث التي عالجها في كتابه؛ وهي القضايا التي هدفت إلى فصل كلّ من الفلسطينيين واليهود في مختلف أنحاء العالم عن ثقافاتهم الأصلية، وإلى فرض ثقافة صهيونية عنصرية كولونيالية عليهم.

1 خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا: يوميات خليل السكاكيني** (القدس: المطبعة التجارية، 1955)، ص 393 - 394.

وثـــائـــق ونصـــوص

مصطفى الغديري | *Mustafa Alghadiri

وعي قبائل المنطقة الخليفية في المغرب بمأساة فلسطين

Moroccan Northern Tribes' Awareness of Palestine's Tragedy

تعرض هذه المادة مجموعةً من الوثائق المخزنية الرسمية في الفترة الواقعة بين 1939 و1948، والتي تبرز مؤازرة منطقة الريف المغربية (التي خضعت للاحتلال الإسـباني بين 1912 - 1956) الشـعب الفلسطيني من خلال المساعدات التي قدّمتها في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها هذه المنطقة تحت وطأة الاستعمار الإسباني. وعلى الرغم من رمزيتها، تُظهر هذه المساعدات وعيًا لدى هذه القبائل بطبيعة المأساة التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني على يد الحركة الصهيونية.

This article offers a number of official *Makhzen* documents dating back to the period between 1939 and 1948, highlighting the support provided by the Moroccan Rif region (which was under the Spanish protectorate between 1912 - 1956) to the Palestinian people, in spite of the then difficult circumstances caused by Spanish colonialism. This aid, despite of its symbolism, reflects an awareness among these tribes of the nature of the tragedy of the Palestinian people caused by the Zionist movement.

* متخصص بالتراث الأدبي للغرب الإسلامي، أستاذ زائر في جامعة ليون رقم: 1 بمدينة ليون ، وجامعة غرناطة الدولية.

التواصل بين المغرب وفلسطين

بدايةً، نوضح أنّ الصلة بين المغرب وفلسطين كانت موصولة منذ القديم. ومن يرجع إلى الرحلات الحجازية للحجّاج المغاربة يجد أحاديث مستفيضة عن حب الحجاج بيت المقدس والإشادة بباقي الأماكن المقدسة في فلسطين. ولم تكن الأماكن المقدسة في الشام أقلّ مكانة من مكة والمدينة المنورة، حتى إنّ الحجاج المغاربة كانوا إذا قفلوا راجعين من أداء الحج والعمرة فإنّهم يمرون عبر الشام حتى ينعموا بمسرى النبي ببيت المقدس، ويتزودوا بالعلم من مختلف المراكز العلمية في الشام، حتى قيل: "من يُنهِ فرائض الحج وسننه عليه أن يخلل ويقدس[1]". واستقر كثير من المغاربة في الشام وبالضبط في فلسطين وبالأخص في بيت المقدس، وهو ما جعل كثيرًا منهم يمتلك دورًا هناك وامتلك بعض آخر دُورًا وعقارات، وقام بوقفها إمّا على المغاربة العابرين في مواسم زيارة بيت المقدس، وإمّا للجالية المغربية التي فضّلت الاستقرار في القدس. ولعلّ وجود حيّ يحمل اسم المغاربة في عمق القدس خير مثال على ذلك.

ويكفي أن نعلم أنّ الشاب محمد المكي الناصري الذي كان طالبًا في مصر، مَثّل المغرب في أول مؤتمر دولي في القدس الشريف سنة 1931 لنصرة الفلسطينيين، واستغلّ الفرصة ليطلق صرخة ضد الاستعمارَيْن الفرنسي والإسباني. كما أنّ رحلات الطلبة إلى المشرق زادت من تعميق الوعي بالقضية الفلسطينية، وذلك حتى قبل نشأة الدولة العبرية وتأسيسها سنة 1948.

كانت السلطات الإسبانية منذ تولّي الجنرال فرانكو تبدي تعاطفًا مع الفلسطينيين ولم تعترف بدولة إسرائيل. ويكمن سبب هذا الموقف في كون النظام الفرنكوي كان معزولًا في العالم وكان يتقرب إلى الدول العربية لربط العلاقة معها؛ فقد ساعدت جامعة الدول العربية النظام الفرنكوي للدخول إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1965. ولهذا السبب كانت تطوان ومدن شمال المغرب تتمتع بنوع من الحرية لنصرة القضية الفلسطينية. وفيما يلي نعرّف بتأثيرات مأساة فلسطين وبالأصداء الواسعة التي كانت لها في منطقة الريف، والتي تتجلّى في مجموعة من الوثائق المخزنية الرسمية التي تُظهر تضامن سكان قبائل الريف الشرقي مع الفلسطينيين منذ وقتٍ مبكر من تاريخ نكبتهم، وهو ما يدلّ على الوعي في منطقة الريف بنكبة هذا القُطر الشقيق، على الرغم من أنّ المصائب التي كان المغرب قد ابتُلي بها في هذه الظروف العصيبة لا تقلّ عمّا ابتُليت به منطقة الشام آنذاك.

تضامن منطقة الريف المغربية مع الفلسطينيين منذ بداية المأساة

ليست الغاية من هذه المساهمة التأريخ لمشكلة تهويد فلسطين أو إبراز كيف جرت قصة هذه المأساة، بقدر ما يكمن الهدف في إبراز شعور التضامن في منطقة الريف المغربية مع الفلسطينيين منذ بداية هذه المأساة. ولعلّ هذه الوثائق التي نقدّمها خير دليل على ذلك، على الرغم من رمزية قيمة المساعدة التي تتضمنها في مؤازرة الشعب الفلسطيني. لكن حين نعود إلى تاريخ المنطقة ونستعرض ظروفها، يتضح للعيان مدى أهمية هذه المساعدة؛ من ذلك أنّ منطقة الريف كانت تئنّ تحت وطأة الاستعمار الإسباني الذي كان همّه استغلال المنطقة، حتى طمع في قطع النباتات الشوكية (السِّدْرة) وأوراق التين الشوكي (الهندية) وحملها من الريف إلى إسبانيا لتُباع وقودًا للمخابز والأفران. زيادة على ذلك أنّ الفترة التي أُرسلت فيها هذه المساعدة كانت إسبانيا المحتلة لم تسترجع بعد نفَسها من الحرب الأهلية الإسبانية التي أوقد نيرانها الجنرال فرانكو، فضلًا عن فرار ما يزيد على مليونَي مواطن إسباني إلى فرنسا وإلى الجزائر والمغرب وتونس المستعمرة. كما ضحّى بما يزيد على ربع مليون من أبناء الريف الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الحرب. إضافة إلى ذلك فإنّ هذه الوثائق تتعلق بعدة قبائل في الريف الشرقي، منها قبيلة "تفرسيت" (كانت فخذًا من قبيلة "بني توزين")، وقبيلة "بني سعيد" وقبيلة

1 نسبةً إلى مدينتَي الخليل والقدس.

"بني توزين"، وقبيلة "بني وليشك". وهي كلّها من دائرة الريف في إقليم الناظور(وكان هذا الإقليم قد أطلقت عليه إسبانيا في النصف الأول من القرن العشرين "إقليم كرت"). إضافةً إلى هذه القبائل، نجد وثيقة تدلّ على مساعدة قبيلة كبدانة التي تقع في أقصى شرق الإقليم نفسه، وهو ما يؤكد أنّ التضامن كان من قبائل الريف كافة في شمال المغرب على الأقل، على الرغم من أنّنا لا نتوفر في الوقت الراهن على الوثائق التي تؤكد ذلك، وعسى أن تجود الأيام بها. وأغلب الظن أنّ هذه الوثائق توجد في أرشيف القوّاد والأعيان على عهد الحماية الإسبانية، لأنّ هذه التي بين أيدينا استطعنا الحصول عليها من أرشيفات بعض القواد الموجودة لدى ورثتهم.

وقد يعتقد القارئ أنّ هذا التضامن شيء زهيد جدًا، ولكن عليه أن يضعه في سياقه التاريخي لكي يعرف قيمته الحقيقية. وسأورد أمثلة توضح ذلك، منها: أنّ مُرتّب الجندي في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المنطقة الشمالية بعد أن دقّت طبول إعلان انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية بتاريخ أواخر آذار / مارس 1939، كان لا يتعدى الـ 125 بسيطة، ومرتب الجندي المعطوب في الحرب 150 بسيطة، ومرتب أرملة الجندي المقتول في الحرب 25 بسيطة، والمرتب الشهري لقائد قبيلة في منطقة النفوذ الإسباني المعيّن بمرسوم الوزارة الإسبانية وبالظهير الخليفي بتطوان لا يتعدى 400 بسيطة، على الرغم من الدور الخطير والخدمات الكبيرة التي يقدّمها القائد للقوة الاستعمارية. والأجرة الشهرية للعامل في جبل ويكسان في المغارة لاستخراج معدن الحديد من دون أيّ تأمين لا تتعدى الـ 200 بسيطة في الشهر. ثم إنّ سكان هذه القبائل (بني سعيد، وبني وليشك، وبني توزين، وتفرسيت) في هذه الفترة كانوا قلة قليلة بعد أن أتت الحرب الأهلية الإسبانية على أغلبيتهم، ولم يبق فيها إلا الشيوخ والأرامل والعجزة والأطفال وأصحاب النفوذ من الموالين للقوة الاستعمارية.

هذا بالنسبة إلى الوثائق التي تُبرز مساعدة هذه القبائل سنة 1939. أمّا الصنف الثاني من الوثائق المؤرّخة بتاريخ 1948، وهي السنة نفسها التي ستؤسَّس فيها الدولة العبرية على أرض فلسطين، فإنّها كانت في الريف نهاية سنوات المجاعة والقحط اللذَين ابتُلي بهما سكان قبائل الريف منذ 1942، إضافةً إلى ما ابتُليت به من الاستعمار الفرنكوي الإسباني بعد أن خرجت إسبانيا منهوكة من الحرب الأهلية الإسبانية التي خرّبتها وهجّرت أبناءها إلى الخارج، فقد كانت تئنّ تحت وطأة الجوع والأمراض الفتاكة، كالرمد الحُبيبي والجدري اللذَين كانا يزهقان آلاف الأرواح يوميًا في غياب الرعاية الصحية. في هذا الوقت بالضبط تبرّع سكان قبيلة "كبدانة" (واحدة من قبائل الريف التي غادرها أكثر أبنائها إلى الجزائر باحثين عن لقمة العيش) بمقدار 63.526 بسيطة، وتبرعت قبيلة "بني سعيد" بما مقداره 126.525 بسيطة على ثلاث دفعات كما تبيّن الوصولات التي تسلّمها قاضي هذه القبيلة. وهو رقم له أكثر من دلالة في السنوات العجاف حيث كان أبناء قبائل الريف يبحثون في بطن الأرض عن النبات السام (إيَرْني) ليصنعوا منه الخبز، والمحظوظ كان من يملك شيئًا من الشعير ليخلطه بدقيق إيَرْني. ولا تزال المأثورات الشعبية الأمازيغية من أشعارٍ وأغانٍ تتحدث عن هذا النبات الذي أودى بحياة كثير من الأشخاص الذين لا يحسنون تعقيمه وطبخه على درجة حرارة عالية. من ذلك البيت الشعري الذي ورد على لسان امرأة تلوم من يملك الزرع ورفض أن يعيرها شيئًا منه لتقوم بخلطه مع دقيق النبات السام "إيَرْني" حتى لا يؤذيها في الحنجرة، قائلةً:

واللهْ واذَاشْ سَمْحَغْ أيابابْ إمَنْدي   أثْمِجّيْنو ثْحاشْ يَسْحَرْشيتْ أُيَرْني[2]

ويحكي من استفسرناهم ممّن عاشوا في السنوات التي أعقبت الحرب الأهلية الإسبانية (أي من سنة 1939 إلى 1948) أنّ كثيرًا من الناس ماتوا جوعًا في الأسواق وفي الطرقات نتيجة القحط الذي خلّفته سنوات الجفاف بين 1940 و1948. بل إنّ السلطات الاستعمارية

2 وترجمته: لن أغفر لك خطاياك يا من يملك الشعير، لأنّك تركتني آكل إيرني وحده ما جعله يؤلم حنجرتي.

أجبرت كثيرًا من المواطنين ليكوِّنوا فرقًا خاصة في المراكز الاستعمارية لدفن الموتى لكثرة سقوط الأرواح نتيجة تفشّي الأمراض وانعدام الأكل. بل حكى البعض أنّ كثيرًا من الناس كانوا يتناولون أبعار البهائم في اللبن والحليب سدًا لرمقهم.

وفي ضوء هذه المعطيات عن الفترة، نستطيع أن نتعرّف إلى هذه القيمة الرمزية من مساعدة الفلسطينيين في هذه الفترة العصيبة.

ونظرًا لأهمية هذه الوثائق التي تبرز الوعي بمساعدة الفلسطينيين والتضامن معهم، ننشر نصوصها فيما يلي:

مساعدة الفلسطينيين من خلال الوثائق

وقفنا على قصاصة لإحدى الجرائد[3] التي كانت تصدر في تطوان في هذه الفترة نشرت بلاغًا تدعو فيه نساء المنطقة الشمالية من المغرب أو المنطقة الخليفية لمساعدة الفلسطينيين، زيادةً على الإعلانات التي كانت الجرائد تنشرها لإذكاء حماس الرجال للمساهمة في هذا العمل النبيل. ويدعو هذا الإعلان نساء الريف الكبير من ذوات الأريحية إلى التبرع بما يسّر الله لهنّ لمساعدة الفلسطينيين المنكوبين في أرضهم ووطنهم. وجاء الإعلان المنشور على هذه الشاكلة: **"نداء موجه من اللجنة المكلفة بجمع الإعانات لعرب فلسطين بهذه المنطقة الخليفية بالمغرب إلى السيدات الفاضلات المخلصات لدينهن وقوميتهن".**

الوثيقة الأولى[4]

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

جناب الفاضل المحترم قائد قواد الريف الأجل المفخم السيد الحاج محمد بن عمرو السعيدي الحطري[5] عليكم السلام التام وعواطفه على الدوام عن خير سيدنا أعزه الله.

وبعد؛ فلا يخفى عليكم ما يقاسيه إخواننا المسلمون بفلسطين من الشدائد وتحمل البلاء عندما قاموا يطلبون حقوقهم الدينية ويدافعون عن حرمة المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله حين أرادت اليهود أن تجعله معبدا لهم يقيمون فيه ديانتهم، وعلى أن يتخذوا فلسطين عاصمتهم ومقر تدبيرهم لتنظيم أغراض حزبهم الصهيوني. ولا شك أنكم تعلمون أن مولانا الخليفة المعظم[6]، أيد الله عنايته، تحركت عزيمته ونهضت بكرته إلى الاهتمام بقضية فلسطين وحثه على إعانتهم بما تجود به النفوس الكريمة في سبيل الله لإعانة أولئك الأيتام والبائسين الذين أصبحوا وليس لهم قوت ولا غطاء وقد نسفت ديارهم وأهينت كرامتهم وشتت شملهم، ومع ذلك فإنهم صابرون لما حل بهم. أفلا تقشعر جلودنا أيها السادات والحالة هذه وأن الصدر الأعظم الفقيه العلامة الوزير سيدي أحمد

---

3 . مقتطف من إحدى الأوراق التي عثر عليها الباحث ضمن أوراق وجرائد في ربائد الخزانة العامة في تطوان دون أن يتمكن من معرفة هوية الجريدة، ولكن ورقها وطباعتها يوحيان بأنّهما لجريدة كانت تصدر في تطوان في أربعينيات القرن الماضي(1931 - 1940).

4 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) ، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

5 هو محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وقد كان ينادى بـ"أموح عمرو ويلقب بأوشّن (الذئب) من قرية لحضارة بربع إزعومن من قبيلة بني سعيد، من مواليد1890 بالقبيلة نفسها، وقد عُيّن نائبًا للصدر الأعظم بتاريخ 8 تموز/يوليو 1952 خلفًا لعبد القادر بن الحاج الطيب الذي مات بتاريخ 1950/12/09 وبقي في هذا المنصب إلى غاية استقلال المغرب 1956. وتوفي سنة 1972 عن عمر يناهز 92 سنة (وللمزيد، انظر: الحاج العربي الورياشي، **الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان**، ط1 (تطوان: المطبعة المهدية، 1976)، ص 78؛ محمد محمد عمر بلقاضي، **أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي: مذكرات عن حرب الريف**، ط2 (الرباط: مطبعة سلمى، 2006)، ص 187؛ كتاب مليلية في القرون الماضية للمؤرخ الإسباني فرانثيسكو مير برلانكَا المكتوب باللغة الإسبانية:
Francisco Mir Berlanga, *Melilla en los pasados siglos y otras historias* (Madrid: Editora Nacional, 1980), pp.148, 161.

6 المقصود به هو خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي الذي كان على كرسي الخليفة بتطوان بعد أبيه مولاي المهدي.

الغنيمة كتب لنا محرضا على أن نتبرع بما جادت به قريحتنا في سبيل فلسطين الشهيدة، وعملا بكتابه يجب على كل من انضم في سبيل المخْزَانِيّة[7] من القواد وخلفائهم وشيوخ القبائل الموظفين على اختلاف طبقاتهم أن يبذلوا ما يفرضه عليهم الإخاء الديني ويشاركوا أولئك المنقطعين المتشردين في الثواب الذي أعده الله لهم في الآخرة. فقوموا وفقكم الله بهذا المشروع الخير واجمعوا ما تدعوكم إليه الروابط الدينية من العطف والشفقة وحرروا ذاك في قائمة كالجريدة نبهوا فيها على تسمية المتبرعين، واذكروا قبائلهم ومقدار ما يدفع من المال، وما يجتمع من ذاك فابعثوه لنا صحبة تلك القائمة لأوجّهها إلى الصدر الأعظم عن طريق البريد[8] واكتب لكافة القواد الذين تحت نظرك[9] وأسرعوا إلى ما تبيضوا به مجدكم وتحوزوا به الثواب من ربكم. والله في عون المرء مادام المرء في عون أخيه. والله لا يضيع أجر من أحسن عملا. وباشروا ذلك بكل ما لديكم من القصد والجزم والعزم والحزم. والله يرعاكم بمنه وكرمه والسلام. حرر في 16 جمادى الثاني عام 1358هـ موافق 3 غشت سنة 1939م[10].

الوثيقة الثانية[11]

الحمد لله وحده — وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

حضرة الفاضل الأبر قائد قواد الريف النزيه الأخير السيد الحاج محمد بن عمرو السعيدي الحطري أمنك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد؛ فقد حل بيدنا ما جمعته قبيلة بني وليشك[12] من المال لأجل إعانة إخواننا المسلمين بفلسطين قدر ذلك جميع 10045 بسيطة صحبة نجلكم البار السيد عبد السلام[13] مصحوبا بكتابكم المؤرخ 20 شعبان موافق أكتوبر الجاري مع القائمة المشتملة على القدر المتبرع به وأسماء أولئك المتطوعين جزى الله الجميع جزاء المحسنين. وإنا لنشكركم ونشكر أولئك المتطوعين بهذه الصدقات بقبيلة بني وليشك نرجو من المولى سبحانه أن يتقبل منهم ويجعل ذلك من العمل الذي لا ينقطع. وعلى المحبة والسلام.

حرر في 7 رمضان عام 1358هـ موافق 21 أكتوبر 1939م. وعلى الفور وجهناه في البريد مع قائمته للصدر الأعظم.

وبآخره طابع مخزني من الحجم المتوسط لا يظهر بوضوح ما بداخله[14]

7 تقصد الوثيقة بهذه اللغة الركيكة كلّ العاملين تحت إمرة المخزن من موظفين وأعوان.

8 لعلّ هذه العبارة تبين الجهة التي أرسلت هذه الرسالة إلى السيد قائد قواد الريف، لأنّ السلّم الإداري يقتضي أن تكون المراسلة على هذه الشاكلة: القائد فقائد القواد في دائرة الريف، ثم نائب الصدر الأعظم في الناظور، فالصدر الأعظم في تطوان، ومنه إلى خليفة السلطان في المنطقة الخليفية.

9 أي قواد القبائل التابعين لدائرتك.

10 ويوضح هذا التاريخ بجلاء أنّ هذه الكتابة جاءت بعد إعلان انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية مباشرةً.

11 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي الذي ترجمنا له في هامش الوثيقة الأولى، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

12 مركز هذه القبيلة هو ابن الطيب، تقع هذه القبيلة بين القبائل الآتية: قبيلة بني سعيد وتمسمان ومطالسة وبني توزين.

13 المقصود ابنه عبد السلام أوشن ابنه البكر الذي كان يمثّله في كثير من المناسبات، وكان هذا الرجل قد تولّى نيابة وزارة الأوقاف في الناحية الشرقية من منطقة النفوذ الإسباني كما توضح وثيقة بين يدي الباحث بتاريخ 24 ربيع الأول 1360 الموافق لـ21 أيار/مايو 1941م. وتوفي في بحر سنة 1979.

14 لعلّ هذا الطابع الذي لا يظهر ما بداخله هو لنائب الصدر الأعظم بالناظور عبد القادر الحاج الطيب الشكري.

الوثيقة الثالثة[15]

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

فضيلة الأجل الأرضى قائد قواد الريف النزيه الأحظى السيد الحاج محمد بن عمرو السعيدي الحطري أمنك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد؛ فقد حل بيدنا ما تبرعت به قبيلة بني سعيد[16] في سبيل منكوبي مسلمي فلسطين قدره 10.300 بسيطة، وعلى الفور وجهناها لفخامة الصدر الأعظم الفقيه العلامة الوزير سيدي أحمد الغنيمة مع قائمتها في البريد. نرجو الله أن يقبلها صدقة مقبولة عائدة على أولئك المتصدقين بأضعاف مضاعفة، وإنا لنشكر وقوفكم الجميل واعتناءكم في هذه الرغبة الدينية، كما نشكر كافة أهالي قبيلتكم على هذا التبرع بالكمية المذكورة. جزى الله الجميع بالجزاء الأوفى فالمولى يبارك لكم في الأرزاق وعلى المحبة والسلام.

حرر في 7 رمضان 1358ھ موافق 21 أكتوبر 1939م.

الوثيقة الرابعة[17]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

جناب الفاضل المعظم الوجيه المفخم قائد قواد الريف السيد الحاج محمد بن عمرو السعيدي الحطري أمنك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد؛ فقد حل بيدنا صحبة نجلك البار السيد عبد السلام[18] ما تبرعت به أهالي قبيلة بني توزين[19] في سبيل إعانة إخواننا المسلمين أهل فلسطين قدر ذلك المال جميع 80.000 بسيطة ووجهناه فورا مع قائمته لسيادة الصدر الأعظم الفقيه العلامة الوزير سيدي أحمد الغنيمة بتطوان وذاك عن طريق البريد، سائلا من المولى سبحانه أن يتقبل أعمال أولئك المتطوعين ببذل تلك الإعانات ويجعل البركة في أرزاقهم، فنشكر وقوفكم وندعو لكم ولكافة قبيلة بني توزين بالخلف في المال والصلاح في سائر الأحوال. وعلى المحبة والسلام. حرر في 7 رمضان 1358ھ/موافق 21 أكتوبر 1939م.

15 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

16 قبيلة بني سعيد إحدى القبائل التي كانت تشكّل ما كان يسمّى دائرة الريف (تتكوّن دائرة الريف من القبائل التالية آنذاك: قبيلة بني سعيد، قبيلة بني وليشك، قبيلة تمسمان ثم قبيلة بني توزين) كما في إشارة الوثيقة إلى قائد قواد الريف. وتعدّ من القبائل المهمة في إقليم الناظور، والتي كان لها دورٌ بارزٌ في عهد عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني.

17 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

18 سبقت الإشارة إليه، وهو الابن البكر للمخاطب محمد عمر الحطري (أوشن).

19 قبيلة بني توزين ومركزها ميضار، وكانت من القبائل التي ساهمت في تكوين جيش التحرير سنة 1954 بإقليم الناظور لمحاربة فرنسا في مناطق تيزي وسلي وبورد وبوزينب.

الوثيقة الخامسة[20]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

فضيلة الأجل المحترم والنبيه المكرم قائد قواد الريف السيد الحاج محمد بن عمرو السعيدي الحطري أمنكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله عن خير سيدنا أعزه الله.

وبعد؛ فقد حل بيدنا مسطوركم المؤرخ 21 شعبان موافق 6 أكتوبر المتضمن لكمية من المال قدره 5006 بسيطة الذي تبرعت به قبيلة تفرسيت[21]على مسلمي فلسطين. فجوابا عنه أننا بعثناه فورا لسعادة الصدر الأعظم في البريد مع اللائحة الواردة معه، وعندما يرجع الجواب عليه أبعث لكم نسخة[22].أرجوك أن تنوب عنا في الدعاء الجميل لكافة أهالي قبيلة تفرسيت. جزاكم الله خيرا وبارك فيكم وسدد رأيكم على هذا الوقوف. وتقبل أعمالكم وعلى المحبة والسلام.

حرر في 18 شوال عام 1358هـ/ موافق 1 دجنبر سنة 1939م.

الوثيقة السادسة[23]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الأرضى نائبنا بالناحيتين الشرقية والريفية السيد الحاج عبد القادر بن الحاج الطيب الشكري[24] أمنه الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا [25] دام علاه.

وبعد؛ فقد توصلنا بكتابك المؤرخ 23 رمضان موافق 6 نونبر من العام والسنة الجاريين الذي أعلمتنا فيه أنك وجهت إلينا على طريق البريد المال الذي تبرع به أهالي قبيلة تفرسيت[26] من الناحية الشرقية لإعانة المنكوبين بفلسطين وقدره 5.006 بسيطة. فلتعلم أننا قد توصلنا بالعدد المذكور راجين من المولى تعالى أن يتقبل منهم هذه الصدقة وعلى المحبة والسلام في 22 شوال عام 1358هـ/ موافق 5 ديسمبر سنة 1939.

توقيع: أحمد الغنيمة لطف الله به[27]

---

20 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

21 إحدى القبائل التي تشكّل دائرة الريف التي كان محمد عمر الحطري أوشن يتولى قيادتها باسم قائد قواد الريف.

22 وجواب ذلك في الوثيقة اللاحقة.

23 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

24 نائب الصدر الأعظم هو نائب الصدر الأعظم على الريف الشرقي أو إقليم كرت كما كان يسمّى.
- عبد القادر بن الحاج الطيب العبدوني الشكري من مواليد بحر شهر تموز/يوليو 1870م في قرية إمحارشن عبدونه بعد أن قدم أبواه من فرقة إرهوانا من القبيلة نفسها. وبدأ صوته يسمع منذ شبابه وبالضبط منذ معركة سيدي ورياش أو حرب مليلية 1893، حيث ساهم في الدفاع عن قبيلة قلعية ضد هجومات الإسبان على الشريط الحدودي حين قررت إسبانيا تمديد حدود مليلية بضربة المدفع. وبعد ذلك سيصبح من أعيان قبيلة بني شيكر، وعند قدوم بوحمارة إلى الريف الشرقي انضوى تحت مظلة المحلة المخزنية التي كان يترأسها في المنطقة البشير بن سناح في قصبة فرخانة ولما تغلب بوحمارة على المحلة المخزنية فرّ إلى مليلية هربًا من بطش الأمير المزعوم مع المعارضين لهذه الحركة بجانب الشريف محمد أمزيان. وسيبرز اسمه لامعًا في جمعة أيث الناظور حين تمّت مبايعة الشريف محمد أمزيان أميرًا للجهاد ضد القوة الإسبانية بعد اندحار بوحمارة في اتجاه مجهول، وساهم إلى جانب الشريف أمزيان في معارك مقاومة الاستعمار الإسباني في وادي الذيب وفي سيدي موسى بخمس مزوجة. لكن مساهمته إلى جانب المجاهدين لم تدم طويلا. انظر:
Mir Berlanga, pp.143 - 146.

سمّاه البطل الريفي عبد القادر بن الحاج الطيب. ولمزيد من التوضيح عن حياة هذا الرجل والأدوار التي قام بها، انظر الترجمة التي وضعها له الأستاذ حسن الفكَيكي في **معلمة المغرب**، ج 16 / 404.

25 المقصود به هو خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي الذي كان خليفة للسلطان على منطقة الحماية الإسبانية في تطوان.

26 تفرسيت كانت فخذًا من قبيلة بني توزين أو مشيخة منها قبل أن تستقل في الآونة الأخيرة لتصبح قيادة منفصلة، ومركزها تفرسيت المشهورة تاريخيًا بقصبتها التي بُنيت في عهد بني مرين ثم جرى تجديدها على عهد مولاي إسماعيل. فهذه الرسالة جواب عن الرسالة السابقة التي تضمّنت استلام نائب الصدر الأعظم المبلغ من قائد القواد.

27 أحمد الغنيمي السليماني تولى الصدارة العظمى في المنطقة الخليفية شمال المغرب في تطوان (الوزير الأول) إلى جانب المقيم العام الإسباني، وبقي فيها عقودًا من الزمن، انظر: ماء العينين بن العتيق، **الرحلة المعينية**، محمد الظريف(محقق)، (الرباط: المعارف الجديدة، 1998)، ص 93.

الوثيقة السابعة[28]

محمد الرهوني	MOHAMED ERHONI
زنقة القزدارين رقم: 18	CALLE KAZDARI N.° 18
نمرة التلفون 545	TELEFONO 545

في .... سنة 19

19......de............... de......Tetuan

الحمد لله وحده

توصلنا من عند ماسكه السيد شعيب بن محمادي الإدريسي[29] قاضي بني سعيد مقاطعة كرط بخمسة آلاف بسيطة هاكد 5.000 من قبل تبرعات عربي فلسطين بالنيابة عن أمين صندوق اللجنة الحاج أمحمد العربي. والسلام.

20 شوال عام 1367 موافق 25 غشت سنة 1948م.

إمضاء محمد الرهوني[30]

زد ما توصلنا من سيادة القاضي المذكور أعلاه السيد شعيب بن محمادي الإدريسي من قبل تبرعات فلسطين ألفا وخمس مائة وخمسة وعشرين بسيطة 1525 والسلام.

17 محرم عام 1368هـ.

إمضاء محمد الرهوني

الوثيقة الثامنة[31]

المحكمة الشرعيـة

لعاصمة تطوان ونواحيها

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

جناب الفقيه المحترم العلامة قاضي قبيلة بني سعيد[32] بمقاطعة كرت سلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا الإمام دام علاه.

وبعد؛ فبصفتي رئيس اللجنة العليا لجمع التبرعات لعرب فلسطين فقد استلمت الكمية التي وجهتموها إلينا وقدرها السالم من الصوائر اللازمة 120.000 بسيطات، هكذا مائة ألف وعشرون ألف بسيطة، وأنها في الإثر ستحل محلها وتسلم للمستحقين لها، وإن

---

28 صورة شمسية للأصل توجد في أرشيف خاص في ملكية المرحوم القائد محمد بن عمرو الحضري (أو الحطري بالنطق المحلي) السعيدي الريفي، وهي اليوم في ملكية نجله السيد حسن أوشن (والي مدينة الدار البيضاء الأسبق).

29 قاضي قبيلة بني سعيد المقصود في هذه الوثيقة هو شعيب بن محمادي بن علال القضاوي الإدريسي من القبيلة نفسها قضى فترة طويلة في القضاء غداة الحماية الإسبانية وبعد استقلال المغرب إلى غاية منتصف العقد الثامن من القرن العشرين، وكان من قبل قد تولى التدريس بقبيلته وأحيل على التقاعد من القضاء سنة 1974، وتوفي في شهر تشرين الأول/أكتوبر 1998 عن عمر يناهز التسعين سنة (ترجم له: الورياشي، ص 173 - 182).

30 ينتمي الفقيه محمد الرهوني إلى الأسرة الرهونية المشهورة في تطوان، وهو شقيق العالم أبي العباس أحمد الرهوني المشهور بتآليفه التاريخية - صاحب عمدة الراوين - وكلّ ما نعرف عنه أنّه كان نشيطًا في العمل الجمعوي، إذ كان رئيسًا للجمعية الخيرية الإسلامية بتطوان بحسب تعبير الأستاذ التهامي الوزاني، انظر: أبو العباس أحمد الرهوني، **عمدة الراوين**، جعفر بن الحاج السلمي(محقق)، سلسلة تراث رقم6 (تطوان: منشورات كلية الآداب تطوان/جمعية تطاون أسمير، 1998) ج1، ص 20.

31 توجد في ملكية أحد أقارب السيد محمد أوملود قاضي قبيلة كبدانة (أنظر هامش 34). وقد أمدّني بهذه الوثيقة وبترجمة هذا الرجل الأستاذ عبد القادر شقيقي القادري الشكري وهو من أقارب القاضي من جهة أمّه.

32 هو نفسه الذي أشرنا إليه من قبل، وهو الذي كان قاضيًا على قبيلة بني سعيد وفي الفترة ذاتها التي أشرنا إليها من قبل.

تيسرت بقية فنحن مستعدون لقبولها في أي وقت أمكن. وإننا بلسان اللجنة العليا ولسان العالم الإسلامي والعربي نشكركم ونشكر كل من شارككم في هذا الاكتتاب الخيري ومد يد المساعدة لإنجازها قولا وفعلا. وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام.

وحرر بتطوان 29 ذي الحجة عام 1367هـ موافق 2 نونبر 1948م

رئيس اللجنة العليا قاضي العاصمة

محمد اللباح

الوثيقة التاسعة[33]

المحكمة الشـــرعية

لعاصمة تطوان ونواحيها

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

جناب الفقيه المحترم العلامة قاضي قبيلة كبدانة[34] بمقاطعة كرت سلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا الإمام دام علاه.

وبعد؛ فبصفتي رئيس اللجنة العليا لجمع التبرعات لعرب فلسطين فقد استلمت الكمية التي وجهتموها إلينا وقدرها السالم من الصوائر اللازمة 63.526 بسيطات، هكذا ثلاثة وستون ألفا وخمس مائة وست وعشرون بسيطة، وإنها في الإثر ستحل محلها وتسلم للمستحقين لها، وإن تيسرت بقية فنحن مستعدون لقبولها في أي وقت أمكن وإننا بلسان اللجنة العليا ولسان العالم الإسلامي والعربي نشكركم ونشكر كل من شارككم في هذا الاكتتاب الخيري ومد يد المساعدة لإنجازها قولا وفعلا. وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام.

وحرر بتطوان 29 ذي الحجة عام 1367هـ موافق 2 نونبر 1948م.

رئيس اللجنة العليا قاضي العاصمة

محمد اللباح

33 . توجد في ملكية أحد أقارب السيد محمد أوملود قاضي قبيلة كبدانة المخاطب في هذه الرسالة في هذا التاريخ. وقد أمدّني بهذه الوثيقة وبترجمة هذا الرجل الأستاذ عبد القادر شقيقي القادري الشكري وهو من أقارب القاضي من جهة أمّه.

34 المخاطب في هذه الرسالة في هذا التاريخ هو الفقيه السيد محمد بن الحاج أمولود الكبداني الذي كان قاضيًا على كبدانة وأولاد ستوت من 1944 إلى غاية 1956. وكان من العلماء في الفقه وعلم التوقيت. وقد اشتغل بالتدريس في معهد فرخانة للتعليم الأصيل منذ 1938 قبل أن يعيّن في السلك القضائي. كما نجده يتولى نظارة الأوقاف في إقليم الناظور من 1956 إلى غاية 1961 لينتقل إلى الحسيمة ليتولى المهمة نفسها من 1961 إلى غاية 1963. ثم بعد ذلك عيّن قاضيًا للتوثيق والأحكام الشرعية في محكمة تاركسيت في الإقليم نفسه من 1963 إلى أن تقاعد سنة 1975. وتوفي رحمه الله في بلده كبدانة سنة 1980. وقد أمدّني بهذه الوثيقة وبترجمة هذا الرجل الأستاذ عبد القادر شقيقي القادري وهو من أقاربه من جهة أمّه.

الملاحق

إحدى الأوراق التي عثر عليها الباحث ضمن أوراق وجرائد في ربائد الخزانة العامة في تطوان

نداء موجه من اللجنة المكلفة بجمع الاعانات لعرب فلسطين المجاهدين بهذه المنطقة الخليفية بالمغرب الى السيدات الفاضلات المخلصات لدينهن وقوميتهن

ايتها السيدات: لم يخف عليكن ما قاساه اخوانكن العرب المجاهدون بالاراضي ا[illegible] بفلسطين من الشدائد ولاقوه من الويلات والمصائب من جراء الحوادث التي هزت ربوعها واندلعت نيرانها هناك نتيجة العدوان الصهيوني البغيض الرامي لتأسيس دولة [illegible] المزعومة وانشاء وطن قومي لهم بتلك البقاع الشريفة، فقامت الدول العربية في وجه هذا الطغيان ولمحاربة هذا العدوان، اعلاء لكلمة الله وتطهيرا لحرمه الشريف فبذلوا في ذلك انفسهم واموالهم وضحوا باعز ما يملكون من الارواح والمهج وتركوا وراءهم ارامل ويتامى ومنكوبين ووقعت حوادث تنفطر لها الاكباد وتتصدع منها القلوب واشترى [illegible] المومنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن.

ونحن ايتها السيدات وان لم نشاركهم في هذا العمل الجليل بانفسنا فلا اقل ان نشاركهم ببعض اموالنا.

ايتها السيدات ان الانفاق في سبيل الله هو من اعظم ما يتقرب به الى الله زلفى، وينال ثوابه واجره عاجلا وآجلا مدخرا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون مصداقا لقول الله سبحانه: مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم وقوله تعالى الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء.

ولاجل ذلك ايتها السيدات نستنهض منكن همما عالية واخلاقا سامية لان تجدن ببعض ما خولكن الله له من نعمه وتمددن اخوانكن العرب المجاهدين وتخففن عنهم بعض ما نزل بهم من الشدائد وقاسوه من النكبات وذلك بقدر الاستطاعة كما قال سبحانه «لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا» «ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» والسلام عليكن ورحمة الله وبركاته.

تنبيه — كل من رغب من السيدات في المشاركة في هذا المشروع الجليل فليرسل ذلك ويدفعه بمكتب اللجنة بحانوت الغزواني بفوس السقاجين الذي يكون مفتوحا ليالي رمضان من بعد صلاة التراويح من كل يوم وفي النهار بحريث الرهوني

الوثيقة الأولى

181

الحمد لله وحده   وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

جناب الفاضل [illegible] فؤاد [illegible] الاتحاد العظيم السيد الحاج [illegible] السعيد
[illegible] عليكم السلام التام ورحمة الله على الدوام [illegible] وبعد فلا
يخفى عليكم ما يقاسيه اخواننا المسلمون بفلسطين من الشدائد [illegible] وتحمل البلاء [illegible]
[illegible] يطلبون [illegible]
[illegible]
[illegible] فلسطين [illegible] اغراض [illegible]
ولا شك انكم تعلمون ان مولانا الخليفة المعظم [illegible] تحركت [illegible]
[illegible] فلسطين [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] فلسطين [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] 1357 [illegible] 3 [illegible]

الوثيقة الثانية

182

الحمد لله وحده — وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

محبنا الفاضل الأجل فلان بن فلان [illegible] الأخيري
السيد الحاج محمد بن يحيى السعيدي حفظكم الله ورعاه
وسلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد حل بيننا ما جمعته
فيما بينكم وبينكم من المال لأجل إعانة إخواننا
المسلمين بفلسطين فورد ذلك جميعه - 10.045
بسبب صحبة خليفة القائد السيد عبد السلام محمود
بكتابكم المؤرخ 20 شعبان موافق أكتوبر الجاري
مع القائمة المشتملة على القدر المذكور عددا وأسماء
وأسماء أولائك المتطوعين جزى الله الجميع جزاء
المحسنين وإننا نشكركم ونشكر أولائك المتطوعين
بعد ذلك لما قمتم به فيما بينكم وبينهم من جهود محمودة
نسأل الله أن يتقبل منكم ويجعل ذلك من العمل
الذي لا ينقطع وعلى المحبة والسلام في 23
رمضان عام 1355 موافق [illegible] سنة 1936
وعلى [illegible] الأعظم

الوثيقة الثالثة

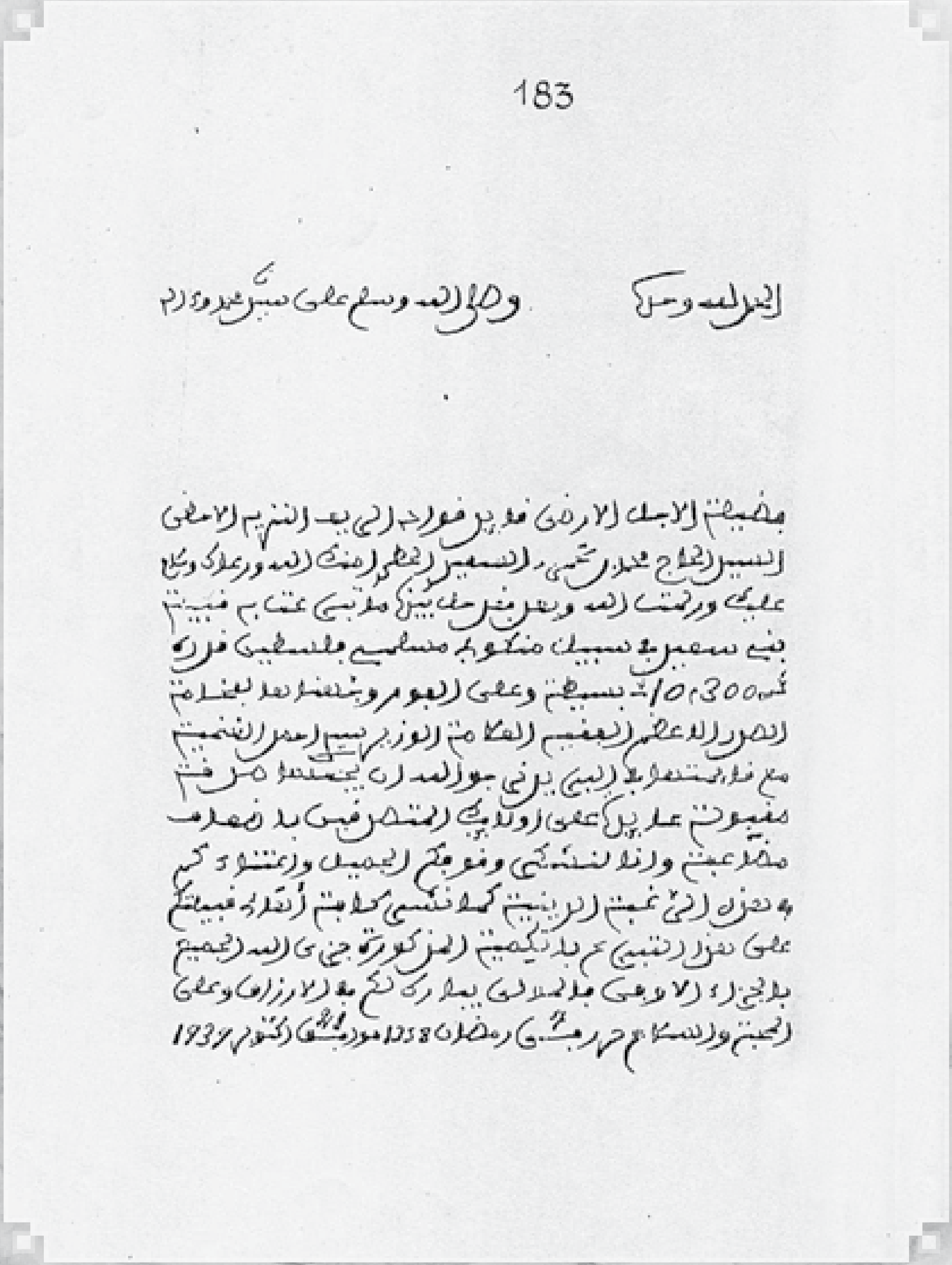

183

الحمد لله وحده   وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

بحضرة الأجل الأرضى [illegible] الى [illegible] الأعلى
السيد الحاج محمد امين الحسيني المفتي الأكبر حفظك الله ورعاك وسلام
عليك ورحمة الله وبعد فقد [illegible] بيننا [illegible] عقب [illegible]
فيه سعي في سبيل منكوبي مسلمي فلسطين قدره
[illegible] 300 [illegible] بسيطة وعلى العموم [illegible]
الصدر الأعظم العظيم الهمام الوزير السيد احمد [illegible]
مع [illegible] [illegible] جزاه الله ان يجعل [illegible]
مقبولة [illegible] [illegible] المسلمين [illegible]
[illegible] [illegible] وفرجهم الجميل [illegible]
[illegible] الى [illegible] [illegible] كما [illegible]
على [illegible] المذكورة جزى الله الجميع
بالجزاء الأوفى [illegible]
المحبة والسلام حرر في رمضان 1358 موافق اكتوبر 1939

الوثيقة الرابعة

184

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

بجناب الباشا الهمام الوجيه المحترم قايد فواد الرباط
السيد الحاج محمد بن محمد السبيع بن عمر اعزك الله وعليك
السلام ورحمة الله وبركاته وبعد فنحن بين يديك خديم دولة
البلاد بن السبيع عبد الله وما تم عنه من السلطان فيبلغ
بعلم تقريرنا في تعبيك اعلانه اخوانه المسلمين الذين
بفلسطين من قدر الرسول بمبلغ 10.000 ريال بسبب
وتضامنا معهم لعلهم لسيادة الصدر الاعظم
والتبليغ الكاتب الذي بين الشريف بشعوان وذلك
على طريق البر بن ... من المولى سبحانه ان يتقبل
الاعمال او الاجر المشروعين بين نفك الا عمل نافع
ويجعل البر في ان ... ومحبتكم ونحن عبيد
لكم ولكافة فيبلغ بنص تقريرنا بالخليفة في المسائل
والسلام في ... 27 شوال وعلى المحبة والسلام
[illegible] رمضان 1386 [illegible] سنة [illegible]

الوثيقة الخامسة

185

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

حضرة الأجل المحترم النبيه المكي ... ابن فؤاد الريف
السيد الحاج محمد الحمي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وسلام
عليكم ورحمة الله على خير سيدنا المصطفى رسول الله وبعد فمن حل
بين يدينا مسطوركم المؤرخ في شعبان موضحا فيه ذكر ما ينص
للجمعية من المال قدره 1006 د – بسبب تبرعكم من أجل
فيه نعم نشكركم على مساعدتكم لفلسطين جزاكم الله عنهم أحسن
مشكورين من الله السعادة الأبدية والأجر العظيم الذي وعد الله به
الوارد منه وعند الله من عظيم الجزاء ما عظيم الذي تكم شكرتم
منه نرجو لكم أن تفوزوا بمنه في دار البقاء الجميل للكافة إخوانه
فبهذا نعم نشكركم جزاكم الله خير الجزاء ويبارك فيكم ونصرهم
رابح على حزب الصهيونية ويتقبل أعمالكم وعلى المحبة
والسلام في 28 شوال 1358 الموافق 9 دجنبر سنة 1939

الوثيقة السادسة

186

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الأرضى [illegible] بالفلاحيتين اللتين فيه والربيع
السيد الحاج عبد القادر بن الحاج الطيب الشيخ رحمك الله
وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا دام علاه وبعد
فقد توصلنا بكتابك المؤرخ 23 رمضان [illegible] موافق [illegible]
[illegible] من العلام [illegible] بين [illegible]
[illegible] على [illegible] بين [illegible]
[illegible] من الفلاحيتين اللتين فيهما [illegible]
[illegible] بمساحة [illegible] بسيطة [illegible]
[illegible] توصلنا [illegible] المذكور [illegible] من المولى تعالى
أن يتقبله [illegible] وعلى الخير والسلام في
22 شوال عام 1399 موافق 4 دجنبر سنة 1979
خديم العتبة الشريفة
[illegible]

الوثيقة السابعة

MOHAMED ERHONI
CALLE KAZDARIN N.° 18
TELEFONO 545

محمد الرهوني
زنقة القزدارين رقم 18
نمرة التلفون 545

- ط -

19

Tetuán de [illegible]

توصلنا من عند [illegible] الشيخ [illegible] من جماعة الادريسيين [illegible] بني [illegible]
مساهمة [illegible] [illegible] بمبلغ قدره 5000 ف من قبل [illegible]
عرب فلسطين بالنيابة عن امين صندوق اللجنة بتطوان الحاج احمد [illegible]
والسلام 25 شوال عام 1367 موافق 25 غشت سنة 1948

محمد الرهوني

كما توصلنا من شيخ [illegible] القايد العربي [illegible] الشريف [illegible]
[illegible] الادريسيين من قبل [illegible] فلسطين [illegible] خمسمائة وخمسة وعشرين
[illegible] 1525 والسلام 7 محرم عام 1368 [illegible] محمد الرهوني

الوثيقة الثامنة

المحكمة الشرعية

[illegible] تطوان ونواحيها

- ي -

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

جناب الفقيه المحترم العلامة قدور [illegible] بن سعيد
[illegible] عليكم ورحمة الله عن خير مولانا دام [illegible]
وبعد فبصفتي رئيس اللجنة العليا لجمع التبرعات لحرب فلسطين
قد استلمت الكمية التي وجهتموها الينا وقدرها السالم من الصوائر
اللازمة بسيطات هكذا مائة ألف وعشرون الف (120.000)
[illegible] وانها في الاثر [illegible] وتسلم [illegible]
لها وان تيسرت بقية فنحن مستعدون لقبولها في أي وقت امكن وانني
بلسان اللجنة العليا ولسان العالم الاسلامي والعربي نشكركم ونشكر
كل من شارككم في هذا الاكتتاب الخيري وعد لكم يد المساعدة [illegible]
لانجازها قولا و فعلا [illegible] وان الله لا يضيع أجر من أحسن
عملا . وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام وحرر في 29 حجة عام
1376 موافق 2 نوليه سنة 1948

رئيس اللجنة العليا قاضي العاصمة

الوثيقة التاسعة

المحكمـــة الشرعيـــة
لقاضي تطوان ونواحيهـا

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

جناب الفقيه المحترم العلامة قاضي قبيلة كبدانة
بقاعدة كرت سلام عليكم ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا
دام علاه. وبعد فبصفتي رئيس اللجنة العليا لجمع التبرعات
لحرب فلسطين قد استلمت الكمية التي جمعتموها بالبلد وقدرها
السالم من الصوائر اللازمة بسيطات هكذا ٦٣.٥٢٦ ثلاثة وستون الفا
وخمسمائة وست وعشرون بسيطة وانها في الاثر ستحل محلها و
تسلم للمستحقين لها وان تيسرت بقية فنحن مستعدون لقبولها في
اي وقت امكن. واننا بلسان اللجنة العليا ولسان العالم كافة
الاسلامي والعربي نشكركم ونشكر كل من شاركتم في هذا الاكتتاب
الخيري وجد لكم يد المساعدة لاتجازوا قولا وفعلا. وان الله
لا يضيع اجر من احسن عملا. وفي الختام تقبلوا فائق الاحترام
وتحرر في ٢١ حجة عــام ١٣٦٧ موافق ٢ نونبر عــام
١٩٤٨م

رئيس اللجنة العليا قاضي العاصمة

[توقيع]

قائمة المصادر و المراجع

المراجع العربية:

- بلقاضي، محمد محمد عمر. **أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي: مذكرات عن حرب الريف**، ط2، الرباط: مطبعة سلمى، 2006.
- بن العتيق، ماء العينين. **الرحلة المعينية**، محمد الظريف(محقق)، الرباط: المعارف الجديدة، 1998.
- الرهوني، أبو العباس أحمد. **عمدة الراوين**، جعفر بن الحاج السلمي(محقق)، سلسلة تراث رقم6، تطوان: منشورات كلية الآداب تطوان/جمعية تطاون أسمير، 1998.
- الورياشي، الحاج العربي. الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان، ط1، تطوان: المطبعة المهدية، 1976

المراجع الأجنبية:

- Mir Berlanga Francisco, *Melilla en los pasados siglos y otras historias,* Madrid: Editora Nacional, 1980.

ندوة أسطور

العرب والحرب العالمية الأولى

The Arabs and World War I

22 شباط/ فبراير 2015، بيروت - لبنان

بمناسبة مرور 100 عامٍ على الحرب العالمية الأولى، عقدت مجلة أسطور للدراسات التاريخية ندوةً فكريةً بعنوان "العرب والحرب العالمية الأولى"؛ وذلك على هامش مؤتمر "مئة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية" كان عقده المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات خلال الفترة 20 - 22 شباط/ فبراير 2015 في بيروت بفندق. وقد أدار الندوة عبد الرحيم بنحادة نائب رئيس تحرير مجلة أسطور، وشارك فيها عدد من الباحثين في التاريخ الحديث للمنطقة العربية، وهم - بحسب الأحرف الهجائية -الأساتذة: جامع بيضا، وسعود المولى، وعبد الحميد هنية، وعبد الواحد المكني، وفتحي ليسير، ومحمد الأرناؤوط، ومحمد جمال باروت، ومحمد عفيفي، ومهند مبيضين، وناصر الدين سعيدوني.

وقُدّمت في الندوة مداخلات فكرية مكثّفة في عدد من الموضوعات لعدد من المتخصصين بالتاريخ الحديث للمنطقة العربية والمهتمين به، من بينها: الأوضاع العربية عشية الحرب العالمية الأولى، والمساهمة العربية في الحرب الأولى (المادية والمعنوية)، والتحولات التي عرفتها البلدان العربية زمن الحرب ومدى ارتباطها بصيرورة الحرب وتفاعلاتها معها، والعرب ومعاهدات السلام: ما جناه العرب سلبيًا وإيجابيًا، والمثقفون العرب والحرب؛ وهو محور سعى لدراسة تمثل العرب للحرب الأولى من خلال الإنتاج الأدبي والصحافي زمن الحرب وبعدها.

As part of the ACRPS conference "The First World War A Hundred Years On: Arab Perspectives", which was held in Beirut in February 2015, Ostour's academic board hosted a seminar on "The Arabs and World War I". The seminar was directed by Abdel Rahim Benhada, Deputy Editor of Ostour, and attended by a number of specialists and researchers working in the field of modern history of the Arab region including Jami Bayda, Saud al-Mawla, Abdel Hamid Haniyah, Abdel Wahid al-Makani, Fathi Lisir, Mohammed Al-Arnaut, Mohammed Jamal Barout, Mohammed Afifi, Muhannad Mabidin, and Nacereddine Saidouni. Topics addressed by a number of specialists attending the seminar included: the Arab status quo on the eve of the Great War; Arab participation in the Great War, in terms of material and morale; contemporaneous transformations within the Arab countries and their relation to the Great War; a reckoning of what the Arabs won and lost through peace treaties; and Arab intellectuals, and how the Arabs portrayed the Great War in journalism and in literary works, during and immediately after the war.

مقدمة[1]

يتفق جمهور المؤرخين، غربًا وشرقًا، على أنّ حدث "الحرب العظمى" في الفترة 1914 - 1918، على نحو ما سُمّيت إبان اندلاعها، أو "الحرب الأوروبية"، كما سُمّيت في الولايات المتحدة الأميركية، أو الحرب "العالمية الأولى"، بحسب تسميتها في أربعينيات القرن العشرين، قد شكّل لحظة انعطافٍ في تاريخ العالم المعاصر خصوصًا، وتاريخ البشرية عمومًا.

نشبت تلك الحرب خلال صيف 1914 واستمرت نحو أربعة ونيّف من الأعوام، وجاء اندلاعها نتيجةً لاحتداد النزاعات والخصومات في القارة الأوروبية وبلوغها شأوًا خطِرًا في خضم التنافس الإمبريالي خلال نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ونتيجةً لِما أسفر عنه من تصادم مصالح اقتصادية وظهور أحلاف سياسية وعسكرية. ولقد ألقى ذلك المناخ المُفعم بالتوتر والاحتقان بظلاله الثقيلة على العلاقات الدولية حتى 28 تموز/ يوليو 1914، تاريخ اندلاع الحرب بعد اكتساح إمبراطورية النمسا - المجر أراضي صربيا، بوصفه ردًّا على اغتيال وليّ عهد الإمبراطورية الأرشيدوق فرانسوا فرديناند Franz Ferdinand في سراييفو عاصمة البوسنة يوم 28 حزيران/ يونيو 1914.

وقد ترتبت على هذه الحرب، وهي المنعرج الذي لم يشهد التاريخ له مثيلًا؛ إنْ من جهة التعبئة والنفير والاتساع والشمول، أو من جهة الدمار، والخسائر البشرية، وتطور التقنيات الحربية، واقتصاد الحرب، تحوّلات سياسّية وترابيّة واقتصاديّة بالغة الأهمية، شملت – إن قليلًا أو كثيرًا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – شطرًا واسعًا من أقطار العالم وسكانه. بل إنّ تداعيات هذه التحولات وارتداداتها طالت خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، وعلى نحو مباشر ومؤثّر، الاقتصاد الرأسمالي والأوضاع الداخلية لأهم الدول العظمى والعلاقات الدولية؛ ما أدّى، في النهاية، إلى نشوب حرب عالمية ثانية في أيلول/ سبتمبر 1939.

لقد أتاحت الاحتفالات التذكارية التي تتّصل بمئوية هذه الحرب خلال عام 2014، والتي أقيمت في المجتمعات الغربية (أوروبا والولايات المتحدة خصوصًا) للهيئات الأكاديمية والإعلامية والسياسية والمجتمع المدني في تلك المجتمعات فرصةً لاستئناف النظر في مقدمات ذلك الحدث الهائل ونتائجه، واكتناه رمزيته ومزيد تدبّره، والحفر في معانيه ودلالاته؛ فكان أن نُظّمت المؤتمرات، وعُقدت الندوات والورش وعُدّدت المنابر ونُوّعت، وأُلّفت الكتب والدراسات، وظهرت المطبوعات والشرائط الوثائقية وغيرها.

ومن المعلوم أنّ إحياء الذكرى، بوصفه مسألةً تحدُث في مفترق التاريخ والذاكرة، وتجلّيًا للذاكرة أيضًا، قد شكّل إحدى دعامات هويّات الشعوب والأمم. وقد تزامنت هذه الفعاليات الاحتفالية مع حقبة عاد فيها المؤرخون للاحتفاء بالحدث والتصالح مع التاريخ السياسي والعسكري - بعد أن غيّبته مدرسة الحوليات ردحًا من الزمن - وذلك في إطار ما عُرف بتيار "العودات" (العودة إلى الفرد، والحدث، والسياسة، والمدة القصيرة.. إلخ) في سياق استفهامات ومراجعات جديدة. فقد بات من المسلّم به، أو المتواضع عليه، لدى المؤرخين أنّ الحدث يمكن أن يُفيد في معرفة ما تحت الحدث؛ أي في الكشف عن البنية وهو أمرٌ لا يسمح هذا المقام بتقصّيه.

من ثمّة، لا يُعدُّ استغلال العرب سانحة إحياء الغرب لمئوية الحرب العالمية الأولى بدْعًا من الأمور. فمن شأن هذا الإحياء أن يجعلهم يعكفون على إعادة قراءة ذلك الحدث الفارق من زاوية نظرهم، وعبر موروثهم الخاصّ، علاوةً على وجود شعور قويّ في ظلّ المستجدات الإقليمية والدولية الراهنة مفاده أنّ العرب يعيشون حاليًا مرحلةً شبيهةً بنهاية الحرب العالمية الأولى التي شهدت تشكُّل

1 أشرف على التحرير العلمي للندوة فتحي ليسير عضو الهيئة الاستشارية لدورية أسطور.

خريطة المنطقة العربية بالمشرق، وفقًا لمصالح القوى الغربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا. ولسنا في حاجة إلى تأكيد أنّ المشهد الجيوسياسي الراهن في المنطقة العربية، في جانب كبير منه، نتاج للقرارات والتوازنات التي جرَت خلال حقبة الحرب المذكورة وما بعدها.

يوجد حاليًا أكثر من دليل على أنّ الأعوام الأخيرة تشهد ما يمكن عدُّه، في شيء من التجوُّز، إستراتيجيًا مماثلةً لِما حدث بعد الحرب العالمية الأولى. وقوام هذه الإستراتيجية – وإن بدت غامضةً و"هلاميةً" أحيانًا – إعادة تشكيل خريطة المنطقة وتأهيلها بحسب مصالح أجنبية جديدة، ولا سيما بعد انقسام السودان إلى سودانيْن، وممارسة إقليم كردستان في العراق جلَّ مظاهر الدولة المستقلة، وفكرة الفدرالية المتجسّدة في العراق والمطروحة بقوّة في كلٍّ من ليبيا واليمن، إضافةً إلى النعرات الطائفية والعرقية والانفصالية التي يمكن أن تعصف بوحدة أكثر من دولة عربية وتماسكها. فالمؤرخ، بحسب لوسيان فيفر Lucien Febvre، ينطلق من الحاضر، ومن خلاله هو فقط يتعرّف الماضي ويؤوِّله؛ بمعنى أنّ الغاية من دراسة التاريخ هي في النهاية إجلاء الحاضر وتبيُّن ما غمض من ملامحه. ومثلما يفسّر الماضي الحاضرَ، يفسّر الحاضرُ الماضي؛ وذلك في علاقة جدلية تضع الماضي والحاضر في المستوى نفسه من الأهمية، وهو ما عناه المؤرخ فرنان بروديل Fernand Braudel بقوله: "إنّ الحاضر والماضي يضيء كلّ منهما الآخر".

عندما اندلعت الحرب العظمى كانت البلاد العربية إمّا خاضعةً للاستعمار الغربي(أقطار المغرب العربي ومصر) وإمّا للإدارة العثمانية المباشرة (سوريا الكبرى والعراق)، وإمّا غير المباشرة (شبه الجزيرة العربية) ولقد أوجد دخول الدولة العثمانية الحرب الكبرى في خريف 1914 ذريعةً للقوى الغربية المتربصة بها (بريطانيا، وفرنسا، وروسيا) كي تحسم أمر ما كان يُعرف بـ "المسألة الشرقية"؛ أي تقسيم ما بقيَ من أراضٍ لـ "رجل أوروبا المريض"، بتعبير بعض الأدبيات الدبلوماسية.

وإذا سلّمنا بأنّ مشاركة العرب في الحرب العالمية الأولى (مشاركة عشرات الآلاف من المغاربة والمشارقة في الجيشين الفرنسي والعثماني، والثورة العربية بقيادة الشريف حسين.. إلخ) كانت محدودةً مقارنة بالجهد العامّ الضخم الذي تطلبته هذه المواجهة، والخسائر الكبيرة الناجمة عنها، بخاصة أنّ العرب لم يكونوا طرفًا فاعلًا فيها، فإنّ النتائج المترتبة عليها كانت أغلى تكلفةً، بل إنّها كانت دراماتيكيةً جدًّا بالنسبة إليهم. فكأنّنا إزاء علاقة "تناسب عكسيٍّ"، كما يقال في لغة الرياضيات. وآية ذلك ما انجلت عنه مقررات مؤتمر سان ريمو (5 أيار/ مايو 1920)، ومعاهدة سيفر (10 آب/ أغسطس 1920)، وهي معاهدة فكّكت الإمبراطورية العثمانية، من انتدابٍ فرنسيٍّ على سورية ولبنان، وبريطاني على العراق وفلسطين بما في ذلك الأردن حاليًّا. فهذان الانتدابان جاءَا تكريسًا للاتفاقيات السريّة التي صيغت في الغُرف المغلقة خلال فترة الحرب؛ ونعني تحديدًا اتفاقية سايكس – بيكو عام 1916، ووعد بلفور عام 1917. وحريٌّ بالتسجيل أخيرًا أنّ نهاية الحرب قد أوجدت سياقًا عامًّا لتطور ثلاث حركات قومية في الشرق، وهي متمثّلة بالحركات العربية والتركية والصهيونية، وهذا موضوع آخر كما يُقال.

في هذا الإطار العامّ، وضمن هذه الإحداثيات والمدارات المتعدّدة، تنزلت ندوة "أسطور" حول العرب والحرب العالمية الأولى، وقد عُقدت في بيروت بفندق "جفينور روتانا"، يوم 22 شباط/ فبراير 2015، وشارك فيها، بحسب الأحرف الهجائية، كلّ من الأساتذة: جامع بيضا، وسعود المولى، وعبد الحميد هنية، وعبد الواحد المكني، وفتحي ليسير، ومحمد الأرناؤوط، ومحمد جمال باروت، ومحمد عفيفي، ومهند مبيضين، وناصر الدين سعيدوني، وأدار الندوة عبد الرحيم بنحادة نائب رئيس تحرير مجلة "أسطور".

المحور الأول

عبد الرحيم بنحادة: لقد خصّصنا هذه الندوة الأولى للعرب والحرب العالمية الأولى لنتطارح فيها مشاركة العرب في هذه الحرب وتمثّلهم لها. وفي البداية أريد أن أطرح عليكم سؤالًا هو: هل كان العرب، عشية الحرب العالمية الأولى؛ أي قبيل الحرب العالمية الأولى أو الحرب العظمى، واعين بما هم مقبلون عليه؟ بمعنى آخر كيف عاش العرب في المغرب عشية الحرب العالمية الأولى حين كانت التجربة الاستعمارية في بداياتها؟ وكيف أثّرت هذه الحرب في مسار التجربة الاستعمارية في تونس، والجزائر، والمغرب. السؤال الأول إذن، هو: كيف عاش العرب عشية الحرب العالمية الأولى؟ الكلمة لكُم.

جامع بيضا: بالنسبة إلى السؤال الذي طرحته (كيف عاش العرب في الرقعة العربية والإسلامية من المحيط إلى الخليج عند اندلاع الحرب، وقبل اندلاعها، وعشيتها)، أظنّ أنْ لا أحد في العالم العربي، أو في العالم كلّه كان يتوقع حربًا عالميةً؛ لأنّ الإنسانية لم تألف حربًا على نطاق واسع، ولم يكن في سجلّها التاريخي حرب عالمية بهذا النوع من الشساعة. أمّا بخصوص سكان تلك الرقعة الجغرافية، فإنّ لديّ وجهة نظر أخرى في ما تسميه "العرب"، وهو الانطباع نفسه الذي عند غيرهم من الأمم، بما في ذلك الأمم الأوروبية التي هي بؤرة النزاع. فقد كان الناس يتوقعون شيئًا ما، حربًا حدوديةً بين قوتين، أو ثلاث مثلًا، وربما في رقعة جغرافية محدودة، وفي زمن محدود أيضًا. لا أحد كان ينتظر أن تتّسع رقعة الحرب، ولا أحد كان ينتظر أن يتّسع الزمن لها أكثر من أربعة أعوام. هذا إذن شعور ساكني هذه الرقعة وهو، في ما أرى، شعور العالم بأسره.

آتي، بعد هذا، إلى الكلام على الرقعة الجغرافية. عندما نتحدث عن "انخراط العرب" في الحرب - وسأكتفي بحالة المغرب التي أعرفها جيدًا - ينبغي القول إنّ المغربيين لم ينخرطوا في الحرب بوصفهم عربًا، بل بوصفهم مسلمين. فحتى فرنسا، في حالة المغرب على الأقل - وسنرى حالات أخرى بالنسبة إلى الجزائر، وتونس، والمشرق العربي - طلبت منهم الانخراط في إطار ما يسمى السياسة "الإسلامية لفرنسا"، وربما كانت لنا عودة إلى هذه النقطة لاحقًا.

محمد الأرناؤوط: شكرًا، دكتور. حقيقة هذا السؤال تبدو من افتراضه وجود مؤشرات في الأفق تتحدث عن حرب عالمية مثلًا. أذكر، الآن، في نهاية ورقتي جملةً لم أقُلها، هي: إنّ وزير خارجية النمسا والمجر الكونت بارشتولد قال في مذكراته التي نشرت بعد الحرب عام 1920: "نحن لم نكن نريد حربًا عالمية، نحن كنّا نريد عقاب صربيا فقط". وهذه الجملة بالغة الدلالة. فالحرب - كما تعرفون – قد اندلعت أولًا ثنائيةً؛ من خلال إعلان النمسا الحرب ضدّ صربيا في 28 يوليو 1914، ثمّ اتّسعت وأصبحت عالميةً، وربما كان الشعور بقرب اندلاع حرب أو مواجهة أزمة ما موجودًا في البلقان، أو في أجزاء واسعة منه، وهو الخارج لتوّه من الحُكم العثماني.

أريد أن أجيب عن هذا السؤال، وأعرج على ذلك من خلال البلقان. فنحن قبل سنتين حاولنا أن نعقد ندوةً عن حرب البلقان في الفترة 1912 - 1913 وآثارها وصداها في المشرق، وأخفقنا في ذلك. وفي الحقيقة كانت تتوافر مادة جديرة ذات فائدة في الإجابة عن هذا السؤال. ولو عدنا مثلًا إلى مذكرات علي سلام التي نشرها الدكتور حسان حلاق وغيره، لرأينا حقًّا بداية التوجس عند النُّخبة بما هو مُقبل في المشرق. ولهذا الأمر علاقة بحرب البلقان الأولى والثانية؛ لأنّ هذه الحرب الخاطفة التي أنهت حُكم هذه الدولة "السرمدية"، أو التي اعتقد مواطنوها وسكانها أنها دولة الخلافة والدولة الإسلامية، والتي أنهت حُكم الدولة العثمانية الذي استمر قرونًا، بتلك البساطة وتمّ اقتسام هذه المناطق بين الدول، أثارت عند النُّخبة كما يبدو بوضوح في مذكرات علي سلام هذا التوجس بحرب مماثلة، أو بحرب أوسع بشأن مصير العرب، ومن ثمّة مصير المنطقة.

أرى أنّ هذا التوجس أخذ يرتبط بالاستعدادات أيضًا. فاستنادًا إلى مذكرات بوانكاريه، كان من الواضح في نهاية 1913 أنّ الحرب لا مفرّ منها، أو أنها فُرضت على فرنسا فرضًا. وبهذا المعنى، يجب على فرنسا أن تُعدَّ العدّة لها. فهذا كما يبدو في تقرير السفير الفرنسي في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1912. لذلك، ربما يختلف الأمر في المستوى الأوروبي والبلقاني. ولكن استنادًا إلى ذلك، مع هذا الاستعداد للحرب، بدأت تتضح البروباغاندا العثمانية - الألمانية؛ ومن ثمّة، الفرنسية والإنكليزية. وربما يكون هذا الأمر أيضًا مدخلًا آخر إلى صدى هذه البروباغاندا ومن ثمّة إلى صداها في المنطقة بالنسبة إلى موقف النُّخبة العربية. ثمّ إذا توسعنا أكثر فأكثر في تحليل هذه البروباغاندا المتضاربة، وجدنا قول الدكتور جامع بيضا إنّ البروباغاندا العثمانية والألمانية كانت تدعو سكان المنطقة إلى الدخول في تلك الحرب بوصفهم مسلمين مؤمنين بوجود خليفة، بخاصة بعد الإعداد لمثل هذه الفتوى، كما كانوا في السابق يشتغلون بذلك بحسب الوثائق. وهكذا، دخلوا الحرب وهم مندفعون إلى ما يسمى الحرب مع دولة الخلافة، مع الدولة الإسلامية، مع الدولة العثمانية.

في المقابل، كانت البروباغاندا الفرنسية - الإنكليزية، بعد مراسلات حسين مكماهون، تلحّ على شيء مختلف متمثّل بأننا عربٌ لدينا طموحات ومشاريع؛ ومن ثمّة الحلم بدولة عربية. ولذلك انخرط بعض العرب في هذه البروباغاندا، وانضموا إلى الثورة العربية باقتناع وبحماسة للوصول إلى هذا الحلم. لذا، أرى أنّ الجواب عن هذا السؤال يرتبط بمداخل متعددة. ولكن أرى أيضًا أنّ الحوادث توالت بسرعة، وتتالت بعد ذلك، وأنه كان لا بد أن نركّز في نقطة البداية؛ أي الفترة 1913 - 1914 تحديدًا.

عبد الواحد المكني: شكرًا، عشية الحرب الكبرى، كانت ثمّة مسألة مهمّة لا بد من التفطن إليها. فلم يكن من السهل صنع الرأي العامّ آنذاك؛ لأنّ وسائل الاتصال كانت بطيئةً، والبلاد العربية خصوصًا كانت حركتها الصحافية محدودةً والمعلومة فيها تسير ببطء. ولاحظنا في المصادر وقوع مفاجآت أحيانا عند العرب، وبخاصة عرب المغرب، أو المغاربة بصفة عامة، تجاه حدث الحرب. لكني أضطر مرةً أخرى إلى تقسيم قائمٍ على مشرقٍ ومغربٍ. وبشأن بلاد المغرب، أتفق مع الدكتور جامع بيضا في أنّ معطى العروبة لم يكن مطروحًا آنذاك. فقد كانت بلاد المغرب تعيش أزمة حرب طرابلس عام 1911 ومعاهدة فاس عام 1912. وفي تونس، كانت حوادث الزّلاج والترمواي، وحوادث الزيتونة. وفي الجزائر، كانت هجرة أشراف تلمسان. وهذا يعني وجود نوع من الأزمة بسبب مخلّفات الاستعمار وتداعياته. فلمّا جاءت الحرب، حصل تهيُّؤٌ وجدانيّ للتعاطف مع الإمبراطورية العثمانية وبخاصة مع الحليف الألماني. هذا ما كان يروج سواء عند النُّخبة أو عند أغلب الشباب التونسي والجزائري، أو حتى عند الرأي العامّ.

أمّا في المشرق العربي، فإنّ المسألة كانت مختلفةً، والرهانات مغايرةً؛ إذ نستطيع أن نتحدث عن مشروع عربي آنذاك، أو عن إرهاصات تبلورت في المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913، فثمّة جملة من المطالب الواضحة. وعندما أصبحت طبول الحرب تُدق، كانت آنذاك على الأقل نخبة تطمح إلى حُكم ذاتي في إطار عثماني. وهكذا، كانت الإستراتيجيات، والطموحات، والآمال، مختلفةً تمامًا عن بلاد المغرب. معنى ذلك أنه لم تكن في المشرق عاطفة جياشة كبيرة تجاه الدولة العثمانية، على الرغم من الانبهار بما قامت به ألمانيا من استعراض ومحاولة تبيان أنها حليفة أولى للإمبراطورية، وللعرب. هذا تقريبًا أهم ما يمكن أن نقوله. إنّ المؤرخين اليونانيين تحدثوا عن المفاجأة في التاريخ وإذا أردنا أن نتحدث عن هذه المفاجأة، قلنا إنّ الحرب الأولى، أو الكبرى، فاجأت العرب.

سعود المولى: أوافق على فكرة أنّ بلاد الشام كانت عثمانيةً ولم تكن تحت احتلال أجنبي، وفي هذه الفكرة نقطة فاصلة أولى؛ لأنها فكرة استبدت بعقول العرب مرحلةً طويلةً. ولكن حين نتحدث عن الوضع العربي حينئذٍ، أظن أنّ الأساس هو أن نتحدث عن النُّخب في البلدان العربية، وليس عن الشعوب. فالشعوب لم يكن لديها وسائل تعبير عن رأيها ومواقفها. فلا إعلام ولا أيّ وسيلة تواصل، فضلًا عن

الجمعيات والأحزاب. والنُّخب العربية العثمانية شُكِّلت من الضباط، والحكام، والمتصرفين في بعض المناطق، والمتعلمين عمومًا - وهؤلاء كانوا يدرسون في إسطنبول وبعض العواصم الأخرى - إضافةً إلى المندوبين إلى "مجلس المبعوثان". فهذه النُّخبة التي عاشت في إسطنبول أساسًا، وامتزجت بالنُّخبة العثمانية إلى جانب نخب سياسية واجتماعية من زعماء القبائل والوجهاء المحليين. وفي هذه النقطة يجب التمييز بين المستويات الاجتماعية في كيفية التفاعل مع الدولة العثمانية في تلك الأيام و أجندة الدولة العثمانية آنذاك.

أوافق الدكتور محمد الأرناؤوط، وكنت سأقول ذلك في مداخلتي، من جهة أنّ النقطة الفاصلة، وهي حرب البلقان عام 1912، لم تأخذ حقّها من البحث. وقد أتيح لي من خلال الاشتغال بنقاشات "مجلس المبعوثان" والمندوبين من المنطقة العربية، أن أعرف أنّ لدينا مادةً ثريةً لمعرفة اتجاهات العرب نحو تلك المرحلة. والمثال الأول يأتينا ممَّن تطوع من لبنان، مثل "شكيب أرسلان"، للمشاركة في حروب الدولة العليّة؛ ذلك أنّه قاد متطوعين قاتلوا في ليبيا عام 1911، ثمّ انتقل إلى البلقان، وكان معه متطوعون من كل المناطق والطوائف. وقد انعكست تلك الحرب ونتائجها على الأوضاع الداخلية في بلاد الشام، وخصوصًا على جبل لبنان، من حيث بداية تشكّل طموحات لطوائف في تحقيق استقلال ما، أو من حيث الشعور القوي بدُنوّ سقوط الدولة العثمانية؛ لأنّ الهزيمة في البلقان والمآسي التي نتجت منها نُقلت كلّها إلى تلك المنطقة، وكان في الجيش العثماني أشخاص قاتلوا في البلقان.

وقد حدثني الأخ مهند مبيضين أنّ قبائل من الأردن ذهبت تقاتل في البلقان، وأنها كانت في مستوى الجيوش أو التجييش العثماني، وأنّ مقاتلين وجنودًا من المنطقة أُخذوا ليقاتلوا في البلقان. لقد أحسّ العرب بهزيمة الدولة العثمانية، وكان ذلك في مستوى الطوائف، وكانت توجد بدايات لشعور قومي ما، وذلك مع نشوء دول البلقان، والاستقلالات، وخصوصًا ما جرى في اليونان. فحرب استقلال اليونان كانت بداية القومية الدينية ذات الطابع المسيحي التي انعكست في وجدان المطالبين بالاستقلال في لبنان وبعض طوائف هذه المنطقة، ثمّ كان ذلك أيضًا مع النُّخب المسلمة التي التقت النُّخب المسيحية في مؤتمر باريس عام 1913، فنتج من ذلك - وهذا ما كتبه أنطونيوس - صوغ اليقظة القومية، أو صوغ المطالب بصيغة قومية، ونشأ هذا بعد عام 1913 وليس قبله، وقد انقسمت النُّخب - انقسامًا عنيفًا جدًّا - ما بين عثمانية ضمن عنوان إسلامي، وقومية بعنوان سوري، وطائفية قومية بعنوان ماروني.. إلخ.

وينبغي ألَّا ننسى أنّ هذه النُّخب ذهبت بعيدًا في مواقفها؛ ما بين التحام كامل بالعثمانية مثَّلته جريدة **الشرق** في دمشق من جهة، وتعاون كامل مع الدول الأجنبية مثَّلته المجموعة التي حاكمها جمال باشا وأعدم معظم أبطالها من جهة أخرى. وينبغي ألَّا ننسى أيضًا أنّ الحرب الأولى، والمجاعة، والإعدامات، فاقمت انقسام النُّخب العربية. وهذه الانقسامات بين النُّخب تولّدت منها حساسيات وعداوات، حتى أنّ قادةً وطنيين إسلاميين اتُّهموا بتعاونهم مع جمال باشا، وبأنهم كانوا متسببين بالإعدامات والوشايات. لقد عاشت النُّخب أزمةً مخيفةً في هذا الانقسام، وهذا الأمر جدير بالبحث على نحوٍ مستقلٍّ، هذا ما أحببت أن أضيفه.

محمد عفيفي: كلامي سيركز في المشهد المصري عشية الحرب العالمية الأولى نتيجة التعقيدات التي كانت موجودةً في هذا المشهد. لقد جاءت تعقيدات من عدة جوانب أهمّها أنّ مصر في تلك الفترة على الرغم من أنها كانت تحت الاحتلال البريطاني، فإنّ هذا الاحتلال ليس له في الوقت نفسه أيّ سند قانوني. ومن ثمّة، كان المشهد شديد الالتباس؛ إذ كانت توجد دولة احتلال، ولكن في الوقت نفسه كان يوجد خديوي تابع للدولة العثمانية، وفي القانون الدولي كانت مصر، على نحوٍ ما، ولايةً عثمانيةً. وهذا سيؤثّر قبيل الحرب العالمية الأولى وخلالها. فقد فرضت بريطانيا الحماية البريطانية على مصر عام 1914، واتخذت إجراءات عنيفةً تجاهها. وكانت توجد مشاريع لضمّ مصر إلى بريطانيا ومشاريع أخرى مقابلة لها؛ إذ رفض حلفاء بريطانيا ضمّ مصر إلى بريطانيا بالنظر إلى عامل توازن القوى.

والأمر الثاني الذي كان يعقّد المشهد المصري تعقيدًا كبيرًا هو وجود قناة السويس؛ بسبب أهميتها بالنسبة إلى بريطانيا. وفي ما يتعلّق بخطوط المواصلات، كانت بريطانيا ترى سيطرتها على الأراضي المصرية أمرًا ضروريًا، على الرغم من أنّ مصر ما تزال قانونيًا تابعةً للدولة العثمانية. وهذا سيظهر في الحملة العثمانية، وفي الحملة المضادة لبريطانيا، في وقت مبكر جدًّا، وسيحدث التباسًا في المشهد السياسي المصري بدايةً من عام 1906 (حادثة طابا). هذه أول مرة نرى فيها نزاعًا في حدود مصر بينها وبين الدولة العثمانية، وهي في الأصل تابعة لها، وقد كان هذا النزاع مع تدخُّل بريطانيا تدخّلًا كبيرًا جدًّا؛ نتيجةً لإدراكها أهمية مصر. فقد رأت أنه في حال حدوث حرب، أو أزمة دولية، ستكون مصر منطقة تموين للشرق الأوسط. وهذا سينعكس كثيرًا على الحوادث في مصر، وقد أثّر بأجمعه في الوضع السياسي بمصر.

كانت فكرة العروبة غائبةً عن مصر تمامًا؛ إذ علينا أن ننتظر ثلاثينيات القرن العشرين كي نسمع على نحو خافتٍ كلامًا على "العروبة" نتيجةً لحوادث فلسطين. لكنّ الفكرة المسيطرة آنذاك كانت الفكرة الإسلامية تحت تأثير الحزب الوطني مع مصطفى كامل، ثم محمد فريد. والتيار الصاعد الذي سيسيطر بعد ذلك، سواء أثناء الحرب العالمية الأولى، أو بعد ثورة 1919، هو القومية المصرية الذي ظهرت بداياته ظهورًا جليًّا عشية الحرب العالمية الأولى. وعندما تمّ الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911، حدث في المجتمع المصري شبه انقسام أو انشطار. فالتيارات الشعبية تدعو هي والحزب الوطني إلى الجهاد في ليبيا؛ بالنظر إلى أنّها مسلمة، وإلى أنّها كانت تابعة للسلطان العثماني. في حين دعا أحمد لطفي السيد وعدّة نُخب إلى عكس ذلك؛ أي إلى الاهتمام بمصر والفرعونية اهتمامًا كبيرًا. وثمّة مقولة مشهورة أثارت مصر في تلك الفترة لأحمد لطفي السيد هي "سياسة المصالح لا سياسة العواطف". وستصبح هذه المقولة عماد الفرعونية في مصر، وسيتم إعادة استنساخها بطرائق كثيرة بعد ذلك، بخاصة في عهد السادات.

عندما قامت الحرب العالمية الأولى وجدت بريطانيا أنها في مشكلة كبيرة. فهي تريد السيطرة على مصر، لكنّ وضعها غير قانوني، وقبل الحرب العالمية الأولى (عام 1913)، جرى تعطيل الحياة النيابية في مصر وإيقاف حرية الصحافة أيضًا، وكل ذلك من أجل تهدئة الأوضاع في مصر؛ تمهيدًا لحدوث شيء كبير لا سيما أنّ مصر ذات وضعٍ خاص، ولذلك ستصبح في الحرب العالمية الأولى المكان الذي سيأتي إليه عساكر أستراليون، وهنود، وستصبح أيضًا، إلى حدّ بعيد جدًّا، مكانًا لتموين الشرق الأوسط. وعلى أيّ حال، فإنّ فترة الحرب العالمية ستُخرج مصر في اتجاه القومية المصرية وفي حالة شبه قطيعة مع الفكرة الإسلامية. وهذا سيكون من أسباب سقوط الخلافة وظهور الإخوان المسلمين، بوصف ذلك ردّةً من ردّات الفعل.

ناصر الدين سعيدوني: من الأفضل أن نتناول قضية العرب والحرب العالمية الأولى في سياق الهيمنة الاستعمارية التي بلغت أوجها مع الحرب العالمية الأولى، وهي المرحلة التي عُرفت بـ "الهيمنة المطلقة" ، والتي بدأت بالتراجع منذ عام 1930. وفي هذا السياق سخَّرت فرنسا إمكانات الجزائر لمصلحتها في الحرب سواء كان ذلك بالجنود أو العمال. وعلى الرغم من أنّ دور الجزائر ظلّ مغيّبًا، فإنّ الحرب كان لها تأثير كبير في الجزائريين من جهتي العلاقات بفرنسا والخسائر البشريّة. فكانت بالنسبة إلى بعض المؤرخين كأنها استمرار لِمَا عاناه الجزائريون بعد الحرب السبعينية (عام 1870)، فقد قاموا بثورة كبيرة كادت تضع حدًّا للاستعمار الفرنسي في الجزائر. لكنّ اختلال ميزان القوى حال دون ذلك، وجعلها تنتهي بقمع وحشيٍّ، وبمصادرة نحو 35.000 هكتار من أراضي الجزائريين لتوطين آلاف الفرنسيين النازحين من منطقتي الألزاس واللورين، بعد استيلاء الألمان عليهما.

ومن جهة أخرى كانت الحرب الأولى تجربةً ميدانيةً للتعامل مع الفرنسيين، بعد أن أقرُّوا مشروع التجنيد الإجباري (عام 1912)، وقد انقسم الجزائريون إزاءه إلى ثلاث فئات. فالنُّخبة، أو حركة الشباب الجزائري، تقبّلت الخدمة الإجبارية في الجيش الفرنسي وعدّتها

مبرّرًا للمطالبة بالحقوق. في حين فضّلت فئة أخرى الهجرة - ومن أهم الهجرات هجرة "تلمسان" - وتواصلت الهجرة بعد ذلك بسبب استمرار حالة التمرد. أمّا الفئة الثالثة، فقد تقبّلت الأوضاع واتخذت موقفًا سلبيًّا منها. وبهذه المواقف وجد الجزائريون أنفسهم في خضم الحرب، لكنّ مستواهم لم يكن في مستوى التحديات والتطورات التي فرضتها الحرب العالمية الأولى. وفي المشرق العربي، كانت توجد شبه يقظة بسبب تبلور موقفٍ من الدولة العثمانية وانتشار الإحساس بالانتماء العربي الذي تجاوز العوامل المذهبية والدينية، في وقتٍ كان فيه الانتماء الإسلامي بما يحمله من انتساب إلى العروبة هو الغالب في المغرب العربي.

وعلى كلّ حال، فإنّ الحرب العالمية لم تفاجئ العرب، فقد وجدوا أنفسهم طرفًا فيها، وفُرض عليهم التعامل معها في إطار التجربة الاستعمارية. ولم يكن ذلك، في ما أرى، إيجابيًّا بالنسبة إلى أوضاعهم، مقارنةً بمنطقة البلقان.

لقد كانت نتائج الحرب الأولى كارثيةً بالنسبة إلى العرب بوجهٍ عامٍّ، في المستويَين القومي والسياسي. ولعل أشدّها خطورةً توافر الأوضاع لفرض الكيان الصهيوني الذي اغتصب قطعةً عزيزةً من بلاد العرب.

فتحي ليسير: إنّ السؤال المطروح، في الحقيقة، هو: كيف عاش العرب بداية الحرب العالمية الأولى؟ لقد كان حدث الحرب العالمية الأولى صعبًا جدًّا بالنسبة إلى البلاد العربية، والتمييز بين المشرق والمغرب العربيين، في هذا السياق، مهمّ جدًّا. ابتداءً، الحرب الأولى لم تصبح عالميةً إلا عام 1917 عندما خرجت منها روسيا ودخلتها الولايات المتحدة، والمؤرخون الغربيون يتحدثون عن الحرب الأوروبية حتى ذلك العهد. وموقف العرب مهمّ جدًّا؛ لأنّ منهم من كان تحت الاستعمار الغربي، ومنهم من كان تحت الإمبراطورية العثمانية التي هي فاعل في الحرب في المشرق العربي. وثمّة حدث آخر مهمّ هو دخول دولة الخلافة الحرب إلى جوار ألمانيا والنمسا والمجر، وبخاصة يوم 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914. وكان هذا الحدث مؤثّرًا في المغرب العربي على الأقل. ففي تونس، مثلًا، أُعلن الجهاد؛ من جهة السلطان العثماني. وإنّ هذا الحدث، في ما أرى، مهمًّا جدًّا؛ لأنّه أحدث انقسامًا في صفوف العرب بين مناصر لتلك الدعوة ورافض لها. وحتى في الشام كان في النُّخبة انقسام أيضًا بين مساند لدخول الإمبراطورية في الحرب ومعارِض له.

إنّ ما نعرفه من خلال قراءتنا أنّ عبد الرحمن الخليل وعبد الرحمن الشهبندر وعبد الغني العريسي كانوا من الجماعة التي ساندت هذه المشاركة، وأنّ البلاد العربية فُتحت فيها جبهات خلال الحرب العالمية الأولى؛ من ذلك أنّ الثورة العربية بقيادة الشّريف حسين في 10 حزيران/ يونيو 1916، قد شكّلت حدثًا فارقًا في تاريخ الخليج والمشرق العربي، وهنا كان التفاعل مختلفًا جدًّا إزاء هذا الحدث. لست مؤهلًا للحديث عن هذه الحقبة، ولكن ماذا بشأن توصيف هذه الحركة؟ دعنا نسمّيها حركةً؛ بسبب وجود إشكالٍ في هذا الموضوع. لقد قرأنا في كتب التاريخ "الثورة العربية الكبرى"، فلنتفقْ في المصطلح: هل هي ثورة؟ ثم هل هي عربية؟ وهل شارك فيها كلّ العرب؟ وهل هي كبرى؟ وإن كانت كذلك فمن شملت إذن؟

لقد ظهرت، على أيّ حال، جبهات أخرى. صحيح أنها كانت صغيرةً، لكنها وُجدت. وقد تحدثت أمسِ عن أنّ العثمانيين ساعدوا على إعادة المَسك بزمام الأمور في طرابلس الغرب بعد هزيمة الإيطاليين في نهاية عام 1915، حتى أنّ الحضور الإيطالي اقتصر على شريط ساحليّ ضيّق شمال إقليم برقة، وآخر لم يتجاوز خمُس طرابلس في الجهة الغربية. وفي ما عدا ذلك، كان زعماء القبائل يسيطرون على كامل البلاد. وتمكّن العثمانيون والألمان من إعادة التمركز في ليبيا وتحويلها إلى رأس جسر (عام 1916)، عبر ميناء مصراطة حيث كانت الغواصات الألمانية تأتي بالخبراء العسكريين الألمان والأتراك، وبالسلاح والذخيرة. وجرى تكليف أحمد الشريف، الزعيم السنوسي المعروف بفتح جبهة شرقية في ليبيا غرب مصر لإشغال الإنكليز، بخاصّة بعد إخفاق جمال باشا في هجماته على قناة السويس بمساعدة الألمان.

ولإشغال الإنكليز أكثر فأكثر، فتح العثمانيون والألمان جبهةً غربيةً في مصر. وأحرزوا انتصارات في البداية، ووصلوا حتى مرسى مطروح، لكنّ الجيش السنوسي انكسر بعد ذلك. وذكرتُ أمسِ أنّ الطريف في الحركة الوطنية الليبية قد تمثّل بمشاركة عناصر غير ليبية فيها، مثل عبد الرحمن عزام الذي سيصبح في ما بعد رئيسًا للجامعة العربية، وجعفر العسكري الذي سيصبح لاحقًا وزير الدفاع في حكومة فيصل في العراق. وبالتوازي مع ذلك فتحت جبهة على الحدود التونسية، وهي جبهة من جبهات الحرب العالمية الأولى المنسية كما جاء في المصادر الفرنسية، وقد فتحها سليمان الباروني وخليفة بن عسكر عام 1915، ودامت سنتين تقريبًا. وآلت هذه المحاولة إلى الانكسار تمامًا مثلما أخفق هجوم أحمد الشريف والسنوسية على مصر.

عندما نقول "مساهمة العرب"، فإننا نعني بذلك كيفية تقييم الثورة العربية اليوم. فثمّة من يرى أنّ سقوط الدولة العثمانية كان بسبب خيانة عربية، وربما كانت هذه القراءة من وجهة نظر تركية. لكنّ العرب أيضًا كانوا في جبهات أخرى. وعلى سبيل المثال، جنّد الألمان صالح الشّريف وإسماعيل الصفايحي، وهما من القادة الوطنيين التونسيين للقيام، بالدعاية للحلفاء في الجبهات الغربية. وقد ألّف صالح الشريف كتابًا يسمى **حقيقة الحرب المقدسة**، ونشر منه الألمان آلاف النّسخ. وكان هذا الكتاب يُوزَّع في جبهات الجنود المغاربة، والتونسيين، والجزائريين؛ ليقول لهم إنكم تحاربون في الصف المعادي لدولة الخلافة، وكان صالح الشريف يلقي الخُطب ويستنهض الجنود المغاربة في الجبهات ليقول لهم إنكم في الصفّ الخاطئ. فالعرب شاركوا في عدّة مواقع، سواء في البلاد العربية في الثورات، أو "الدسائس"، كما نقرأ في الأرشيف الفرنسي، وكان موقفهم من إعلان الجهاد مهمًّا جدًّا بالنسبة إلى بريطانيا. فهذا الإعلان كان موجهًا إلى الشعوب الإسلامية من غير الأتراك، وفي صدارتهم العرب؛ بهدف خلق قلاقل في المغرب العربي، وفي عدّة بقاع أخرى، ولا سيما في مصر؛ بسبب أهمية قناة السويس.

كان العرب، إذن، مشتّتين. ففي الجبهات منهم من كان في صفّ دول التحالف، ومنهم من كان في صفّ دولة الخلافة. ولكنّ الوعود هي التي كانت تحرك العرب. فعندما اندلعت الحرب التي لم يكن لهم فيها ناقةٌ ولا جملٌ، كانت وعود بريطانية للشريف حسين بدولة عربية كبرى، وكانت توجد أيضا وعود أخرى من فرنسا؛ فقد أغدقت وعودًا كثيرةً على سكّان شمال أفريقيا، وأسرفت في ذلك، وزعمت أنّ أوضاع المستعمرات ستتحسن عندما تضع الحرب أوزارها. ولدينا في هذا الشأن وثائق. وقد ذكر الدكتور ناصر الدين سعيدوني وطنيين جزائريين راسلوا ولسون. وأريد أن أضيف، مساوقةً لهذا الأمر، أنّ الزّعيم الوطني التّونسي محمد باش حامبة قد راسل الرّئيس الأميركي ولسون خلال مروره بالعاصمة الإيطالية روما، في 2 كانون الثاني/ يناير 1919، وذكّره بوعوده؛ ومنها حقّ الشّعوب المولّى عليها في تقرير مصيرها بنفسها.

لديّ ملاحظة أخيرة فقط: هل كانت الحرب متوقعةً؟ في الحقيقة لقد اندلعت الحرب إثر اغتيال الأرشيدوق فرانسوا فردينان، وليّ عهد النّمسا في صربيا، أي في منطقة البلقان التي كانت تُسمّى مخزن البارود. والإخوة المغاربة يعرفون جيّدًا أنّ الحرب ربما كانت ستندلع بسبب الأزمتين في المغرب (أزمة طنجة عام 1905، وأزمة أكادير عام 1911)؛ لأنّ الأحلاف تشكّلت، وبدأ النزاع على أشده بين ألمانيا وفرنسا على المغرب. فالناس كانوا يتوقعون الحرب. ولم يعد السؤال: "هل تندلع الحرب؟" بل صار: "متى ستندلع؟". والرأي العامّ، إن صحّ الحديث عن رأي عامّ آنذاك، كان يتوقّع أن يكون انطلاق الحرب العالمية بسبب المشكلة المغربية، فإذا بها تنطلق من البلقان.

مهند مبيضين: صحيح أنّ الفترة 1912 - 1913 مهمّة جدًّا - كما كان يشير إلى ذلك كلّ من الدكتور سعود والدكتور الأرناؤوط - بالنسبة إلى اللحظة المبكرة، أو السابقة، لاندلاع الحرب على صعيد حرب البلقان، أو التحضير لها، أو مشاركة الناس فيها. لقد ظلّ أُناس كثيرون يتحدثون في قرى شمال الأردن عن ذهاب أبنائهم وشبابهم إلى حرب البلقان، من دون أن يعرفوا مصيرهم حتى بعد اندلاع

الحرب. إنّ هذا الأمر لا يزال حاضرًا في الذاكرة والوجدان، ولكن لم يكن له من تفسير آنذاك سوى الدفاع عن دولة الخلافة، أو الدولة الأبدية القرار، كما كانت تُسمّى.

بناءً على ذلك، كان الدخول في شرق الأردن على الأقل، في ما أعرف، بداية الحرب. فـ "رعايا السلطان"، و"أمير المؤمنين"، و"الخليفة"، وما إلى ذلك من هذه الألقاب، أمرٌ ينعدم الكشف فيه أيضًا عن وجود "رأي عامّ" في ظل عدم وجود أساليب دعاية بالمعنى الإعلامي الراهن. كان الناس يدافعون عن هذه الدولة تحت وهج الدعاية الإسلامية، والخلافة الإسلامية، وأمير المؤمنين. لدينا فاصل زمني، إذن، بين عام 1916؛ أي الثورة العربية، أو النهضة العربية، أو أيّ اسم سُمِّيته، وبداية الحرب وقبلها بسنة. فهذه الفترة هي الفترة التحضيرية، والسنتان الأولَيان بمنزلة "دبلوم الحرب العالمية".

علينا أن نذهب نحو الشعوب، والناس، والأرياف، والمدن. فالنُّخب كانت مطّلعةً على ما يحدث، أو ما يبرم من اتفاقيات ووعود. ولكن الناس البسطاء في الريف والبادية لم يكونوا واعين أنهم يخوضون حربًا كونيةً، ولم يتخيلوا أن يأتيَ أحدٌ ويزيل دولة الدين والدنيا، أو ينهيَ وجودها، وكان التماسّ مع قوة غربية تأتي إلى هذا الوجود وتنهيه خَطْبًا كبيرًا بالنسبة إليهم. وعندما دخلت ثورة عربية الحوادث وتفاعلاتها، ظهر هذا الموقف أكثر جلاءً بالتحالف، بإبقاء الولاء للسلطان العثماني.

وفي ما يتعلق بمسألة الثورة ودخول حرب عالمية، فإنّ هذا الأمر يأتي بعد قيام الحرب بعامين تقريبًا. وكنت قد أشرت، من قبلُ، إلى أنني لست في معرض إنصافٍ، أو انتصارٍ، أو اتهامٍ، بالنسبة للشريف حسين بن علي مثلًا، ولكن أرى أنّ هذا الرجل ظُلم، على خلاف ابنيه عبد الله وفيصل مثلًا؛ لأنهما استمرًّا قائدين، والشريف حسين انتهى مبعدًا سياسيًّا، ومرض في قبرص، وكان طلبه الوحيد الذي تمّت تلبيته له هو أن يدفن في القدس، وهو من أكثر الناس الذين تعرضوا للخيانات وللوعود. ربما كان في ثقته بالغرب إفراط.

وعلى الرغم من أنّ الثقة كان لا بدَّ ألَّا تُمنح، فإنّه لم يكن يعمل من تلقاء نفسه. إنه لم يكن يعمل للثورة؛ فالثورة ليست مشروعه، بل إنّها كانت مشروع النُّخب العربية التي عرضت مشروعها على أكثر من زعيم، وأكثر من شخص فرفضوها. فقد رفضها إمام اليمن، ورفضها عبد العزيز آل سعود، وتورط فيها الشريف حسين هو بسبب ابنيه فيصل وعبد الله اللذين كانَا مع المبعوثين العرب. فابنه فيصل ذهب من منزل نسيب البكري إلى والده، ورتّب الاتصالات قبل ذلك ابنه عبد الله مع البريطانيين عام 1916. وكان إعلان الثورة معطًى جديدًا وحركةً جديدةً في موقف العرب، وموقف النُّخب العربية. لهذا عندما تخسر سيحدث انقسام أكبر، وتوزُّع سيذهب بعضه لاحقًا مع الملك فاروق، وبعضه ليستقر بالقاهرة، وبعضه الآخر مع عبد العزيز آل سعود ويستقر معه. فالسنوات الأولى، أو "الدبلوم"، كما أسميها هي الأهم. وشكرًا.

عبد الحميد هنية: أريد قول ملاحظة مهمة ومنهجية أيضًا. ولست الوحيد الذي يلفت إليها الانتباه. إنها قضية خاصة تعرض لها المتدخلون وهم يتساءلون: أين هم العرب في ذلك التاريخ؟ أي في هذه القضية، والعروبة وتصنيف العرب. ذكر بعضهم أنّه لا موضوع للعرب في ذلك التاريخ، وأنّه يجب أن نبحث عن الكلمة الملائمة لئلّا يصبح حديثنا غائيًّا، فنحاول أن نسقط على هذه الفترة أشياء نعرفها لاحقًا. أريد أن أؤكد وجود خطر الغائية في النظرة إلى هذا الموضوع.

محمد جمال باروت: كانت المدن الشامية قد بلغت درجةً متطورةً نسبيًّا من النمو السكاني والعمراني والاقتصادي والثقافي.. إلخ. نقطة البدء في تفسير ذلك هي مواجهة الأزمة المالية للدولة العثمانية، وإفلاس الدولة منذ سبعينيات القرن التاسع عشر. وقد نجم عن ذلك توقّف مرحلة التنظيمات السياسية، ولا سيما مع تعليق السلطان عبد الحميد الثاني للدستور العثماني، مع استمرار التنظيمات

العمرانية، ورفع وتيرتها. وبهذا المعنى كانت سياسة عبد الحميد الثاني استمرارًا للتنظيمات، ولكن في جانبها العمراني. وخلافًا للصورة التنميطيّة المرسومة لعبد الحميد الثاني بصفته عدوًا للتنظيمات، فـ "إنّ تجميع الخطوط السياسيّة الرئيسيّة تثبت أنّ حقبة عبد الحميد كانت استمرارًا لبرامج عهد التنظيمات"، وهذا رأي دقيق لمالكولم ياب.

لقد دفعت أزمة الإفلاس ورهن موارد الدولة لتسديد الديون التي ستزيد مع القروض؛ من أجل تمويل بناء شبكة خطوط السكك الحديد، إلى التركيز في مصادر أخرى للنمو أو الناتج المحلي الإجمالي. وكان في صدارتها التوسع في عملية استصلاح الأراضي القابلة للزراعة واستثمارها؛ إذ شكّل ذلك أحد أبرز محددات هذه المصادر، ولا سيما في أرياف حماة وحلب، وفي منطقة الجزيرة الفراتية، وكذلك الأناضول الذي ارتفع إنتاجه من الحبوب بدرجة قياسية. وعبّرت سياسة الأرض العثمانية في مرحلة التنظيمات عن هذه الطموحات، فحاولت – بخاصة في مرحلة عبد الحميد - حماية المعمورة بقوّة من البدو، وقد حمَت الفلاحين لكنها لم تستطع أن تمنع مشكلة تركُّز الملكية. وهذا هو أساس المشكلة الفلاحية الزراعية في سورية التي ستضطلع بدور بارز في اتجاهات تطورها السياسي اللاحق بعد انهيار الدولة العثمانية.

ولقد أدّى ذلك إلى انقلاب كبير في الناتج المحلي العثماني، بدأنا نلاحظه بدايةً من سبعينيات القرن إلى الثمانينيات. وحين كانت أوروبا تعيش أزمةً في مادّة القمح، كان يوجد فائض كبير في الشام العثماني، ونقصد بالشام أيضًا ما فيها من ولايات أصبحت الآن جزءًا من الجمهورية التركية، تسمى أحيانا "الولايات السورية الخمس". كانت مشكلة هذا الفائض هي مشكلة النقل. وتمّت محاولة حلّ هذه المشكلة نسبيًا عبر توسعة خطوط السكك الحديد.

أمّا النقطة الثانية، فهي المرحلة الواقعة بين السبعينيات وعشية الحرب. وكانت مرحلة ارتفاع في معدل النمو الديموغرافي. نحن نعرف مدرسيًا أنّ عوامل النمو الديموغرافي تتألف من الولادات، والوفيات، وعامل الهجرة بنوعيها (الداخلة والخارجة). وعلى الرغم من شدة تأثير الهجرة الخارجة في إطار موجة الهجرة الدولية إلى ما وراء البحار والأمريكيتين في معدل النمو السكاني في بلاد الشام، فإنّ عامل الولادات والوفيات بدأ يميل بوضوح لمصلحة ارتفاع وتيرة معدل الولادات الحية؛ ما يعني ارتفاع وتيرة الخروج من التوازن السكاني السلبي المُعبَّر عنه في مجازات الديموغرافيا التاريخية بأسنان المنشار الذي تحصد فيه الوفيات الولادات. ووفق شارل عيساوي في التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط (1815 – 1914)، كان عدد سكان سوريا الطبيعية مُقدرًا بنحو 3.500 ملايين نسمة في الفترة 1910 – 1915. وفي حال مقارنة هذا الرقم بتقديرات عام 1835، وهو 350.000,1 نسمة، فإنه يعني معدل نموٍّ سكاني يبلغ نحو 1.2%، وإذا كانت هذه التقديرات صحيحةً، فذلك يعني أنّ معدل النمو السكاني في سورية كان أعلى، على نحوٍ لافتٍ للنظر، من معدلات آسيا وأفريقيا بوجه عامّ، ومن الهند واليابان بوجه خاصّ.

وأمّا النقطة الثالثة، فهي تتمثل بارتفاع وتيرة تحضُّر البدو الرحّل والإسراع في وتائر التحول إلى نمط الإنتاج الرعوي - الزراعي، على أساس التوسع في نمط الحياة القروي، كما تتمثل بارتفاع وتيرة التمدين في المدينة الشامية. ووفق نتائج بحوث دونالد كواترت، كانت وتيرة معدل التمدين في ولايات الشام أعلى ممّا كانت عليه في مدن الأناضول. ففي حين قطن في كل من مدن دمشق وحلب وبيروت والقدس نحو ربع سكان سوريا الطبيعية أو الكبرى، فإنّ مدن الأناضول شكلت نحو 18% فقط من إجمالي سكان إقليم الأناضول. وبالنسبة إلى بيروت مثلًا، فإنّها عرفت نموًّا سكانيًا من أقل من عشرة آلاف نسمة عام 1880 إلى نحو 150 ألف نسمة عام 1914. فقد دخل الشام العثماني بدءًا من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى نشوب الحرب مرحلةَ توسُّعٍ عمراني ملموس في مدينتي حلب ودمشق وشهدت بيروت نموًّا استثنائيًا في عدد السكان، والتوسع العمراني.

استأثرت المدن بمعظم ثمار النمو الاقتصادي، ولكنّ بلاد الشام كانت أرفع تطورًا وتقدمًا؛ بسبب ارتفاع معدلات نموها السكانية والاقتصادية والعمرانية والثقافية والحضرية عمومًا في سنوات ما قبل الحرب، على غرار ما يلاحظ شكيب أرسلان من "رفاهية" ولايات الأناضول الشرقية، في حين تفوقت عليها ولايات الأناضول الغربي بسبب عملية التنمية العثمانية الحثيثة منذ مرحلة عبد الحميد.

ألحقت الحرب ضربةً جسيمةً بوتائر هذا النمو. وعلى الرغم من ذلك كان تراكم رأس المال النقدي كبيرًا بعد هذا التراكم ما قبل الحرب، والمدخر قسم منه، ورأس المال النقدي خلال الحرب الذي منه شرائح الأعيان في المدن الشامية من خلال اقتصاد الحرب عبر تضخم الكتلة النقدية، ونشوء شركات بين الأعيان وقيادة الجيش العثماني الرابع من أجل توافر متطلّباته التي تقتضيها الحرب، والإنفاق النقدي الكبير للجيوش الألمانية شأنَ جيوش الحلفاء، فـ "في مدينة حلب مثلًا وصلت أعداد كبيرة من جنود ألمانيا، وأدّى استهلاكها الكبير وارتفاع طلبها إلى نشاط الحركة التجارية والصناعية في الشام" كما يعبّر عن ذلك كرد علي، وأدّى أيضًا إلى ارتفاع الكتلة النقدية والذهبية، وارتفاع أسعار العقارات ارتفاعًا "فاحشًا" بسبب تأجيرها للقوات الألمانية، وإلى ارتفاع سعر الحبوب بسبب اعتماد الجيوش الألمانية على الحبوب السورية، واغتناء طبقة التجار اغتناءً "لم يسبق له مثيل".

وكان نصيب تجار حلب والخانجية الذين يتوسطون الفلاحين والطلب العسكري من هذه الأرباح" أوفر جدًّا من حظوظ تجار سائر المدن الشامية، حتى أنّ بلاد الشام ومدنها الداخلية كانت تغصّ بالسلع وبتجارة العملة النقدية خلال الفترة 1918 - 1920. وستظهر أهمية مزايا التراكم المالي في شراء الأراضي خلال فترة الحرب، وتحوّل الادخار إلى استثمار، وفي الاستثمار الزراعي الرأسمالي للقطن في الفترة 1920 – 1927، ثمّ في نشوء الصناعة التحويلية أو المعملية، بدءًا من عام 1927 في سورية. لكن هذا الأمر جانب من الصورة، في حين كان جانب آخر منها بائسًا جدًّا، وهو متمثّل بالحرب وآثارها في معظم السكان، ولا سيما في الريف.

أردت من ذلك كلّه تقديم مدخل بشأن الآثار المتناقضة للحرب، على أنّ تلك الحرب في حصيلتها الصافية كانت وبالًا مثلها مثل أيّ حرب أخرى.

فتحي ليسير: المجاعات في الشام في الفترة 1916 – 1917 مسألة بالغة الأهميّة. وتفيدنا المصادر أنها تسببت بهلاك 10% من سكّان بلاد الشّام، وخصوصًا في منطقة جبل لبنان. فهل يفسر هذا بسياسة مصادرة المواد الزراعية التي أقدم عليها جمال باشا فقط؟

محمد جمال باروت: المجاعة ليست بفعل الحرب بدرجة أساسية، بل بفعل هجمات الجراد الكاسحة والكثيفة في نيسان/ أبريل 1915، وقد ظلّت تنهش الإنتاج الزراعي حتى الصيف. فكانت تلك الفترة من أطول هجمات الجراد، وكانت جزءًا من كارثة لحقت في تلك السنة حتى بالعراق وفلسطين ولبنان. لكن ارتفاع وتيرة طلب الجيش للحبوب أدّى إلى ندرتها وارتفاع سعرها، وهو أمرٌ دفع ثمنه فقراء الناس. وكانت المجاعة في جبل لبنان خصوصًا؛ وذلك بعد إلغاء المتصرفية وفرض الحصار عليه. وكان تأثّر جبل لبنان بندرة القمح أقسى كثيرًا من تأثّر سورية على نحوٍ غير قابل للقياس؛ بسبب منْع تصدير القمح إليه، وهو الذي يعتمد على صادرات الشام إليه وبخاصة منطقة البقاع، ولم يرفع هذا الحظر إلا عام 1917. لكنّ جبل الدروز وجبل حوران في سورية، مثلًا، ظلّا منتجيْن للقمح، ويمدَّان مدينة دمشق به. فالمدن الداخلية السورية لم تواجه أزمة المجاعة التي واجهها جبل لبنان بسبب أريافها المنتجة للقمح، على الرغم من مصادرة الفائض الإنتاجي الزراعي، ولا سيما في مجال الحبوب وشرائه جبريًّا لسدّ حاجات الجيش.

المحور الثاني

لنمرَّ إلى المحور الثاني، وهو يتعلق بمشاركة العرب في الحرب العالمية الأولى. هناك مسألة على قدر كبير من الأهمية، وهي تتعلق بالأرقام، كيف نثق بالأرقام التي تقدمها لنا الوثائق عن أعداد المشاركين في الحرب العالمية الأولى؟ وثمّة مسألة أخرى؛ وهي الفرق بين المساهمات العربية بين المشرق والمغرب. فالملاحظ أنّ المغاربيين كانوا أكثر انخراطًا في الحرب العالمية الأولى من المشارقة.

سعود المولى: من النقاط المهمّة في هذا الموضوع ما يتعلّق بأهمية المساهمة في الأحزاب السياسية في بلاد الشام بعد عام 1908. ينبغي ألّا ننسى أنّ قسمًا مهمًّا من النُّخب العربية شكَّل جمعيات؛ مثل اللامركزية، والعهد، وغيرها، وأنّ قسمًا آخر مهمًّا منها أيضًا دخل في حزب الاتحاديين. ولعلّ معظم النُّخب الإسلامية دخلت في الحزب مع الاتحاديين، ولذلك تأسّست له فروع في كل بلاد الشام. ومن أمثلة ذلك جنوب لبنان؛ إذ كانت في مدينة النبطية وعدد من المدن في المناطق الشيعية نُخب شيعية داخلة في هذا الحزب.

وتتعلّق نقطة ثانية بأنّ هذا الأمر شكّل عامل نقاش مهمّ. فليس صحيحًا أنّ هذه المجتمعات كانت غير واعية، أو أنّ المثقفين لم يكن لديهم وعي بتلك الأوضاع. لقد كان الأعيان والوجهاء والنواب في "مجلس المبعوثان"، وكان هناك نقاش دقيق واحترافي في تفاصيل السياسة العثمانية خلال تلك المرحلة، وخصوصًا بشأن الموقف من الدخول في الحرب العالمية الأولى مثلًا. ثمّ أخذت المواقف تعرف عدّة انقسامات تجاه هذا الأمر. فشكيب أرسلان كان من دعاة الدخول في الحرب العالمية بقوة، من خلال مقالات وندوات وغيرها. وكان يشرح ضرورة مساهمة الدولة العثمانية في الحرب إلى جانب ألمانيا؛ وذلك بناءً على الوقائع التي حدَثت في حربي ليبيا والبلقان، والتي استنتج منها أنّ الغرب يُعِدُّ العدة لتقسيم الدولة العثمانية. وكان هذا قبل انكشاف اتفاقية سايكس بيكو أو وعد بلفور.

يُضاف إلى ذلك الانتفاضات التي حدثت في ذلك الوقت، فمثلًا كانت أوّل انتفاضة مجهولةً، ولم تكن انتفاضة بالمعنى الحقيقي، بل كانت تلبيةً لنداء الجهاد الذي أطلقه السلطان عبد الحميد، وكان أوّل من لبّوا النداء علماء الشيعة في النجف؛ أي إنّ المواجهة الأساسية مع الإنكليز حصلت في الفترة 1914 - 1915 في الكوت والعمارة، وقادها علماء ومشايخ، ونحن نجد اليوم بشأنها كتابات عديدةً. والمهمّ فيها أنها كانت تلبيةً لنداء السلطان ونداء الجهاد، على الرغم من كلّ التعقيدات والتناقضات السنية الشيعية. وعند علماء الشيعة توجد خطابات وكتابات عديدة في هذه المسألة. وعندما أُعلنت فتوى الجهاد، كانت ثمّة، إذن، مساهمة في مسألة الجهاد قبل ثورة العشرين في النجف (1920). ومن ناحية أخرى، نذكر مسألة النُّخب والأعيان الذين التفوا حول الهاشميين، وكيفية نجاحهم في تجميع القادة من القبائل ووجهاء البدو، وانقسام هذه النُّخب بشأن هذه المسألة بين التحالف مع الإنكليز والبقاء في ظل الدولة العثمانية.

تحتاج هذه القضية إلى نظرٍ في الوثائق العثمانية. والمشكلة أنه لا يوجد لدينا من الوثائق حول هذه الحقبة إلّا الوثائق العثمانية، وإلى يومنا هذا أُهمل هذا الجانب بسبب النزعة القومية العربية والتركية. فالفكرة السائدة عند الأتراك أنّ أصحاب تلك النزعة خانوهم، وأنّ الخيانة العربية هي سبب سقوط الدولة. والفكرة السائدة عند القوميين العرب أنّ العثمانيين أذلّوا العرب وأهانوهم ولم يراعوا حقوقهم. فلم يجرِ البحث في الوثائق العثمانية الحكومية مثلًا عن أعداد المقاتلين الشهداء في الجيوش ونسبهم العامة، مقارنةً بالجيش، وبعدد السكان العرب والأتراك. وعلى سبيل المثال، قاتل جدّي والمئات من اللبنانيين والسوريين في اليمن (حملات اليمن التي قام بها العثمانيون). فكم من الآلاف ذهبوا في تلك الحرب من أبناء هذه البلدان.

ناصر الدين سعيدوني: إنّ للإحصاءات أو الأرقام دلالة قيمية في الواقع، فمن الصعب تحديد عدد القتلى أو الجرحى في الحرب. وإذا قلت مثلًا: هلك 100 شخص، فقد يكون العدد 101 أو 99، ومن ثمّة فإنّ الأرقام تُعبِّر عن واقع الأحداث فقط؛ وذلك لصعوبة

ضبطها بسبب اختلاف الروايات. وعلى كلّ حالٍ، توجد تصنيفات عديدة لضحايا الحرب العالمية الأولى من العرب. فثمّة القتلى والجرحى من المشاركين في الحرب، وثمّة من قُتلوا في الثورات والأعمال الناتجة من الحرب، وثمّة من هلكوا من جرّاء الأوضاع المأساوية التي نتجت من الحرب كالكوليرا، والطاعون، والمجاعات، وغير ذلك، بغضّ النظر عن الذين التحقوا بالجانب الآخر وعُدُّوا في حُكم المفقودين.

إنّ إشكالية الأرقام في تحديد خسائر الحرب قضية مهمّة، ولكن ينبغي أن تُعالج بنظرة شاملة ودقيقة لتعرُّف النزْف الذي تعرَّض له العالم العربي من جرّاء الحرب العالمية الأولى وتبعاتها؛ من قمع استعماري وأوضاع مأساوية.

جامع بيضا: سأتحدث، بطبيعة الحال، عن حالة المغرب، وانخراط المغرب، أو المغاربة، أو إشراكهم (انخرطوا طوعًا أو تحت الإكراه). وفي هذا السياق نطرح سؤالًا: هل هُم شهداء؟ أم هل أنهم "قتلى راحوا طعمًا للمدافع" فحسب؟ هذه مسألة أخرى ولكن في حالة المغرب يجب أن تُؤخذ في الحسبان. فهذه المشاركة ليست انخراطًا لسببٍ قوامه حداثة الاحتلال عام 1912، ثم اندلاع الحرب عام 1914؛ أي بعد زمن قصير جدًّا من الاحتلال. وهذا يعني أنّ قوات الاحتلال لم يكن لديها بعدُ تمكُّن على أرض الواقع، سواء كان ذلك من حيث المؤسسات، أو من حيث البنيات الإدارية، أو البنيات التحتية.

وثمّة عنصر آخر يجب أن نأخذه في الحسبان؛ وهو أنّ المغرب الأقصى لا يحمل مثل بقية الدول إرثًا عثمانيًّا سواء كان ذلك بالنسبة إلى الناس عمومًا، أو بالنسبة إلى النُّخبة خصوصًا، ولا يحمل ذلك الإرث أيضًا في مستوى السُلطة. وهذا كلّه جعل قوات الاحتلال تستغل هذا الظرف لكي تردّ على فتوى الباب العالي المتعلّقة بالجهاد، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، بفتاوى أخرى مضادة ذات طبيعة إنسانية، استصدرها المقيم العامّ الفرنسي ليوطي من أقطاب الزوايا من العلماء الكبار؛ مثل عبد الحي الكتاني، وأحمد المواز، وأبو شعيب الدوكالي، وغيرهم.

وإذا ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك تساءلنا: هل كان لهذه الفتاوى تأثير في الشعب؟ لقد كان تأثيرها نسبيًّا، ولكنّ "الداهية" ليوطي استطاع أن يستميل أمير المؤمنين السلطان إلى استصدار رسائل منه موجهة إلى المحاربين. وفي الأرشيف أنّ السلطات الفرنسية كانت تستنسخ تلك الرسائل الموجهة إلى المحاربين في الخنادق في فرنسا. فالقبطان "جوا" الذي كان يؤطّر بعض القوات في بورتو وغيرها، مثلًا، يذكر أنه في الفترة 1914 - 1915 استُنسخت هذه الرسائل، ووُزعت بين الناس الذين كان معظمهم أميين، وغير ناطقين باللغة العربية، أو عاميتها. فجلّهم أمازيغ ولكنهم يقبلون هذه الرسالة بخشوع، ما إن يعرفوا أنّها وصلت من ذلك السلطان الذي يصلّون باسمه كلّ يوم جمعة.

توجد، إذن، دعاية عثمانية، ودعاية مضادة تنتقد شرعية الدولة العثمانية في خلافة المسلمين؛ لأنها ليست من آل البيت. بل يوجد مشروع لجعل السلطان المولى يوسف خليفة للمسلمين، ولكن جرى التخلي عنه. وآتي إلى قضية الأرقام فأضيف ما يلي: على الرغم من حداثة الاستعمار، وهشاشة البُنى، وموقع قدم فرنسا في تلك الفترة في المغرب، فقد استطاعت - وأضع الأرقام الرسمية محلّ استفهام لأنها دون الواقع - أن تجند رسميًّا 40.398 رجلًا على الأقل. وقد نجم عن ذلك نحو 9.000 من الضحايا و17.000 من الجرحى. أعني أنّ الأمر يتعلّق بنجاح له تداعياته. ولكن يجب أن يوضع في سياقه حتى نعرف حيثياته بدقة.

عبد الرحيم بنحادة: كان جامع بيضا يتحدث عن الدعاية والرسائل والفتاوى التي استصدرها السلطان العثماني، وكان يشير بطريقة مضمرة إلى تلك الوثائق التي نشرتها مجلة العالم الإسلامي عام 1916، والتي كانت بمنزلة فتاوى تبين أنّ الدولة العثمانية لم تكن بالدولة التي تستحق أن تكون دولة خلافة، وتقترح المولى يوسف بديلًا، ومرشحًا للخلافة. ولكن الذي وقع أنّ إنكلترا حليفة فرنسا

كانت تقترح شخصًا آخر هو الشريف حسين. ومن ثمّة، حدث ذلك النزاع الخفيّ داخل أوساط الحلفاء في مواجهة دول المحور، وفي مواجهة الدولة العثمانية خصوصًا.

عبد الواحد المكني: صحيح أنّ رقعة الحرب كانت في أوروبا، ولكن البلاد العربية عرفت جيوبًا لهذه الحرب (خليفة بن عسكر، والباروني، وأحمد الشريف) بين تونس وليبيا وقعت في مصر، بعد محاولة الهجوم على قناة السويس وما وقع في شبه الجزيرة العربيّة، وهذه نقطة أولى.

النقطة الثانية هي أنّ الجديد في هذه الحرب هو حرب الغواصات واستعمال الطائرات، وهو ما وقع في الجنوب التونسي، و"حرب الخنادق". ومثل هذه أشياء لم يكن للجنود العرب أو المغاربة تدريب عليها؛ فساهم ذلك مساهمةً كبيرةً في سقوط عدد كبير من الضحايا؛ ذلك أنّ عدد الضحايا الكبير لهذه الحرب يرجع إلى التطور التقني. فمثلًا، ما إن خرج عدد كثير من التونسيين من الموانئ حتى قصفتهم الغواصات الألمانية، وقُتل نحو 700 جندي تونسي وهم خارجون من ميناء وهران. لقد ذهبوا برًّا إلى وهران فقصفتهم الغواصات الألمانية. وهذه الفئات التي شاركت في الحرب هي من الأرياف والبوادي عادةً. وهي فئات فقيرة، والتعرض لها لا يكون في سياق رقمي فقط، بل في سياق اجتماعي أيضًا، وإنّ أغلبها من عمق المجتمع، ومن فئاته الشعبية.

النقطة الأخرى متمثّلة بوجود رأي، ورأي ضديد تجاه الخسائر. وأول محاولة لبلورة الحديث عن خسائر، وعن أزمة، وعن نزْف، كان قد قام بها محمد بشحامبة في كتابه **الشعب الجزائري التونسي وفرنسا**. وهذا الكتاب تم تعريبه في بيت الحكمة في تونس عام 1990، وقد بلور فيه المؤلف فظائع الاستعمار الفرنسي في تونس والجزائر ولم يعرّج على المغرب، وذكر فيه سلاسل رقميةً للمجندين والضحايا تنطوي على كثير من المبالغة التي تدخل في إطار الخطاب.

إنّ المشاركين في الحرب من التونسيين والجزائريين والمغاربة نسميهم في الخطاب الشعبي التونسي "المراركة". وأشير إلى أنّ المغاربة كانوا أقلّ خسائر، بشهادة الفرنسيين. ففي الحرب المباشرة خاصةً، كانت للجيش المغربي تقاليد، وهو أكثر دربةً من التونسيين والجزائريين. وفي تونس كان يوجد جيش، لكن تمّ حلُّه، وأصبح تحت إدارة فرنسية، وأصبح تقريبًا، بدايةً من عام 1882، جيشًا مدنيًا، لا جيشًا عسكريًّا. أمّا بالنسبة إلى المغرب، فتتحدث المصادر عن أنّ المغاربة الذين شاركوا كانوا أقلّ خسائر من التونسيين والجزائريين؛ بسبب وجود تقاليد لهم متمثّلة بـ "فرق الغوم"، و"فرق المخزن"، و"فرق الصبايحية". إضافةً إلى وجود ضباط فرنسيين، في الفترة 1911 - 1912، مؤثّرين في الجيش المخزني المغربي، وفي تدريبه. هذا ما أردت أن أقوله في بإيجاز.

فتحي ليسير: شكرًا، على نحوٍ برْقيّ، ومساوقةً لمسألة الخسائر، أشير إلى أنّه راجت عبارات؛ مثل مذابح، وركام الجثث، وقبور جماعية، في إشارات إلى أنّ هذه الحرب كانت أكثر فظاعةً وبشاعةً من الحروب السابقة. ومردّ ذلك استعمال أسلحة جديدة مثل "الغاز الخانق" الذي نسميه اليوم "الكيماوي" والطيران. كلّ ذلك كان حاسمًا في الجبهتين: الجبهة التي فتحها الألمان والإيطاليون مع مصر، والجبهة في الجنوب التونسي حيث أنشأ الفرنسيون مطارات جديدةً لقصف نالوت التي كانت منطلق القبائل الثائرة.

أريد أن أشير كذلك إلى ما يلي: بوصفيّ عربيًّا، من المغرب العربي، أرى أنّ تصفية زعماء الحركة العربية (شنق جمال باشا لرموز هذه الحركة)، وإعلان الشريف حسين الثورة العربية بالتنسيق مع جماعة الحركة العربيّة في الشام (سوريا الكبرى)، إلى جانب الارتجال الذي وسم مخطّطات الخبراء الأتراك والألمان خلال الحرب في المنطقة، كانت كارثيةً بالنسبة إلى عرب المشرق والحركة العربية على وجه الخصوص.

ما أريد أن أشدّد عليه هو وجود تقصير كبير في دراسة هذه الفترة من الجانب العربي. إنّ الوثائق المتعلّقة بجبهة الجنوب التّونسي تعدّ بعشرات الآلاف. والفرنسيون يعترفون بأنها كانت فعلًا جبهةً من جبهات الحرب العالمية، ويكفي أن نذكر أنّ عدد الضباط الفرنسيين كان 365 ضابطًا، وأنهم كانوا يشرفون على العمليات، وأنّ عدد القتلى في الجانب الفرنسي، في عدّة مواقع، تجاوز 2750 قتيلًا.

تتمثّل الملاحظة الأخيرة بالمجندين وبجهد الفرد بصفة عامة. فثمّة من شاركوا في الجبهات، وتوجد في هذا المؤتمر عديد الورقات بشأن هذا الموضوع. لكنّ جهد الحرب الفرنسي لم يقتصر على المجندين الذين شاركوا في الجهد الحربي فقط. ففرنسا سدّت النقص الكبير من العمالة في المصانع بشباب المغرب العربي، وقُدّرت هذه العمالة بعشرات الآلاف الذين اشتغلوا في المناجم في أوضاع صعبة جدًّا، ولم يكونوا متكيفين مع الطقس والبرودة الشديدة (تصل الحرارة إلى عشرين درجةً تحت الصفر). فهذه مشاركة أيضًا ضمن جهد الحرب متعلّقة بنزْف بشريّ، لا يجري التعرض له في أغلب الأحيان، وهو جانب مهمّ جدًا؛ لأنّ الصناعة الحربية تطورت تطوّرًا كبيرًا؛ ما دفع الفرنسيين إلى إشراك النساء في مهن لا تستقيم مع وضع المرأة؛ فهي مهن شاقة جدًّا تجري في أوضاع صعبة. شكرًا.

محمد عفيفي: شكرًا. أودّ أن أساهم في مسألة المعاناة فقط، وأشير إلى آلام من تطوعوا، أو عملوا في الجهد الحربي. والتجربة المصرية، في هذا الشأن، ثرية ومهمّة. وتشير الأرقام إلى عشرات الآلاف من المصريين من البسطاء الذين جاؤوا من الريف، تم أُخذوا للعمل في الجهد الحربي في بلاد الشام، وفي أوروبا. وتوجد مؤشرات دالة على موت كثير منهم. غير أنّ الأرقام متضاربة، ولم تُدرس باستفاضة. وفي تلك الفترة، ثمّة مصريون ماتوا في بلاد الشام، وحتى في جنوب فرنسا. وتلك المعاناة دخلت أيضًا في التراث الشعبي المصري. وحتى الآن، على سبيل المثال، توجد أغنية شهيرة جدًّا ما زلنا نرددها، وقد حاكتها أغانٍ أخرى، مثل: "بلدي يا بلدي يا عزيز عيني وأنا نفسي أروح بلدي"، وأصل هذه الأغنية: "بلدي يا بلدي والسُلطة خدت ولدي" (السُلطة الإنكليزية). وحاكت تلك الأغنية أيضًا أغانٍ كثيرة أخرى. وفي هذا السياق، توجد أمثلة أخرى من هذا القبيل.

زرعت المعاناة عند المصريين فكرة الحلم بأنّ من يخلصهم من معاناتهم هو عباس حلمي الذي سوف يأتي مع الحملة العثمانية، حتى أنّ أغنيةً شعبيةً ظهرت، وظلّت تُردَّد حتى الآن؛ إذ يُردَّد في الملاعب الله حيّ، التاني جي". والمقصود بذلك الهدف الثاني، على أنّ أصل ذلك هو: "الله حيّ، عباس جي.. إلخ". وهذه الأغنية التي تشتمل على الحلم بعودة عباس نتيجة المعاناة الشديدة التي عاناها المصريون طويلة جدًّا.

مهند مبيضين: أظن أنّ جلّ المجنّدين، بوجهٍ عامّ، كانوا من الأرياف، وأنّ أكثر الناس الذين عانوا هم أبناء الريف والفلاحين. وهذا الأمر ربما أدّى إلى كساد في الأراضي الزراعية في ما بعد. أتوقع أنه توجد سجلات عثمانية في هذا الشأن. وبالنسبة إلى أعداد المجنّدين، فإنّ كثيرًا من المعلومات المتوافرة تظلّ غير دقيقة.

وفي ما يتعلق بأولاد العشائر والبدو الذين شاركوا في ما بعد في ثورة مع الشريف حسين أو في حملة جمال باشا نحو السويس، يوجد مصدر مهمّ أرى أنّه من الأفضل أن نطّلع عليه؛ لأنني اطلعت على معطيات لبعض المعارك في منطقة شرق الأردن متعلّقة بالعمليات العسكرية للثورة من خلال مجلة **الحرب العظمى** التي كان ينشرها عمر أبو النصر، وهي مجلة كانت لها أهميّة في تلك الفترة، وكانت تُوثّق وقائع الحرب توثيقًا يوميًّا تقريبًا خلال عامين مستمرين من الزمن.

محمد الأرناؤوط: بالنسبة إلى المشاركة، أرى أنّ لدينا إشكالية متعلّقة بالتعميم. فالمناطق التي تناولناها لكل منها خصائصها؛ شأنَ بلاد الشام، ومصر، وبلاد المغرب. البارحة مثلًا، عرفنا من خلال إحدى الورقات أنّ نظام التجنيد في الجزائر لم يصدر إلّا عام 1912.

وبالنسبة إلى بلاد الشام، فإنّ لدينا مسارين مرتبطين بالتجنيد. فمن خلال الأرشيفات العثمانية المتعلقة بوزارة الحربية يمكن أن نعرف معطيات خاصةً بالجيش العثماني الرابع، والكيفية التي كان يجري بها التجنيد، وآليته، وصولًا إلى عدد الضحايا والشهداء. أمّا المسار الآخر، فهو التطوع. ومن ثمّة إذا عدنا إلى صحيفة **المقتبس**، أرى أنه لا بدّ من التمييز بين عام 1914 (بداية الحرب ونداء السلطان للجهاد) وعام 1916 (إعلان الثورة). ولو أنّنا عدنا إلى الصحافة السورية خلال هذه الفترة، وتحديدًا خلال وجود جمال باشا، لوجدنا بلاد الشام كأنّها كلّها مُجندة أو متطوعة في سبيل الدفاع عن هذه الدولة. ولذلك يجب أن نأخذ في الحسبان، كما ذكر الدكتور مهند مبيضين، أنّ موقف العشائر في شرق الأردن مثلًا لم يُحسم لمصلحة طرف معيّن إلا عام 1917؛ ولذلك فإننا نحتاج إلى أن نعود إلى المصادر والأرقام، إذا أردنا التوصل إلى نتائج دقيقة. شكرًا.

المحور الثالث

عبد الرحيم بنحادة: بالنسبة إلى المحور الثالث، ثمّة حضور للعرب خلال الحرب العالمية الأولى التي امتدت خلال الفترة 1914 – 1918. ولكن يوجد حدثان بارزان مرتبطان بتاريخ الأمة العربية هما حدث سايكس بيكو عام 1916، وحدث وعد بلفور عام 1917. فكيف أثّر هذان الحدثان في مسار الحرب؟ وكيف تأثر العرب بالحرب من خلالهما؟

محمد جمال باروت: بخصوص وعد بلفور، يحتاج الأمر إلى استعراض مكثَّف. وتحتاج مسألة العلاقة بين ما نصطلح عليه "الحركة العربية" وهذا الوعد إلى تدقيق وشرح. فبأيّ معنًى هي حركة عربية؟ وبالنسبة إلى "الحركة الصهيونية"، فلن أعود، بطبيعة الحال، إلى بدايات الاستيطان الحديث، ولكن كان توجد حالة حِوارية بين رجالات من يمكن أن نضعهم في إطار الحركة العربية من جهة، وقادة الحركة الصهيونية من جهة أخرى. وحتى في الصحف العثمانية، في تلك الفترة، توجد تفاصيل كثيرة متعلّقة بمحاولات التنقيب، وشراء الأراضي.. إلخ.

النقطة المحورية تتلخّص في حضور ممثّل عن الحركة الصهيونية في المؤتمر العربي الأول، وهي في حاجة إلى توقُّف عندها، وعند الدور الفرنسي أيضًا في عملية التحفيز. إننا نجد، في التاريخ الداخلي لتطور الحركة الصهيونية في فلسطين، عملية تحوّل كبير في موقف أعيان الشام الممثّلين في "مجلس المبعوثان". وقد جرى هذا التحول من خلال عملية لقاء شكري العسلي وممثلي الحركة الصهيونية، على أساس الاعتراف بحقوق اليهود. والحقيقة أنّ طرح الأفكار كان يصل إلى درجة أعلى من وعد بلفور، على الرغم من أنّ صيغة هذا الوعد كانت دقيقةً. وهذا تغير كبير؛ لأنّ شكري العسلي في "مجلس المبعوثان" عام 1911 دخل في قطيعة مع الاتحاديين نتيجةً لعدة ملابسات، ثمّ بدأت هذه العلاقة عمليًّا عام 1914، وهي من الممكن تدقيقها بسهولة حتى بحسب الأيام.

في هذا السياق، نجد على صعيد الوقائع أنّ فيصل التقى ويزمان عام 1918، مصادفةً في إطار تنظيم اتفاق فيصل وويزمان الثاني بعد عقْد مؤتمر فرساي. ولهذا الأمر سياق آخر تنضوي إليه تحفظات فيصل، إلى جانب وجود شكوك في إمكان قراءة فيصل للوثيقة التي كانت باللغة الإنكليزية. الخلاصة، إذن، أنّ العلاقة بين الحركة العربية والحركة الصهيونية لم تكن بهذه الطريقة العدائية التي صوّرها الفكر القومي اللاحق بعملية إعادة البناء الأيديولوجية لهذا التاريخ؛ أي عملية الجزر المبعثرة المتمثلة بنجيب عازوري وتوقُّعه أن يكون النزاع بين القوميتين العربية واليهودية في كتابه **يقظة الأمة العربية**. فأفكار عازوري ومجموعته اليمينية مرتبطة بالنزاعات الفرنسية السياسية والفكرية الداخلية، تحديدًا بين اليمين الفرنسي والجمهوريين الفرنسيين من جهة، واليسار والماسون من جهة أخرى.

ومنطلقه في العداء للحركة الصهيونية واليهود هو منطلق ما يسمى "العداء للسامية"، وليس منطلق العداء للحركة الصهيونية كمشروع قومي استيطاني إحلالي.

بطبيعة الحال، أُبرز مشروع نجيب عازوري، وهو من أبرز مبلوري الفكر القومي العربي، بوصفه ذا "دواع قوموية". وفي هذا الصدد، لدينا مشكلة متعلّقة بعملية وضع هذه الأفكار في سياقها الفعلي. فمثلًا، لم تكن العلاقة عدائيةً بين قادة الحركة العربية والحركة الصهيونية قبل اندلاع الحرب، وربما حتى في الفترة التي أعقبتها بعدة سنوات؛ بمعنى أنّ العلاقة لم تكن تناقضيةً تناحريةً على النحو الذي نتصوره اليوم. فقادة الحركة العربية في الشام مدُّوا يدًا للتحالف أو الحوار مع الحركة الصهيونية، وتدخل العثمانيون الاتحاديون لمحاولة منْع ذلك وعرقلة انعقاد الاجتماع. إنّ قادة الحركة العربية في تلك الفترة لم يدركوا كُنْهَ المضمون الاستيطاني الإحلالي للحركة الصهيونية إلا على نحو محدود، وهو ما ستُعبِّر عنه كارثة نشوء الوطن القومي اليهودي، ومن ثمّة نشوء دولة إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني.

محمد الأرناؤوط: قبل سايس بيكو ووعد بلفور، أرى من الضروري أن نعود إلى موضوع الثورة، وإلى التساؤل المهم الذي طرحه الدكتور فتحي ليسير بشأن الثورة العربية الكبرى، وقد كان الشريف حسين يسميها "النهضة العربية"، وهو مصطلح له مغزاه. وإذا عدنا إلى صحيفة **القبلة** التي استشهد بها الدكتور مهند مبيضين، فمن المهم أن نسميها باسمها "النهضة العربية" Revolt. وفي ما بعد استُخدم مصطلح "الثورة"، ثم "الثورة العربية"، ثم أُضيف إلى هذا المصطلح كلمة "الكبرى". وقد وعد الدكتور مهند بإيجاد مناخ نعيد فيه مراجعة هذه الفترة، وصولًا إلى ما حدث وإلى ما انتهت إليه هذه الحركة، وخصوصًا ما أبداه من تقدير للشريف الذي ظُلم، ونُفي، وانتهى إلى ما انتهى إليه.

بالنسبة إلى وعد بلفور، إضافةً إلى ما قاله الأخ العزيز محمد جمال باروت وما قلته بشأن ضرورة التمايز - وأشير إلى أنني في هذه الأيام عدت مصادفةً إلى قراءة كتاب بيان الحوت المتعلّق بالنُّخب والقادة الفلسطينيين - لفت نظري بخصوص وعد بلفور الاحتفالات التي كانت تُقام له. والآن يكتب أحد الزملاء دراسة عن هذا الموضوع، فيذكر أنّه ورد في الصحافة اليومية أنّه كانت تُقام احتفالات ضخمة بصدور وعد بلفور في الإسكندرية، حتى أنّ أحد الاحتفالات حضره نحو 7000 شخص، وكان ذلك من مظاهر الفرحة. ومثل هذا الخبر في الصحافة المصرية كان يمرّ على نحوٍ عادي.

ثمّ إنّ وعد بلفور قُرئ قراءةً رسميةً في نيسان/ أبريل 1920؛ أي عندما بدأ الانتداب. أمّا بالنسبة إلى سايكس بيكو، فلا بد أن نأخذ في الحسبان أنه كان اتفاقًا سريًّا، وأنّه لم يُعلن إلا مصادفةً؛ نتيجةً للثورة البلشفية وما قام به البلاشفة، وهو ما علم به الناس في فلسطين في مطلع عام 1918، عندما كانت العمليات العسكرية على الأرض قد حُسمت تقريبًا، وكان الجنرال اللنبي قد وصل واحتل القدس، وأصبحت العمليات العسكرية في المنطقة تدور لمصلحة الحلفاء. أرى أنّ هاتين النقطتين مهمّتان، إضافةً إلى ما قاله الأخ العزيز جمال. وعندنا الآن من يشتغل بالوعي المبكر أو الموقف المبكر إزاء الصهيونية وغيرها. شكرًا جزيلًا.

فتحي ليسير: كشف البلاشفة للشريف حسين عن حقيقة اتفاقية سايس بيكو وأعلموه بها، فهل ثمّة ما يشير في الوثائق إلى أنّ البلاشفة كشفوا للشريف حسين عن فحوى اتفاقية سايكس بيكو، وأنه - على الرغم من ذلك - واصل دعمه لإنكلترا كأنّ شيئًا لم يكن؟

مهند مبيضين: السؤال مهمّ، وقد كشف نوري الشعلان، وهو أحد الشيوخ البدو، هذا الأمر لعودة أبو تايه الذي كان مع جنود فيصل عام 1917. فقد وصلوا إلى العقبة، بعد أن كانوا في الوجه، واستمرت العمليات فيها. أرجو أن تجريَ مساهمات في هذا الأمر، سواء كان ذلك في ندوة، أو في مؤتمر السنة المقبلة، حتى ننظر في الكيفية التي سيكون بها تقييم هذا الموضوع.

وفي موضوع الحوادث الكبرى للنهضة العربية (أو الثورة)، يمكن القول إنها كانت مشروعًا اصطدم بمخطّطين. وأقول، مرةً أخرى، إنّ النهضة ليست مسؤولية الشريف حسين ولا مسؤولية أولاده، سواء كان ذلك في ما يتعلّق بإخفاقاتها، أو نجاحاتها، أو تداعياتها. كان يوجد مشروعان آخران: مشروع الاستعمار الأوروبي في المشرق، ومشروع الحركة الصهيونية.

وبالنسبة إلى هذه الحركة، لم تكُن النُّخب على وعي بأنها تتعامل مع مشروع دولة سيكون اسمه "إسرائيل" لاحقًا. وهذا ما اتضح مع شيوخ العشائر والبدو عندما كانوا يعتبون على الوكالة الصهيونية بأشياء من قبيل "إنكم أعطيتم فلانًا أشتال زيتون ولم تعطوا هذا". وفي الوقت نفسه، فإنّ الدراسة في "مجلة أسطور" متعلّقة بالنُّخب السورية، وعبود، وفخري بارودي، والقوتلي، وبالكيفية التي تعاملت بها النُّخب السورية مع الحركة الصهيونية والوكالة الصهيونية، وبالطريقة التي كان توجد من خلالها مشاريع، ولقاءات، ومؤتمرات، علمًا أنّه كان في دمشق نحو 16000 يهودي في ذلك الوقت. ويحيل هذا الأمر على أنه لم يكن ثمّة فهمٌ واضح بالنسبة إلى النُّخب. وإذا كانت هذه هي حال النُّخب، فكيف تكون حال العامة والبسطاء الذين لا يعرفون خطر الحركة الصهيونية التي كانت متغلغلةً في كلّ مدينة، أو مجموعة ضباط، أو مندوبين يتعاملون معهم؟

أمّا بالنسبة إلى مسألة الوطنيات، فنتساءل: كيف عبّرت هذه الوطنيات عن ذاتها خلال هذه المرحلة؟ في البوادي والمدن كان ثمّة نوع من النُّخب، ولكنها مُشكّلة في حالة وعي مختلفة. أرى أنّ الأمور كانت غير واضحة تمامًا في تلك الأماكن. لم يكن يُتخيل أنّ هذه الدولة ستسقط، ولكن حينما أصبح الغرب واقعًا حدث انكشافٌ وانكسارٌ لهذه النُّخب، وهو أكثر مشهد صارخ عاناه الأمراء الذين حكموا المنطقة. فعبد الله الحسين كان يعاني في شرق الأردن، وفيصل كان يعاني في العراق معاناة شديدةً. وكما قلت، كان الضحية الأكبر هو والدهم الشريف حسين بن علي الذي ذكر في إحدى الوثائق أنّ أحد الأشخاص، وهو الممرض، كان يطالب براتبه؛ أي إنه لم يكن لديه راتب يدفعه له مقابل رعايته الصحية له. بل إنّه لم يُقم له مأتمٌ، ولم يُقم له بيت عزاء، وإنما أُخذ مباشرةً ودُفن في القدس. شكرًا.

نقول دائمًا إنّ النُّخب الأردنية كانت لها علاقة بالحركة الصهيونية، وإنّ الأمير عبد الله كانت له علاقة بالحركة الصهيونية. نجد أنّ النُّخب العربية في ذلك الوقت متهتكةً مخترقةً من الحركة الصهيونية، وأنّ لها تعاونًا معها. فمن لم يكن عميلًا لألمانيا، كان عميلًا لبريطانيا، وعملاء بريطانيا عاتبون على عملاء ألمانيا، وعملاء ألمانيا عاتبون على عملاء بريطانيا. شكرًا.

ناصر الدين سعيدوني: أرى أنّ وعد بلفور هو تعبير عن مشروع استعماري أوروبي قبل أن يكون خطوةً صهيونية. ومن ثمّة، فإنّ الفكر الاستعماري القائم على النظرة المركزية الأوروبية التي تتجاهل حقوق الشعوب الأخرى ومصالحها كانت تُخطّط لغرس الكيان الصهيوني على حساب الوجود التاريخي للشعب الفلسطيني؛ لأنها ترى أنه يستحيل في المستقبل التعايش بين صاحب الأرض، وهو الشعب الفلسطيني، ومغتصبي أرضه وهم اليهود، وهو ما يتطلب في نظرها تجاهل الشعب الفلسطيني.

هذا ما عبّر عنه هاينز فيتشر Heinz Fischer، أحد الطلبة اليهود، من خلال أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية في جامعة باريس عام 1937 بعنوان **الاستيطان اليهودي في فلسطين: مراحله ومصاعبه** *La colonisation juive en Palestine : ses étapes, ses difficultés*. فقد ركّز في دراسة عقلية العرب من خلال موقف الجزائريين من الفرنسيين وأسلوب الأوروبيين في الجزائر، أملًا أن يُستفاد من ذلك في معاملة

الفلسطينيين، معتمدًا في رسالته على المصادر اليهودية. وقد أظهر الأهداف التي كان يُخطط لها الصهاينة قبل ضياع فلسطين بعشر سنوات. ولسوء الحظ لم يطّلع على تلك الأطروحة، في ما أعلم - باحثون عرب آنذاك؛ بسبب الانشغال بتصفُّح الأرشيفات البريطانية. وقد سمحت لنا الأوضاع مؤخرًا بالحصول على نسخة من هذه الأطروحة، واشتركت في ترجمتها مع الدكتور معاوية سعيدوني. وحتى تكتمل الفائدة منها، وضعنا لها مقدمةً ضافيةً بعنوان: "المستقبل لمن؟" كما ألحقنا بها مجموعةً من الوثائق اليهودية التي استعملها فيتشر في رسالته. وعلى الرغم من أنّ هذه الأطروحة طبعت قبل أكثر من عشر سنوات من ضياع فلسطين، فإنّها تظلّ مهمّةً بالنسبة إلى الباحث العربي؛ لأنها تدرس نفسية العرب من منظور أوروبي وتُحلِّل وعد بلفور من وجهة نظر صهيونية، وهو ما يؤكِّد أنّ وعد بلفور بداية لتطبيق مشروع استعماري أوروبي للبلاد العربية في الواقع، قبل أن يكون خطةً سياسيةً هدفها تمكين اليهود من فلسطين.

جامع بيضا: تعليقي سيكون أيضًا بشأن وعد بلفور، وقد تساءلت: هل كان له صدًى عند النُّخبة المغربية؟ في الواقع، لا نجد له أيّ صدى عند النُّخبة المغربية المسلمة. ولكن لم يكن لهذه النُّخبة ردّة فعل ضدّ وعد بلفور إلا في العشرينيات والثلاثينيات.

إلى جانب ذلك يوجد صدًى في الأوساط اليهودية المتطورة وغير المتطورة؛ ونعني بذلك المتعلمة وغير المتعلمة. بل إنّ الأفكار الصهيونية تسربت إلى بعضها حتى قبل وعد بلفور، منذ أواخر القرن التاسع عشر بعد المؤتمر الأول في "بازل". لكن إبّان الحرب، ونحن نتحدث عن الحرب العظمى، كان المقيم العامّ ليوطي لهذه الأفكار الصهيونية بالمرصاد؛ لأنه كان يراهن على السياسة الإسلامية، وفي الوقت نفسه كان موقفه هذا منسجمًا مع السياسة الإسلامية ومع السياسية الرسمية لفرنسا التي تريد الاحتفاظ بالعنصر اليهودي في دائرة "الاتحاد اليهودي العالمي"، بدلًا من الاستجابة لطموحات بريطانيا بتصدير اليهود إلى فلسطين.

وحتى الذين لم يخضعوا لأوامر من اليهود، ومن الأوامر الرسمية الفرنسية ولليوطي، فضلوا الهجرة إلى فلسطين، ولكن تحت غطاء أو تحت ذريعة روحية باطنها الصهيوني يحركه ناشطون صهيونيون كلّهم من الأشكناز، وليسوا من السفرديم، وأغلبهم جاء إمّا من أوروبا الوسطى، وإمّا من بريطانيا، وأصله من أوروبا الوسطى، الفئة القليلة هي التي هاجرت فاصطدمت بواقع فلسطين آنذاك؛ لأنّ ذلك الحلم قد تبخر فرجعت. لم يسمح لها ليوطي بالعودة "إنكم عصيتم أوامري" وبقيت مدةً في البحر تنظر أن يسمح لها بالعودة "لأسباب إنسانية" فقط.

سعود المولى: ضمن هذا السياق، أظنّ أنّ اليهود في تلك الأيام كانوا فئةً في بلادنا، وأنهم كانوا أصحاب مال وأصحاب علمٍ؛ لذلك من الممكن أن تكون في الصحافة مقالات مؤيدة لوعد بلفور، مثلما تفضل الدكتور محمد جمال باروت بالإشارة إلى ذلك، كما حصلت اجتماعات مؤيدة لوطن قومي يهودي في بلدان إسلامية عديدة، من دون أن يعنيَ ذلك وجود نوع من التعاطف، أو أنّ المسلمين، أو المسيحيين، أو سكان هذه البلدان، كانوا يعُون المسألة الصهيونية، ومن ثمّة النُّخب أيضًا. ولكنّ احتجاجي كان على القول إنها كانت "متهتكةً".

في تلك اللحظات الحاسمة: سقوط الدولة العثمانية، ومخاض نشوء دول جديدة، كانت كلّ النُّخب تبحث عن مواقع لها في تكوينات عديدة، وفي اتجاهات متعددة، وكانت تحسم انتماءها وتذهب إلى الاتجاه الذي سارت فيه، وإلى الحد الأقصى؛ إلى حدّ الاستشهاد، سواء كان ذلك مع الهاشميين في الحجاز، أو مع الدولة العثمانية، أو مع الفرنسيين، أو مع الإنكليز.

ولعل أشدّ المُعادين للصهيونية في تلك الأيام كان اليمين الانعزالي اللبناني، وكنّا نسميه "اليمين المسيحي الطائفي". وهذا اليمين المؤسِّس للكيان اللبناني رأى أنّه يوجد منافس اقتصاديّ لموقع لبنان، ولكيان لبنان. وأبرز ممثلي هذا التيار هو ميشال شيحا، صاحب

أيديولوجية "الفكرة اللبنانية"، فهو من تصدّى بعنف للصهيونية، في حين أنّ وجهاء المدن والمسلمين كانوا يحسبون حسابات اقتصاديةً في التعامل، من دون أخذٍ في الحسبان وجود كيان صهيوني سينشأ على المدى البعيد.

لم تأخذ القضية الفلسطينية شكْل الاستنهاض لمجتمعاتنا إلّا في الثلاثينيات، مثلما تفضل محمد عفيفي بالقول. فقبل عام 1936، لم يذكر سعد زغلول ولا الإخوان المسلمون (حسن البنا) كلمة "فلسطين"، وكلّ الأمر كان من باب التعاطف الإنساني، ومن قبيل القول: "إننا ندفع مبالغ لكي نساعد إخواننا الفلسطينيين"، وبعد ذلك كان التخطيط لإحضار الشيخ محمد أمين الحسيني عضوًا في الإخوان المسلمين؛ أي إنّ عام 1936 كان العامل الحاسم تاريخيًّا، وكانت له علاقة بالتحولات الدولية التي حصلت، مثل سياسة ستالين في بناء التحالفات، والجبهات الوطنية، ووصول الجبهات الشعبية اليسارية للحكم (فرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا مثلًا)، ومواجهة الفاشية والنازية الصاعدة، وقيام معاهدات بين الحركات الوطنية اللبنانية والسورية مع دولة الانتداب الفرنسي، وقيام الثورة الفلسطينية الكبرى في الفترة 1936 - 1939، وهذا ما جعل القضية الفلسطينية تأخذ منحًى آخر. والخلاصة أنّه لم توجد مسألة صهيونية أو يهودية في وعي شعوبنا عام 1917 بمثل هذا الوضوح الذي صارت عليه بعد عام 1936.

عبد الواحد المكني: أرى أنه عندما أُعلن وعد بلفور عام 1917 لم تكن توجد حتى عند النُّخب مسألة اسمها "الصهيونية"، إلا إذا استثنينا بعض النبهاء في إطار تأثرهم بنظريات اليمين الفرنسي المعادية للسامية. ولكن بوجه عامّ لم تكن هذه المسألة موجودةً. والتعرض لعلاقة بعض الأطراف بالطائفة اليهودية ينبغي ألّا يُفضي إلى القول إنها كانت مع الصهيونية. وينبغي أن نؤكد أنّ اليهود في البلدان العربية مندمجون، اندماجًا تامًّا، في المجتمع، وخصوصًا في المغرب، وتونس، وغيرهما. في تونس لم تكن أوّل مواجهة بين التونسيين المسلمين واليهود عام 1917 بسبب الحوادث في المشرق، أو بسبب وعد بلفور، فقد كانت في خريف عام 1917، وقد حركها الفرنسيون؛ لأنّ اليهود لم يكونوا مجندين، فوقعت نقمة عليهم من جهة أنّ أبناء التونسيين المسلمين، وأبناء "الفرنسيين المسيحيين" هم الذين دفعوا تكلفة الحرب. ومن ثمّة بدأت المصادمات في مقابلة لكرة القدم.

لقد كانت مسألة الصهيونية غائبةً، وكان ينبغي أن ننتظر عام 1936 في تونس لتقع مشاحنات في مدينتي صفاقس وتونس بسبب ما وقع في الخارج وليس في الداخل. آنذاك أصبح ما يقع في فلسطين والشرق الأوسط ينعكس، لكن قبل ذلك لا وجود لمسألة الصهيونية حتى عند النُّخب، وحتى عند زعماء الحركة الوطنية. وبالنسبة إلينا في المغرب بصفة عامة سيكون الطرح الرئيس والموضوعي للمسألة الصهيونية بدايةً من عام 1947، هذا ما أردت أن أقوله.

جامع بيضا: ربما كان المغرب قد تنبّه للحركة الصهيونية في وقت مبكّر؛ ففي الفترة 1929 - 1930 كانت توجد عريضة مشتركة بين المسلمين واليهود للتنديد بوعد بلفور.

عبد الواحد المكني: الشيخ الثعالبي وهو زعيم الحركة الوطنية في تونس هاجر منذ عام 1923، ونظّم مؤتمرات للقدس وكان صدى تحركاته يصل إلى تونس، ولكن المسألة ستطرح في بعدها الواسع بدايةً من الثلاثينيات.

المحور الرابع

عبد الرحيم بنحادة: وضعت الحرب أوزارها عام 1918، وبدأ الحلفاء يحضرون لمعاهدات السلام ويُملون المعاهدات التي يريدون. ومن الأسئلة التي تُطرح: ماذا جنى العرب من الحرب العالمية الأولى؟ وما هي تكلفة الحرب العالمية الأولى بالنسبة إليهم؟

ناصر الدين سعيدوني: في الحقيقة، لم يكتسب العرب من الحرب العالمية الأولى في المدى القريب أمرًا ذا شأنٍ، سواء كان ذلك من الناحية المادية أو المعنوية بسبب الأحداث التي كانت مأساويةً. غير أنّ تداعياتها كانت على المدى البعيد بمنزلة انطلاقة لحركة التاريخ. فقد أوجدت أوضاعًا سمحت بتطور المطالب الوطنية، وبتعمُّق الوعي، ولا سيما في المغرب العربي الذي عرف - في غفلة من الإدارة الاستعمارية - تطورًا فكريًّا، وسياسيًّا، وثقافيًّا. ولعلّ هذا ما يمكن أن نعُدَّه جانبًا إيجابيًّا بالنسبة إلى الحرب. فعلى الرغم من بلوغ الاستعمار أوجه في الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت الحرب - بسبب مشاركة الجنود الجزائريين، والمغاربة، والتونسيين، وغيرهم – بدايةً لأوضاع وتداعيات سمحت في المدى البعيد بتفكيك البنية الاستعمارية، وهو ما يتطلب تلمُّس نتائج الحرب في العالم العربي من منظور دراسة المجال عبر الزمن الطويل بحسب نظرية المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل.

مهند مبيضين: شكرًا. أشير إلى أنّ مجموعة من الشّباب الأردنيين قد تواصلوا مع السفارة الأسترالية في الأردن بعد أن افتتحت لها مقرًّا في عمّان. وإلى أنّ الحكومة الأسترالية ستنظم رحلةً لأحفاد الجنود الذين قُتلوا أثناء القصف في منطقة عمّان والسلطنة في الفترة 1916 - 1917، وإلى أنه سيكون ثمّة خطّ مع أستراليا.

إنّ الخروج من الدولة السلطانية إلى مشروع الدولة المنتدبة في المشرق العربي أو المحتلة، في ما أرى، كان صاعقًا. غير أنني أظن أنّ دولة فيصل في سوريا خلال الحرب وما بعدها في الفترة 1918 - 1920 كانت مهمّةً جدًّا؛ على صعيد الوطنية السورية، وعلى صعيد الحركة القومية العربية، وعلى صعيد النُّخب وتجاربهم. وقد أنجز الدكتور أرناؤوط أمرًا مهمًّا في موضوع تجربة فيصل سابقًا، في جامعة "آل البيت" قبل عشر سنوات. واليوم يجري تقييم هذا المشهد، ويجري الخروج بمشهد أكثر انقسامًا. وهذا ما أثّر في النُّخب التقليدية، والتجار والفلاحين، وزعماء القبائل. قرأت بعض البرقيات من بعض وجهاء شرق الأردن تشتمل على تحذير لفيصل في مؤتمر الصلح ممثلًا عن والده، وعن العرب من تقسيم المنطقة، ومن إمكان نشوء هجرة يهودية تبعًا لوعد بلفور. وهذا يحيل، مرّةً أخرى، على أنّ الخروج كان خسارةً فادحةً وأنه أدّى إلى مزيد من التضرر والانقسام. وإن كان الحلم العربي مع فيصل لم يستمر طويلًا، فالنتيجة أنّنا ذهبنا إلى التعدد والانقسام أكثر مما كنّا عليه قبل الحرب. شكرًا.

جامع بيضا: على الرغم من الجانب الدرامي المتمثّل بالضحايا والوقوع في الأسر، فإنّ لهذه الحرب جانبًا آخر شأنَ العملة؛ ذلك أنها ساهمت في فتح عيون المغاربة على العالم، والدليل على ذلك أنّ بعض الشعارات التي كانت منسيةً إبان الحرب، رُفعت مباشرة بعد الحرب مبادئ ولسون الأربعة عشر في تقرير البصير من لدن الشبيبة المغربية في إرهاصات التنظيم أثناء العشرينيات، ورُفعت أيضًا إبّان حرب التحرير الريفية التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي. إنها تحولات اجتماعية واقتصادية عميقة؛ في الملبس، وفي الأكل، وفي العادات، منها الحصول على معاشات مادية من لدن بعض المحاربين؛ أعني أنّ بعض العادات التي لم تكن معروفةً في المجتمع دخلت إلى العائلات بما فيها العائلات البدوية. يُضاف إلى ذلك أمرٌ آخر كثيرًا ما ننساه في حالة المغرب على الأقل. فهذه أوّل مرّة يساهم فيها المغاربة في حرب الخنادق بأوروبا ضد دولة إسلامية تحت علم فرنسا. ولهذا وقْعُه في سقوط ثنائية دار الحرب ودار الإسلام أو تقلصها.

أشير أخيرًا إلى مشاركة نحو أكثر من 40.000 من المغاربة في الحرب من دون احتساب العمال، وإلى أنّ أغلبهم رجع بعد اتفاقية الصلح إلى البلاد، وكان في الوقت نفسه يبثّ من حوله بعض الأفكار حول تلك البلدان وذلك العالم. وعندما احتاجت أوروبا، وبالخصوص فرنسا التي كانت تستعمرنا إلى إعادة بناء نفسها، تزوّدت من هذا الخزان البشري لليد العاملة، وشكّل ذلك النواة الأولى لظاهرة الهجرة إلى فرنسا، وإلى الدول الأوروبية عمومًا، وهي ظاهرة مازلنا نعيشها. فهنالك أربعة ملايين ونصف المليون، أو خمسة ملايين من العمال المغاربة خارج المغرب. وهذه الظاهرة انطلقت من تلك البدايات.

سعود المولى: بالنسبة إلى مسألة الجيش الأسترالي التي أشار إليها مهند مبيضين، أودّ أن أقول إنّ الغزو الصهيوني واجتياح لبنان، في صيف 1982، أخذ الخطة نفسها التي استخدمها الأستراليون عند الدخول إلى لبنان من فلسطين (1917 – 1918)، بل إنّ التكتيكات كانت هي نفسها أيضًا. وقد أنجز أحد الباحثين الشبان دراسةً في هذه المسألة المهمّة. أظن أنّه يوجد اتّفاق على كلّ ما قيل. ولكنْ ثمّة عامل ذو أهمية كبيرة بعد عام 1918. إنّه نشوء الأحزاب السياسية الحديثة في بلداننا، وبخاصة الأحزاب الشيوعية. وهذا يعني أنّ أوّل الأحزاب في بلادنا كانت هي الأحزاب الشيوعية؛ بالنظر إلى سبب متعلّق بالأممية الثالثة، ولا سيما أنه جرى إرسال مندوبين إلى بلداننا للمساعدة في تشكيل أحزاب بلشفية. وفي أغلب بلداننا، تعود الأحزاب الشيوعية إلى عام 1918، إن لم يكن قبل ذلك. وقد كان هذا العامل مهمًّا في تلك الحقبة.

إضافةً إلى ذلك، يوجد عامل آخر في بلاد الشام؛ هو نشوء النزاع الأيديولوجي والسياسي حول الهوية، والدولة الوطنية، وهوية الدول الموجودة، والطابع الطائفي بالنسبة إلى بعض الدول (لبنان وكذلك تقسيم سوريا إلى دول طائفية ومناطقية أيام الانتداب)، والطابع ما فوق الوطني بالنسبة إلى بعضهم (قومية أنطون سعادة السورية أو قومية البعث العربية)، وصولًا إلى الهوية الوطنية الخاصة؛ مثل الهوية اللبنانية الكيانية. وهذا يعني أيضًا وجود دينامية حيوية أيديولوجية ثقافية مهمّة. وفي هذا السياق نذكر كذلك الجمعيات الأهلية الخيرية التي نشأت بعد عام 1916 (أو ما يُسمى حاليًّا "المجتمع المدني")، بخاصة في دمشق، وحلب، وبيروت، وفي مدن سورية، وفلسطين، ولبنان، ومصر؛ للإعانة والمساعدة والتعليم. لذا، ساهمت تلك الجمعيات في تلك الحقبة في تكوين وعيٍ مدنيٍّ بالمواطنة، وفي الاهتمام بشؤون الناس في مجتمعاتنا.

فتحي ليسير: في الحقيقة، أوافق تمامًا على ما قيل منذ حين في ما يتعلّق بأنّ نهاية هذه الحرب كانت كارثيّةً بالنسبة إلى البلاد العربية، سواء في المشرق العربي أو المغرب العربي، وربما كانت في المشرق العربي أشدّ من ذلك؛ لأنّ الولايات العثمانية سقطت تحت الانتداب مدشّنةً بذلك صفحةً جديدةً في التاريخ المعاصر للمنطقة. ولكن هذا لا يمنع أنّ آمال العرب عرفت اختلافات وتلوُّنات من بلد إلى بلد. وابتداءً من الآن سنتحدث عن أقطار؛ عما أثارته مبادئ ولسون. ولو عدنا إلى صحافة ذلك العهد في أيّ بلد من البلدان، وليكن هذا البلد تونس لأنني أعرفه أكثر من غيره من البلدان، لوجدنا آمالًا عريضةً علّقها الوطنيون على هذه الوثيقة، والتونسيون يعدّون أنفسهم مشاركين في الانتصار من خلال ما قدموه، وأنّ الوقت قد حان للحظوة بقليل من ثمار ذلك الانتصار.

ومن الوثائق المهمّة جدًّا رسالة بعث بها محمد بشحامبة، وهو يُعَدُّ الرجل الذي بذر البذرة الأولى لفكرة المغرب العربي في سويسرا عام 1916، وقد أسّس مجلةً تسمى **مجلة المغرب**، وكانت تشارك في هذه المجلة أقلام مغربية، وجزائرية، وتونسية. كما أنّه أرسل رسالةً إلى الرئيس ولسون حين كان مارًّا في تلك الفترة بروما في 2 كانون الثاني/ يناير 1919 ذكّرهُ فيها بتضحيات سكان المغرب، وتحدّث باسم جميع المغاربة ولم يتحدث باسم التونسيين. والرسالة موجودة، وهي تستحق أن تدرس أو تُخصّص بمقالة على الأقل.

تكرس الاستعمار في بلاد المغرب العربي، أو "تعقلن"؛ ففرنسا التي أنهكتها الحرب، زادت استغلالها للمستعمرات، واستغلال خيراتها أكثر فأكثر، بطريقة ممنهجة. وثمّة رسائل دكتوراه أكّدت هذا الجانب بكلّ وضوح وقوّة. وليبيا التي أعرفها قليلًا، كانت نهاية الحرب فيها كارثيةً. فالفترة بين عام 1913 واندلاع الحرب، عرفت فيها برقة نوعًا من الحُكم الذاتي، وكان يوجد اتفاق إنكليزي - إيطالي على منحها نوعًا من الحُكم الذاتي. وفي هذا السياق نذكر إدريس السنوسي الذي سيلجأ إلى مصر عام 1922، والذي سيعود ملكًا على ليبيا عام 1951، باتفاق قوًى غربية. وبقيَ السنوسي ملكًا خلال الفترة 1951 – 1969؛ أي حتى انقلاب القذافي عليه. وهذا يعني أنه كان

ثمّة إجماع على هذه الشخصية. وقد حدث الأمر نفسه تقريبًا في الجهة الغربية؛ إذ جاء ضابط إيطالي يسمى رودولفو غراتسياني، ومَحَق المقاومة محْقًا دمويًّا بطريقة بربرية لا مثيل لها، ودخلت ليبيا ليل الاستعمار الطويل بعد إعدام عمر المختار في أيلول/ سبتمبر 1931.

إنّ الزّملاء في المشرق العربي يعرفون أفضل مني أوضاع إجهاض حكومة العهد الفيصلي في سورية عام 1920، ثم الانتدابات المعروفة في سورية ولبنان، وظهور الأردن كيانًا سياسيًّا مستقلًّا واحتلال العراق، وثورة العراق عام 1920، ثم ثورة مصر عام 1919 التي كانت حدثًا مفصليًّا في تاريخ مصر. تحدثتم منذ حين عن ثلاثية نجيب محفوظ. أشير في هذا السياق إلى أنّ أحد أبناء أحمد عبد الجواد، المسمّى "فهمي"، مات في هذه الثورة، في نهاية الجزء الأوّل من الثلاثية، وإلى أنّ نجيب محفوظ كان متعاطفًا مع حزب الوفد، ومعجبًا جدّا بشخصية سعد زغلول باشا الذي جسّد رمز الوطنية المصرية آنذاك.

ملاحظة أخيرة: نهاية الحرب بدأت تكرس في البلاد العربي الدولة الوطنيّة، ونشأت الحركات الوطنية في سوريا، والعراق، ومصر، والمغرب العربي. فكلّ بلد أصبحت له حركة زادت في تكريس فكرة الدولة القُطرية، والهوية المحلّية، والاستقلالات التي بدأت منذ عام 1943، وبالنسبة إلى سورية، ولبنان، ومصر، كان ذلك على نحوٍ غير واضح عام 1936. وفي بلاد المغرب العربي تطوّر الأمر ورُسّخ أكثر فأكثر، وأصبحت الدولة الوطنيّة في ما بعد حقيقةً واقعةً. وهذا موضوع آخر.

عبد الواحد المكني: شكرًا. في السياق نفسه، سأبتعد عن الجانب القاتم من نتائج الحرب؛ لأنه قيل فيه الكثير. أريد أن أنظر ببرودة دم إلى النتائج في الأمد البعيد. من الناحية السياسية بدأ يزول ذلك البهرج الذي كانت تمتلكه الخلافة العثمانية في المخيال عند عامة الناس، سواء في المغرب أو في المشرق. فالسلطان العثماني المنصور، أو فلْنقل الخلافة على الأقل، لم تعد تصلح للحكم، وربما كانت تصلح للعقيدة. وهذه الفكرة كُرِّست إثر الحرب. ومن الناحية السياسية أيضًا نذكر الدولة الترابية القطْرية والظاهرة الحزبية. والعائلات السياسية الموجودة الآن تشكّلت بُعيد الحرب كل الأحزاب الشيوعية في الإسكندرية عام 1921، وفي لبنان وتونس تكونت كل الأحزاب الشيوعية، تقريبًا، في الفترة 1919 – 1921.

ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية، كانت ظاهرة هجرة اليد العاملة بدايةً من عام 1916، بخاصة من المغرب، ثم كانت هجرة الطلبة في ما بعد. جلّ الزعماء في المغرب والذين عملوا في الحركات الوطنية كانوا مهاجرين، فمصالي الحاج بدأ محاربًا ثم مهاجرًا وتزوج فرنسيةً خاطَت أوّل علامة للجزائر، وبورقيبة تزوج أرملةً فرنسيةً وهو طالب. الهجرة، إذن، ظاهرة جديدة ارتبطت بالحرب.

وفي المستوى الاجتماعي، تحدّث الدكتور جامع بيضا عن التحديث النسبي الذي عاد به المجندون، وعن التحديث المهمّ في الأرياف، وخصوصًا في مستوى الأذواق، بما في ذلك الملبوس، والمأكول، والمركوب. فكلّ هذه العوامل غيّرت نسق الذهنيات، وستكون لها نتائج بين الحربين من خلال الثورة على كل ما هو عتيق. وفي هذا الإطار تأتي عملية "تجديد" - ولا أقول عملية "تحديث" - عرفتها الأقطار العربية نتيجةً للحرب العالمية الأولى.

محمد الأرناؤوط: شكرًا مرةً أخرى. أعود إلى التمييز بين المشرق وشمال أفريقيا، وهو أمرٌ يرتبط بالمشاركة. إذا تساءلنا مثلًا: بالنسبة إلى المشرق، أين ذهب الجنود المشاركون؟ من ثمّة توجد علاقة لهذا الأمر بنتائج لم نلمسها في المشرق، وربما كانت هذه النتائج واضحةً في تونس، وفي الجزائر، وفي المغرب؛ بسبب طبيعة المشاركة في الجبهات. وبالنسبة إلى المشرق شارك العرب في جبهة السويس، ثمّ في القتال ضد الإنكليز في جنوب العراق، وصولًا إلى بغداد، أو في الدردنيل، أو في الجبهة مع روسيا. لكنّ حصيلة المشاركة في هذه الجبهات، مقارنةً ببلاد المغرب، كانت محدودةً.

بالنسبة إلى النتائج الأخرى، يمكن القول، استنادًا إلى المذكرات والصحافة وغير ذلك، إنّ العرب بدؤوا ينتقلون من إحباط إلى إحباط، ومن بكاء إلى بكاء. يقول عارف العارف مثلًا: عندما دخل الجنرال اللنبي إلى القدس بكينا حتى طلوع الصباح. وهذا يعني أنه كان يوجد استشعار لما هو مقبلٌ. ومن أمثلة الإحباط أيضًا، مؤتمر الصلح بباريس، وصولًا إلى الكيفية التي جرى بها التعامل مع ما سُمي "المسألة العربية". يُضاف إلى ذلك إحباط آخر عندما جرت موقعة ميسلون، والكيفية التي تمّ بها التعامل مع من انتخب ملكًا دستوريًا على سورية، وغير ذلك من أنواع الإحباط.

في الحقيقة، لدينا سلسلة إحباطات متتالية، وصولا إلى الانتداب. وليس الانتداب فحسب، بل التفنن حاليًا في تقسم سورية وكيف أنها بعد تشكيل لبنان الكبير تحولت إلى أربع دويلات: جبل الدروز، وجبل العلويين، وحلب، ودمشق. في خلاصة سريعة، أرى أنّ التحول المهم الذي جرى، كما تفضل بذكره الدكتور عبد الواحد المكني، يتعلق بالخلافة. معنى ذلك أنّه مع إلغاء السلطنة عام 1922 كانت بداية التحول إلى ما يمكن أن نسميه "اتجاه الدولة الوطنية"؛ أي ظهور هذه النزعة، ثم ظهور الحركة الوطنية، ومن ثمّة الدولة الوطنية. والعشرينيات هي فترة مهمّة بالنسبة إلى هذا التحول؛ لذلك نجد في الحركة الوطنية السورية ما سُمّيَ الثورة السورية الكبرى. لاحظوا، إذن، الثورة العربية الكبرى، والآن الثورة السورية الكبرى التي أصبح سقفها توحيد البلاد في إطار دولة واحدة ضمن معاهدة مع فرنسا، ولم يعد السقف يتخطى سورية.

عرفت مصر الأمر نفسه. فقد شهدت تحولًا مهمًّا في الحركة الوطنية، وفي ثورة 1919. والفارق في هذا السياق يتعلّق بالوضع في بلاد المغرب؛ فهو مختلف عن بلاد المشرق في هذه الناحية. ففي المغرب، كان الوضع "مستقرًّا" تحت الحماية، أو الاحتلال. أمّا في المشرق، فكانت ثمّة وعود بدولة عربية. وهكذا يتأتى الإحباط من التخلي عن هذا الوعد، ومن التحول إلى دولة محتلة بأسماء مختلفة سواء كانت انتدابًا أو حمايةً.

المحور الخامس

عبد الرحيم بنحادة: أختم بالتساؤل عن تمثُّل العرب للحرب العالمية الأولى من خلال الإنتاج الأدبي والصحافي زمن الحرب وبُعيدها.

محمد عفيفي: التعبيرات عن الحرب العالمية الأولى كثيرة، وهي ليست في الأدب والفن فقط، ومن الصعب الإلمام بها في هذه الفترة القصيرة. فرَادَة سيد درويش مثلًا، جاءت من أنّه ذهب إلى بلاد الشام وعاش فيها أثناء فترة الحرب، ثمّ عاد إلى مصر. ثمّ إنّ الحرب العالمية الأولى كانت عاملةً في ازدهار الفن ازدهارًا كبيرًا في مصر لأنه أصبح يوجد فيها عسكر من أستراليا وعسكر إنكليز، فازدهرت المسارح والكباريهات والأغاني كثيرًا، وقد كانت توجد أغانٍ كثيرة حول تلك الفترة. وفي الوقت نفسه عملت حالة الحرب في ازدهار القطن وتجارته والتأثير الاقتصادي، وهو ما انعكس على الفن. فأثرياء الريف أصبحوا يبيعون القطن في مصر أو الإسكندرية ويصرفون تلك المبالغ في المسارح والكباريهات وفي الفن.

توجد حالة ازدهار كبيرة كُتب عنها في مسارح روض الفرج، ومسارح عماد الدين في فترة الحرب. ازدهر الشعر أيضًا في هذه الفترة، وأصبح التعبير، نتيجةً للأحكام العرفية والتقييد على الصحافة، من خلال الشعر الفصيح، وأحيانًا من خلال شعر العامية. لدينا كتابات جمعت تلك الأشعار. أمّا في الروايات، فستأتي فترة أخرى وخصوصًا روايات نجيب محفوظ، ومسرحية توفيق الحكيم **عودة الروح**. ولعلّ الحكيم يعني بها أنّ فترة الحرب كانت صعبةً، ولكن مع ثورة 1919 كانت عودة الروح إلى مصر. وفي الحقيقة، عملت الحرب شيئًا آخر

مهمًّا؛ ذلك أنّها خلقت "الأدب المصري" وأصبح في ما بعد يوجد "مُقرّر" يدرَّس في الجامعة المصرية اسمه "الأدب المصري" نتيجةً للحسّ الوطني، وأصبح يوجد حرصٌ على الأدب المصري حتى في العصر الإسلامي؛ مثل "أدب الطولونيين" و"أدب الإخشيديين". كانت توجد، إذن، تحولات كثيرة في هذا المجال.

عبد الواحد المكني: إذا ميّزنا بين الثقافة العالمة والثقافة الشعبية في تونس، لا نجد أنه حدثت أمور كثيرة بالنسبة إلى تلك الثقافة. فلقد كان تأثير الحرب في الثقافة الشعبية خاصةً. وفي هذا السياق يمكن أن نذكر الشاعر عبد الرحمن الكافي الذي كان مجندًا في الحرب العالمية الأولى، وعندما عاد من الحرب، انتمى في البداية إلى الحزب الشيوعي، وقال عدّة قصائد شعبية كانت جريئةً جدّا، وأغلبها "بذيء"، وقد قمت بتحقيق أشهر هذه القصائد، وهي منشورة على الشبكة العنكبوتية. وكانت قصائده تصف حالة الإحباط واليأس، ولعلّه اختار البذاءة لمواجهة القبح. يوجد شعراء آخرون كثيرون. وتوجد في الجزائر عدة أغانٍ، منها "يا ربي سيدي"، وقد جاءت هذه الأغاني بعد الحرب، ولكن إلى حدّ الآن لم نقم بجمع هذه المدونة، ولم يُبذل جهد كثير في جمع الموروث الشفوي.

ناصر الدين سعيدوني: إنّ الحرب العالمية الأولى أغنت الأدب الشعبي وفجّرت الطاقات الكامنة في الفنان الشعبي العربي، وهو ما يسمح بالقول إنها كانت نقلةً نوعيةً مميّزة. وفي هذا المجال تُقدِّم الجزائر نموذجًا رائدًا في ما يتعلق بالأدب الشعبي وصلته بالحرب العالمية. فالالتجاء إلى المديح الديني، والاستغراق في الشطحات الروحية التي تنظمها حلقات الزوايا، والغوثيات والتوسل والابتهال، والحنين إلى الوطن والاشتياق إلى الأهل والأحبة، كلّها مظاهر حرّكت الضمير الشعبي، وهزّت المخيال الجمعي، وسمحت بتفجير الشحنة العاطفية والمخزون الطاقوي. وهذا الأمر يسمح بالقول إنّ الحرب العالمية الأولى كانت بالنسبة إلى الأدب الشعبي بمنزلة الزلزال الذي حرّك العواطف وبثّ الوعي، وسمح للروح الوطنية أن تنموَ وتصبح حركةً قادرةً على تغيير الواقع العربي بعد الحرب العالمية الأولى.

مهند مبيضين: ربما تكون النتائج متشابهةً، لكن بالنظر إلى أنّ منطقة شرق الأردن لم تظهر بوصفها كيانًا سياسيًّا مستقلًّا إلا بعد انتهاء الحرب عام 1920 تقريبًا، فقد ظهر نوع من المقاهي، وبدأت العرائض تُشكَّل وتُكتب، وبدأ الشارع يأخذ حيّزه وتعبيره عند مجموعات الحركات الوطنية أفضل مما كان عليه، بأشكال غير معبَّر عنها بمعنًى منظَّم. الأصوات التي ظهرت بين الناس في الصحافة؛ ومنها الشعر الشعبي، كانت قبل الحرب، وأثناء الحرب، وبعد الحرب. وفي هذا السياق، نريد أن نشكر دار جداول؛ إذ أخرجت الشعر النبطي أو الشعر الشعبي في صحيفة **القِبلة**، وهو شعر رافق عمليات الحرب الكبرى في الفترة 1916 - 1918.

جامع بيضا: في ما يتعلق بردّات الفعل في المغرب بشأن الأدب والفكر، ينبغي أن نستحضر أوضاع غياب حرية التعبير بالنسبة إلى الأهالي خصوصًا، في ظلّ نظام الأحكام العرفية، وغياب أيّ صحافة حرة؛ لذلك من الصعب أن ننتظر حضور شيء ملموس في هذا المجال. فجميع التجليات لم تبدأ إلّا في الوسط الشعبي؛ ومن ذلك الأغاني، سواء كانت باللسان الأمازيغي أو اللسان العربي الدارج. وحتى الذين تجرؤوا قليلًا في التعبير عمّا يريدون قوله كتابةً، حاولوا مراوغة الواقع بشيء من الخيال.

أستحضر في هذا السياق العلامة أحمد صبيحي الذي تأثر بالحرب، وسافر إلى مكة أثناء اندلاعها؛ لكي يعبِّر عن أفكاره الإصلاحية التي دوّنها في كتاب من مطبوعات الطبعة الحجرية في ذلك الوقت بعنوان **أصول أسباب الرقي الحقيقي**. وحتى لا يقول إنني أواجه السُلطة الفرنسية، وهو ناظر أحباس؛ ومن ثمّة موظف للسلطة، يقول: "رأيت في منامي أمسِ.. إلخ"، ويطلق العنان لمخيلته، فيعبر عن كثير من المسائل والأماني لإصلاح حالة البلاد والعباد. أما الصحافة، فقد كانت مقموعةً. وفي العشرينيات، بُعيد الحرب، بدأت بعض

الإرهاصات بصحافة مخطوطة باليد (**الوطن**، و**السيف القاطع**، و**المدرسة**، و**أم القرى**)، ثمّ كانت أجواء أخرى في الثلاثينيات لا أقول إنها شهدت صحافةً حرةً، بل أقول إنها عرفت صحافةً مسموحًا بها على الأقل.

فتحي ليسير: في الحقيقة، لم أكن لأردّ عن مسألة الحريات في ظل الاحتلال الفرنسي، لولا ما قاله الزميل جامع بيضا. فلست موافقًا له في الرأي. صحيح أنه كانت توجد أحكام عرفية، وصحيح أنّ الاستعمار كان قامعًا للحريات. ولكنْ ما حظيت به تونس في ظلّ الاستعمار الفرنسي من حرية صحافة هو أكثر مما حظيت به في بداية دولة الاستقلال؛ فقد كان قانون الصحافة مرنًا جدًّا. وصحيح أنّه كان بإمكانهم تعطيل صحيفة، ولكن بإمكانك تأسيس صحيفة ما إن تملأ مطبوعةً. فالصحيفة نفسها التي تتوقف اليوم، يبتكر لها أصحابها عنوانًا آخر جديدًا في الغد، ثمّ تعاود الصّدور بالطاقم الصحافي نفسه. وعلى كلّ حالٍ، فهذا موضوع آخر يستحق ندوةً أخرى.

نعود إلى ما كنّا بصدده. الملاحظة الأولى هي أنّ الإنتاج الأدبي والإبداعي كان ضعيفًا، مقارنةً بأمر جلل متمثّل بالحرب العالمية الأولى. لم يكن يوجد إنتاج غزير لأسباب عديدة ليس هذا مجالها، إذا ما استثنينا إلى حدّ ما رواية **الرغيف** لتوفيق يوسف عواد. الملاحظة الثانية متعلقة بما ذكره زميلي عبد الواحد المكني بشأن الثقافة العالمة والثقافة الشعبية. لدينا أزجال رائعة جدًّا جاء بها مجندون نجوا من أهوال الحرب، أو ابتدعها بعض المحاربين. وحتى إن لم تكن القيمة الأدبيّة لهذا الشعر جيدةً جدًّا، فإنّ هذا الشعر يشكّل شهادةً تاريخيةً. والمشكلة أنّ هذا المأثور من (أشعار، وأهازيج، وأغانٍ)، لم يدوّن إلا في بعض الصحف، وأنّ الحفظة ماتوا، ولم يُلتفت إليه في وقت من الأوقات لأسباب عديدة. لم تكن توجد جامعة تونسية ولا مراكز بحوث. لهذا، دُفن مع أولئك الذين اختفوا. أمّا بشأن الأعمال الإبداعية في السينما مثل المسلسلات التلفزيونية، فهذا موضوع آخر؛ لأنّ هذه الأعمال ليست مباشرةً وليست معايشةً للحوادث.

عبد الحميد هنية: حدثت في تونس انتعاشة ثقافية كبيرة في العشرينيات، كان من رموزها أبو القاسم الشابي وما حام حوله من إنتاج ثقافي، وشعري. وكان من رموزها أيضًا الطاهر الحداد الذي تحدث عن حرية المرأة، وبداية الدستور، والحزب الجديد. هذه الانتعاشة، لم تكن من نتائج الخروج من الحرب، بل كانت مرتبطةً بأوروبا، وبالعالم بصفة عامّة.

سعود المولى: صحيح أنّ الذي انتعش هو الأدب الشعبي، والثقافة الشعبية، والزجل خاصةً، ويمكن أن نستحضر في مناطق البدو والفلاحين "العتابا" و"الميجانا" و"الشروقي". وهذه الأنواع الشعبية التي كانت تحكي فعلًا الآلام والمعاناة التي عاشها الأهل أو المقاتلون الناجون في تلك الحقبة. فهذا الموضوع يستحق البحث. وفي بلادنا لم يكن ثمّة أدب قصصي أو فنّ قصصي، ومن مخيلة اللبنانيين عن الحرب الأولى خرجت أعمال عديدة متعلّقة بمسألة المجاعة، ولكنها أخذت طابعًا مشحونًا بالأيديولوجيا، وطابعًا عاطفيًّا ضد العثمانيين على نحو خاصّ. فكأنّ جمال باشا والدولة العثمانية كلاهما كان يقصد إلى قتل المسيحيين من خلال تجويعهم. فأدّى ذلك إلى شيوع نوع من الأدب الشعبي، وشيوع بعض القصص وبعض الفنون - حتى الغنائية منها - حول المجاعة في تلك الحقبة قبل عام 1930. وقد ساهم الرحابنة في هذا الأمر مساهمةً مشهودةً.

تتعلّق الناحية الثانية بنشوء شخصيات لها علاقة بالأحزاب كما تفضّل الدكتور عبد الواحد المكني بالقول، لها علاقة بالنهضة بالوعي الحزبي والسياسي، الشيوعي والتقدمي والاشتراكي والقومي.. إلخ. وخرجت شخصيات ووجوه كثيرة كانت لها أهمية شعبية. ولكن لم يكن يوجد شبيه، أو مثيل، لما حدث في العالم المتقدم من كتابات أدبية روائية، أو قصصية، أو فنية، متعلّقة بنتائج ذلك "الزلزال" الذي هزّ العالم. فهذا النوع من الوعي جاء بعد ذلك، فقد كان الاهتمام سياسيًّا في نُخب سياسية.

محمد الأرناؤوط: بالنسبة إلى بلاد الشام، من الملاحظ أنّ استلهام الحرب في الأدب، إضافةً إلى الأدب الشعبي، لم يُبحث كما ينبغي. أريد أن أتحدث عن الأدب. فمن الملاحظ مباشرةً بعد الحرب، أنّ لدينا أحد رواد المسرحية والرواية في سوريا، وهو معروف الأرناؤوط الذي كتب مسرحية **جمال باشا السفاح**، عام 1919، وكانت هذه المسرحية تُعرض، فتقابل باهتمام شديد في المسارح. أخذ الاسم منذ ذلك الحين يفرض نفسه "جمال باشا السفاح". ولكن، لا بد أن نأخذ في الحسبان أنّ تلك المسرحية كانت جنسًا أدبيًّا جديدًا بعد رواية **زينب**. وعلى سبيل المثال، كلّما كان الكلام على الحرب، استحضرنا في هذا السياق رواية **الرغيف** للروائي اللبناني يوسف عواد. أريد أن أقول إنّ موضوع الحرب مازال قابلًا للاستلهام. فالروائي نبيل سليمان نُشرت روايته **مدارات الشرق** في أربعة أجزاء وعُدّت في ما بعد واحدة من أفضل 100 رواية عربية. وثمة مثال آخر هو ممدوح عدوان في مسرحية **سفر برلك**، وفي الأردن نذكر الروائي سليمان قوابعة من خلال روايته **سفر برلك ودروب الفقر**. هذه الرواية صدرت منذ أربعة أعوام؛ أي إنّه لا تزال لدينا قابلية استلهام أريد أن أربطها بما يمكن أن أسمّيه "أدلجة التاريخ والأدب"؛ لأنّ لدينا في بلاد الشام الآن، سواء كان ذلك في سورية، ولبنان، والأردن، اصطفافًا من جديد بين المثقفين: مع الدولة العثمانية أم ضد الدولة العثمانية؟ إنّ كلّ ذلك ينعكس على الأدب بطبيعة الحال. فرواية سليمان قوابعة أراها روايةً أيديولوجيةً بالدرجة الأولى؛ لأنّ قارئها يُشحن باستمرار منذ البداية حتى النهاية لكي يصل إلى موقف ما من الدولة العثمانية. هذا موضوع في تقديري مهمّ؛ وهو استلهام الحرب وأشكالها وأنماطها.

عبد الرحيم بنحادة: أشكركم على الجهد الذي بذلتم.

مسارات

سير الباحثين العرب في مجال الكتابة التاريخية

حوار مع المؤرخ الجزائري ناصر الدين سعيدوني

Masarat: Arab Scholars and their Contributions to the Writing of History

A Conversation with Algerian Historian Nassereddine Saidouni

تسـعى "مسـارات" لتعرُّف سِـيَرَ الباحثين العرب في مجال الكتابة التاريخية، والكشـف عن خبايا علاقاتهم بالمواضيع التي كرَّسـوا لها أبحاثهم والصعوبات التي واجهوها، سواء كانت ماديةً، أو متعلقةً بالحصول على مصادر الخبر، أو ذات طبيعة منهاجيـة، كما تسـعى للوقوف على درجة اسـتفادة هـؤلاء الباحثين من المـدارس التاريخية المعـاصرة، وانفتاحهم عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

في هـذا العدد نلتقي المؤرخ الجزائري ناصر الدين سـعيدوني الذي ينقل لنا تجربتـه الخاصة مع علم التاريخ وتعامله مع المادة التاريخية. ونتعرف الكتب المؤسسة التي أثرت في إنجازاته العلمية.

Masarat (Trajectories) seeks to introduce Arab scholars who have made distinguished contributions through their historical writings, and to reveal the core of their relationships with the subjects which they explored and the difficulties they encountered – be they material, methodological or related to their access to sources. This section also aims to reflect on the extent to which these researchers have benefited from contemporary historiographical schools of thought and their openness to the other social sciences. In this edition, Ostour introduces its readers to Algerian historian Nassereddine Saidouni, who reflects here on his personal experience with the academic domain of history and his relationship with historical materials. He also discusses the seminal works of history which impacted his life's work.

السؤال الأول: كيف كانت علاقتك الأولى بالتاريخ؟ وما هي الشروط التي دعتك لتكريس أعمالك في البحث التاريخي؟

الإجابة: ربما لا أجانب الحقيقة إذا قلت إنّ لي مَيلًا فطريًّا إلى التاريخ، فقد كانت تستهويني منذ الطفولة الباكرة أحداث الماضي بتصوراتها الخيالية فتهزّ مشاعري، وتشحن نفسي رواياتها وملامحها ومشاهدها المؤثرة. وقد نمَّت هذا الميل بساطة حياة الريف الذي نشأت فيه (1940 - 1947)، وما كنت أستمع إليه من حكايات الوالدة التي كانت تسبغ على قصص الماضي – وأغلبها حكايات شعبية - مسحةً من الخيال والتصور الخرافي. ولعلّ هذا ما جعلني، أثناء دراستي الابتدائية في مدرسة التهذيب بالتلاغمة (1947 - 1950)، ثمّ في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة (1950 - 1955)، أهتمّ كثيرًا بمادتي التاريخ والجغرافية، قبل أن يصبح التاريخ مجال قراءاتي المفضل في مرحلة التعليم الثانوي بقسنطينة في معهد عبد الحميد بن باديس وفي الكلية الكتانية (1955 - 1958). وقد تحوّل التاريخ فعلًا، مع أحداث الثورة الجزائرية التي عشتها في مدن قسنطينة وعنابة والجزائر وبجاية (1954 - 1962)، إلى ملجأ روحي يُغذّي الوعي ويشحن النفس ويفتح آفاق المستقبل الواسعة.

وبعد استقلال الجزائر (عام 1962)، استبدّت بي رغبة جامحة في دراسة التاريخ، ووجدت ضالتي في فرع التاريخ والجغرافية بمعهد الدراسات العربية العليا بجامعة الجزائر، فكان عطشي للتعلم وشغفي بالتاريخ سببين لتفوُّقي في الدراسة واحتفاظي بالرتبة الأولى طَوال الفترة 1963 - 1966، وقد شجعني ذلك على الانتساب مرَّةً أخرى إلى الجامعة لدراسة التاريخ والجغرافية والأدب العربي، لكنني وجدت نفسي مُعرضًا عن دراسة الأدب العربي، منقطعًا عن مدرسة المعلمين العليا التي حصلت على منحة دراسية فيها (1964 - 1966)، فارتبطت باختصاص التاريخ والجغرافية بكلية الآداب بجامعة الجزائر، وحصلت على شهادة الليسانس في التاريخ عام 1969 وشهادة الليسانس في الجغرافية عام 1971.

بعد ذلك، ارتبطت بدراسة التاريخ الحديث، وتوجهت إلى دراسة الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، عندما سجلت لتحضير رسالة دكتوراه الدور الثالث في موضوع "النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1969 - 1974)"، تحت إشراف الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله. وبعد حصولي على دكتوراه الدور الثالث بدرجة الامتياز وتوصية من لجنة المناقشة بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات عام 1974، زادت رغبتي في استكمال مساري الأكاديمي، لكنّ أوضاع جامعة الجزائر آنذاك لم تكن تسمح بتحضير دكتوراه دولة، فحاولت التسجيل بجامعة القاهرة مع الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذي وجدت منه كلّ المساعدة والتشجيع، لكنّ صعوبات التسجيل وعراقيله جعلتني أتوجه إلى فرنسا، وحظيت بالتسجيل في تحضير رسالة دكتوراه دولة بجامعة إيكس آن بروفانس Aix - en - Provence تحت إشراف أحد أساطين الدراسات العثمانية في الغرب؛ الأستاذ الدكتور روبير مونتران Robert Mantran، وقد كان نعم الأستاذ الموجه والمشجّع والناصح طَوال تحضيري أطروحة دكتوراه دولة تحت إشرافه (1979 - 1988)، وكان يشجعني على المزيد من القراءة والتعمق في البحث أثناء تواصلي معه، وطَوال فترة المنحة العلمية بفرنسا. وهذا ما جعل فترة تحضيري للرسالة تستغرق وقتًا أطول ممّا هو معتاد، وإن كانت الحصيلة مجزيةً. فقد حصلت على درجة دكتوراه دولة بدجة مشرف جدًّا، وكانت رسالتي موضوعًا للمهتمين بدراسة الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر وتقديرهم.

إنّ انجذابي إلى القراءات الجانبية المتصلة بالتاريخ، واشتغالي بالتدريس في قسم التاريخ بجامعة الجزائر، وإقبالي على المشاركة في النشاط العلمي، ومشاركتي ببحوث في عديد المؤتمرات، وتولّي إدارة معهد التاريخ (1980 - 1988)، كلّها عوامل أَخَّرت حصولي على درجة الأستاذية إلى فترة لاحقة (عام 1992)، لكنها سمحت لي باكتساب تكوين علمي متكامل ومُعمَّق وشامل في مجال دراسة التاريخ العثماني، عكس ما هو شائع حاليًّا؛ إذ أصبح الطالب يستكمل مساره العلمي في سنوات محدودة، وكأنه في سباق مع الزمن،

وهو ما يحول دون أن تكتمل قدراته في البحث واكتساب النضج العلمي، فيضطرّ إلى أن يبدأ مساره العلمي وتكوينه الأكاديمي بعد حصوله على المؤهل العلمي.

كانت حصيلة هذا المسار العلمي في الدراسة والبحث والتدريس والنشاط الثقافي أنْ أصبح التاريخ، وما يتصل به من علوم رافدة ومساعدة ومفسرة، يُشكِّل بالنسبة إليّ الفضاء العلمي المفضل، ويشغل جلّ اهتماماتي الفكرية وأنشطتي الثقافية. وارتبط ذلك بتوسع في الرؤية وتطور في المقاربة وتعمُّق في المعالجة، فاتسعت دائرة اهتماماتي في البحث والدراسة من الجزائر العثمانية إلى البعد المغاربي والمجال العربي والفضاء المتوسطي، وتجاوزت التركيز في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي إلى استكمال الجوانب الأخرى في معالجة التاريخ؛ وذلك بالاهتمام بالتراث ودراسة الجوانب السياسية والثقافية في بعدها التاريخي، وفي تأثيراتها الحالية وإسقاطاتها المستقبلية. وبذلك تجاوزت التاريخ الحديث إلى ما يتصل بفترات سابقة ولاحقة، ولم أعُد أكتفي بالمسائل الاقتصادية والقضايا الاجتماعية، بل أصبحت أميل إلى الإشكاليات الفكرية والمقاربات الثقافية.

السؤال الثاني: اشتغلت بمجالات بحثية جديدة كالديموغرافية، والتاريخ الاقتصادي، فما الداعي إلى الاهتمام بهذه المجالات؟ وما هي العوائق التي واجهتك؟ وهل كان لهذه المجالات رُوَّاد من طلبتك؟

الإجابة: لقد أصبحت الديموغرافية، والإحصاء، وعلم الاقتصاد، ضمن اهتماماتي العلمية لارتباط هذه المجالات بالقضايا الاقتصادية والمسائل الاجتماعية والأوضاع السكانية التي درستها ضمن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بالنسبة إلى الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، أثناء تحضيري لرسالة دكتوراه الدور الثالث (النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني) وإنجازي لدكتوراه دولة بعنوان "ريف إقليم مدينة الجزائر (1792 - 1830)". وقد ساعدتني تلك المجالات المعرفية على الانتفاع بمناهج الديموغرافية وطرائق علم الإحصاء دراستي للجغرافية، وترددي على ندوات التاريخ الاقتصادي بجامعة إيكس آن بروفاس أو أثناء المنحة الدراسية بفرنسا (1980 - 1983)، وكانت آنذاك بسبب تأثير مدرسة الحوليات موضع اهتمام الباحثين في التاريخ الحديث، فكان ذلك الاهتمام من العوامل التي ساعدتني على إنجاز رسالتي وتوجيه نشاطي لدراسة الحياة اليومية وقضايا الوقف في الفترة العثمانية.

وقد كان استخدام المعطيات الإحصائية والديموغرافية في معالجة قضايا التاريخ، عمليةً أساسيةً ومن أوّل شروط تأصيل البحث وإعطائه الطابع العلمي؛ لأنّها ضرورية في عملية التحليل الاجتماعي والاقتصادي، ومن دونها لا يمكن الانتفاع بالمعلومات التاريخية المستخلصة من وثائق الأرشيف. وضمن هذا المنحى ابتعدت عن العرض الحدثي للتاريخ، وصرت أنفر من معالجة أيّ موضوع تاريخي يعتمد على جمْع المعلومات ويعرض للأحداث بأسلوب روائي حدثي، وخصوصًا أنّ النشاط الإنساني يتطلب من المؤرخ معالجةً مركَّبةً تخضع للشروط الطبيعية، والمعطيات الديموغرافية، والتحاليل الاجتماعية، والعوامل النفسية.

إنّ التوجه إلى دراسة التاريخ في بعده الإنساني بالرجوع إلى علوم الإنسان الأخرى؛ كالاقتصاد والديموغرافية مُهمة صعبة، وعمل شاق يتطلب التعمق في التحليل والنظرة الشاملة للفعل البشري، وهو ما يجعل الديموغرافية والإحصاء ضرورةً في البحث. على أنّ أصعب ما في هذا التناول التاريخي متمثّل بكيفية المزاوجة بين النفس العلمي الخاضع للإحصائيات والجداول من جهة، والمنحى الإنساني لأحداث التاريخ الذي يُكسب العمل التاريخي قيمته الإنسانية وبعده الحضاري من جهة أخرى. وقد تطلب مني هذا الأمر جهدًا كبيرًا ودفعني إلى دراسات جانبية كادت تبعدني عن اختصاص التاريخ بالمفهوم المتعارف عليه، بل جعلني أستغرق وقتًا طويلًا في إنجاز ما كنت أنوي عمله من البحوث، ولا يبرّر ذلك في نظري سوى التعمق في البحث، والإحاطة بدقائقه، وما يترتب على ذلك من تحديد للرؤية في

قضايا التاريخ، وتجاوز التاريخ الحدثي الروائي إلى التاريخ التحليلي الاستنتاجي. وهذا ما حاولت تجسيده في بحوث عديدة أنجزتها في مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ولا سيما ما يتصل منها بالملكية والجباية والوقف وأوضاع المعيشة وحالة السكان.

وبالنظر إلى إشرافي على عديد الرسائل الجامعية، فقد حاولت توجيه بعض الطلبة إلى البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للجزائر في العهد العثماني، أملًا في أن يساهموا في تطوير الدراسة في القضايا المتصلة بالتاريخ الاقتصادي؛ كالديموغرافية، والصحة، والسكان، والأوقاف والجباية. وعلى الرغم من أنّ هذه الجوانب من التاريخ صعبة التناول، وأنّ إمكانات البحث فيها محدودة، وأنّ صعوبة التواصل مع المكتبات ودور الأرشيفات تزيدها تعقيدًا، فإنّ بعض الطلبة كان لهم استعداد لرفع هذا التحدي، فكانوا في صدارة الباحثين الذين أشرفت عليهم وأنجزوا أبحاثًا قيّمة في هذا الاختصاص تُبشّر بمستقبل علمي واعد لهم. يُضاف إلى ذلك أنّ ما لمست فيهم وفي غيرهم من رغبة، وجدية، وإصرار، بشأن البحث، يجعلني أنتظر منهم كثيرًا من المساهمات في مجال البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. ومن هؤلاء الطلبة الذين أصبحوا حاليًا في صدارة الباحثين في هذا المجال، نذكر - على سبيل المثال لا الحصر - الأساتذة الدكاترة: ودان بوغفالة بجامعة معسكر الذي أنجز أطروحةً متميزةً في موضوع الأوقاف، ومحمد حوتية بجامعة أدرار الذي قدّم بحوثًا قيّمةً متعلّقة بقبيلة كنته في منطقة توات والأزواد، وفلة القشاعي التي أنجزت أعمالًا علميةً جيّدةً متعلّقة بالريف القسنطيني، والنظام الضريبي بالشرق الجزائري، والوضعين الصحي والسكاني في الجزائر في العهد العثماني، ونذكر أيضًا صليحة علامة التي بحثت في الحالة الصحية لمقاطعة الجزائر في الفترة الاستعمارية.

السـؤال الثالث: ما هي نوعية المادة التاريخية التي غذّت أبحاثك؟ وما هو النص الذي اسـتأثر بانتباهك وتراه مؤسِّسًا في أعمالك؟

الإجابة: ارتبطتُ بالبحث التاريخي من خلال الدراسة الجامعية، وتوجّهتْ بحوثي نحو التاريخ الحديث، فكان جلّ اهتمامي مركّزًا في العهد العثماني، وخصوصًا ما يتصل منه بتاريخ الجزائر. وبذلك انصبّ جهدي على البحث عن المصادر الأولية والاطلاع على وثائق الأرشيف لأنّها تُشكّل المادة الخام والوسيلة المفضلة لتعرُّف واقع الأحداث وطبيعة المعاملات اليومية. وهذا ما دفعني إلى الاطلاع على الودائع العثمانية بالأرشيف الوطني الجزائري التي تتضمن دفاتر البايليك، وسجلات بيت المال، ووثائق المحاكم الشرعية المعروفة بـ "Série Z" ، والبحث في أرشيف ما وراء البحر بإيكس آن بروفانس M. O. A حيث تتوافر مادة أرشيفية متعلّقة بالجزائر في العهد العثماني. كما أنني بحثت في ودائع وزارة الحرب الفرنسية بقصر فانسان بباريس G/ Série H، A. M وفي محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بنانت (الأرشيف الدبلوماسي)، وفي الأرشيف الوطني بباريس P، A. N وأرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا C. M .A. C. كما أتاح لي السفر إلى إسطنبول زيارة الأرشيف العثماني التابع للوزارة الأولى التركية، ولا سيما الأقسام التي تضم بعض الوثائق الخاصة بالجزائر؛ مثل دفاتر الديوان الهمايوني، ودفاتر المهمّة (مهمة دفتري). وبما أنّ جلّ المادة الأرشيفية المتوافرة في هذه الأرشيفات تخص الإدارة المحلية، وتتعلق بالنشاط الاقتصادي، وتسجل كلّ ما يتصل بالأوقاف، فإنّ أغلب أعمالي تركزت في معالجة المسائل الاقتصادية والقضايا الاجتماعية، وخصوصًا منها الملكية والجباية، والمعاملات التجارية، وأوضاع الأوقاف، ومداخيل الإدارة المحلية.

وفي هذا السِّياق تجدر الإشارة إلى أنّ المادة الأرشيفية في حدّ ذاتها غير كافية لتغطية جميع جوانب البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وهو ما يتطلب الرجوع إلى الرحلات، والتقاييد الشخصية، والروايات الشفوية، بوصفها مصادر أولية قد تتوافر على ما ليس في الوثيقة الأرشيفية، وهذا ما تبيّن لي عند تحقيق بعض المخطوطات؛ من قبيل قانون أسواق مدينة الجزائر، ورحلة العالم والرحالة الألماني هابنسترايت J.E.Hebenstreit في شمال أفريقيا، وأوضاع الشرق الجزائري في القرن التاسع عشر.

كما أنّ البحث في مجال التاريخ يتطلب الاستعانة بمختلف المعارف الإنسانية التي يجد فيها الباحث نفَسًا علميًّا، فهي بالنسبة إليه ارتياد لمجهول واستكشاف صور جديدة للماضي بأبعاده الثلاثة: الزمني والنوعي والبيئي، على أنّ جهد الباحث وإن تواصل، وحياته وإن طالت، لا يمكّنانه من استكمال مشاهد الماضي الحية إلا في إطار عمل مجموعات من الباحثين، وهذا ما تفتقده وضعية البحث التاريخي حاليًّا في العالم العربي. وعلى كلّ حالٍ، فإنّ المؤرخ الأصيل والباحث المبدع لا يعولان كثيرًا على العمل ضمن مشاريع بحث مقنَّنة، لأنهما مرتبطان بمنظورهما الحضاري وأسلوبهما الخاص في البحث القائم على تكامل المعارف الإنسانية في إرصاد الحياة اليومية للأفراد وتحليل الأوضاع التي عاشتها المجتمعات.

وضمن هذا التوجه كانت مساهمات بعض المؤرخين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، بالنسبة إليّ، أعمالًا رائدةً. فهي تُقدّم نماذج موفقةً وتؤسّس كتابة تاريخ إنساني يجمع بين دقة البحث، وعُمق النظرة، وحيادية الموقف. ولعلّني محظوظٌ أنْ كنت على اتصال ببعض أصحاب هذه المساهمات بسبب الاختصاص والدراسة. من العالم العربي، أذكر منهم على سبيل المثال بعض من كانت لنا معرفة به من خلال التخصص. ومنهم الأساتذة الدكاترة: أبو القاسم سعد الله، وعبد الكريم رافق، ومحمد عدنان البخيت، وعبد العزيز الدوري، ومحمد الهادي الشريف، وعبد الجليل التميمي، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، وعبد الملك خلف التميمي ووجيه كوثراني، ومسعود ظاهر. أمّا من العالم الأوروبي، فأذكر: روبير مونتران، وبابر يوهانسن، وآندري ريمون، ودانيال بانزاك، وجيل فانشتاين، ولوسيت فالنسي، وآندري نوشي، وغيرهم.

كما كانت بعض الكتابات بالنسبة إليّ نماذج ناجحةً للسير على منوالها؛ من قبيل: الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام لكزافييه دو بلانهول Xavier de Planhol، وإسطنبول في النصف الثاني من القرن السابع عشر لروبير مونتران Robert Mantran، والتجار والتجارة في القاهرة في القرن الثامن عشر لآندري ريمون Andre Raymond، والبحر المتوسط في عهد فيليب الثاني لفرناند بروديل Fernand Braudel، والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية لخليل إينالجك Halil ınalcık.

إنّ المساهمة التاريخية المميزة لهؤلاء المؤرخين، وغيرهم من المؤرخين الذين يماثلونهم والذين لم يُتح لي إمكان التعرف إليهم ولم أتمكن من دراسة أعمالهم، تُعدّ الأرضية المؤسسة لبناء تاريخي متكامل يستجيب لتطلعات الأجيال الصاعدة من المؤرخين، وتُمكّن التاريخ من فرض حضوره الثقافي وحفظ قيمته الأكاديمية.

السـؤال الرابع: كيف تقيّم الأعمال التاريخية التي تناولت موضوع الثورة الجزائرية وقد كرّسـتَ لها بعض أعمالك؟

الإجابة: إنّ الدراسات التاريخية المتعلّقة بالثورة الجزائرية (1954 - 1962) لم تبلغ مستوًى علميًّا يسمح لها بالابتعاد عن النظرة الذاتية والحماسة الوطنية لدى الجزائريين والكتاب العرب والمسلمين، ويمكّنها من تجاوز ما كتبه الفرنسيون عنها، وذلك على الرّغم من انقضاء أكثر من نصف قرن وموت أغلبيّة من شارك فيها أو عايشها، وهو ما يؤدّي حتمًا إلى تراجع تلك الدراسات - شأنَ جميع الثورات الكبرى – إلى ذاكرة التاريخ، ويحوّلها إلى فترة رومانسية ملحمية، ويحرم الأجيال الحالية من الانتفاع بالدروس المستخلصة منها.

وإنّ الثورة الجزائرية حدثٌ جللٌ في التاريخ العربي المعاصر، وفي مسيرة شعوب العالم الثالث. فهي حصيلة التجربة التاريخية للشعب الجزائري، وإفراز للوعي الوطني الذي بثّته الحركة الوطنية في أوساط الجزائريين بجناحيها الإصلاحي ممثلًا بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجناحها الاستقلالي ممثلًا بزعامة مصالي الحاج. كما أنها بمنزلة الولادة التاريخية للدولة الجزائرية المعاصرة. فقد وحّدت

أقاليم الجزائر، وآخت بين سكانه، وأكسبتهم شعورًا وطنيًّا، وأضْفت على نظام الحكم شرعيةً تاريخيةً لا يرقى إليها الشك، وأعطت الكيان الجزائري ترابًا، وشعبًا، ووحدةً لا يمكن المساس بها.

كما كانت الثورة الجزائرية خاتمةً لتطورٍ تاريخيٍّ لهذه البلاد، بدأت ملامحه الأولى بمملكة نوميديا القديمة، وتشكّلت نواته مع الدول الإسلامية التي ظهرت بالغرب الإسلامي، من حماديين وزيانيين، واستكملت مؤسساتها وتحدَّدت حدودها وعاصمتها وعلاقاتها الدولية منذ القرن السادس عشر في إطار الرابطة العثمانية، وعاشت تحديًا حاول القضاء على كيانها الحضاري ووجودها البشري في الفترة الاستعمارية، بعد تجربة حُكم وطني على عهد الأمير عبد القادر، قبل أن يتبلور شعور وطني بسبب المقاومة ضدّ الفرنسيين وجهد الحركة الوطنية بمختلف توجهاتها. وهكذا كانت الثورة الجزائرية بمنزلة حصيلة لتجربة الشعب الجزائري التاريخية؛ فهي انتقام من حيف التاريخ، وتعبيرٌ عن تراكمٍ ثوري، وانعتاقٍ تحرري، وولادة جديدة للشعب الجزائري في إطاره العربي وبعده الإسلامي وصيرورته المغاربية.

إنّ نظرةً متفحصةً للأعمال التاريخية المتعلّقة بالثورة الجزائرية، سواء منها ما كتبه الجزائريون أو صنَّفه الفرنسيون، ظلّ مقتصرًا على تحليل جدلية الثورة الجزائرية. فهو سردٌ تاريخي، وحكايات لذكريات شخصية، وعرضٌ لمواقف أيديولوجية، وتسجيل لأحداث سياسية ووقائع حربية. وبغضّ النظر عن القيمة التاريخية والمستوى العلمي لهذه الأعمال، فإنّها تظلّ في نظري قاصرةً عن تفكيك بناء الجدلية التاريخية للثورة الجزائرية، ولم تستطع نقلها من مستوى حرب الاستقلال إلى منزلة الثورة المعبِّرة عن عبقرية الشعب الجزائري، وهو ما جعل إشعاعها التحرري محدودًا، ولم يسمح بمواصلة تراكمها الثوري.

السؤال الخامس: ما هو المؤلف الذي تعُدُّه أساسيًّا في موضوع الديموغرافية التاريخية ونسجت معه علاقات حميميةً؟

الإجابة: بالنظر إلى اهتمامي بالعلوم المساعدة للتاريخ؛ ومنها الديموغرافية والإحصاء، وبالنظر إلى توجهي إلى دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، فقد تعاملت مع المعطيات الديموغرافية والأساليب الإحصائية؛ لأنّها تعبّر عن أوضاع السكان، وأحوالهم المعيشة، ونشاطهم الاقتصادي. فهذا ما تبينتُه خصوصًا عند دراستي للحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر المعروف بدار السلطان (1792 - 1830)، انطلاقًا من الوسط الطبيعي، والوضع البشري، وشروط البيئة، ونمط الحياة، ونوعية الاقتصاد، وعلاقة السُلطة بالسكان، ومستوى التقنيات الفلاحية المستخدمة، وأهمية التبادل المحلّي، وأصناف الصناعات التقليدية، وتطور الأسعار، وواقع الدورة الإنتاجية الفلاحية، وغيرها من المعطيات.

وقبل ذلك كانت دراستي للنظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني دافعًا لاستخدام الديموغرافية والإحصاء في المسائل المتعلّقة باستخلاص الجبايات، وتحديد الأسعار، ومداخيل الخزينة، وأجور العمال والموظفين وجراياتهم. على أنّ علاقتي بالديموغرافية تظلّ محدودةً بكيفية استخدامها في التوزيع العددي والوضع المعيشي وما يرتبط بذلك من تغيرات في الإنتاج، وما تعبّر عنه من نشاط اقتصادي، ووضع صحي، وبنية اجتماعية، وتوزيع سكاني، بحسب الخدمات، والمهن، والطوائف، والامتيازات والمداخيل؛ لأنّها تُحدّد شكل المجتمع، وترصد الظواهر البشرية، وتفسر أسبابها والنتائج المترتبة عليها، وتسلّط الضوء على طبيعة العلاقات بين المدينة والريف، وبين السُلطة والسكان، وعلى مستوى المعيشة، وطريقة الحياة، ونوعية النشاط الاقتصادي.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ تجربة البحث أظهرت لي ضرورة الانتفاع بالمعارف الإنسانية التي تخدم المعرفة التاريخية، وخصوصًا المعطيات الجغرافية والمناهج الديموغرافية والإحصائية. وقد كانت بعض الدراسات رائدةً في هذا المجال؛ ما أكسبها قيمةً علميةً حقيقيةً بالنسبة

إليّ، ولعلّ أهمها ما كتبه لابروس Ernest Labrousse عن حركة الأسعار والمداخيل في فرنسا في القرن الثامن عشر[1]. وبلوك عن التاريخ الريفي Marc Bloch[2]، ولوسيت فالنسي Lucette Valensi عن الفلاحين التونسيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[3]، أو كتابات كلّ من فرناند برودال عن العالم المتوسطي على عهد الملك الإسباني فيليب الثاني[4]، وآندري نوشي André Nouschi عن مستوى معيشة سكان الريف القسنطيني عام 1915[5].

السؤال السادس: كيف تحولت من الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي إلى الاهتمام بتاريخ الموريسكيين وهجراتهم؟

الإجابة: في الواقع لم يتحوَّل اهتمامي من مسائل التاريخ الاقتصادي إلى قضايا التاريخ الموريسكي، بل كان الاهتمام بهذا التاريخ نتيجةً لتوسع اهتماماتي نحو ما يتصل بالنشاط الاقتصادي والاجتماعي في الفضاء المتوسطي؛ ما سمح لي بالتوسع في دراسة الأوقاف، ودفعني إلى الاهتمام بأوضاع الموريسكيين، انطلاقًا من دار هجرتهم بالبلاد الجزائرية والعودة إلى مواطنيهم بإسبانيا. وقد كان للتعامل مع إشكالية الموريسكيين دافعان أحدهما عاطفي والآخر علمي. فالدافع العاطفي بدأ برحلة جامعية إلى إسبانيا (عام 1965)، ومع تكرر رحلاتي إلى الأندلس. أمّا الدافع العلمي فقد فرض نفسه بسبب الحضور الموريسكي بالجزائر في العهد العثماني. ورُسِّخ في نفسي هذا الاهتمام من خلال تواصلي مع مؤتمرات الدراسات الموريسكية في عديد الأقطار، وكان لي حظّ حضور بعضها في تونس، ودمشق، والرياض، وطرطوشة، وإيكس آن بروفانس. وكانت حصيلة بحوثي العلمية في المسألة الموريسكية دراسات وترجمات عديدة، نُشر القسم الأكبر منها في كتابي دراسات أندلسية: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر[6].

ثمّ إنّ المسألة الموريسكية واقع تاريخي لا يمكن لأيّ باحث في التاريخ الحديث تجنّبه؛ لأنّ هذه المسألة إشكالية متصلة بالبعد الإنساني والقيمة الحضارية، ولأنّها خاتمة التاريخ الإسلامي للأندلس والبداية الفعلية للتوسع الأوروبي في البلاد العربية الإسلامية، فضلًا عن أنّها مسألة طمسها التاريخ، وتجاهلها الباحثون، وتناساها العرب وطمستها محاكم التفتيش. لذا ينبغي للباحثين أن يُعيدوا طرحها للبحث فيها وتسليط الضوء عليها، بوصفها مؤشرًا لعلاقة الإسبان بمنطقة المغرب العربي. كما أنها تؤسس اعترافًا متبادلًا وتسمح بتفعيل مجال البحث التاريخي في العلاقات الإسبانية العربية، وخصوصًا أنّ المجتمع الإسباني حاليًا متفتحٌ على التاريخ الإسلامي بالأندلس وأنّ ضميره الجمعي لا يرفض إعادة الأهميّة إلى هذا التاريخ، والأوضاع الآن سانحة لذلك، بعد أن تخلصت إسبانيا والبرتغال من المفهوم القومي في معالجة تاريخهما، وبعد أن توافرت الوثائق الأولية، وظهر اهتمام عامٌّ بالمسألة يشارك فيه الباحثون العرب زملاءهم الأوروبيين وخصوصًا منهم الإسبان، وانفتح مجال فسيح لطرح القضية الموريسكية وحضورها التاريخي بإسبانيا وخارجها في عديد المؤتمرات واللقاءات والندوات التاريخية. وهذا ما نحاول توضيحه في النقطة التالية من خلال عرض القضية الموريسكية من وجهة نظر إسبانية، استنادًا إلى آراء رودريغو دوساياس Rodrigo de Zayas صاحب أطروحة "إرهاب الدولة الممارس تجاه مسلمي الأندلس".

1 Ernest Labrousse, Henri Sée & Roger Picard, *Esquisse du mouvement des prix et des revenue en France au XVIIIe siècle* (Paris: Dalloz, 1932).

2 Marc Bloch, *Les caractères originaux de l'histoire rurale française* (Paris: Colin, 1924).

3 Lucette Valensi, Fellahs tunisiens: l'économie rurale et la vie des campag*nes aux 18e et 19e siècles* (Paris: Mouton, 1977).

4 Fernand BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Colin, 1949).

5 André Nouschi, *Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en 1919* (Paris: PUF, 1961).

6 (بيروت: دار الغرب الإسلامي: 2003).

السؤال السابع: في بداية التسعينيات كتب رودريغو دوساياس مؤلفًا مهمًّا عن القضية الموريسكية، ورأى أنّ إسبانيا مارست ما سُمِّي "إرهاب الدولة" تجاه مسلمي الأندلس، فما هو تقييمك لذلك؟

الإجابة: بعد أن ظلت الدراسات الموريسكية تعالج من جهة أنّها مسألة تاريخية تتطلب البحث لتعرُّف معاناة شعب استُؤصل من جذوره وطُمس من ذاكرة التاريخ – بسبب روح التعصب التي سادت العلاقات بين الإسبان والمغاربة أثناء حرب الاسترداد المسيحي وأوضاع الصراع المسيحي والإسلامي في حوض البحر المتوسط في القرنين السادس عشر والسابع عشر – وجدنا دوساياس Rodrigo de Zayas يعالج إشكالية الموريسكيين من منظور إسباني ينطلق من الضمير الجمعي للشعب الإسباني، ويُخرج التاريخ الموريسكي من خانة التهميش، والفئات الاجتماعية البعيدة من اهتمامات السُلطة المركزية إلى صميم التاريخ الإسباني، ويضع أساسًا لمصالحة تاريخية تسمح باستيعاب الوجود الموريسكي في مجال التاريخ الإسباني وتؤسس تفاهمًا حقيقيًّا وتعاملًا إيجابيًّا بين ضفتي المتوسط في شبه الجزيرة الإيبيرية وشبه جزيرة المغرب العربي.

ويُعدّ دوساياس أحد العلماء العارفين بلغات عديدة ومن ذوي المعارف الواسعة، كما يُعدّ من الأدباء المتأثرين بالنظرة الرومانسية والنزعة الإنسانية، وصاحب مكتبة رائعة بإشبيلية آثر أن يضعها تحت تصرف الباحثين، وقد وجّه إنتاجه الأدبي ومعالجاته التاريخية نحو أوضاع الموريسكيين المسلمين واليهود، وسلّط الضوء على أوضاعهم المأسوية، ولم تفُته مقارنة ذلك بوضع الفلسطينيين حاليًّا تجاه الاحتلال الإسرائيلي؛ ما جعله في طليعة الأدباء المناضلين من أجل إنصاف المظلومين وإعادة الاهتمام بهم بعد أن طمسهم التاريخ، وأُلغي وجودهم بسبب التعصب الأعمى الذي جسدته محاكم التفتيش واعتمدته الدولة الإسبانية في ذلك الوقت.

حاول دوساياس الذي ينحدر من عائلة عربية إشبيلية اعتنقت المسيحية أن يسترجع ذاته، وأن يندمج في التاريخ الأندلسي، على نحو ما يُعبّر عن ذلك كتابه ابن عربي أو معلم الحب[7]، وفرض نفسه مدافعًا عن القضية الموريسكية، ووجّه أصبع الاتهام إلى الممارسة العنصرية للدولة الإسبانية آنذاك. وقد رجع في ذلك إلى مخطوطات اقتناها من مجموعة اللورد هولند Collection du Lord Holland عام 1989، اشتملت على 87 ورقةً تضمَّنت 50 تقريرًا بشأن محاكم التفتيش بمملكة بلنسية، وهي تعود إلى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر؛ ما يجعلها بمنزلة مادة أولية يمكن استخدامها في التاريخ الموريسكي على أن تُخضَع للنقد والتصنيف، وهذا ما نجح دوساياس في تناوله؛ فمكّنه ذلك من توجيه اتهامات موثقة إلى الدوق دولارما Duc de Larma المكلف بترحيل الموريسكيين عام 1609، وعَدِّه من أكبر المجرمين في التاريخ الإسباني، ذلك أنّه شارك في تنفيذ سياسة عنصرية قضت - كما توضح الوثائق ذلك - على نحو 600.000 موريسكي كانوا يعيشون في مملكة غرناطة قبل سقوطها في يد إيزابيلا وفرديناندو الكاثوليكيين عام 1492.

إنّ معالجة دوساياس التي تلتزم الصدق والموضوعية عرضت المسألة الموريسكية من وجهة نظر أخلاقية وإنسانية، وأثبتت أنّ تقتيل الموريسكيين الذي استند إلى ممارسة عنصرية تهدف إلى تخليص الدولة الإسبانية من العناصر غير الآرية. فتلك الممارسة، إذن، تهتم بنقاء الدم أكثر من البحث عن الهراطقة Hérétiques، وترى أنّ هذا النقاء يأتي من الأجداد الذين اعتنقوا الكاثوليكية وارتبطوا بالمسيح من خلال التعميد ارتباطًا أبديًّا لا يمكن التخلص منه بحسب تعبير رودريغو، وهو ما جعل الدولة الإسبانية آنذاك تقترف

7 *Ibn'Arabi ou le maître d'amour* (Paris: Séguier, 1998).

جريمة تصفية عرقية عبْر محاكم التفتيش بوصفها مؤسسة تمارس عنصرية الدولة، وهذه الممارسة ترقى إلى مستوى الأيديولوجيات القهرية الإقصائية؛ إذ سمحت بإقرار تشريع إسباني يصبح بمقتضاه على كلّ راغب في الالتحاق بمؤسسة من مؤسسات الدولة، سواء كانت جامعةً، أو سلكًا دينيًا، أو جيشًا، أو إدارةً، إثبات أنه من سلالة مسيحية لا يرقى إليها الشك.

لقد أعادت معالجة دوساياس للمسألة الموريسكية - فضلًا عن جرأته في تجاوزت المقاربات المتحفظة للعديد من دارسي القضية الموريسكية - التاريخ الموريسكي إلى الواجهة، وسلّطت الضوء على المظالم التي أُلحقت بمسلمي إسبانيا، وأثارت نقاشًا كثيرًا في أوساط الباحثين والمهتمين بالتراث الموريسكي ومسألة تحالف الدولة الإسبانية مع الكنيسة في القرن السابع عشر، وهو أمر أثار التساؤل عن إمكان تكرر الفعل التاريخي، من قبيل قوانين حكومة فيشي أثناء الحرب العالمية الثانية التي استنسخت قرارات محاكم التفتيش في معاداتها للسامية. فكان ذلك مجالًا للدراسة استغله الباحثون في تاريخ اليهود في إسبانيا وأصبحت له مكانة، خصوصًا في الذاكرة الإسبانية، وأصبح له أيضًا حضور مُؤثّر في الحياة بإسبانيا حاليًا؛ كما يظهر ذلك بجلاء للسائح في مدن الأندلس، ولا سيما في الحي اليهودي بغرناطة وقرطبة حيث جرت المحافظة على شواهده المعمارية وذكرياته التاريخية، ولعلّ أكثرها دلالةً تمثال ابن ميمون وبيوت اليهود معرض محاكم التفتيش بقرطبة. أمّا الجانب العربي الإسلامي، فلم يجد من يهتم به، وظلّ غائبًا عن الأنظار، مكتفيًا بالبحث في التراث والبكاء على الأطلال. وبسبب الموقف العربي السلبي من المظاهر الحضرية بالأندلس واختصاره إيّاها في مظاهر شكليّة كالاستعراضات، والاحتفالات، والمهرجانات، يصطدم الباحث العربي، وخصوصًا المغاربي، بهذا الواقع ولا يجد من يساعده على وضع أسُس مدرسة موريسكية مغاربية تكون رابطةً مع إسبانيا الحديثة، وجسرَ تواصلٍ مع التراث الأندلسي، ومنطلقًا للتفاعل مع توجهات الدراسات الموريسكية التي اتسع مجالها حاليًا حتى منطقة البلقان وأميركا اللاتينية.

السؤال الثامن: أغلب كتاباتك التاريخية تتناول الفترة العثمانية، فكيف تقيّم ما يهمّ التاريخ العثماني منها؟

الإجابة: لقد كانت أغلب بحوثي التاريخية موجهةً إلى معالجة قضايا تاريخ الجزائر في العهد العثماني، وهي تؤلف أكثر من نصف مساهماتي التاريخية، وهذا ما جعل ما كتبته عن العهد العثماني جزءًا مهمًّا من حياتي وحيزًا يُعتدُّ به من اهتماماتي، بل إنّه يُمثِّل – من وجهة نظري - أفضل ما ألَّفت، ومن ذلك[8]، **والحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791 - 1830)**[9]، وعلى الرغم من التجربة الطويلة، فإنّني أرى أنني لم أعُد قادرًا على تجاوز هذين الكتابين.

وما دام الحكم في ما كتبته في التاريخ العثماني يرجع إلى القارئ ويظلّ من اختصاص الناقد والمحلل لإنتاجي، فإنني أكتفي بالقول إنّ تعاملي مع العهد العثماني منهجًا ومادةً ورؤيةً، يجعلني أرى أنّ مستقبل الدراسات العثمانية واعدٌ، وأنّ مجال هذه الدراسات فسيح ومواضيعها متعدّدة؛ سواء منها المتعلّق بالحياة السياسية أو النشاط الاقتصادي أو التفاعل الاجتماعي والثقافي. ويتطلب هذا الأمر من المهتمين بالعهد العثماني مراجعة النفس والتوقف لمعرفة الحصيلة والتفكير في استكمال ما جرى إنجازه، ليتمّ الوصول بالدراسات العثمانية إلى المستوى المأمول الذي يسمح بتشكيل مدرسة تاريخية عثمانية تستقطب جهد الباحثين العرب وتؤسس تواصلًا معرفيًا

8 (قسنطينة : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985).
9 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001).

في مجال الدراسات العثمانية. ولعل مساهمتي المتواضعة في هذا الميدان تسمح لي بالقول إنّ بداية العمل في هذا الاتجاه تفرض على الباحثين في الفترة العثمانية تكاثف الجهد وتوجيهه لتطوير الدراسات العثمانية انطلاقًا من:

- وضع دراسات تقييمية نقدية لما نُشر حتى الآن في التاريخ العثماني بالعربية وباللغات الأجنبية، سواء كانت رسائل جامعيةً، أو دراسات متخصصةً، أو مقاربات عامةً، أو آراءً شخصيةً، مع تصنيفها وتحديد قيمتها العلمية ومدى مساهمتها المعرفية.
- البحث عن المزيد من المصادر التاريخية المتعلّقة بالدراسات العثمانية، سواء كانت موادّ أثريةً، أو ودائع أرشيفيةً، أو تقارير وتقاييد ووثائق محليةً، مع وضع جداول وفهارس تُحدِّد مادتها وتُسهِّل للباحث الرجوع إليها.
- توجيه الدراسات التاريخية العثمانية نحو آفاق أوسع للبحث، ونحو ميادين حيوية - برؤية جديدة - انطلاقًا من تساؤلات الباحثين المختصين، خصوصًا ما يتصل منها بالحياة الداخلية والمشاغل اليومية، مع ضمان التواصل والتعاون من خلال الجامعات، ومراكز البحث، والهيئات العلمية.
- وضع خطة عمل طموحٍ، اعتمادًا على النقاط المذكورة سابقًا من أجل تطوير البحث، وتوسيع آفاقه، وتجاوز النقص الملاحَظ؛ من جهة تغطية الفترات التاريخية والمسائل الأساسية، والتغلب على القصور المسجل في المستوى العلمي أو المضمون التاريخي، على أن تلتزم الكتابة اللغةَ العربيةَ لتدارك تراجعها في هذا المجال الذي نجحت فيه اللغة التركية، وتدارك تقهقرها لمصلحة اللغات الأوروبية، بسبب خضوع عدد كثير من الباحثين العرب للتأثيرات الثقافية الوافدة.

السؤال التاسع: كيف أصبحت دراسة الوقف إحدى اهتماماتك البحثية؟

الإجابة: كان ذلك بسبب طبيعة وثائق الوقف التي تُشكِّل مصادر أساسيةً في دراسة تاريخ الجزائر الاقتصادي خلال العهد العثماني، مع افتقاد الوثائق المحلية وندرة التقييد والكتابات التاريخية المعاصرة المتعلّقة بتلك الفترة. ولقد لمست أهمية وثائق الوقف في وقت مُبكر بالنظر إلى تواصلي مع الباحثين المهتمين بالوثيقة الوقفية؛ ومنهم بابر يوهانسن Baber Johansen (بجامعة برلين) وآندري ريمون (بجامعة إيكس آن بروفاس)، وعبد الكريم رافق (بجامعة دمشق)، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (بجامعة القاهرة)، وعبد الجليل التميمي (بجامعة تونس). كما كان للمؤتمرات العلمية والندوات المتعلّقة بالتاريخ الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية أو الخاصة بالدراسات الوقفية، دورٌ في توجيه اهتمامي إلى دراسة الوثيقة الوقفية، وخصوصًا أنّ قسمًا كبيرًا وواسعًا من الأرشيف الجزائري وأرشيف ما وراء البحار بإيكس آن بروفانس يتعلق بوثائق الوقف. وكانت حصيلة تعاملي مع وثائق الوقف بهذه الأرشيفات إنجازي بحوثًا عديدةً نُشر أغلبها في كتابي الوقف في الجزائر أثناء القرنين 12 و13هـ/ 18 و19م: معالجة مصادره وإشكالية البحث فيه[10]، ودراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية - الفترة الحديثة[11] (الكتابان باللغة الفرنسية أيضًا)، وتمكُّني من وضع كشاف بأدبيات الوقف بالجزائر أيضًا.

وإذا كان الجهد المبذول في دراسة الوثيقة الوقفية كبيرًا، حصل الباحث على معلومات في غاية الأهمية يصعب عليه التقدم في بحثه من دونها، بل إنّها تعُدّ ضروريةً من جهة استخدامها في تغطية الفجوات والفراغات التي ظلت تحتاج إلى التوثيق. وهذا ما تبيّنته مع مواصلة البحث في قضايا الوقف مع الدكتورة راندي ديغيلام Randi degguilhem، ضمن مشاريع بحثٍ بين جامعة الجزائر وجامعة إيكس آن بروفانس في الفترة 2000 - 2004، وقد كُلِّلت بعقْد ندوة، عام 2001، متعلّقة بالوقف بجامعة الجزائر بعنوان "الوقف في الجزائر في

10 (الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع، 2013).

11 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001).

القرنين 18 و19"، وندوة علمية أخرى بجامعة إيكس في الموضوع نفسه عام 2004. وتواصل هذا الجهد بإنجاز بحوث أخرى ومواصلة التعاون في إطار مشروع بحث عن الأوقاف في العالم الإسلامي بإشراف المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا G. D. R. I/C. N. R. S، تُنشّطه مجموعة بحث دولي تشرف عليها الأستاذة ديغيلام خلال الفترة 2012 - 2015.

وكانت نتيجة هذا النشاط العلمي في مجال الوقف توجُّه مجموعة من الباحثين الجامعيين الشباب بجامعتي الجزائر وإيكس لمعالجة وثائق الوقف وربط بحوثهم بمضمونها. وبعد ذلك، زاد الاهتمام بدراسة الوقف بسبب إقبال عديد الطلبة على تحضير رسائلهم في مواضيع تتصل بالأوقاف، فتكونت مجموعة من الباحثين الجزائريين المختصين بالبحث في وثائق الوقف، والمرتبطين ببحوث لها صلة بإشكاليات الوقف. ومن بين من تعرفنا إليهم وتعاملنا معهم: ودان بوغفالة، ومعاوية سعيدوني، ومصطفى بن حموش، وزكية زهرة، وعائشة غطاس، وفاطمة الزهراء قشي، وفتيحة الوليش، وحنفي هلايلي، ونبيلة سفاج، وسامية شرقي، ومحمد طرفاني، ومحمد لمين بكراوي، ومحمد الكرداسي. وقد تدعَّم نشاط هؤلاء بظهور جيل جديد من الباحثين الجامعيين الذين يُعدّون أطاريحهم الجامعية في مواضيع تتصل بالأوقاف.

السؤال العاشر: كيف تنظر إلى آفاق البحث التاريخي في الوطن العربي؟

الإجابة: إنّ إشكالية آفاق البحث التاريخي العربي تفرض نفسها بوصفها استنتاجًا لما جرى التطرق إليه، وهي تُشكِّل - نظرًا إلى الأوضاع التي تعيشها الساحة الثقافية في البلاد العربية - همًّا بالنسبة إلى الباحث العربي. كما أنها تطرح مسألة الاستشراف في ضوء التحولات والتحديات والرهانات التي تواجه الشعوب العربية التي تُشكِّل ذاكرتها التاريخية ومخزونها الحضاري عاملًا حاسمًا في تبلور الوعي بالوجود، ومكوّنًا أساسيًا للذات، وفي تأكيد هوية الفرد وتلاحم الجماعة.

ويُعدُّ التعامل مع التاريخ في الفضاء العربي مسألةً حيويةً في محاولة مراجعة النفس، والحوار مع الذات، وتحديد التموقع في مسرح التاريخ العالمي. فإن نفينا أنفسنا في الماضي، ألغينا الحاضر، وجعلناه خيالًا للماضي، وإن اندفعنا نحو المستقبل من دون مرآة عاكسة للماضي، ألغينا أنفسنا وفقدنا ذاتنا. وهذا يفرض علينا أن نجعل التاريخ حوارًا بنَّاءً بين ذكريات الماضي وآمال المستقبل، وتواصلًا بين الإنسان العربي بمكوناته التاريخية وبيئته الخاصة ومتطلباته الضرورية.

إنّ هذه المقاربة للبحث التاريخي تتطلب الابتعاد عن التاريخ الرسمي الذي يستعمل التاريخ وسيلةً للتوجيه وأداةً للنضال، كما تتطلب الحذر من التاريخ "الملتزم" وذلك بغلق الباب أمام الأيديولوجيات والتشهير بالمؤرخين الذين لا يحسنون سوى استغلال التاريخ لأغراضهم واستخدامه لخدمة قناعاتهم، فضلًا عن الابتعاد عن التاريخ التقليدي المغلق على تراث الماضي للتفاخر به والعيش على ذكرياته، وقد أصبح أغلب المنتسبين إليه من هواة التاريخ. فباجتناب هذه التوجهات في دراسة التاريخ، تتحقّق الحرية في البحث ويعمل الفكر في تحديد رؤيتنا للتاريخ بصدق وصراحة بشأن مكونات مجتمعنا وآفاق مستقبلنا.

إنّ آفاق البحث التاريخي في المجتمعات العربية تواجهه مشاكل ناتجةً من الأزمة الحضارية التي تعصف بالذهنية العربية، وتحُول دون وصول البحث التاريخي العربي إلى مستوى المساهمة العالمية من جهة الأصالة في الطرح، والإبداع في المعالجة، والقدرة على الاستدلال، والمنطقية في العرض، والحرص على التبليغ والمحافظة على حرية الرأي. وقد أدَّى ذلك إلى تأزُّم في النفسية العربية الهاربة من واقعها المحبط نحو ذكريات أمجاد الماضي، وهذا ما جعلها قاصرةً عن الإبداع، غيرَ قادرةٍ على الوصول إلى وعي مفجِّر للطاقات يُمكِّنها من تتجاوز واقعها الراهن؛ لأنّها لم تُدرج خطابها التاريخي ضمن موروثها الحضاري، ولم تُحدِّد موقعها من عولمة المعرفة التاريخية، ولم تقُم برفض المراقبة الذاتية والموجّهة في معالجة المسائل التاريخية.

ويحتاج التعامل مع التاريخ ومجالات البحث فيه إلى المزيد من إثارة التساؤلات وطرح الإشكاليات ونقد الأساليب والمناهج، وهو يتطلب بحثًا عن الكفاءة ومزيدًا من الحرية، كما يتطلب التعمق في النقاش وتبادل الرأي، حتى يكون الخطاب التاريخي العربي مرآةً صادقةً، ولسانًا معبرًا عن هواجس الإنسان العربي واهتماماته، وخصوصيته الحضارية، ونظرته المميزة للحياة؛ فيصبح الموروث التاريخي متوافقًا مع الذات العربية في ذكرياتها التاريخية، ويتحول من إرث ثقيل يتعب الذاكرة إلى واقع حي يُنشّط الفكر ويفجّر الطاقات الذهنية المعطلة، على أنّ ذلك في نظرنا مرتبط بمسألة التوطن المعرفي في البيئات العربية، وهو أمرٌ لا يتحقّق إلا بدمج الجانب النظري والعملي في ثقافتنا التاريخية، فيصبح التاريخ نظرًا وتحقيقًا وتحليلًا، لا أخبارًا للأمم والدول وسردًا لأعمال الأشخاص.

وخلاصة القول إنّ عولمة المعرفة التاريخية التي فرضها تراكم المعارف العلمية للحضارة الإنسانية حاليًا، أوجدت فضاءً خصبًا يتجاوز الخصوصيات ولا يتوقف عند اجترار الرصيد الحضاري أو التفاخر بالعرض المظهري. فالوجود الحضاري الذي يرصد التاريخ ملامحه ويحدد عنوانه، هو في الواقع، مساهمة معرفية تهدف إلى المحافظة على الخصوصية الثقافية في إطار التنوع المعرفي والانفتاح على الآخر في جوٍّ تنافسيٍّ؛ من أجل تحقيق الذات والرقي بالمساهمة التاريخية إلى مستوى العطاء الحضاري الإنساني، وبذلك يصبح المؤرخ العربي حقًّا ابن بيئته ونتاج عصره، واللسان المعبّر عن الضمير الحي لأمّته والعين الناقدة لواقعه.

من مؤلفات الباحث

- سعيدوني، ناصر الدين. **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791 - 1830)**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001.
- ________ **دراسات أندلسية: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر**. بيروت: دار الغرب الإسلامي: 2003.
- ________ **دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية - الفترة الحديثة**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001.
- ________ **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 - 1830)**. قسنطينة : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- ________ **الوقف في الجزائر أثناء القرنين 12 و13هـ/ 18 و19م: معالجة مصادره وإشكالية البحث فيه**. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع، 2013.

كتب مؤسسة بالنسبة للباحث

- Bloch, Marc. *Les caractères originaux de l'histoire rurale française*. Paris: Colin, 1924.
- BRAUDEL, Fernand. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*. Paris: Colin, 1949.
- de Zayas, Rodrigo. *Ibn'Arabi ou le maître d'amour*. Paris: Séguier, 1998.
- Labrousse, Ernest & Sée Henri & Picard Roger. *Esquisse du mouvement des prix et des revenue en France au XVIIIe siècle*. Paris: Dalloz, 1932.
- Nouschi, André. *Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en 1919*. Paris: PUF, 1961.
- Valensi, Lucette. *Fellahs tunisiens: l'économie rurale et la vie des campagnes aux 18e et 19e siècles*. Paris: Mouton, 1977.

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات

Arab Center for Research & Policy Studies

يُعنى المركز بتشخيص الأوضاع في العالم العربيّ وتحليلها، دولًا ومجتمعاتٍ، وتحليل السّياسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، والتحليل السياسيّ. ويطرح المركز التحدّيات التي تواجه الأمّة في مستوى المواطنة والهُويّة، والتّجزئة والوحدة، والسّيادة والتبعيّة، والركود العلميّ والتكنولوجيّ، وتنمية المجتمعات والدول العربيّة والتّعاون بينها، وقضايا الوطن العربيّ بصورةٍ عامّةٍ من زاوية نظرٍ عربيّةٍ.

كما يُعنى المركز بدراسة علاقات العالم العربيّ ومجتمعاته مع محيطه المباشر في آسيا وأفريقيا، ومع السياسات الأميركيّة والأوروبيّة والآسيويّة المؤثّرة فيه، بجميع أوجهها السياسيّة والاقتصاديّة والإعلاميّة.

ويولي المركز اهتمامًا خاصًّا للنظريّات الاجتماعيّة والفكر السياسيّ ويُعنى بها عنايةً تحليليّةً ونقديّةً، وخاصّةً بإسقاطاتها المباشرة على الخطاب الأكاديميّ والسياسيّ المُوجِّه للدّراسات المختصّة بالمنطقة العربيّة ومحيطها. كما يهتم المركز بالجوانب التطبيقيّة للعلوم الاجتماعيّة، مثل علم الاجتماع والاقتصاد والدّراسات الثقافيّة والعلوم السياسيّة.

ينتج المركز أبحاثًا ودراساتٍ وتقاريرَ، ويدير عدّة برامجَ مختصّةٍ، ويعقد مؤتمراتٍ وورش عملٍ وتدريبٍ، وندواتٍ موجّهةً للمختصّين والرّأي العامّ العربيّ. وينشر المركز إصداراته باللّغتين العربيّة والإنكليزية ليتسنّى للباحثين من الناطقين بغير اللغة العربيّة الاطّلاع عليها.

يسعى المركز، من خلال نشاطه العلميّ البحثيّ، إلى خلق تواصلٍ بين المثقّفين والمختصين العرب في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة بصورةٍ عامّةٍ، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم وأمّتهم، وبينهم وبين المراكز الفكريّة والبحثيّة العربيّة والعالميّة في عمليّة البحث والنّقد وتطوير الأدوات المعرفيّة والمفاهيم وآليّات التراكم المعرفيّ. ويسعى المركز كذلك لبلورة قضايا المجتمعات العربيّة التي تتطلّب المزيد من الأبحاث والمعالجات والتأثير في المجتمع.

دعوة للكتابة

تدعــو دورية "أُسطـــور" الأكاديميين والباحثين وســائر الكتّــاب المهتمين بالبحث التاريخــي -المنفتح عن منهجيــات العلــوم الأخرى ومقارباتهــا بما فيها مقاربات العلــوم الدقيقة- إلى الكتابــة في صفحاتها. تقبــل الدورية الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية، وتفتح صفحاتها أيضًا لمراجعات الكتب ونشر النصوص والوثائق الدفينة. تخضع كل المواد التي تصل إلى "أُسطـــور" لتحكيم أكاديميين مختصين. ولذلــك تتوخّى الدورية التزام المعايــير الدوليّة المتعارف عليها. ويضمن هذا الالتــزام تراكمًا علميًا جادًا وجودة المادة التي تصل إلى القراء. تهدف هذه الدورية إلى أن تكون طيّعة الفهم لدى المختصين وغير المختصين من القراء دون التضحيةِ برصانة المضمون.

ترسل كل الأوراق الموجهة إلى النشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالمجلة
ostour@dohainstitute.org

قسيمة الاشتراك

OSTOUR أُسطور

الاسم ....

العنوان البريدي ....

البريد الإلكتروني ....

عدد النسخ المطلوبة ....

طريقة الدفع ☐ تحويل بنكي ☐ شيك لأمر المركز

شروط النشر

تنشر "أسطور" البحوث الأصيلة (لم يسبق نشرها جزئيًا أو كليًا) التي تعتمد الأصول العلمية المتعارف عليها.

تقدم البحوث باللغة العربية وفق شروط النشر في المجلة. يراوح حجم البحث بين 6000 و 9000 كلمة، بما فيها المراجع والجداول. وتحتفظ هيئة التحرير بحقها في قبول بعض الأوراق التي تتجاوز هذا الحجم في حالات استثنائية.

عروض الكتب من 2000 إلى 3000 كلمة، وتقبل المجلة مراجعات أطول إن كانت دراسات نقديةً، على ألا يمرّ على صدور الكتاب أكثر من ثلاث سنوات.

تخضع المواد المرسلة كلها، لتقييم محكّمين من ذوي الاختصاص والخبرة وقراءتها. وفي حال قبولها ترسل الملاحظات المقترحة للكاتب لتعديل ورقته في ضوئها، قبل تسليمها للتحرير النهائي.

يرفق البحث بسيرةٍ ذاتية موجزة للكاتب، وملخص للبحث بنحو 200 - 250 كلمة باللغتين العربية والإنكليزية، إضافةً إلى كلمات مفتاحية.

في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول ، ينبغي إرسالها بالطريقة التي نُفِّذت بها في الأصل، بحسب برنامجَي : إكسل أو وورد. ولا تُقبل الأشكال والرسوم والجداول التي ترسل في هيئة صور.

الاشتراكات السنوية

(عددان في السنة بما في ذلك أجور البريد المسجل)

للأفراد:

- 20 دولارًا في لبنان.
- 30 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
- 50 دولارًا في أوروبا.
- 60 دولارًا في القارة الأميركية.

للمؤسسات:

- 30 دولارًا في لبنان.
- 40 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
- 60 دولارًا في أوروبا.
- 80 دولارًا في القارة الأميركية.

عنوان الاشتراكات:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIESS

جادة الجنرال فؤاد شهاب - بناية الصيفي 174 - مار مارون

ص.ب: 11 - 4965 رياض الصلح 2180 1107 بيروت - لبنان

هاتف: +961 1 991837/8/9

فاكس: +961 1 991839

بريد إلكتروني:org.dohainstitute@distribution

عنوان التحويل البنكي:

Beneficiary: ARAB CENTER FOR RESEARCH AND POLICY STUDIES
Bank: SOCIETE GENERALE DE BANQUE AU LIBAN SAL
Branch: MAZRAA - AL MAMA STREET - SGBL BLDG.
BEIRUT - LEBANON
Swift: SGLILBBX
IBAN: LB63 0019 0001 1004 3696 6650 4023
Account No.: 011 004 369 666504 023